فلسطيني بلا هوية: صلاح خلف

(1) بذور الحقد

سيظل يوم 13 أيار (مايو) محفورا في ذاكرتي إلى الأبد. ففي هذا اليوم وقبيل إعلان دولة إسرائيل بأربع وعشرين ساعة، فرت عائلتي من يافا لتلجأ إلى غزة، فقد كنا محاصرين: كانت القوات الصهيونية تسيطر على كافة الطرق المؤدي إلى الجنوب، ولم يكن لدينا من وسيلة أخرى للنجاة بأنفسنا إلا طريق البحر. وكان أن أقلعنا، والدي وأشقائي وشقيقاتي الأربعة وعديدون آخرون من عائلتنا، في ما يشبه أن يكون مركبا تحت وابل من القذائف التي كانت تطلقها المدفعية اليهودية المتمركزة في التجمعات المجاورة ولاسيما في تل أبيب.

ولقد سلك مئات الآلاف من الفلسطينيين طريق المنفى في ظروف مأساوية في الغالب، فأما أنا الذي لم أكن بلعت سن الخامسة عشر بعد، فإن الرحيل اتخذ بالنسبة إلي أبعاد يوم الحشر.

فقد أخذني مشهد تلك الحشود من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال الرازحين تحت ثقل الحقائب أو الصرر، متجهين بشق الأنفس نحو أرصفة مساء يافا في عجيج كئيب، وكانت تتخلل صرخات البعض وندب وانتحاب البعض الآخر، انفجارات تصم الآذان.

ولم يكد المركب يرفع مراسيه، حتى سمعنا عويل امرأة، فقد لاحظت أن أحد أطفالها الأربعة لم يكن على المركب، وراح تطلب العودة إلى المرفأ للبحث عنه. إلا أنه كان من الصعب علينا، ونحن نتعرض لنيران المدافع اليهودية الغزيرة أن نعود أدراجنا فنعرض للخطر حياة ما بين مائتين وثلاثمائة شخص بينهم العديد من الأطفال المتراكمين في المركب. ولقد ذهبت توسلات تلك المرأة الباسلة سدى فانهارت باكية، وكنا بضعة أشخاص نحاول تهدئتها مؤكدين لها أنه سيتم إيواء ابنها الصغير بالتأكيد ثم يرسلونه في وقت لاحق إلى غزة. ولكن عبثا، إذ راح قنوطها يتزايد برغم مقالاتنا، وبرغم تطمينات زوجها. ثم إذا بأعصابها تخور فجأة: فتتخطى درابزين المركب وتلقي بنفسها في البحر. وأما زوجها الذي لم يفلح في الإمساك بها، فقد غاطس بدوره، ولم يكن أي منهما يحسن العوم فابتلعتهما الأمواج الهائجة أمام نواظرنا، وأما المسافرون الذين أخذهم الروح فكانوا كمن ضربه الشلل.

ولماذا غادرنا دورنا وأرزاقنا ورمينا بأنفسنا في مغامرة المنفى.. أني لم أكن . وأنا الذي يوقر السلطة الأبوية . لأطرح المسألة على نفسي في ذلك الحين حتى مجرد طرح. سيما وأني كنت مقتنعا، شأن ذوي، بأنه ليس أمامنا سبيل آخر للإفلات من الموت. فمجزرة دير ياسين وقعت قبيل ذلك بشهر، وزرعت الرعب في نفوس أبناء وطني. ففي 9 نيسان (أبريل) قامت

حركة مناحيم بيغن، الأرغون في ليئومي (المنظمة العسكرية القومية) بمهاجمة هذه القرية الوادعة الواقعة غربي القدس وأبادت معظم سكانها: فقتل أكثر من 250 رجلا وامرأة وطفلا لا مدافع عنهم، أو ذبحوا أو دفنوا أحياء، ومثل بالعديد من الجثث بالسلاح الأبيض وبقرت بطون ثلاثين امرأة حاملا.

لم يكن لدينا أي سبب يدفعنا للشك بصدق المذبحة الهمجية التي سيؤكدها السيد جاك رينير، ممثل الصليب الأحمر الدولي، أثر استقصاء قام به شخصيا في دير ياسين، فبشاعة التفاصيل التي نقلها، تذكر بالفظاعات التي ارتكبها النازيون في أوروبا المحتلة. كانت يافا كدير ياسين، تحت رحمة القوات الصهيونية التي تسيطر بالكامل على المنطقة الواقعة خلف تجمعنا. أما الغاغاناه وهي جيش الوكالة اليهودية «الرسمي» فكانت تنسق نشاطاتها تنسيقا وثيقا مع نشاطات «الخوارج» من أمثال مناحيم بغين. وشنت في أول نيسان (أبريل) 1948 هجوما حسب الأصول بغرض تصفية «الجيوب» العربية داخل الإقليم الذي رسم له أن يكون الدولة اليهودية. فكان يجرى تحذير الأهالي في كل مرة بأنهم سيلقون مصير دير ياسين إذا لم يخلوا الأمكنة.

ثم أن خبر الإبادة الجماعية اندلع اندلاع نار البارود في يافا، شأنه في بقية البلاد. لا بل أن وسائل الإعلام الصهيونية التي كانت تسعى إلى إرهاب العرب زادته إذكاء وتضخيما، وكذلك . والحق أحق أن يقال . فعل المحرضون الفلسطينيون الذين حسبوا أنهم يعبئون بذلك الأهالي، فكانوا على سبيل المثال، يؤكدون على اغتصاب النساء في دير ياسين من قبل المهاجمين الصهاينة قبل أن يدعوا الفلسطينيين إلى الدفاع عن أثمن ما لديهم، عنيت عن أعراض زوجاتهم وبناتهم. إلا أن إستراتيجيتهم هذه أثارت في أغلب الحالات تأثراً عكسياً في هذا المجتمع الذي كان لا يزال مجتمعاً تقليدياً للغاية، وعلى هذا فكثيراً ما كنت اسمع الناس تقول في وسطي «العرض قبل الأرض» وأن أول الأولويات هو أن تقي نسوتنا تمن اعتداء العسكر الصهيوني. وكان مما يجعل عزم غالبية سكان يافا . المئة ألف . على السعي وراء ضمان ملتجأ مؤقت أكثر تبريراً وتسويغاً، هو تمتع اليهود بتفوق عسكري ساحق. فقد كانوا بالتالي متقدمين على الفلسطينيين، ثم أن الخوف استولى على الأهالي حين أعلنت بريطانيا العظمى في نهاية عام 1947م، أنها تخلت عن الانتداب على فلسطين وأنها ستسحب قواتها منها 15 أيار 1948 فلم يبق في وسعنا الاعتماد على حماية الجيوش البريطانية حتى ولو كانت لحماية مشكوكاً فيها أصلاً. ثم استبد الرعب بيافا شرعت القوات الصهيونية، بعد مجزرة دير ياسين, بدك المدينة المستهدفة على نحو خاص المرفأ وأحياء الأعمال. وكان في حسبان الناس أن خنق المدينة

اقتصادياً هو مقدمة لغزوها ومن ثم ارتكاب مذابح فظيعة بدون أدنى ريب.ولو قيل لي أبدان سني حادثني أن اليهود سيطردوننا ذات يوم من وطننا لكنت أول الناس استغراباً بكل استنكاراً، ذلك أنه كانت تصل أفراد عائلتي أفضل العلاقات باليهود، وكان لهم الكثير من الأصدقاء فيما بينهم. فجدا الشيخ عبد الله وهو رجل دين من غزة، ربي أطفاله بروح متسامحة، وقد تزوج أحد أبنائه من يهودية كما لم يكن من النادر أن اسمع من يفوقونني سنا يذكرون اتصال حبل الغرام أو انقطاعه بين هذا القريب أو ذاك من ذوي قرابتنا وبين فتاة يهودية.

كان والدي يتحدث العبرية التي تعلمها عبر ممارسته اليومية بطلاقة ففي عام 1920 غادر غزة التي تعاقب فيها عشرة أجيال من عائلته، ليقيم في حي بمواجهة البحر في يافا يدعى «الحمام المحروق» وإذ عمل بادئا كموظف في السجل العقاري، فإنه أتيح له أن يتألف مع الأهالي اليهود. وعندما استقال من الوظيفة العامة عام 1940 افتتح بقالة متواضعة في الكرمل، الحي المختلط القريب من تل أبيب، وكان الموردون له شأن زبائنه، يهودا في نصفهم، يقدرونه ويقيمون علاقات ممتازة معه. ووفقا للتقاليد في هذا الجزء من العالم فإن أهلي كانوا يتبادلون الزيارات الودية مع جيرانهم وأصدقائهم اليهود بمناسبة الأعياد الإسرائيلية والإسلامية.

وفي ساعة الغداء، ثم لدى مغادرة الصفوف الدراسية بعد الظهر، كنا، شقيقي عبد الله الذي يكبرني بثلاث سنوات وأنا، نذهب إلى محل البقالة لنتيح لوالدنا أن يرتاح بضع ساعات. وإنما تعلمت تدبر أمر نفسي باللغة العبرية عبر خدمة الزبائن اليهود. وبرغم أني كنت أرتاد مدرسة موقوفة على العرب هي مدرسة المروانية، فإني عقدت صداقات عديدة مع طلاب المؤسسات اليهودية الذين كنت أتحدث إليهم بالعبرية أو بالعربية بلا فرق، ولما كان أصدقائي في معظم مولودين في فلسطين أو متحدرين من عائلات تعود أصولها إلى البلدان العربية، وإلى اليمين بخاصة فقد كانوا يتكلمون لغتي بأفضل مما أتكلم أنا لغتهم. كانت أذواقنا هي أذواق الأطفال في سننا، ولا زلت أذكر بوضوح ألعابنا في ساحة تل أبيب ونزهاتنا الطويلة التي كنا نتحدث خلالها عن كل شيء إلا عن المشكلة التي لن تلبث أن تلقي بنا في معسكرين متناحرين. ولقد وعيت النزاع الصهيوني . العربي قبيل نهاية الحرب العالمية الأخيرة وأنا ذاهب ذات يوم لزيارة أقارب حميمين لي في العميل، وهي بلدة عربية تقع في منطقة تل أبيب، فعلى منعطف الطريق، شاهدت من بعيد شبابا على رابية يتدربون على استخدام السلاح، وحين انقضت صدمة الوهلة الأولى، لاحظت وأنا مأخوذ، صبيانا وبناتنا تتراوح أعمارهم بين 16 و25 سنة تقريبا. وهم يستجيبون لأوامر تعطى لهم بالعبرية، ويقومون بتمارين مختلفة بانضباط كامل، وكان في المشهد ما يقلق ويؤثر في الطفل ذي الأحد عشر عاما الذي كنته، إذ لماذا يستعد هؤلاء الأحداث اليهود

للحرب..؟ ومن تراهم سيقاتلون...؟ وإلى أية تشكيلة ينتمون..؟ وأجابني أجحد أساتذة مدرستي «إلى الهاغاناه» وكانت تلك أول مرة أسمع فيها اسم جيش الوكالة اليهودية «الرسمي» والمرة الأولى أيضا التي أفهم فيها أننا ماضون نحو الصدام.

كان هناك منظمة فلسطينية شبه عسكرية قد ولدت حديثا في تلك الحقبة، لمقاومة الهاغاناه، وهي النجادة التي كان يقودها محمد الهواري والذي كان مدير مدرستي، رشاد الدباغ، أحد أعضائها المؤسسين فشجعني على الانتساب إلى فرع الأحداث أو «الأشبال» فيها. وهكذا، فقد بدأت مع بعض رفاقي حياتنا النضالية. كان بعض أساتذتنا يجهدون في تزويدنا بأعداد سياسي، فيحدثوننا عن تاريخ فلسطين وعن وعد بلفور وعن الاستيطان الصهيوني وعن الثورة الشعبية في سنوات 1936 . 1939 ويقولون لنا أن واجبنا هو أن نتابع الكفاح لكي تستقل فلسطين بنفس الطريقة التي استقلت بها بقية الدول العربية في المنطقة. وبدأت الاهتمام بالمشاكل التي كانت تثير الرأي العام حينذاك أي بمطالبة الصهاينة بالحق في الهجرة غير المحدودة وبشرائهم الكثيف للأراضي العربية، وبدفق الأسلحة التي كانوا يتلقونها من الخارج بالتواطؤ الفعال أو السلبي من قبل السلطات البريطانية.

إلا أن انهيار قوات المحور، الذي سرعان ما أفضى إلى معاودة أثارة القضية الفلسطينية، وضع نهاية للصداقة الجميلة التي كانت تربطنا برفاقنا اليهود.

وقد استمرينا في التعاشر، سرا أحيانا، برغم النصائح التي كنا نتلقاها، نحن وهم، ممن يفوقوننا سنا، إلا أن نقاشاتنا المشبوبة كانت تتخذ شكل المناظرة العنيفة أحيانا.

وثمة حدث كان على قدر خاص من الصعوبة، ولا زلت أذكره جيدا، جرى لي في تشرين الأول (أكتوبر) 1945. فقد جرى تبادل كلام حاد بيننا وبين بعض من رفاقنا اليهود، وكنا نحوا من عشرين صبيا من كلا الجانبين . تحول إلى معركة مواجهة تقاتلنا خلالها بالحجارة. وإذا تثني الحادث، فإنني قررت في الغداة أن أزور عائلتي في العميل. كان أبي قد قدم لي عجلة فكنت سعيدا وفخورا باستخدامها لقطع الكيلومترات العشرة من الطريق. بينما كنت اجتاز تل أبيب لأبلغ العميل، إذ بأربعة أو خمسة صبيان أكبر مني بقليل، يسارعون بغتة إلى مطاردتي، وهم يتهاجون بصورة بادية ويصرخون بأعلى صوتهم «عربيت عربيت» (أي عربي بالعبرية) ثم لحقوا بي وطرحوني أرضا وشرعوا يكيلون لي الضربات على وجهي وبطني وكهري. ولما لم يكن قد سبق لي أن شاهدت مهاجمي هؤلاء قبلا، فإني لم أعرف سبب احتدامهم الشرس هذا.

ووجدتني مأخوذا ومرعوبا وغير قادر على الدفاع عن نفسي، ولكني لم أبدأ الولولة إلا حين رأيت اثنين منهم ينكبان على عجلتي بضراوة لتحطيمها. ثم أسرع اثنان من المارة لتخليصي

من أيدي المعتدين الذين افلحوا في الفرار. وساعدني أحد المنقذين وهو رجل مسن، في النهوض وقادني إلى صيدلية قريبة لتضميد جروحي.

باتت عجلتي لا تصلح لأي استعمال، فتركتها وأنا كسير الفؤاد على قارعة الطريق وركبت الأوتوبيس إلى يافا, حيث عدت إلى البيت وأنا لا ألوى على شيء. وإذا كنت متألماً يستنفذني الامتحان الذي تعرضت له فإني سريعاً ما نمت. وبعد ذلك بساعات, أيقظتنا في منصف الليل طرقات آمرة على الباب. وإزاء تساؤل والدي القلق, فقد أجابنا صوت جهير:«بوليس», كان منزلنا مؤلفاً من ثلاث غرف يتراكم فيها أفراد عائلتنا السبعة, مما يجعله أضيق من أن يستقبل العشرة شرطيين عرب وحفنة الضباط الذين كانوا في معظمهم إنكليز والذين كنا نستطيع تمييزهم عبر إطار الباب. وتقدم أحدهم من والدي ومد إليه بمذكرة توقيف بحقي. فكان من المطلوب أن أتبعه إلى مقر دوائر الأمن العام لأجل الاستجواب. ولم يسبق لأفراد عائلتي أن تنازعوا مع البوليس أبداً. كان أبي دقيقاً في نزاهته, محترماً للقوانين السارية وتأبى عليه النخوة كما يفهمها أن يرتكب أية مخالفة, ولهذا فإنه كان في مجرد اقتحام قنوات الأمن لمنزلنا في ساعة متأخرة بحد ذاته, ما يصدمه, إذ ما ترى الجيران قائلين...!؟ وأية جريمة ارتكبت أنا لا ستحق مثل هذا العرض للقوات..!؟

ولكأني أنظر إليه الآن وهو كمد يطرح الأسئلة على الضابط فيجيبه بجفاء بأنه لا يعلم شيئاً. ولقد تعرفنا جميعنا على محدث أبي. إنه الحباب. الذي كان يرغم انتمائه إلى المخابرات « السرية». معروفاً تماماً في يافا. فهو فلسطيني ومدافع مطواع عن السلطة الاستعمارية. وكان مكلفاً من قبل رؤسائه الإنكليز بمكافحة «التخريب». فكان الناس يخشونه ويحتقرونه في آن معاً, ذلك أنه كان يبذل كل الحماس في مراقبة مواطنيه وفي قمع كل ما قد يؤدي إلى اضطراب الأمن قمعاً لئيماً شرساً. واحتج أبي بحداثة سني, وصاح «إنكم لا تستطيعون اقتياد طفل في الثانية عشرة من عمره في هزيع الليل..» إني أعدكم بأن اقتاده إلى مكتبكم في الساعة الأولى من صباح غد. إني أعلم أن ابني بريء, وأتوسل إليكم أن تصبروا... «إلا أن الحباب بقي جامداً.

فهو لن يغادر المكان بدوني» وأخيراً وافق على أن يرافقني والدي. وبدأ الاستجواب فور وصولنا إلى مقر الأمن العام. وسرعان ما سألني الحباب وهو جالس وراء مكتبه من مصدر الكدمات الظاهرة على وجهي. وما أن أنهيت سرد ما وقع لي في تل أبيب حتى وصفني بالكذاب, ثم, إذا بشرطي يدخل علينا وهو يلبس ثياباً مدنية, فيتهمني يطعن حدث يهودي في قدمه خلال مشاجرة حدثت في اليوم ذاته في يافا. فأوضحت له أنه لا يمكنني أن أكون القائم بهذا الاعتداء لآني كنت أنا نفسي لحظة ذاك, أتعرض لهجوم في تل أبيب. وعند ذاك أدخل

الحباب إلى المكتب اثنين من رفاقي اليهود ممن كنت أعدهم بين أصدقائي الحميمين. فوافقاً بتأكيد على رواية الشرطي مضيفين أنني كنت رئيس العصابة التي هاجمت فريق الطلاب اليهود.

كنت مذهولاً ومخنقاً من موقفهما الظالم تماماً, وحين سألتهما عما إذا كانا شاهداني بأم أعينها اشترك في الشجار... أجابا نعم. ولم تنفعني احتياجاتي بشيء لأني لم أكن أستطيع تقديم شهود مضادين. وعندما أنهيت المواجهة. طرد أبي. الذي كان لا يصر إعادتي على البيت بقوة السلاح. كنت مهاناً عاجزاً , أصر أسناني والدموع في عيني وبعض الزعماء يدفعون أبي بشراسة بينما كان يصيح بأني بريء ويناشد الحباب العدل. ثم حبست في زنزانة معدة للأحداث من الجانحين, فلم أستطع أن أغمض عيني بقية الليل.

وفي صبيحة اليوم التالي, حاول الحباب أن ينتزع مني اعترافاً, فراح يضربني بمسطرة على أصابعي, ثم إن سكوتي الذي تأوله هو عجرفة, كلفني مضاعفة الضربات. وفي النهاية قال لي: «إنك لا تريد أن تعترف... حسناً سوف تحال على المحكمة». ثم اقتدت تحت الحراسة إلى طابق الأحداث.

وهناك طرح علي رئيس المحكمة وهو انكليزي يتكلم عربية ركيكة, بعض الأسئلة. فأعدت مرة أخرى سرد ما ألم بي, إلا أن ذلك لم يترك في نفسه ببديهة الحال أي تأثير. ثم اقتدت مجدداً إلى طابق الحباب الذي أبقاني واقفاً عشر ساعات إلى أن أبلغني في ساعة متقدمة من الليل وبحضور والدي نص الحكم. إنه حكم بالأدلة وبإبقائي ستة في الإقامة تحت المراقبة, يكون علي خلالها أن أكفر عن سيرتي السابقة, وأقوم, في جملة ما أقوم به بالمثول مرة في الأسبوع أمام الحباب لأقدم له تقريراً عن حركاتي وسكناتي. ولأول مرة في حياتي استشعر الإحباط والحقد. الحقد على الإنكليز الذين يقهرون شعبي, والحقد على من وضعوا أنفسهم من مواطني في خدمتهم, والحقد على الصهيونية التي حفرت هوة بين الفلسطينيين واليهود. غير أن اليأس الذي استشعرته أثر الظلم الذي لاقيته, جرى التعويض عليه جزئياً بالعطف الذي أظهره محيطي لي, حيث كنت أعتبر بطلاً بأكثر مما كنت اعتبر ضحية. أفلم أصمد في وجه المتعسفين وجهازهم القمعي..؟ وسرعان ما منحني مدير المدرسة رشاد الدباغ عطلة لمدة أسبوع لا تعافى من جراحي ومن تجربتي المؤذية. وحين عدت إلى الصف احتفى بي رفاقي, ثم أصبحت, وأكثر من أي وقت مضى, الرئيس غير المنازع بين «أشبال النجادة».

فأما أهلي، فأنه بدا لي أن حنوهم علي قد تعاظم. وقليلا ما علق أبي على الامتحان الذي تعرضنا له سوية، إلا أني كنت أعرف عمق وطنيته، فكنت أعلم أن في وسعي الاعتماد

على مناصرته، فقد وافق، بشأن والدتي، على انتسابي للنجادة، برغم أنه هو لم يكن عضوا في أية منظمة عسكرية أو سياسية ومع هذا فإنه كان يتصرف في الأشهر التي تلقت توقيفي بصورة غريبة، فقد لاحظنا، أخي عبد الله وأنا، بأنه يقفل بالمفتاح أحدى الخزانات فلا يستطيع فتحها أحد سواه، وكان يعتزل من حين إلى آخر في أحدى غرفنا منزلنا التي توجد فيها هذه الخزانة بالذات.؟ ثم يخرج منها بدون أن ينبس بكلمة. فقررنا ذات يوم، بعد أن أثار ذلك فضولنا، أن نراقبه من ثقب الباب. وكم كانت دهشتنا حين رأيناه يتجه نحو الخزانة ويخرج منها رشاشا بديعا.

فأبي، الذي كان على ما هو عليه من الرقة والوداعة، كان يزيل الشحم عن سلاحه وينظفه بدقة ويربت عليه بعطف، كان السلاح باهظ الثمن بالنسبة لحانوتي مدك والدي، وحسبنا أنه لا بد أن يكون بالتأكيد مقاتلا تابعا لتشكيل سري. غير أن الحقيقة لم تكن تطابق توهماتنا فبعد ذلك بسنة، أي في مطلق عام 1947، وعندما جرؤنا أخيرا على أن نعترف بسر فضولنا، فإن والدي باح لنا بأنه اشترى رشاشه بماله الخاص. فليس من المستبعد، كما قال لنا، من أن يسحب الانكليز جيوشهم من فلسطين، فينبغي لنا إذ ذاك نكون مستعدين للدفاع عن أنفسنا ضد اليهود الذين يتسلحون إلى أبعد حد. ثم أن غالبية سكان الأحياء العربية في يافا الواقعة على مقربة من التجمعات اليهودية فعلت الأمر نفسه. ولما لم يكن في وسعهم الاعتماد في دفاعهم على أحد، فإنهم بدأوا يترقبون بخشية اليوم الذي يصيرون فيه تحت رحمة المقاتلين الصهاينة.

أما المنظمات الفلسطينية فكانون يعوزها السلاح أعوازا قاسيا. فمنظمة الجادة التي كنت أنتمي إليها، كانت تدرب أعضاءها باستخدام البنادق الخشبية وهكذا فإنه لم تتح لي مطلقا فرصة أن ألامس أو حتى أن أرى سلاحا حقيقيا، غير ذلك الذي رأيته بين يدي والدي، فكان قوام تدريبنا هو التمارين البدنية والمحاضرات النظرية على فن حرب العصابات التي كان يلقيها علينا العسكريون القدامى الذين قاتلوا في الحرب العالمية الثانية في صفوف الجيش البريطاني. ولم يكن للحركة الوطنية الفلسطينية أي وجود منظم، فانهيار الثورة الشعبية لأعوام 36-1939 الدامية أباد صفوفها وبعثر الأحياء من قادتها، فكانوا في معظمهم حبساء في سجون الانكليز أو مكرهين على المنفى. وفي تلك الفترة سمعت كثيرا بالحاج أمين الحسيني مفتي القدس وزعيم الحركة الفلسطينية، ولكني كنت أعلم القليل عنه، اللهم إلا نفوره من النجادة التي كانت تزعم أنها تريد الحفاظ على استقلاليتها الكاملة إزاء «الرؤساء التاريخيين» وإنما أتذكر فقط عودة جمال الحسيني ابن عم المفتي، من المنفى، والاجتماع الشعبي الكبير الذي حشد على شرفه في ساحة الساعة بيافا، كنت أحد آلاف المتظاهرين الذين يصيحون معربين عن إرادتهم بالكفاح من أجل فلسطين عربية ومستقلة.

كان جمال الحسيني أحد الرؤساء المستورين لأحدى المنظمات الفلسطينية العديدة التي كانت قائمة حينذاك، ألا وهي منظمة الفتوة، وبعيد مرور بيافا بدأت المحاولات الرامية لتشجيع دمج الفتوة بالنجادة. وأوفدت الجامعة العربية لهذا الغرض ضابطا مصريا يدعى محمود لبيب، اشتهر بروابطه بالإخوان المسلمين، ومع أن مهمته كانت شاقة إلا أنها تكللت بالنجاح . ظاهرا على الأقل . ذلك أن الفصيلين اندمجا في تشكيل جديد اتخذ اسم «منظمة الشباب» إلا أن هذه العملية بدلا من أن تزود الحركة بدفعة جديدة، فإنها أغرقت مناضلين المنظمتين الموحدتين توحيدا اصطناعيا، في الفوضى ثم أصابتهم بالتالي بالشلل. فقد أوقف زعيم النجادة محمد الهواري كل نشاط تعبيرا عن احتجاجه ضد هذا المشروع الذي كان يعارضه حتى من حيث المبدأ ثم أن الهواري أسهم، وهو الخطيب المصقع والقائد الموهوب، والقومي المتقد، في تثبيط عدد من المعجبين به ومن محاربيه عندما انزلق من السلبية إلى التعاون مع العدو واضعا نفسا في خدمة إسرائيل منذ احتلال القوات الصهيونية ليافا. وأما «منظمة الشباب» فقد ماتت رغم أنفها في ذات الحقبة؟. ويقيني أن الإنكليز ليسوا غرباء عن إجهاض هذا المشروع. فقد كانوا يعملون، بين جملة ما يعملونه، بواسطة عملائهم داخل الجامعة العربية فلا يتوقفون عن الدسيسة والكيد لإضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية، أن بإثارة الانقسامات داخلها، وأن بجعلها غير فاعلة، كما حدث في حالة تحييد النجادة والفتوة. كان الفلسطينيون مجمعين على المطالبة بإنهاء الانتداب البريطاني وبإيصال بلدهم إلى وضع الدولة الكاملة السيادة. وإذ ذاك فإن السلطات الاستعمارية ضاعفت الإجراءات والمبادرات من أجل تبرير وتمديد وجود سلطانهم ومن أجل هذا فإنه كان لا بد لها أن ترى الانشقاقات في فلسطين وأن تفاقم موجودة اليهود والعرب وأن تثير المواجهات المسلحة بينهم عند اقتضاء الحاجة. وفي بربيع عام 1946، ألغت حكومة لندن ضمنا كافة أحكام وتدابير «الكتاب الأبيض» لعام 1939 عندما أذنت بقبول 100.000 مهاجر يهودي إلى فلسطين وبشراء الصهاينة للأراضي العربية. معلنة أن بريطانيا العظمى ستستمر في ممارسة انتدابها على فلسطين طالما ظلت الظروف لا تسمح ببلوغ هذا البلد الاستقلال.

وفي بداية عام 1947 شاهدت بأم عيني كيف أن الإنكليز يسعون وراء جعل حضورهم أمرا لا غنى عنه، والبرهنة على أن انسحابهم سيفضي إلى حمام دم في فلسطين. فقد لاحظنا . رفاقي وأنا . وفي عدة مناسبات دبابة خفيفة ترابط في يافا وتطلق النار على الأحياء اليهودية في تل أبيب. وعندها ظن اليهود أن العرب فتحوا النار عليهم فردوا بالمثل. ثم أن الإنكليز قاموا بالعملية ذاتها وبوجهة معاكسة مطلقين النار من تل أبيب على يافا. وهكذا فقد راحت المناوشات،

ثم المعارك من بعد، تتضاعف بين فريقي السكان، وذلك حتى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها عندما لاحظت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن التعايش بنيهما بات غير ممكن فقررت تقسيم فلسطين إلى دولتين.

وقد اتخذت السلطات الاستعمارية موقفا واضح الانحياز لصالح الصهاينة لترجيح الغالبة التي تتمتع بها الأكثرية العربية. فبينما كانت تمارس على العرب قمعا لا رأفة فيه، فإنها كانت تعامل الإرهابيين اليهود، برغم قيامهم بجرائم في وظيفة ضد الانكليز، بتسامح يتجاوز الإدراك، كان سلطات الأمن تغمض عينيها عن الدفق الكثيف من الأسلحة الذي تتلقاه الهاغاناة والمنظمات الأخرى من الخارج، في حين أنها لم تكن تتردد في سجن أي عربي يحوز سلاحا ناريا. وتحظر علنيا أن نقتني حتى الخنجر، وتعتبر حمله جنحة يعاقب عليها بالسجن مدة ستة أشهر. وهكذا فإن نسبة القوى التي كانت تبدو في صالحنا في السنتين الأوليين بعد الحرب، انقلبت لصالح الصهاينة غير أنه من الصحيح أن هؤلاء كانوا يتمتعون بدعم وتواطؤ من الخارج، لم نكن تتمتع به. فالدول العربية كانت تظهر لنا تعاطفنا بالغ «العذرية» والأفلاطونية، فتعد بالكثير ولا تزودنا عمليا إلا بمعونة شبه رمزية. ولم يكن الفلسطينيون يتمتعون بمنظمة شبيهة بالوكالة اليهودية التي كانت تستقطب الأموال والوسائل التي لا غنى عنها لشراء ونقل الأسلحة. كما كانوا محرومين من القيادة السياسية والعسكرية التي يسعها، فيما لو وجدت، أن تنظم مقاومتهم.

وإذا سلموا إلى قدرهم، وهم يخشون حدوث مجازر شبيهة بمجزرة دير ياسين، فإن مئات الآلاف من الفلسطينيين قرروا مغادرة وطنهم تحرزا، لاسيما وأن بعض «اللجان الوطنية» المؤلفة من مناضلين قوميين، وخاصة في يافا، كانت تطمئن من يريدون المغادرة بأن منفاهم سيدوم قليلا، فإن هي إلا بضعة أسابيع أو بضعة أشهر، أي الوقت اللازم لتجمع الجيوش العربية لكي تقهر القوات الصهيونية. ذلك أن القرار الذي أعلنته البلدان العربية بمقاومة إنشاء دولة إسرائيل بالسلاح، أثار أملا كبيرا لدى الفلسطينيين.

وحين استرجع ذلك، فإني اعتقد أن مواطني اخطأوا حين وثقوا بالأنظمة العربية، كما أخطأوا على أية حال، حين تركوا الميدان خاليا للمستوطنين اليهود. كان عليهم الصمود مهما كلف الأمر. فما كان في مستطاع الصهاينة أن يبيدوهم حتى آخر رجل. وعلى أية حال، فقد كان المنفى بالنسبة لكثيرين بيننا أسوأ من الموت. وإذا كانوا يجهلون ما ينتظرهم، فإن أهلي قرروا خلاف ذلك، فهم في نهاية الأمر، يلتجؤون إلى غزة المدينة التي ولد أبي فيها، ثم أنهم لاستئمانهم، خلفوا وراءهم أثاثهم وممتلكاتهم حاملين معهم الأمتعة الشخصية ذات الضرورة

القصوى، ولكأني أنظر الآن إلى أبي وهو يمسك بيده مفاتيح مسكننا ويقول لنا مطمئننا أننا لن نلبث أن نعود إليه. ولكنه قدر لي إلا أرى بعد ذلك المنزل الذي ولدت فيه، فقد مرت على ذلك ثلاثون من السنين وأنا لا زلت أجهل ما إذا كان قد دمر أم لا. والحق هو أني أفضل إلا أعرف.

(2) سنوات الحمل

كانت السنوات التي عشناها في غزة بين أكثر سني حداثتي كآبة. أنها سنوات ريبة ويأس وبؤس. رغم أننا لم نكن في عداد الأكثرين حرمانا ففي حين كان أكثر اللاجئين محشورين في مخيمات كيفما اتفقا لحال، ويسكنون في خيام أو أكواخ صفيحية فإنه كان لنا حظ القدرة على الاعتماد على عائلتنا المقيمة في المدينة. فقد آوانا أحد أعمامي وهو رب عائلة كبيرة ورجل متواضع الحال يصنع هياكل خشبية (طوابير) لأغراض البناء وأسكننا في غرفة محاذية فرش فيها سبع فرشات لينام عليها أبواي وأطفالهما الخمسة. كان المكان كافيا بالضبط لنتمدد وإذا كان أبي يعيش في أمل لا يقام بالعودة في مستقبل قريب إلى يافا. فإنه راح يمدد إقامتنا في مسكن عمي شهرا بعد شهر. وعلى أية حال فإنه لم يكن يملك الوسائل التي تمكنه من الإقامة في مكان آخر. فعشنا سنتين في اختلاط خانق إلى آن جاء اليوم الذي أفهم فيه عمي والدي إنه بات لشديد أسفه مكرها على إنهاء ضيافتنا (فقط لاحظ أن أخي البكر عبد الله بات رجلا ولم يعد يليق أن نسكن بصورة مشتركة بالنظر إلى أن بناته هو أيضا بتن صبايا). وثمة مشكلة ثانية طرحت منذ وصولنا إلى غزة. فبالنظر إلى ضآلة عدد المدارس المتوفرة وإلى تدفق اللاجئين فإنه لم تكن ثمة مؤسسة تستطيع استقبالنا. وقد استلزم الأمر من أبي قضاء عدة أشهر في المساعي والتضرعات والمداخلات قبل آن يفلح في أن يرتب أطفاله الخمسة. ومن الصحيح كذلك أن السلطات المصرية لجأت خلال ذلك إلى وسيلة لتشجيع امتصاص كافة الأطفال الذين بلغوا سن الدراسة. كان الأساتذة يتناوبون، بعضهم في الصباح وبعضهم الآخر بعد الظهر، لتوفير التعليم للصفوف المختلفة. فكنا، عبد الله وأنا، مسجلين في الدورة الصباحية التي تبدأ في الساعة السابعة. وإذا لم تكن لدينا الوسائل لاستخدام النقل العام فإننا كنا نذهب إلى المدرسة التي تقع على مبعدة ثلاثة أو أربعة كيلومترات عن منزلنا مسيرا على الأقدام. وإذا فقد كنا نستيقظ قبيل الفجر ونبدأ بالسير في الساعة الخامسة والنصف صباحا برفقة الأطفال الآخرين من عمرنا الذي يسكنون في مخيم اللاجئين الذي يقع في جوار منزلنا.

وذات ليلة من ليالي شتاء عام 48-1949 استيقظنا عبد الله وأنا، على وشوشات محادثة تجري بين أبوينا,. كان أبي يشكو ويتأوه. فقد ذهبت جهوده لإيجاد وظيفة، أي وظيفة كانت، هباء. ذلك أن البطالة في غزة كانت على مدى من الاتساع والضخامة بحيث أنه فقد كل أمل في كسب معيشته. وكانت المدخرات التي حملها من يافا على وشك النفاذ فكيف تراه سيعيل أبناءه الخمسة؟ أما والدتي فراحت تحاول تطمينه بدون كبير اقتناع.

وفي طريقنا إلى المدرسة في صبيحة اليوم التالي، اتخذنا . عبد الله وأنا . قرارا بأن نعمل للمساهمة في نفقات المنزل. فما دمنا نغادر صفوفنا ظهرا، فإننا نستطيع العمل بعد الظهر. ولما كنا نعلم كبير والدنا، وأنه لن يقبل مطلقا بأن ينصرف ولداه القاصران إلى عمل مأجور، فأننا قررنا أن خفي عن والدينا حقيقة الأعمال التي نقوم بها بعد الدراسة. ومن ثم فقد قمنا سرا بمساع لدى اثنين من أبناء عمومتنا. فكان أن استخدام أحدهما، وهو نجار حرفي شقيقي ككاتب، في حين استخدمني الآخر وهو صانع يصنع كراسي من السور (وهو نوع من القضبان قريب من الصفصاف) كمتمرن فكدت أجن من الفرح.. ذلك أن أجري الشهري كان يبلغ جنيهين مصريين، وهو مبلغ كان له شأنه في تلك الحقبة، بالنظر إلى أن أجر المسكن على سبيل المثال كان يومها في حدود أربعة أو خمسة جنيهات. ثم أن والدتي انتهت بحكم الأحوال، إلى التكهن بما نقوم به. وكنا نسلمها ما نكسبه فتستخدمه في تأمين نفقات البيت دون أن يعلم والدي بذلك.

وفي تلك السنة رسب أخي في الامتحان وترك المدرسة ليصبح ميكانيكيا ويمارس المهنة التي طالما رغب في ممارستها. ولم يطلع والدي على هذا الأمر الذي كان سيستشعره كمأساة فقد كان يتحدر من عائلة متعلمين أو من عائلة مثقفين كما يقال في هذه الأيام. فوالده الشيخ عبد الله وهو رجل دين موقر في غزة، أكمل دراساته العليا في جامعة الأزهر بالقاهرة. أما والدي نفسه فلم تتوفر له أمكانية متابعة ذات السبيل بسبب العراقيل التي كانت تقيمها السلطات العثمانية لتمتع تعلم العرب، والفلسطينيين منهم بخاصة. ولهذا فإن والدي . الذي كان ملما مجرد إلمام بالقراءة والكتابة، ولم ينس نقص تعليمه . كان أحرص بكثير من سواه على ألآن يكمل أولاده دراساتهم. ثم أن الفلسطينيين عامة, ولاسيما فلسطينيي المنفى يولون تعليم أولادهم أهمية من الدرجة الأولى، وغالبا ما يرتضون من أجل ذلك القيام بتضحيات جليلة عن طيب نفسه. فتلك طريقتهم في ضمان بقائم داخل وسط غير ودود. وليس من قبيل الصدفة أن يكون في وسع الفلسطينيين المفاخرة بأن لديهم أرفع نسبة من المتعلمين بين كافة الشعوب العربية. ولم يكن لأبي أن يتذمر من شيء فيما يعنيني فقد كان يراني أدرس حتى ساعة متأخرة من الليل، كما أن ورقة علاماتي في نهاية السنة المدرسية الأولى كانت تشهد بنجاحي في الامتحانات. إلا أنه كان يجهل ما كلفتني ترقيتي من الصف من جهود. فالعمل الذي كنت أقوم به لدي ابن عمي صانع الكراسي، كان صعبا بقدر ما كان منهكا. ثم أني لاحظت، من جهة ثانية أن أجري كان يظهر غير كاف كلما كانت وسائل أبي المالية تتضاءل.

ولما لم أكن أستطيع أن أكاشف أبي، فإني رحت ذات يوم أطلب مشورة ابن عم لي كنت أكن له عاطفة خاصة. كان يملك مقهى كبيرا يدعى مقهى الكمال، فتلقاني بقبول وتعاطف. وبعد

أن أصغى إلى سردي لصعوباتنا المالية. فإن عرض علي أن أعمل عنده بأجر يبلغ عشرة جنيهات شهريا، أي خمسة أضعاف ما كنت أكسبه في ذلك الحين، وكان قوام مهمتي هو أن أجلس وراء الحبابة ما كنت أكسبه في ذلك الحين، وكان قوام مهمتي هو أن أجلس وراء الحاسبة لأراقب الطلبات بواسطة البطاقات أو «الفيش» التي يعطيني إياها صبيان مؤسسته. وكان يأذن لي في أن أحمل معي كتبا مدرسية لكي أستطيع الدراسة أثناء الساعات التي يخف فيها العمل.

كان العرض أكثر من مغر، لكن هل أملك الحق بقبوله.. فالعمل في مقهى، وفقا للتقاليد العائلية، هو عمل مشين وممجوج، بشأن العمل في منزل دعارة. وإذا كان لا بد لي من قبول هذه الوظيفة، فهل سأستطيع أن أخفي عملي الشائن هذا عن أهلي طويلا..؟ فمقهى الكمال يقع في وسط المدينة ورواده كثيرون ولن يطول بي الحال حتى يتعرف على هذا الصديق من أصدقاء أبي أو ذاك. وقررت أن أخاطر، فقد كانت المخاطرة محدودة لأني كنت أعلم أنه لم يسبق لأبي أن وضع قدمه في مقهى. كانت أسابيع عملي الأولى في وظيفتي الجديدة صعبة. كنت أمضي ست أو سبع ساعات وأنا أترصد زبائن «الكمال» محاولا أن لا يشاهدني مشاهد عندما كنت أرى وجها مألوفا، على أن والدتي انتبهت وهي الدقيقة الملاحظة إلا أن شيئا غريبا حدث في حياتي. وانتهى بي الأمر بعد أن أخضعتني لاستنطاق حسب الأصول، إلى الاعتراف لها بالحقيقة. فكانت بادئ ذي بدء كمن مستها الصاعقة فبدأت تبكي وتتوسل إلي لكي أترك هذه الوظيفة فورا فهي تستطيع الاستغناء عن أجرى كما قالت، بأن تبيع أساورها، والمال الذي أكسبه لا يعوض مطلقا الصدمة التي سيتعرض لا أبي إذ ا ما قدر له سوء الحظ أن يعرف بالعار الذي أوقعته به. إلا أنني صمدت، وفسرت لها بأنه لم يبق يفصلني سوى بضعة أشهر عن اجتياز امتحانات البكالوريا، فلبحث بعد ذلك عن وظيفة أخرى. فكان أن أذعنت والدتي على غير اقتناع، ووعدتني برغم عدم اقتناعها هذا بألا تقول لوالدي شيئا وعندما كان هذا الأخير يدهش لليسر انسبي الذي كنا نعيش فيه . بسب أجرى . فإن والدتي كان تزعم بأنها تنفق من ثمن مبيع أحدى أسورها. وبعيد ذلك بقليل، غادرنا منزل عمي لنقيم في مسكن استأجرناه. فبتنا أخيرا في دارنا.

وفي يوم من أيام شباط (فبراير) 1950 وكان قد مضت ستة أشهر على عملي في مقهى الكمال، حدث الأمر العجيب الذي لم يكن في الحسبان فقد رأيت أبي وهو يدخل إلى المقهى، ويمر بمحاذاة الحاسبة التي كنت أجلس وراءها دون أن يراني، ثم يتجه نحو طاولة تقع في الطرف الثاني من المقهى الرحب. وبقي جالسا هناك ساعة بدت لي وكأنها دهر كامل. كانت هذه الساعة أحدى أكثر ساعات حياتي قلقا بحيث أنني كنت مشلولا من الخوف، فلا أجرؤ أن أتحرك مخافة أن يسترعي ذلك انتباه أبي. ثم أنه نهض أخيرا، وبينما كان يهبط درجات السلم

الذي يفضي به إلى المخرج سمع أحد صبيان المقهى يناديني باسمي. فتوقف في مكانه، ثم استدار، ثم صعد بضع درجات وشاهدني. والتقت نظراتنا لبضع ثوان عاد بعدها إلى الهبوط وهو رابط الجأش لا يهتز له بنان. وأسرعت إلى أب عمي صاحب المقهى أقص عليه ما جرى لي وأطلب إليه أن يتشفع بي عند أبي فرفض رفضا قاطعا محتجا بأنه ليس في وضع يمكنه من الاضطلاع بهذه المهمة لأن ذنبه هو . في نظر والدي . أعظم من ذنبي، فكان علي أن أواجه وحدي العاصفة التي تنذر بالوقوع.

ووجدت والدتي تنتظرني عند عتبة الباب وهي ترتجف بكل أعضائها، كانت تود تحذيري بأن أبي «في حالة سعار مجنون من الغضب. فليكن الله في عونك..» أما أخوتي وأخواتي فكانوا خائفين منكفئين على أنفسهم في زاوية من زوايا غرفة الجلوس. وأما أبي الذي كان راكعا يصلي فقد تجاهلني. ثم بعد أن فرغ من صلاته سألني بلهجة صارمة: «هل تعلم أن سلوكك هو سلوك مخز..؟» فأجبته بأني قبلت العمل في مقهى الكمال لأساعد عائلتي ليس إلا. وكشفت له أني استمعت إلى حديثه مع والدتي لسنتين خلتا حول مصاعبه المالية، ثم قلت له كم أن همومه أشجتني. فقاطعني قائلا: «كنت أفضل الموت جوعا على أن أراك تعمل في مقهى». ولست أذكر بعد بما أجبته به تماما، ولكنه اهتاج فجأة ثم وجه إلى ركلة حلت في صدري وأحسست أن الأرض تتهاوى تحت قدمي، وأن كل شيء حولي ينهار. فها هو أبي الذي لم يسبق له أن انتهرني في حياته كلها، يضربني. وهو يضربني ظالما، لأني كنت أعتقد صادقا أني تصرفت بوحي ضميري ولخير العائلة كلها. وشعرت بأن كبريائي جرحت، وأن الإهانة أصابتني في أعمق أعماقي. فكانت تلك أول مرة أبكي فيها في حياتي. وبينما كانت دموعي تنهمل، كنت أرقى درجات السلم المفضي إلى سطح المنزل ثم ألقي نفسي في الخلاء.

وأعتقد لدى تدبر هذه الحادثة، أني لم أكن أسعى حقا إلى الانتحار، والقفزة التي قمت بها لم تكن خطرة على نحو خاص. فبالنظر إلى أن منزلنا كان مؤلفا من طابق أرضي يعلو قليلا عن سطح الأرض، فإن المسافة التي كانت تفصل السطح عن الأرض لم تكن تزيد عن مترين أو ثلاثة، كما أن الأرض الرملية التي ألقيت بنفسي عليها كانت رخوة بعض الشيء، بخلاف ذلك فإني اتخذت حيطة بالسقوط على قدمي (الأمر الذي تسبب لي بآلام مزمنة في الظهر تعود إلى التواء في العمود الفقري) وإنما كان سلوكي هذا تعبيرا عن الغضب وطريقة في الاحتجاج ضد المعاملة الظالمة التي عوملت بها بأكثر مما كان فعلا يائسا.

على أن سقطتي لم تكن أمرا هينا بالكامل، فقد فقدت الوعي بتأثير الصدمة. وعندما عادت إلى نفسي، رأيت والدتي وأخوتي وأخواتي من حولي وهم مضربون مشفقون على حالتي،

وينتظرون سيارة الإسعاف التي ستنقلني إلى المستشفى الإنكليزي الذي كان أحد أفضل مستشفيات غزة. وسرعان ما لاحظت غياب أبي فهو لم يأت لزيارتي في المستشفى حيث ظللت أعالج عشرة أيام من الممرضات، وبدا لي سلوكه، وهو المحب الشفوق الرؤوف البالغ الطيبة، على قدر لا تفسير له من القسوة. وإنما فهمت ردة فعله بعد ذلك. فهو رجل مشبوب العاطفة على انكماش، حساس وعنيد في آن معا، ولذا فإنه تأثر تأثرا شديدا من استخفافي بتقاليد وسطنا وبما كان يعتبره شرف العائلة وحسن أحدوثتها، وهي أفكار كان يرتبط بها بكافة أوتار وجوده.

وفوق هذا كله، فإنه تأول سلوكي كتحد وقح للسلطة الأبوية التي هي مقدسة كذلك عنده. ثم أنه عقد لدي خروجي من المستشفى مجلسا للعائلة وأغرب لي عن حزنه ثم طلبي مني التخلي عن عملي في مقهى الكمال. أما والدتي فإنها من جهتها، أخرجت من حافظتها رزمة أوراق نقدية ـ تزيد على المئة جنيه . وهي مبلغ ضخم لم تتيح لي فرصة رؤيته قبل ذلك. فقد باعت كافة مجوهراتها كما قالت لي، وسوف تستخدم الثمن لتلبية حاجات المنزل، للفترة المتبقية من السنة المدرسية التي ينبغي لي أن أنال في نهايتها شهادة البكالوريا. ثم أضافت: وبما أن العائلة باتت بمنأى عن الحاجة فإنه لم يبق ثمة داع يدعوني لممارسة عمل مأجور.. ثم أن أعمامي وأبناءهم ممن كانوا مدعوين إلى الاجتماع، أكدوا لي، وأحدهم بعد الآخر، بأن في وسعي الاعتماد على دعمهم لأتباع دراساتي العليا إذا كنت راغبا فيها وقد هزني هذا التضامن الحار فأعلنت على الفور عزوفي عن وظيفة مقهى الكمال.

وسجل عام 1951 منعطفا جديدا في حياتي، فبعد ثلاث سنوات من خروجنا، غادرت غزة إلى القاهرة بقصد الانتساب إلى الجامعة. ووفقا لما وعدوا به، فإن أقاربي راحوا يكتتبون، كل حسب طاقته، ليزودني بما أعيش به. وبخلاف مباركة أبي، فإني تلقيت مبلغ خمسين جنيها ينبغي لها أن تفي بمعاشي أبان الأشهر الأولى. ثم أن أبي أوصى بي أحد أبناء عمومته، ويدعى الشيخ يوسف، كان يتابع دروسا في اللاهوت (علم الكلام) في جامعة الأزهر الإسلامية.

وجاء الشيخ يوسف إلى المحطة القاهرة برغم عماه، يسعى في طلبي وعرض علي، المبيت في منامة الجامعة. ومنامة الجامعة عبارة عن رواق واسع تصطف فيه الأسرة بمحاذاة بعضها فلا يفصل السرير عن الآخر سوى منضدة صغيرة، ولما كان أحد زملاء الشيخ يوسف غائبا، فإنه كان بوسعي أن أشغل سريره بضعة أيام إلى أن أعثر على مأوى دائم موقبلت عرض ابن عمي هذا بطيبة خاطر رغم أن المنامة الوسخة والتي كانت تنبعث منها رائحة بشعة كانت تنفرني. ثم أني علقت قميصي ولباسي الذي دسست في جيبه الخمسين جنيها التي أعطتني عائلتي إياها، بمسمار. وعندما فتحت عيني في صبيحة اليوم التالي لاحظت ثيابي اختفت. وإذا

استولى علي الذعر، فإني هززت الشيخ يوسف الذي كان لا يزال نائما لاستوضحه عما حل بها. إلا أنه لم يكن يعلم أكثر مما أعلم، ثم لم يطل بنا الأمر لندرك أن أمتعتي سرقت. وأخذ علي ابن عمي غفلتي مشيرا إلى أنه يحتفظ بأمتعته تحت فراشه. فكان من البديهي أن مؤسسة الأزهر الموقرة . خلافا لما يتبادر إلى الذهن . لم تكن موئل النزاهة الأسمى. ووجدتني منهكا مدحورا، فلازمت سريري ملازمة شبه كاملة طوال عشرة أيام. كنت لا أملك مليما واحدا وليس لدي ما أقتات به، أو أسكن فيه أو ألبسه. ولم يكن عندي بخلاف ثيابي المسروقة سوى «دشداشة» وهي ضرب من ثوب تقليدي، وما كنت ألبسه على أي حال، إلا في البيت فبدا لي مستقبلي حيها كأحلك ما يكون. فلم يكن في الوارد أن أستطيع متابعة دراستي ذلك أن مجانية التعليم لم تكن قد أدخلت إلى الجامعات المصرية بعد. ولسوء حظي، فإما المساعدات التي كانت تصرفها الجامعة العربية للطلاب الفلسطينيين قد أوقفت لأسباب اقتصادية.

كان أبي قد أشار علي بأن أقصد السيد الكاشف وهو أحد أقاربه الأقربين، وتاجر ثري من قرية العملي (في منطقة تل أبيب) وهاجر قبلنا ببضعة أشهر. وكان يسكن مع عائلته في حي من أحياء القاهرة السكنية، إلا أني امتنعت عن زيارته في لحظة الحاجة والعوز، بدواعي الكبرياء. وإنما قدر لي بعد ذلك بسنوات وبعد أن أصبحت مدرسا، أن أتزوج ابنته. وعرض علي الشيخ يوسف حينذاك الالتحاق بجامعة الأزهر التي كانت توزع معونات على الطلبة المحتاجين من الأموال التي كانت تضعها المؤسسات الخيرية بتصرفها. كان هو نفسه يسكن بالمجان وينال مخصصا شهريا بقيمة أربعة جنيهات شهريا. فأبيت عرضه هذا بأدب. دون أن أقول له كم كنت أربعة جنيهات شهريا. فأبيت عرضه هذا بأدب. دون أن أقول له كم كنت أنفر من التعليم ذي الطابع الطائفي. ولكنني من جهة أخرى اقتنعت بتقديم طلب للحصول على منحة من دار العلوم وهي ضرب من دار المعلمين العليا. ويقينا أن دار العلوم لم تكن تستجيب للمثال العلماني الذي ارتضيته لنفسي لأنها كانت وثيقة الصلة بالأزهر. إلا أنها كانت تشتمل على دروس أخرى أشغف بها غير علم الكلام: كاللغة والأدب العربي والفلسفة علم النفس. كانت المنحة المتمناة تبلغ أربعة جنيهات، وهو مبلغ متواضع إلا أنه كان يتيح لي أن أعيش وأن أواصل دراستي. غير أن دار العلوم لم تكن تقبل كل من يتمنى الدخول إليها فكان علي أن اجتاز مباراة مشهورة بقساوتها وكان الامتحان في مادة الأدب العربي، وهو ميدان كان شبه مجهول ضمنيا بالنسبة إلي. ومع هذا فقد قررت أن أجرب حظي. وهكذا فقد مثلت أمام اللجنة الفاحصة شأن 500 مرشح آخرين. وبدأ رئيس اللجنة، وهو شيخ من جامعة الأزهر بمسائلتي حول ديواني شاعرين شهيرين كنت أجهل . كما اعترفت له . حتى اسميهما. ثم قررت أمام ذهول

الممتحن أن ألعب أوراقي كاملة. فقلت له: «أن لك أن تسقطني، ولكن أسمح لي بادئا أن أعرض لك معتقدي في جامعة الأزهر التي تمثلها هنا». ثم سردت عليه قصة سرقة نقودي وثيابي ثم أنهيت حديثي بهذه الكلمات «أنه لم يبق لدى ما أفقده سوى الدشداشة التي ألبستها».

وتركت مقالتي المسهبة هذه الشيخ وهو فاغر فاه. وبعد صمت بدا لي وكأنه لن ينتهي، سألني أحد زميليه الآخرين الدكتور حسن جاد . الذي لا يمكن أن أنسي العمر اسمه لشدة ما أنا مدين له وقال بلهجة المتواطئ معي: «ولكني مقتنع بأنك تعرف الكثير عن الشعر الفلسطيني» فتلقفت ريمته وبدأت أنشد ثم أحلل أشعار معين بسيسو الذي سيفرض نفسه بعد ذلك كأحد أفضل شعراء المقاومة، وربحت. كانت وجوه الممتحنين الطلقة المنفرجة تشير إلى أني سأقبل دار العلوم. وبعد ذلك بأيام غادرت منامة الأزهر المشؤومة خذلانا. وقايضت الدشداشة بقميص وبنطلون. كان دخلي الشهري لا يسمح لي بأن أستأجر غرفة، ولكن أصدقا فلسطينيين دعوني إلى مشاركتهم مسكنهم بدون مقابل. فالتضامن ليس كلمة لا طائل فيها لدى فلسطيني المنفى والخروج. وإذ لم أتلق أية معونة من أهلي، فإني عشت على هذه الحال سنتين لدى أصدقاء أصبح بعضهم فيما بعد ذلك بسنوات مناضلين في فتح. وذات يوم، تلقيت حوالة بريدية من أبي. كان المبلغ هائلا، فقد عثر على عمل في العربية السعودية، بعد أن استخدمه مقاول كبير هناك، هو حامد أبو ستة الذي يشغل اليوم عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، فأرسل إلى أجر أول شهر عمله عنده.

وعام 1951 ليس عام الانفصال عن العائلة وبدايات حياة الطالب وحسب بل كان إلى ذلك نقطة المنطلق في عملي النضالي الذي لم ينم عن التطور والنمو منذ ربع قرن. ولا ريب في أن انتسابي إلى «أشبال» النجادة في يافا، يشكل صيغة التزام سياسي، إلا أن الظروف وحداثة سني منعتني من أن أشارك مشاركة فعالة متواصلة في المعارك التي كان من يفوقوني سنا يخوضونها، أما في غزة، فأني لم انقطع برغم الصعوبات المادية والهموم العائلية، عن الاهتمام اهتمام شديدا بتطور المشكلة الفلسطينية. غير أن الحركة الوطنية كانت قد خدمت ضمنا تحت تأثير الاندحار العربي واليأس الذي تلاه ولم يبق سوى بضعة زعماء تقليديين بائدين يحاولون بعثها عبثا تحت كنف الجامعة العربية تلك المنظمة الحجرية التي تتلاعب بها الأنظمة الرجعية العربية المرتبطة بالامبريالية والتي قليلا ما كانت على استعداد لدعم القضية الفلسطينية. كان الاحتقار والغضب كإرادة التمرد والنهوض ضد النظام القائم تعتمل في نفسي. ولم تلبث الفرصة أن واتت حين أثار قرار الجامعة العربية في خريج عام 1951 بإلغاء المخصصات التي تدفع للمحتاجين من الطلبة الفلسطينيين، سخطا محقا بين صفوف هؤلاء الآخرين.. وسرعان ما رميت

بنفسي في المعترك وشاركت بالمظاهرة التي نظمت أمام مقر الجامعة العربية الذي احتليناه. واقتحمنا عنوة مكتب أحمد الشقيري الذي كان يشغل حينذاك منصب الأمين العام المساعد المكلف بالشؤون الفلسطينية، واتلفناه. وقد تكلل عملنا هذا بالنجاح. وأعيدت معونة الطلاب إلى سابق ما كانت عليه. غير أن البوليس أوقف قادة المظاهرة وأودعهم سجن عابدين القريب من قصر الملك فاروق وكان من الوارد تماما أن أبعد إلى غزة، إلا أن الأزمة التي كان يجتازها النظام الملكي جعلت السلطات تعدل عن مشروعها، فأفرج عني بعد 49 يوما.

وفي هذه الحقبة التقيت للمرة الأولى بطالب يدرس في كلية الهندسة عمره 22 سنة، ويكبرني بأربع سنوات ويتمتع بطاقة ونشاط وحماس وروحية مغامرة، أسرتني وجذبتني إليه: أنه ياسر عرفات، الذي سيتعرف عليه الرأي العام العالمي بعد ذلك بخمس عشرة سنة باسمه الحركي: أبو عمار، كان ياسر يومها مسؤولا عن التدريب العسكري لطلاب الهندسة الراغبين في الاشتراك بالأعمال الفدائية ضد البريطانيين في منطقة قنال السويس. وبخلاف ذلك فإنه كان يناضل، شأني أنا، داخل اتحاد الطلاب الفلسطينيين الذي كان يضم زملاءنا الطلبة ممن ينتمون إلى كافة النزعات السياسية: الإخوان المسلمون، الشيوعيون، البعثيون، القوميون العرب (أي الحزب الذي يعتبر جورج حبش أبرز مؤسسيه) الخ. وبصورة أعم، فإن الفلسطينيين كانوا يتعشقون الأحزاب العروبية . يمينية كانت أم يسارية . ويعقدون عليها آمالهم كلها نظرا لأنه لم يكن في مستطاعهم الاعتماد على حزب أو تشكيلة محض وطنية تقف نفسها على تحرير فلسطين، فلم تكن مختلف الإيديولوجيات التي اعتنقوها بالنسبة إليهم . سواء وعوا ذلك أم لم يعوه . إلا ناقلة ينبغي أن تصل بهم في نهاية المطاف إلى الهدف المشترك.

إلا أنني، شأن ياسر عرفات، لم التحق بأي حزب سياسي، كنت أتعاطف بلا ريب مع الأخوان المسلمين الذين سبق لي أن رأيتهم يعملون في غزة. فقد كان بينهم وعاظ يعتمدون على العكس من العلماء التقليديين، لغة نضالية متحمسة يسهل تناولها على عامة الناس. فكانوا يدعون المؤمنين إلى الكفاح، رافعين من معنوياتهم لحظة كانوا أحوج ما يكونون فيها إلى ذلك.

وكان مما يزيد في اجتذاب التعاطف معهم، هو أن كثيرا من محاربيهم كانوا مطاردين مضطهدين وسجناء لدى السلطات المصرية. وكانوا يعرفون كيف يموتون من أجل مثلهم، فقد استشهد عدد منهم في السنوات الممتدة بين 1950 و1952 بينما كانوا يخوضون أعمالا فدائية ضد قوات الاحتلال البريطاني في منطقة قنال السويس. إلا أنني . بالرغم من كل هذا، لم التحق بصفوفهم. صحيح أنني كنت حفيد شيخ، وأن أبي مسلم لا يقطع فريضة، إلا أن تسامح وسطي

وبيئتي، العميق، أبعدني عن أيديولوجية الأخوان المسلمين. وبخلاف ذلك، فإن ميولي الطبيعية كانت تحملني على أن أنضم إلى ركب قومية علمانية لا يزال علينا أن نوضح شكلها وجوهرها.

ولم تكن لدينا أفكار مسبقة بهذا الصدد، لا ياسر عرفات ولا أنا، إلا أننا كنا نعلم على الأقل ما هو مضر بالقضية ا لفلسطينية. كان تقديرنا هو أنه ليس لأبناء وطننا أن ينتظروا شيئا من الأنظمة العربية الفاسدة في معظمها أو المرتبطة بالامبريالية، وأنهم يخطئون بالمراهنة على الأحزاب السياسية القائمة في المنطقة. وكنا نعتقد كذلك أن على الفلسطينيين إلا يعتمدوا أساسا إلا على أنفسهم. وهكذا فقد قررنا عام 1952 مباشرة هذه الفكرة الأساسية بتقديم ترشيحنا إلى قيادة اتحاد الطلاب الفلسطينيين، وهو الهيئة الوحيدة التي كانت تمارس في داخلها انتخابات ديمقراطية، وعلى هذا، فإن اتحاد الطلاب الفلسطينيين كان التشكيل الوحيد الذي يسعه أن يدعي أنه يمثل قطاعا ما من الرأي العام الفلسطيني.

كان مشروعنا يشتمل على مخاطر بينة. فمعظم الطلبة كانوا أعضاء أو متعاطفين مع الأحزاب السياسية التي لم نكن غير منتمين إليها وحسب، بل كنا نأباها. وهكذا فقد وجهنا ما يشبه التحدي إلى كافة المرشحين المقدمين من قبل أحزاب وتشكيلات تتمتع، وبدرجات متفاوتة، من المهابة والوسائل المادية والنفوذ.

إلا أنه من الصحيح كذلك أنه لم تكن تعوزنا نحن أيضا الأوراق الرابحة ذلك أننا أفلحنا، ياسر عرفات وأنا، في إقامة علاقات جيدة مع كافة الطلاب بدون تمييز لانتماءاتهم السياسية، فقد كنا أبدا على رأس معاركهم، مستعدين لكافة التضحيات.

ولم نكن نقدم أنفسنا كأخصام للأحزاب، بل كأنصار «الاتحاد الطلابي» وهو الاسم الذي أطلقناه على لائحة مرشحينا التي كانت تشتمل على تسعة أسماء مرشحة لملء المقاعد التسعة في اللجنة التنفيذية. كان ستة منهم ينتمون إلى فريقنا (منهم عرفات وأنا) أما المقاعد الباقية فقد أسندناها إلى الفئات الأخرى: واحد من الإخوان المسلمين، وآخر شيوعي، وثالث بعثي، وبهذا أظهرنا روحيتنا الديمقراطية والوحدوية. وتبين أن حساباتنا كانت صحيحة، إذ أن لائحتنا انتخبت بأغلبية ساحقة من الأصوات. وظهر أن الطلاب يتطلعون قبل كل شيء. وبرغم معتقداتهم الإيديولودجية إلى عمل وحدوي. وقد احتفظ ياسر عرفات الذي عين رئيسا لاتحاد الطلاب الفلسطينيين. بمنصبهم هذا إلى حين إنهائه دراسته الجامعية عام 1956 فكان أن خلفته على رأس التجمع بعد أن ظللت مساعده طيلة أربع سنوات.

وبعد انتخابي بشهرين، أي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1952، ثار النزاع مع الجامعة العربية مجددا، بعد أن قررت الجامعة مرة أخرى إلغاء المساعدات التي كانت تدفعها

للطلاب الفلسطينيين. فكان ابن بدأنا، كما فيا لخريف السابق، إضرابا عاما، في حين أن كثيرين منا احتلوا مقر الجامعة. غير أن المسؤولين هذه المرة لم يتراجعوا واستدعوا قواعد الأمن التي لجأت في طردنا إلى استخدام العنف. وبينما تم توقيف تسعة عشر فردا منا، فأنني أفلحت مع كثيرين آخرين في الإفلات. وبعد ذلك بقليل أبلغ الأمن اتحاد الطلاب الفلسطينيين بأنه لن يطلق سراح رفاقنا إلا إذا استسلمت أنا للعدالة، وهو ما فعلته بناء على نصائح ياسر عرفات الذي كنت قد التجأت إلى شقته في ضاحية مصر الجديدة. كان الأمن يسعى أن يذل «المغامر» الذي كنته في نظره: فحجزت في قسم الموسمات بسجن عابدين، ثم أطلق سراحي بعد ذلك بـ 35 يوما بناء على تدخل شخصي من أحمد الشقيري.

وقد حاول الشقيري أن «يسترجعني إلى الحظيرة» بأن رتب مقابلة بين وبين صلاح سالم، أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة التي كانت استولت على السلطة قبل ذلك بأربعة أشهر. ومع أن مقابلتي مع صلاح سالم أطرتني إلا أنها لم تنل بشيء من إرادتي في متابعة المعركة ولا من إرادة السلطات الناصرية في تحطيم إرادتي.

كانت الشراسة التي تحملها السلطات لي تظهر أحيانا في صغائر ففي شهر تموز (يوليو) 1954 كنت عضوا في الوفد الذي يرأسه ياسر عرفات، والذي كان ينبغي أن يسافر إلى فرصوفيا لحضور مهرجان للاتحاد الدولي للطلاب، إلا أنني أوقفت قبيل مغادرة الوفد بساعات.

كانوا يرون أنني «خطر جدا» وأخطر من أن يأذنوا لي بمغادرة البلاد، فكان أن تظاهر العديد من الطلاب الفلسطينيين مثيرين الكثير من الضجيج ضد هذا التعسف مطالبين بإعادة تأشيرة الخروج إلي، ولكن ذلك ذهب عبثا. ولم يطلق سراحي إلا بعد ذلك بسبعة وثلاثين يوما، وبعد عودة الوفد إلى القاهرة. ولم أكن في تلك الحقبة أكن من التعاطف مع جمال عبد الناصر إلا القليل كنت أشارك الإخوان المسلمين والشيوعيين الحذر الذي يبدونه إزاءه في بدايات نظامه. وكنت آخذ عليه أنه لم يفعل شيئا من أجل القضية الفلسطينية فالغارة الإسرائيلية التي شنت على غزة بتاريخ 28 شباط (فبراير) 1955 وذهب ضحيتها بضع عشرات من الأشخاص أثارت غضبا عظيما بين كافة السكان أو عن الرد بنفس الضخامة. وتدفقت حشود المتظاهرين تطالب بالسلاح. أما الطلاب الفلسطينيون بالقاهرة، فإنهم نظموا اضطرابات ومظاهرات تدعو إلى سقوط النظام علنا. واحتللنا مقر اتحاد الطلاب الفلسطينيين وتقدمنا ونحن مضربون عن الطعام إلى السلطات بثلاثة مطالب هي: إلغاء نظام التأشيرات المفروضة على الفلسطينيين لدى الدخول إلى غزة أو الخروج منها، إعادة المواصلات الجديدة بين القاهرة وغزة (بعد أن قطعت في بداية

المظاهرات) إقامة تدريب عسكري إجباري يتيح للفلسطينيين الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات الإسرائيلية، ثم طلبنا بين جملة ما طلبناه أن يقوم عبد الناصر بزيارتنا شخصيا لمناقشة شكوانا.

وبعد مرور يومين على الإضراب، جرى إبلاغنا بأن عبد الناصر مستعد لاستقبال الوفد الذي نعينه. فرفضنا وقلنا بأنه أما أن يجرى الاجتماع بحضور كافة المضربين . وكانوا فلي حدود المئتين . وأما أن لا يكون. فكان أو وافق عبد الناصر ودعانا إلى مكتبه في مجلس الوزراء. وعلى عتبة المبنى تلقتنا قوات أمن ضخمة وجرى تفتيشنا بدقة قبل السماح لنا بالدخول.

وبدأ عبد الناصر حديثه بالتأكيد لنا بأنه يعترف بصحة مطالبنا كلها وأنه سلبيتها بالكامل. والواقع أنه أصدر أوامره في اليوم نفسه برفع كافة القيود الموضوعة على تنقل الفلسطينيين بين مصر وغزة، وبفتح معسكرات تدريب لأعداد فدائيين (إلا أنه لم يف بوعده بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة وحسب ما قدر لنا أن نلاحظه على مر السنين، إلا بصورة شكلية). ماذا كان لنا أن نتمنى بعد...! وعلى هذا فإن الجو لم يلبث أن انفرج واتخذت الأحاديث المتبادلة طابعا وديا. وفي نهاية الاجتماع، أعرب عبد الناصر بينما كنا نهم بالخروج، عن تمنيه مواصلة النقاش مع أربعة منا، فكان أن جرى تسمية عبد الحميد الطايع (بعثي) وعزت عوده (شيوعي) وفؤاد أحمد (من حركة القوميين العرب) وأنا، للقيام بهذا الحوار الثاني. واستبقى عبد الناصر إلى جانبيه لطفي واكد . وهو أحد كبار معاونيه . وكمال الدين حسين . الذي عمل وزيرا عدة مرات، وعلي صبري الرئيس العقيد لمجلس الوزراء. كان رئيس الدولة المصرية يريد أن يعرف المزيد حول اتحاد الطلاب الفلسطينيين، وحول مشاعرنا وتطلعاتنا، وكان سؤاله الأول لنا هو: «هل تنتمون إلى أحزاب سياسية» فكان سؤال غير حصيف، وبل سؤالا خطرا في بلد فرض الحظر فيه على كافة الأحزاب والتشكيلات، واستبدلت بحزب واحد. وسرعان ما فهم خطأه حين أجبناه غير مترددين بأننا لسنا سوى طلبة فلسطينيين ثم دار نقاش أخاذ. ولم نلبث أن أسرنا سحر هذا الرجل الذي تبين أنه وطني كبير. وخلال هذه المحادثة، كشف لنا عن نيته في الالتفاف على الحظر الانتقامي الذي تفرضه عليه القوى الغربية في ميدان التسلح وذلك بالتوجه إلى مكان آخر «إلى الشيطان نفسه إذا اقتضي الأمر» لتأمين الدفاع عن مصر ضد الاعتداءات الإسرائيلية. وبعد ذلك بشهور أثار حماسا شعبيا عارما عندما عقد صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا، (التي استخدمت كواجهة للاتحاد السوفياتي) وغادرنا عبد الناصر في ذلك اليوم ونحن نؤكد له دعمنا، برغم أن البعض منا لم يفقدوا حذرهم كله إزاءه.

على أآن المنعطف الحقيقي حدث في تموز (يوليو) 1956، عندما أعلن عبد الناصر تأميم شركة قنال السويس. فكان أن انفجرت الفرحة لدى الفلسطينيين، الذي أصبح «الريس»

بعدها بالنسبة إليهم بطل الصراع ضد الامبريالية. ولقد تأثرنا شأن العرب جميعا من المحيط الأطلسي إلى الخليج. تأثرا عميقا بالجرأة وبالتحدي الذي وجهه عبد الناصر إلى انكلترا وفرنسا. فيفصل الإشراف الذي كانت تمارسه هاتان الدولتان العظيمتان على القتال: فإنهما استغلتا مصر بصورة وقحة، منتهكين في الآن نفسه سيادتها. وهكذا فإن عبد الناصر أعاد إلى شعبه حقا ثابتا لا يجوز التفريط به، معيدا إلى العرب جميعا وبل إلى شعوب العالم الثالث كرامتهم وثقتهم بأنفسهم. بات كل شيء ممكنا، بما في ذلك تحرير فلسطين، وحين عبأنا أنفسنا للدفاع عن مصر ضد العدوان الذي شنته عليها إسرائيل وانكلترا وفرنسا بعد تأميم القنال بثلاثة أشهر، فإننا فعلنا ذلك بحماس. وشكلنا كتيبة كوماندوز، لنقوم بمقاومة العدوان الثلاثي إلى جانب المتطوعين المصريين. فأما ياسر عرفات الذي كان يومها ضابط احتياط، فإنه أرسل إلى بور سعيد حيث ساهم في إطار سلاح الهندسة في عمليات نزع الألغام. أما أنا فقد تطوعت من جهتي في قوى المقاومة الشعبية، كنت مستعدا للقتال، لكن السلطات لم تسمح لي بالذهاب إلى جبهة قنال السويس. فكان علي أن أكتفي بالقيام بمهام دفاعية، كالقيام بالحراسة أمام جسور القاهرة.

أما في غزة، فإن مقاومة المحتل الإسرائيلي، كانت تنظم تحت رعاية الجبهة التي كان قد جرى تشكيلها حديثا، فقد ائتلف الإخوان المسلمون والشيوعيون والقوميون العرب والبعثيون والناصريون على أساس برنامج عمل مشترك. وقد تبين في البداية أن الاتفاق مع الشيوعيين صعب لأنهم كانوا يريدون إدخال بند بصدد التعاون مع التقدميين الإسرائيليين وعلى رأسهم الشيوعيون الإسرائيليون لأنهم يعارضون هم أيضا العدوان الثلاثي: غير أن الأذهان لم تكن ناضجة لمثل هذا الإخاء. ذلك أنه كان ينظر إلى الإسرائيلي . كائنا ما كانت أيديولوجيته وقناعاته، كعدو. ثم انتهى شيوعيو غزة إلى تهذيب نصهم وتشذيبه مسهلين بذلك الوصول إلى اتفاق. وقد ساعدنا هذه الجبهة في حدود إمكاناتنا المتواضعة. فكنا ندخ سرا إلى المدينة المحتلة المال، وبعض السلاح. والكثير من المناشير، وإنما بدأنا خلال هذه الفترة التي أثارت فينا من الإحباط أكثر ما أثارت من الرضي بالتطلع . رفاقي وأنا . إلى مشروع كان يبدو لنا حتى الساعة من قبيل الأحلام. فالوطنيون الجزائريون كانوا قد شكلوا منظمة تخوض الصراع ضد الجيش الفرنسي منذ سنتين، فكانت المعركة البطولية التي كنا نتابعها عن كثب، تذهلنا وتملأ نفوسنا إعجابا. وطوال سهرات طويلة كنا نطرح على أنفسنا مسألة ما إذا لم يكن في وسعنا نحن كذلك أن ننشئ حركة واسعة تكون ضربا من الجبهة التي تضم الفلسطينيين من جميع الاتجاهات، وينتمون إليها بصفة فردية، بغرض إشعال الكفاح المسلح في فلسطين.

ففي سنتي 54–1955 جرت بعض غارات الكوماندوز ضد إسرائيل إلا أنها كانت تقاد جميعها تقريبا من قبل مصالح استخبارات البلدان المجاورة لإسرائيل... فالمخابرات المصرية شكلت هذه المجموعات أساسا من أجل القيام بعمليات تجسس. فكانت تعمل في غزة والأردن تحت قيادة مصطفى حافظ الذي قتل بعد ذلك بواسطة طرد ملغوم أرسلته له المخابرات الإسرائيلية (الموساد). وكذلك كان الأمر في سوريا. كنا نشعر بأنفسنا معنيين قليلا بالمشروعات التي تمليها مصلحة دولة لا المصلحة الفلسطينية، والتي لا يمكن أن تكون إلا مشروعات عارضة. ولما كنا نرتاب في كافة الأنظمة العربية، المحافظة منها التقدمية، فإن تقديرنا كان بأن الكفاح المسلح الذي يستحق هذه التسمية، هو كفاح ينبغي أن يعده وينظمه ويخوضه الفلسطينيون إلى غايته بدون أن يكون لهم أي ارتباط بغير شعبهم. وإنما كان أساس ريبتنا وحذرنا هو التجربة . فرفيقنا أبو جهاد مثلا (خليل الوزير) وهو أحد مؤسسي فتح، وعضو لجنتها المركزية حاليا، نظم عام 1954، غارة ضد إسرائيل انطلقت من غزة، فكان أن أوقفه الأمن المصري فورا.

وإذن، فقد كنا متفقين على المبادئ العامة التي ينبغي لها أن تحكم حركة أحلامنا، وبانتظار أن نطور هذه المبادئ ونعلقنها، فإننا قررنا أن ننشرها في وسطنا عامدين في الحين ذاته إلى تجنيد الأطر والكوادر التي ستضعها ذات يوم موضع الممارسة. فإنشاء حركة شعبية واسعة وجيش تحرير وطني حقيقي، كان لا يزال في فترة حرب السويس عام 1956، أفكار غائمة، سوف تتبلور في أهداف واضحة خلال السنتين التاليتين، ثم أننا تبعثرنا خلال الأشهر الأولى من عام 1957, فياسر عرفات وأبو جهاد ذهبا للعمل في الكويت، ولن يلبث فاروق القدومي (أبو اللطف) الرئيس الحالي للدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية وعضو اللجنة المركزية في فتح، أن يلحق بهما بعد ذلك. وأما محمد يوسف النجار وكمال عدوان وأبو مازن، فقد أقاموا في قطر. وأما أنا فقد قررت من جهتي أن أناضل في غزة. كنت مجازا في الفلسفة وعلم النفس من دار العلوم، وفرغت لتوي من الحصول على دبلوم التربية من جامعة عين شمس. فكان في وسعي أذن السعي وراء وظيفة في التعليم.

إلا أن سلطات الأمن فهمت أن سعيي وراء العمل في غزة ليس خاليا من الأفكار المسبقة. فقد جرت العادة على أن يسعى الموظفون في غزة إلى الانتقال منها . لا العكس . إلى القاهرة أو إلى أية مدينة مصرية كبيرة أخرى لتحسين أوضاعهم غير أنني أمام عظيم دهشتي، عينت أستاذ في مدرسة بنات . وهو إجراء استثنائي يتخذ بصورة عامة على سبيل العقاب. فليس ثمة ما هو أزعج بالنسبة لرجل في مجتمع إسلامي تقليدي، من العمل في وسط نسائي.

ولفت نظر مدير التربية الوطنية، إلى ألآن تعيين مخالف للقاعدة المتبعة التي توصي بإلا يعلم في مدارس البنات إلى الرجل المتزوج. فأجابني مبتسما بأن لكل قاعدة شواذها، ففهمت أنه يحاولون منعي من القيام بنشاط سياسي ما وذلك بعزلي داخل وسط أكون فيه ضمنيا كمنبوذ. غير أن مدرسة «الزهرة» بحد ذاتها لم تكن كريهة، ولكنهم أوكلوا إلي صفوف الطالبات المعيدات، وهن في الغالب بنات مدللات مزاجيات غير منضبطات. إلا أن عزيمتي لم تثبط. وقررت استغلال الوظيفة التي اشغلها لأقوم بالدعوات السياسية. وماذا تراني سأخسر؟! وبرغم أنني كنت أعلم اللغة العربية وعلم النفس فقد دعوت طالبات صفوفي لتشكيل مجموعات تجمعات مدنية كنت أطلق عليها اسم «اللجان الوطنية» وكن مكلفات بعرض موضوعات للنقاش على مجموع الصف. وبعد ذلك بستة أشهر، أبلغتني مديرة المؤسسة بنقلي إلى ثانوية للصبيان.

وبرغم من أن ثانوية خالد بن الوليد لم تكن جذابة ولا مريحة، إلا أنني هللت من الفرح. فهي تقع في وسط الصحراء خارج غزة ويرتادها الأطفال اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في المخيمات القريبة. وأما الصفوف فكانت ضيقة متهاوية ومكتظة يحشر فيها 60 إلى 70 طالبا في الصف الواحد. فكنا نرتعد من البرد في الشتاء بينما ينفذ المطر إلينا عبر السقف الهش، وبالمقابل، فقد كان كل شيء هناك مؤاتيا للنشاطات السياسية التي كنت اعتزم القيام بها. فطلابي المتحدرون من أوساط بالغة التواضع ويعيشون في ظروف يرثى لها، ويعانون كذويهم من النفي، كانوا يظهرون كما بدا لي ذكاء وحساسية تزيد عن المتوسط. ولا زلت أذكر حادثة هزتني. فبعد أن شكلنا لجنة معونة للثورة الجزائرية، طلبت إليهم المساهمة، كل حسب إمكانياته، في جمع المال. فكان أن استجابوا جميعا للنداء برغم بؤسهم، في غداة اليوم التالي، راحوا يمرون بالتتابع أمام مكتبي، فيضع عليه البعض قرشا والبعض الآخر قرشين أو ثلاثة. وهي وأن كانت مبالغ زهيدة، إلا أنها كانت تمثل تضحيات كبرى من جانبهم. وأخيرا، فقد جاء صبي حدث وهو بادي الانزعاج، ليضع قميصه الذي لا يملك سواه على مكتبي. واكتفى بأن قال: «لعله يفيد طفلا جزائريا».

وفي تلك الفترة (1958) كتبت مسرحية اسميتها «أيام مجيدة» تقوم حبكتها على رحيل عام 1948. وكان النص يقوم أساسا على ذكرياتي الخاصة، حول رحيل عائلتي في المركب وكذلك بالطبع على النهاية المأساوية للزوجين اللذين القيا بنفسيهما في البحر لاسترجاع ابنهما المتروك في يافا، وقد لاقت المسرحية نجاحا كبيرا ومثلت على مدة عدة أشهر في كافة مخيمات اللاجئين في غزة، قبل أن يتم إخراجها في العديد من بلدان الخليج العربية.

وكنت بصدد كتابة مسرحية أخرى أيضا في تلك الفترة، إلا أنها كانت أكثر تبعة وخطورة. كان هدفي التنديد بموقف كافة الأنظمة العربية بما في ذلك نظام عبد الناصر إزاء القضية الفلسطينية فعمدت إلى مختلف أنواع الحيل مخادعة مني لتشدد الرقابة. واخترت للدور المركزي شخص عباس المهداوي، وهو فوكيي تانفل( ) النظام العراقي الذي كان قد قام لتوه في بغداد. كان المهداوي يرئس محكمة «شعبية» مكلفة بالإرسال المعارضين إلى المشنقة، أما في النص الذي كتبته، فإن المتهمين الماثلين أمام المحكمة، كانوا رؤساء الدول العربية، الذين كان المهداوي يعدد «جرائمهم» باللغة الطريفة التي أشهرته. كانت المسرحية مكتوبة بأسلوب نقدي وتسخر بالمهداوي في نفس الوقت الذي تقول فيه حقائق تدركها حساسية الفلسطينيين. وما كان يمكن اتهامي بتعاطي التخريب، لأن المقالات التي يقولها بطلي، كانت استشهادات حقيقية مختارة من مسهبات المهداوي الحقيقي.

ثم أني اتخذت احتياطات أخرى: فقد عرضت على وكيل دائرة دير البلح المسؤول عن القطاع الذي تقع فيه مدرستي، أن يتولى إخراج المسرحية. ولما كان الرجل مولعا بالمسرح فإنه قبل العرض بحماس. وأخيرا دعوت حاكم غزة العسكري لحضور حفل الافتتاح فكان مسرورا من المسرحية التي لم يستبن ازدواجيتها وتضمين معانيها، فأرسل لي بعد ذلك بثلاثة أيام رسالة رسمية يهنئني فيها على جودة النص. غير أنني تلقيت في اليوم نفسه دعنة عاجلة من العقيد كمال حسين المسؤول عن دوائر الأمن في غزة. كان قد شاهد هو أيضا المسرحية، إلا أنه فهم لثاقب بصره ومعرفته الجيدة بآرائي، الطابع النضالي للمسرحية. فكان ظاهر التصميم على تدفيع ثمن وقاحتي. فاحتججت وأدليت بحسن نيتي وذكرته على سبيل البرهان، برعاية وكيل الدائرة للمسرحية، وبامتداح النصع السخط وأقول «أفيكون هؤلاء جميعا حمقى أغبياء...؟» فصر العقيد كمال الحسين أسنانه ثم قال لي بلهجة قارسة: «صلاح، أنت مراوغ مكار، ولكني سأنال منك وتستطيع الوثوق بي في هذا الصدد» لكنه كان يجهل أسوأ ما في الموضوع، فممارساتي الأدبية لم تكن سوى الجزء الطافي من جبل الجليد، أما الجانب الرئيسي من نشاطاتي خارج التعليم، والذي كان قوامه تجنيد وتنظيم مجموعات من المناضلين، فكان سريا. وطبقت في هذا النطاق نفس الطرق المتبعة من قبل رفاقي الموزعين في بلدان الخليج. كنا نختار المرشح للتنظيم وفق معايير خلقية وسياسية، كنا نعتبرها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها: فكان ينبغي للمرشح أن يكون حرا من كل رابط حزبي وأن يتمتع في حياته الخاصة بسلوك لا مأخذ عليه، ثم أننا كنا نطلب إليه كضمان لجديته ووقاره أن يمتنع عن شرب الكحول، وكنا نوفر له خلال فترة الاختيار أعدادا سياسيا مزودينه بين جملة ما تزوده به بالكتب والمقالات.

ثم أننا زيادة في الأمن، اخترنا نمط التنظيم «العمودي» فكان كل واحد منا يرتبط بمناضل واحد، يجند هو بدوره مناضلا آخر، وهكذا فقد كانت «السلسلة» التي تتكون على هذا النحو، تبدو لنا أقل عطبا من الخلية التي تضم عدة أعضاء في آن معا. كان اجتماعاتنا تتم عموما في المقاهي (كان مقهاي المفضل هو مقهى الكمال الذي عملت فيه أثناء مراهقتي) فكنا نلعب بالنرد والدومينو ونحن نتحدث بصوت خفيض. وكنا نحرر ونطبع منشورات كلما اقتضى الظرف للتنديد بهذا الإجراء القمعي أ وذاك من الإجراءات التي تتخذها السلطات المصرية. ولكننا كنا نتلاقي على وجه العموم أن نلفت الانتباه إلى وجودنا. فمرحلة أعداد الكوادر تقتضي الانكفاء على الذات والتروي إلى أقصى الحدود. وكنا . زيادة في الحذر . نوقع على كل منشور باسم مختلف «كشباب الإصلاح» أو «شباب الثأر » مثلا على أننا كنا متفقين . رفاقي المقيمين في بلدان الخليج وأنا . على التسمية التي سنطلقها على الحركة التي نريد تأسيسها منذ عام 1958 فتح (حركة تحرير فلسطين) التي تصبح الأحرف الأولى منها ح.ت. ف. إذا ما قلبت فتح. ولكننا كنا عازمين على ألا نستخدم هذا الاسم طالما لم نزود الحركة بالبنى والأنظمة والقيادة المركزية، وهي مهمة سوف نستكملها في شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام 1959.

وفي مطلع عام 1959، طلب مني عرفات أن أبحث لنفسي عن وظيفة مجزية في بلد عربي نفطي., فرأت بي كأستاذ في غزة لا يكفي لتلبية حاجاتي المعيشية إلا بجهد جهيد، في حين أن الحركة تحتاج حاجة ماسة ملحة إلى المال ومن جهة أخرى، فإن في وسعنا ألآن ناضل بحرية أعظم في دول الخليج حيث مصالح الأمن أقل تطورا، وحيث قادة هذه البلاد أكثر تهيؤا إزاءنا مما هو هو الحال في البلدان المحاذية لإسرائيل.

وهكذا فقد قدمت ترشيحي لشغل وظيفة في دائرة التعليم في قطر، ولكن بعد أن تلقيت جوابا ايجابيا، أبلغت بأن الوظيفة لم تعد شاغرة، وقد بلغتني معلومات عبر أحد رفاقنا . أبو مازن . الذي يشغل وظيفة إدارية داخل هذه الدوائر، بأن مصالح الأمن المصرية حذرت سلطات قطر من أني كنت «شيوعا خطرا».

غير أنه لم يمض زمن طويل بعد ذلك، حتى جاء عبد العزيز حسين، مدير التعليم في الكويت، إلى غزة على رأس بعثة مكلفة بتجنيد معلمين وأثر إجرائه مقابلة معي قبل تشغيلي دون أن يعتد بتقرير الشرطة الذي تلقاه عني، والشبيه بذلك الذي أبلغ لقطر. ولما كنت متزوجا منذ فترة قريبة، فإنني قررت مغادرة غزة مع زوجتي الشابة، وعشية سفرنا، جاءني ضابط إلى منزلي ثم وضع أصفاده في يدي دون أن يدعم لي أي تفسيرات, وبرغم احتجاجاتي فإنه رافقني حتى مطار القاهرة، ولم يوافق على نزع الأصفاد إلا عند سلم الطائرة

التي ستأخذني إلى الكويت. أنه عدوي القديم، العقيد كمال حسين، رئيس إدارة الأمن في غزة، فهو لم يفلح في توقيفي أو في منعي من مغادرة البلاد، فكان حريصا حرصا ظاهرا على طيب ذكراي.

(3) انفجار التيار

كنا في العاشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1959، بضعة أشخاص مجتمعين في منزل سرى في الكويت لإيقاف فتح على قديمها. وسيتلو اجتماعنا هذا، انعقاد عدد آخر من الاجتماعات في الأيام التالية يحضرها مشاركون آخرون (أقل من عشرين شخصاً بالإجمال) وبسرية كاملة دائماً وأبدا. وعلى هذا فإن ممثلي المجموعات السرية القادمين من مختلف البلدان العربية، أو أمكنة أخرى، كانوا يتشاورون فيما بينهم للمرة الأولى بهدف مركزة نشاطاتهم ومحورتها. وفي هذا المؤتمر الضيق جرى التأسيس الشكلي غير أن مجموع تعداد المناضلين الممثلين في هذا المؤتمر الضيق لم يكن يبلغ الخمسمائة شخص.

وقد تم يومها إعداد عدة وثائق، وجرت الموافقة عليها خلال اجتماعات تشرين الأول هذه. وتدور هذه الوثائق حول بنى الحركة ونظامها الداخلي وإستراتيجيتها وتكتيكها ووسائل عمل وتمويل الثورة التي ستكون القابلة التي تولدها. وتوضحت مهمات مختلف أجهزة فتح، واتضحت معها الكيفية التي سيجري تجنيد وأعداد الأطر والكوادر على أساسها. أما البرنامج السياسي بحصر المعنى، والذي يحدد الخيارات الكبرى للحركة. فكانت الموافقة عليه قد تمت في مطلع عام 1958. فبعد أن قامت لجنة تكونت لهذا الغرض بتحرير هذه الوثيقة، فإنه جرت مناقشتها وتعديلها ثم الموافقة عليها خلال اتصالات شخصية أو بواسطة المراسلات التي تبادلناها.

كانت الوثيقة تعكس الإجماع الذي كنا قد توصلنا إليه في المحادثات العديدة والمناقشات التي أجريناها خلال سنوات الخمسين في القاهرة وغزة، إلا إنها كانت مبنية كذلك على تجارب من سبقونا في الحركة الوطنية. وبالرغم من أننا لم نقم في تلك الفترة بدراسة منهجية أو بتفكير جماعي حول هذا الموضوع، إلا أن كل واحد منا كان قد استخلص عبر قراءاته الخاصة دروس الماضي وعبره. كانت النتائج التي خلصنا إليها واحدة برغم إن إدراكاتنا وتحليلاتنا للأحداث التي وسمت تاريخ فلسطين يمكن أ، تكون غير متماثلة. ثم أن تقديراتنا ستتطور على كل حال وستتضح على مدى السنين.

وفيما يعنيني أنا، فإن تقديري هو أنه ليس من العدل، إصدار حكم إجمالي سلبي على عمل من سبقونا فهم أولا، لم يكونوا يشكلون كتلة متراصة. كان بينهم كبار البرجوازيين كما كان بينهم أناس متحدرون من أوساط شعبية. وكان بينهم الوطنيون كما كان بينهم الخونة، وكان بينهم صائبو النظر كما كان بينهم من يخطئون أحيانا. وكيف يمكن . أي ما كان الأمر . إلا يؤخذ بعين الاعتبار سياق حقبتهم، والذهنية السائدة فيها والصعوبات الموضوعية، الحاسمة أحيانا

. التي كان عليهم أن يواجهونها بدون أن يكونوا حائزين على التجربة الضرورية... ثم أن كثيرين منهم وتلك أمور لا يمكن أن نعزوها إلى الوضع الدولي غير المؤاتي وإلى قدرة العدو ومكره وحقده. فثمة أخطاء جسيمة ارتكبت. فكان كشف هذه الأخطاء وتحليلها تلافيا لارتكابها مجدداً، هو إحدى المهمات التي اضطلعنا بها.

ولا ريب في أنه لم تكن لمن سبقونا الأهمية التي تمتلكها منظمة تتمتع ببنى متينة. فقد ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية، حتى ظهور فتحن حركة تقودها شخصيات تنحدر من العائلات الكبرى وخاصة عائلتي الحسيني والنشاشيبي وغالبا ما كانت في حالة شلل وكثيرا ما تسود بينها المنافسة أو المواجهة عندما لا تتفق على السلوك الذي ينبغي أتباعه. أما المنظمة أو التنظيم فإنه غالبا ما يكون . إذا وجد . هشا ولا يضرب بجذوره في الفئات الشعبية، فكان يضمحل اضمحلالا تلقائيا عندما يختفي الزعيم لأن الزعيم هو روحه وركيزته. أما الشعب، فإنه كان يتبع القادة، أو يسبقهم في بعض الأحيان. ويمارس بفضل اللجان المحلية الناشئة عفويا، مختلف أنواع الصراع كالاضطرابات والمظاهرات، بل وكحرب العصابات. فعصيانات أعوام 1919 و 1923 و 1938 و 1933 و 1936 و 1938 تشهد بروح الأهالي الكفاحية، ولكنها تشهد كذلك بعقم المعركة التي لا يشنها ويقودها ويدعمها جهاز مركزي دائم يتمتع ببنية متينة.

ومن هنا كانت الأهمية الأولية التي أعطاها مؤسسو فتح، لإقامة منظمة شعبية حقا، تكون قادرة على الاستمرار مهما حدث، وكائنا ما كان مصير هذا القائد أو ذاك. وثمة خطأ آخر ارتكبه من سبقونا: فهم لم يقدروا أهمية ضم السكان اليهود أو جزء منهم على الأقل، إلى الحركة الوطنية، حق قدرها. فقادة ما قبل الحرب العالمية الثانية كانوا واعين أنهم يخوضون المعركة أساسا ضد المحتل البريطانيين فكانوا يطالبون دائماً وأبداً، ومنذ ذلك الحين، بانسحاب القوات الانكليزية، وبإعلان استقلال وسيادة الدولة الفلسطينية. وكانوا يتهمون حكومة لندن . محقين . بإثارة النزاع بين العرب واليهود، بإعلانها عام 1917 لوعد بلفور القاضي بإعطاء اليهود وطنا قويما في فلسطين، وبتغذية هذا النزاع بمختلف الوسائل، لتبرير وضمان دوام سلطتها الاستعمارية. فكان واضحاً أنه لا يمكن لهذه السياسة إلا أن تلحق الضرر بجميع السكان عرباً ويهودا.

ولا ريب في أنه كان لمفتي القدس الحاج أمين الحسيني، قائد المقاومة الرئيسي لما بين الحربين بلا منازع الفضل في اقتلاع كل أثر للطائفية بين العرب. فقد أفلح في الجمع بين المسلمين والمسيحيين في نفس المعركة ضد الامبريالية. فلماذا لم يحاول أن يقنع اليهود الفلسطينيين بأن مصلحتهم، إذا ما فهموها حق فهمها، تدفعهم إلى التحول عن الأوهام

الصـهيونية، والتفـاهم مـع العرب. ولمـاذا لـم تقم النقابـات الفلسـطينية مـن جهتهـا بتشـكيل جبهـة مشتركة مع العمال اليهود. لا ريب في أنه كان من الصعب على ضحايا الاستيطان الصـهيوني، وخاصـة أولئك الذين فقدوا أراضيهم ومصـادر رزقهم لصـالح المهاجرين الجدد، أن يميزوا بين اليهود الذين يحاولون التعايش مع الفلسطينيين، وبين زعمائهم الصـهاينة، إلا أنـه كان على القادة الفلسطينيين أن يكبوا ويواظبوا على مهمة تبديد الغموض وسوء التفاهم الصـهاينة اللذين يعيقان الوفاق اليهودي . العربي.

وهكذا فـإن مؤسسـي فتح استشفوا منذ البدايـة، إمكانيـة إقامـة دولـة ديمقراطيـة فـي كامـل فلسطين يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون كمواطنين متساوين. غير عوامل ذات طابع سياسـي كانـت تمنعنـا أن نجـاهر قبـل عـام 1968، بـالعرض الـذي ينبغـي لنـا أن نقدمـه لليهـود الإسـرائيليين. وكـذلك فـإن مـن سـبقونا ارتكبـوا غلطـة إلحـاق الحركـة الوطنيـة الفلسـطينية بـإرادة الأنظمـة العربيـة خـالطين بين بواعثهـا ودوافعهـا الأنانيـة وبـين دوافـع الشـعوب العربيـة البريئـة مـن الأغراض. كانت غالبية حكومات المنطقة في تلك الحقبة خاضعة لسوط انكلترا أو نفوذها بحيث أنه لم يكن بالإمكان . ضرورة أن بسبب طبيعتها . أن تكون حليفة صادقة لحركة تحرير تناضل ضد الاستعمار البريطاني بالذات، فقد استشهد الشيخ عز الدين القسام، وهو مناضل حقيقي من أجل الحرية، قام بتنظيم حقيقي الفئات الدنيا من الفلسطينيين قبل أن يبدأ المقاومة السرية عام 1932 وقضي ببطولة لأنه لم يستطع الحصول على أدنى دعم من أي بلد «شقيق». وإذا كان القسام قد لقي مصرعه عام 1935، أثر معركة خاسرة سلفاً، على يد الانكليز بالتأكيد، إلا أنـه موته يعزى بخاصة إلى المتواطئين العرب مع السلطات البريطانية.

وكذلك فإن أي نظام عربي لم يهب لنجدة الشعب الفلسطيني أثناء عصيان عام 1936 الشعبي. وانتهت الإضرابات العامة . التي دام أحدها ستة أشهر . والمظاهرات ومعارك المواجهة التي تتالت حتى عشية الحرب العالمية الثانية، إلى حمامات دم. فلم تكتف الدول العربية بأنها لم تفعل شيئاً لوقف المذابح وحسب، ولم تكتف بالامتناع عن تقديم معونة مادية لشعب أعزل يواجه المدافع والدبابات الانكليزيـة، بل إنها وجهت نداء علنيا إلى الشعب الفلسطيني تدعوه فيه إلى وقف المعارك ضد . وبالحرف . «حليفتنا العظمى انكلترا». وحاولوا بالمناسبة نفسها حرف الثورة وتضليلها بالإشارة إلأى اليهود على أنهم العدو الذي يجب صرعه.

وفيما بعد الحرب واصلت الدول العربية رفضها لمد الفلسطينيين بالوسائل التي يدافعون بها عن أنفسهم فـي حين كـان الصـهاينة فيـه يتلقون كميات مذهلـة من الأسلحة بفضل تواطؤ الانكليـز السـلبي أو الفعـال، فـي ذات الحـين الـذي كـان فيـه ميزان القـوى ينقلب بصـورة خطيـرة

لصالح الهاغاناه، وفي نفس الوقت الذي كانت هذه الأخيرة تواصل في الأشهر الأولى من عام 1948 غزوها للأراضي. ولكنهم إنقاذا للمظاهر أرسلوا بضع مئات من البنادق لأجل عشرات الآلاف ممن كان يمكن تعبئتهم من بيننا لخوض المعركة وكانوا يحتجون على سبيل التبرير، بأنهم قد ألزموا أنفسهم بأن يضطلعوا هم بتحرير فلسطين.

ومن المعلوم الآن، إلى ماذا أفضت مغامرتهم التي تدعو للرثاء. فلم تكن جيوشهم التي اجتاحت فلسطين في 15 أيار (مايو) 1948 قادرة حتى على أن تطبق على أرض المعركة، مشروع التقسيم الذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر تشرين الثاني . نوفمبر . 947، ولذلك سببه: فعاهل الأردن، الملك عبد الله، الذي كان يطمع بالضفة الغربية، سارع إلى ضم أراضي الضفة بلا قيد ولا شرط، في حين أن الملك فاروق وضع منطقة غزة تحت الإدارة المصرية. أما الحكومة التي تشكلت في غزة برئاسة أحمد حلمي باشا، فماتت في يوم ولادتها نفسه، بعد أن امتنعت كانفة العواصم العربية عن المخاطرة بدعمها. فالدول العربية يسرت وساعدت، عمليا، على تدعيم الأمر الواقع الذي هو إنشاء دولة إسرائيل، متيحة لهذه الأخيرة أن توسع مساحة الأراضي التي خصصتها لها هيئة الأمم المتحدة.

ونستطيع أن تضاعف من سوق الأمثلة التي تشهد بصحة المثل الشعبي القائل: «كل الثورات التي تولد في فلسطين، تجهض في العواصم العربية». فقد أثبتت التجربة إن كافة أنظمة المنطقة . الرجعية منها والتقدمية . تعاملنا في نهاية الأمر بنفس الطريقة مقدمة مصالحها على مصالح الشعب الفلسطيني.

وعلى هذا فأن مؤسسي فتح اقسموا اليمين على التصدي لكل محاولة لإخضاع الحركة الوطنية الفلسطينية لإشراف حكومة عربية كائنا ما كانت هذه الحكومة، وعلى السهر على أل يستعيدها أي بلد (شقيق) إلى حظيرته. فقد كان في تقديرنا، إنه بهذا الثمن وحده، نستطيع أن نضمن من استمرار مشروعنا، ومن ثم نجاحه في وقت لاحق. فإذا تجاوزنا عن هذا، فإننا كنا نفسر لمناضلينا، ثم لمحاورينا العتيدين، أننا لسنا غير انفصاليين وحسب، بل إننا نطمح إلى أن نصبح أبطال الوحدة العربية. خاصة ,أننا كنا مقتنعين بأن الفلسطينيين لا يستطيعون بمفردهم تحرير وطنهم، طالما بقي ميزان القوى المحلي والعالمي على ما هو عليه . ووضعنا لأنفسنا كهدف، أن نصبح الوسيط والحافز لقوة عربية وحدوية ثورية، ورأس حربة لجبهة عريضة تستطيع هي وحدها أن تعيد للفلسطينيين حقوقهم. هكذا كانت إستراتيجيتنا ولا تزال. وبانتظار أن تفضي إلى المأمول، فإنها لا تستبعدن بل على العكس، قيام تحالفات تكتيكية مع حكومات عربية وغير عربية تتلاقى مصالحها ومصالحنا.

وقد طبق الحاج أمين الحسيني هذا المبدأ تطبيقياً خاطئاً،حين انضم أثناء الحرب العالمية الثانية إلى ألمانيا الهتلرية مرتكبا بذلك خطأ ندينه جميعاً بأقصى ما يمكن من شدة. بعد هذا يبقى من الضروري أن نضع سلوكه هذا في سياقه الحقيقي. فالدعاية الصهيونية تقدم الحاج أمين، لأسباب لا تخفى، كمتعاطف مع النازية. لكن كافة من عرفوه . وأنا منهم . يستطيعون أن يشهدوا بالعكس. كان الحاج أمين وطينا . محافظاً بالتأكيد . ولكنه صادق وينبغي لي أن أقول، إبراء له، إنه برغم عقيلته وبرغم التباينات الجدية التي كانت تفصلنا، فإنه لم ينتقد فتح وقادتها في العلن مطلقاً. وقد التقيت به في آخر مرة عام 1947 قبل وفاته بثلاثة أشهر. وحين أخذت عليه ربطه لمصيره بألمانيا فإنه فسر لي دوافعه. فهو لسخطه على دور وأساليب انكلترا في فلسطين ولمطاردة السلطات الانتدابية له، فإنه التحق تلقائيا بالمعسكر المناوئ.

ثم إنه شأن كثيرين آخرين من القوميين العرب، ولا سيما في مصر والعراق، اعتقد أن قوى المحور ستربح الحرب وستمنح فلسطين الاستقلال، عرفانا منها بجميل كافة الذين دعموها في النزاع. وقد لفت نظره إلى أن مثل هذه الأوهام إنما تستند إلى حسابات ساذجة، خاصة عندما نتذكر أن هتلر كان يضع العرب في المرتبة الرابعة عشرة، بعد اليهود، في سلسلة مراتب جودة «الأعراق» على سطح كوكبنا، ولو ربحت ألمانيا الحرب لفرضت على العرب الفلسطينيين احتلالا أشد شراسة من ذلك الذي عرفوه تحت الانتداب البريطاني.

قلت إذا أن الحاج أمين لم يكن نازيا، كما لم يكن القادة الفلسطينيون الذين دعموا انكلترا خلال الحرب عملاء الاستعمار. ذلك أن هؤلاء الأخيرين، وبكل بساطة، راهنوا على انتصار الحلفاء، آملين أن ينتزعوا بذلك استقلال وطنهم، الذي هو الهدف الأول المقدس لكافة صراعات الشعب الفلسطيني منذ الحرب العالمية الأولى. إن الذين حاولوا تأكيد الأطروحة القائلة بأن الوطنيين الفلسطينيين قد وضعوا أنفسهم في خدمة ألمانيا لهتلرية، إنما يتجاهلون بأن الآلاف من مواطنينا قاتلوا في صفوف الجيش البريطاني، وإنه تم إعداد أفضل مدربينا العسكريين أي أولئك الذين ساهموا بتدريب الفدائيين، على يد القوات الانكليزية.

لا بل إن سخرية القدر شاءت أن يكون أول قائد لجيش التحرير الفلسطيني الذي تشكل عام 1965، وهو اللواء وجيه المدني، خريج نفس الدورة التي تخرج منها موشي دايان، في مدرسة عسكرية بريطانية في فلسطين... وليست تجارب من سبقونا وأخطاؤهم وحدها هي التي ساهمت في توجيه خططنا الأولى. فحرب العصابات التي اندلعت في الجزائر قبل تأسيس فتح بخمس سنوات، قد أفادتنا إفادة عميقة. كنا مأخوذين بمسيرة الوطنيين الجزائريين الذين استطاعوا أن يشكلوا جبهة صلبة وأن يخوضوا المعركة ضد جيش قوى، يفوق جيشهم ألف مرة، وإن

يحصلوا على معونة متعددة الأشكال من مختلف البلدان العربية التي كانت في بعض الأحيان تنتمي إلى معسكرات متناحرة، وأن يفلحوا في الوقت نفسه في عدم الوقوع بالتبعية لأي منها. فكانوا رمزاً، إذا صح القول، للنجاح الذي كنا نحلم به.

ولما لم تكن لنا علاقات مع ممثلي جبهة التحرير الوطني الجزائري، فإننا رحنا نتزود بالوثائق حول الحركة الجزائرية مما كان ينشر في الصحف والكتب. كانت ثقافتي السياسية تعاني من الكثير، وكنت كطالب في الفلسفة قد الفت هيغل وماركس ولينين بعض الألفة بحكم وبطبيعة الأشياء، إلا أن قراءاتي ظلت انتقائية تذهب من ميشيل عفلق (مؤسس البعث) وسيد قطب (أحد أصحاب المذهب في حركة الأخوان المسلمين) إلى قصص المغامرات والكتب البوليسية. وإنما بدأت اهتم على نحو خاص بالثورات، جميع الثورات، بعد عودتي إلى عام 1957. والتهمت مؤلفات لينين. كانت شجاعته وتفاؤله العميق حتى في الفترة التي كان يعيش فيها كمنفي سياسي في الخارج تثيراني. ثم إن في استيلاء البلاشفة على السلطة والصعوبات التي واجهوها تعاليم عديدة كانت تبدو لي ذات فائدة كلية عامة. إلا أنني كنت أشعر بنفسي أقرب إلى ماوتسي تونغ الذي كان حسه الخلقي أقرب فيما يبدو لي إلى الإسلام منه إلى مادية لينين المحضة ثم إن «المسيرة الطويلة» مسيرة الـ 10000 كيلومتر، استحوذت قبل هذا كله على خيالي. وجعلتني أحلم فأتمثل الشعب الفلسطيني حاملا السلاح عائدا إلى بلاده ليطرد محتليه. وقد كتب فرانز فانو الذي كان أحد كتابي المفضلين في كتاب «معذبي الأرض» الذي قرأته وأعدت قراءته عدة مرات. إنه ليس سوى الشعب الذي لا يخشى مدافع ودبابات العدو بمستطيع أن يخوض الثورة إلى منتهاها. فكان يعني أن الوطنيين الجزائريين ما كانوا سيباشرون أي أمر، فيما لو أنهم أخذوا بعين الاعتبار ميزان القوى السائد في اللحظة التي أشعلوا فيها انتفاضتهم. كان في وسعنا إن نلاحظ في تلك الحقبة كم كان فانون مصيبا. فقد كانت الشعوب من أقصى العالم الثالث إلى أقصاها، تمتشق السلاح، برغم إنها عزلاء مجردة، لتأخذ حريتها واستقلالها غلابا.

كان مؤسسو فتح، يقدرون تماماً تفوق إسرائيل العسكري، ومدى وسائلها وقوة حلفائها، إلا أنهم حددوا لأنفسهم برغم ذلك، كهدف أساسي، تسعير الكفاح المسلح. ليس لأننا كنا نتعلل بوهم الاستطاعة على التغلب على الدولة الصهيونية برغم كل شيء، بل لأنه لم تكن لدينا وسيلة أخرى لفرض القضية الفلسطينية على انتباه الرأي العام العالمي، ثم وبخاصة، لتجميع جماهير شعبنا داخل الحركة الشعبية التي نسعى لإنشائها. كنا نأخذ بعين الاعتبار . من هذه الناحية . عاملين اثنين: عقلية الفلسطينيين وتوزعهم على مختلف الأحزاب السياسية العربية. ونحن لم نكن

نستطيع منافسة هذه الأحزاب على الصعيد الإيديولوجي. فلم يكن لدينا ما نقدمه خيراً مما لدى الإخوان المسلمين والشيوعيين والقوميين العرب أو العبثيين كل في مجاله. ولاحق هو أننا كنا نعتقد أن هذه الأحزاب هي تشكيلات سلبية، بمقدار ما كانت تطرح تحرير فلسطين وتجعله في المستوى الثاني، ثم لأنها تقسم الفلسطينيين.

كان الكفاح المسلح وحده قادراً على التسامي على التباينات الإيديولوجية وأن يصبح بالتالي حافزا ووسيطا للوحدة، وبالفعل، فقد كنا بدأنا نلاحظ أن كثيرين من أبناء وطننا ممن أوسعتهم الأحزاب ورجال السياسة العرب خطابات وأشبعتهم وعودا، بدؤوا يصابون بالإعياء من هذه المماحكة العقيمة ويساءلون عما إذا لم تكن الدعوة الإسلامية والعروبية والشيوعية تشكل تحولات منفرة، أو ما هو أسوأ من ذلك، أي بدائل تحل محل الهدف الذي يتشغف أفئدتهم، عنيت، هدف استعادة وطنهم. وإنما تمكنا أن نعرض عقيدتنا أما الجمهور الواسع بواسطة مجلة بدأنا نحررها ونطبعها بصورة سرية مغفلة منذ عام 1959 تحت اسم «فلسطينيا» فكانت تظهر بصورة غير منتظمة وبحسب ما تنتجه وسائلنا وإمكانياتنا وهي تشتمل على معلومات وآراء ومقالات موقعة بأسماء مستعارة ونعالج فيها بعبارات بسيطة في متناول الكافة، مبادئ أساسية يمكن إيجازها كما يلي: إن العنف الثوري هو الطريق الوحيد المؤدي إلى تحرير الوطن، ولا بد من أن يمارس، في المرحلة الأولى على الأقل، من قبل الجماهير الفلسطينية نفسها بقيادة مستقلة عن الأحزاب والدول، غير أن دعم العالم العربي الفعال، هو أمر لا غنى عنه لنجاح المشروع، على أن يحتفظ الشعب الفلسطيني بسلطة التقرير وبدور الطليعة.

كانت فتح تناقض أطروحات قومية عربية كانت تسود في تلك الحقبة وهي تلعن أن «الوحدة العربية تمر بتحرير فلسطين» لا العكس. وكانت هذه المواقف مواقف جسورة في لحظة بلغت فيها الناصرية أوج قمتها، وبدت فيها ولادة الجمهورية العربية المتحدة التي جمعت بين مصر وسوريا، كنقطة انطلاق لتيار سيكتسح دولة إسرائيل.

غير أن مهمتنا الرئيسية في خريف عام 1959، لم تكن كسب قطاعات واسعة من الرأي العام لوجهات نظرنا، وإنما إنهاض المنظمة التي ستتيح لنا شن الكفاح المسلح وأن نصبح حركة جماهيرية. وابتكرنا فكرة جهازين احدهما عسكري والآخر سياسي على النمط الهرمي. فكانت هناك خلايا القاعدة ولجان مناطق ومجلس ثوري ينبغي له أن يعمل تحت الرقابة العليا للجنة مركزية تستمد سلطتها من مؤتمر وطني، وهو ضرب من البرلمان الذي يضم ممثلي كافة فئات الشعب الفلسطيني: التجار والموظفون والعمال اليدويون، وأعضاء المهن الحرة، والمثقفون الذين ينبغي لأعضائنا أن يناضلوا بينهم كمستقلين.

وخلال المرحلة المسماة بمرحلة أعداد الأطر والكوادر والتي تمتد من عام 1959 إلى عام 1964، أوجدنا مئات الخلايا مئات الخلايا على أطراف دولة إسرائيل، في الضفة الغربية، وغزة وفي مخيمات اللاجئين في سوريا ولبنان، وكذلك داخل التجمعات الفلسطينية في البلدان العربية الأخرى وفي إفريقيا وأوروبا وحتى في الأميركيتين الشمالية والجنوبية، وكان مناضلونا يتوصلون، دون إن يكشفوا انتماءهم لفتح إلى الفوز في الانتخابات لمراكز القيادة في النقابات والنوادي والتجمعات الحرفية والمجالس البلدية. كما أن من يملكون كفاءات خاصة منا، كانوا يجدون أنفسهم وقد عهد إليهم بوظائف هامة في هذا البلد العربي أو ذاك.

كانت السرية المطلقة هي القاعدة في كافة نشاطاتنا. وكانت كل خلية تضم ثلاثة أعضاء على الأكثر ولا يعرفون بعضهم بعضا إلا بأسمائهم القتالية التي كانت تتغير بين الحين والآخر، كإجراء أمن إضافي. وكانت أمكنة اجتماعهم المفضلة هي المؤسسات العامة أو الأمكنة التي يكونون فيها على مرأى من الكافة وذلك بمناسبة نزهات وهمية ينظمونها لهذا الغرض. إما الاتصالات الهاتفية والمراسلات فكانت ممنوعة بحيث أن المبادلات كانت تتم شفوياً، وحتى لو كان على القيادة أن ترسل موفدين إلى بلدان أخرى تتمتع تنظيماتنا فيها باستقلال ذاتي كبير. وقد امتنعنا أثناء هذه المرحلة، وفاء لمبدئنا في الاستقلال، إن نطلب أدنى معونة مالية من أية دولة في المنطقة، رغم أن حاجاتنا كانت هامة. فلم يكن علينا أن نؤمن عمل فتح ونموها وحسب، وإنما أن نغذى كذلك مختلف الصناديق المالية التي كان أحدها مخصصا لشراء الأسلحة. فبدأنا منذ ذاك نطلب تضحيات جساما من مناضلينا، الذين كانوا يدفعون جزءا هاما من أجرهم أو من راتبهم . يزيد أحيانا على النصف . غلى صندوق فتح. ومن جهة أخرى فإن أثرياء فلسطينيين، من فلسطيني المنفى كانوا أعضاء في حركتنا أو متعاطفين معها، راحوا يغذون هذا الصندوق بكرم بالغ. وعلى مدى السنين بدأ جامعوا التبرعات لنا يشكلون شبكة واسعة من المتبرعين المنضمين أو المنضمين إلى لجان الدعم.

وعرفت فتح أول انطلاقة لها اعتبارا من عام 1961. وثمة حدثان ساهما في توسيع صفوف الحركة. كان الأول هو نجاحنا في توحيد معظمة الخمس وثلاثين أو الأربعين منظمة فلسطينية من تلك التي كانت قد نشأت بصورة عفوية في الكويت. صحيح أنه لم يكن لكثير منها سوى وجود كسيح ولا تضم الواحدة سوى مجموعة أو مجموعتين من الشباب المتحمس. إلا أنه يظل صحيحاً كذلك إن دخولها إلى فتح وضع حدا لتبعثر الإرادات الطيبة، كما كان يحمل إلينا في بعض الحالات عناصر ديناميكية وكفؤة.

أما ما كان أهم من ذلك فهو الاندماج الذي تفاوضنا عليه مع المنظمة التي كان يذكيها في قطر وفي العربية السعودية، ثلاثة رجال سيلعبون بعد ذلك أدوارا من المقام الأول: هم أبو يوسف النجار وكمال عدوان «اللذين استشهدا على يد مجموعة مغاوير إسرائيلية في بيروت في شهر نيسان . إبريل . 1973» وأبو مازن، وهو حاليا عضو اللجنة المركزية في فتح. كانت أفكارهم متقاربة جداً مع أفكارنا، فكان أن تم اتفاق الوحدة بيننا دون صعوبات. كما كان بينهم الشهيد الأول للجنة المركزية المهندس عبد الفتاح حمود (أبو صلاح).

والحقيقة هي أن انفراط الجمهورية العربية المتحدة في أيلول . سبتمبر 1961، سجل بداية استمالتنا إلى حركة جماهيرية. فالخيبة التي أثارها فشل الوحدة المصرية السورية، التي كانت بحجم الأمل الشاسع الذي ثار لدى إعلانها تحت كنف عبد الناصر قبل ذلك بثلاث سنوات، حثت العديد من الفلسطينيين على الفرار من تنظيماتهم الخاصة والالتحاق بفتح، وسيسوء حكم القارئ على تعجل الفلسطينيين وبميلان صبرهم إزاء استعادة وطنهم، إذا لم يقدر مدى ضنكم. فالمنفى بحد ذاته، هو الم لا يستطيع فهمه سوى أولئك الذين عانوه. ثم إن الشقاء والتعاسة يكونان أعظم عندما يلي فقدان الدار، الانفصال عمن نحبهم. فقليلة هي العائلات الفلسطينية التي لم تذهب أشلاء بتبعثرها بسبب الحاجة في مختلف البلدان، العربية ويغر العربية، وفي أجزاء تبلغ في البعد مبلغ الولايات المتحدة أو أميركا الجنوبية.

وعلى هذا فإن المصير الذي آلت إليه عائلتي من هذه الناحية ليس مصيراً استثنائيا. فأخي البكر، عبد الله، عمل كعامل ميكانيكي في العربية السعودية قبل أن يصبح تقنيا يعمل في حقل تكييف الهواء في الكويت. إما أخي الأصغر الذي يليه سنا، أحمد، فهو أستاذ أدب انكليزي في قطر، إلا أنه عاش قبل ذلك في باكستان ومصر وانكلترا. وأما شقيقاتي سلوى وإنصاف، فهما وأن كانتا مقيمتان في العربية السعودية، إلا أن الأولى تعلم في جدة بينما استقرت الثانية في الرياض حيث تزوجت من موظف يعمل في وزارة الدفاع. وهكذا فإننا لم نفلح خلال ربع قرن، في أن نجتمع سوى مرة واحدة عام 1977 وذلك بمناسبة عملية جراحية خطيرة أجريت لشقيقي عبد الله في الكويت. وغاب عن اجتماع العائلة المشهود هذا، غائب واحد: هو والدي الذي توفي قبل ذلك بسنة في القاهرة. وحين غادر الفلسطينيون فلسطين عام 1948، ظنوا سيلقون في البلاد العربية عطف الأشقاء. وكم كان ذهولهم عظيما حين لاحظوا أنهم يعاملون كأجانب في أفضل الأحوال، أو كأشخاص غير مرغوب فيهم في غالبية الدول. أما لبنان، وهو الأرض المضيافة فقد أجاز لهم الإقامة مهتما بهم معتنيا بشأنهم. ولكن مخيمات اللاجئين التي نصبت فيه، لم تلبث أن تحولت إلى مراكز «تحجير» (غيتو) بحيث لا يمكن الدخول إليها أو الخروج منها إلا بإجازة. أما

في الأردن فكان الدخول إلى المخيمات حرا، إلا أن اللاجئين كانوا يخضعون لرقابة بوليسية ثابتة، بحيث أن كل نشاط سياسي، بل أي اعتراض، يعاقب عليه باستجوابات منهكة، وسجين تعسفي بل بالتعذيب. أما في سوريا، فإن شروط الحياة كانت أقل قسوة، ولكن السلطات كانت تطالب ضيوفها بالمقابل، بامتثال كامل، والتحاق غير مشروط بالنظام القائم، يساريا كان أم يمينيا، (انفصاليا) أو عروبيا. كما أن مشكلة الاستخدام كانت هي نفسها من أقصى العالم العربي إلى أقصاه: فأبناء البلاد يتمتعون بالأولوية في تقلد الوظائف، أما الفلسطينيون فكان عليهم الاقتناع عند الاقتضاء بالوظائف الثانوية الشاقة أو الزهيدة الأجر. وعلى أي حال، فإنه كان عليهم أن «يؤدوا ما عليهم» إزاء مصالح الأمن، التي كان في مقدورها أن تقضي بالبطالة على كل فلسطيني تشتبه «بإخلاصه» أو تظن فيه «الخريب».

كانت الكويت أحد الاستثناءات القليلة على القاعدة. فطالما ابدي شعب وحكومة هذه الدولة الصغيرة تعاطفاً ودعما إزاء الفلسطينيين الذين ساهموا، والحق يقال، في نمو ورفاهية هذه الإمارة، إن بإعدادهم وإن بنوعيتهم، وذلك قبل أن تغرقها مداخيل النفط.

وتضم الجالية الفلسطينية التي تمثل حوالي 20 بالمائة من سكان الكويت عددا من المعلمين والمهندسين والأطباء وكبار الموظفين. فضلاً عن جمهور واسع من العمال المؤهلين. فليس من قبيل الصدفة أن تكون فتح كبرت ونمت وترعرعت في الكويت فكثير من بيننا كانوا يشغلون مناصب ممتازة هناك: فياسر عرفات كان مهندساً يتمتع بكثير من التقدير والاحترام في وزارة الأشغال العامة، وفاروق القدومي (أبو اللطف) كان يدير دائرة في وزارة الصحة العامة، وخالد الحسن وعبد المحسن القطان كانا من كبار إداريي الدولة. وأما خليل الوزير (أبو جهاد) وأنا فكنا أستاذين في مدارس ثانوية. ونمر صالح (أبو صالح) فقد كان عاملاً فينا هناك وله شعبية خاصة بين العمال.

وهكذا فإننا كنا، بالنسبة إلى الفلسطينيين الذين يعيشون في بلدان عربية أخرى بمثابة أصحاب امتيازات. فبالرغم من أننا كنا نقوم بنشاطات سرية واسعة، إلا أننا لم نكن نلاحق أو نضطهد., ودروس اللغة العربية والفلسفة وعلم النفس التي كنت أتولاها كانت تتيح لي أن أعرض أفكار فتح بكل طمأنينة على طلابي الذين كنت أجند من بينهم أفضل العناصر. وبالمقابل فإننا كنا نشاطر كافة الفلسطينيين قدرهم لجهة القيود المفروضة على تنقلاتنا. فبرغم أننا كنا نحمل جوازات سفر صادرة عن هذه الدولة العربية أو تلك، فإننا كنا مطالبين بالحصول على تأشيرات خروج ودخول، كانت تعطى لنا بشح وتقتير، وبعد الكثير من المساعي المضنية.

كان لنا أن نكون رعايا مصريين أو سوريين وأردنيين ولبنانيين، إلا أن سلطات أوطاننا بالتبني ظلت تعاملنا كأجانب، فضلاً عن معاملتنا كمشبوهين.

فالفلسطيني المزود بوثيقة سفر مصرية مثلا، لا يستطيع الخروج من البلاد أو الدخول إليها، دون أذن خاص. ولما كنت أتولى مسئوليات تنظيمية داخل فتح، فأني كنت مجبراً من جهتي على أن أكثر من ارتياد مختلف البلاد العربية، فكانت تضاف إلى إزعاجات التأشيرات، الصعوبات الإدارية في الحصول خلال السنة المدرسية على عطل غير نظامية. فكنت أتلافي القيام برحلات لا تكون ضرورية للغاية.

إلا أن ظرفاً قاهرا طرأ في آذار (مارس) 1963 عندما علمت أن شقيق زوجتي البكر، وهو مهندس يقيم في القاهرة، قد توفي بحادث، فكان أن أثارت التفسيرات التي قدمتها لا طلب الأذن بالغياب، تشكك وكيل وزارة التربية الوطنية يعقوب الغنيم الذي انتهى إلى الارتياب بأني أتعاطى نشاطات غامضة، والغنيم رجل مرهق يملك حسن دعابة حاداً، وقد قال لي وهو يضحك لقد تذرعت، تبريراً لسفراتك الكثيرة في هذه السنوات الأخيرة، بوفاة والدك، ثلاث مرات على الأقل، وبوفاة والدتك أربع مرات وكذلك بموت أشقائك وشقيقاتك. أفتظن أنك تستطيع أن تقنعني اليوم بوفاة شقيق زوجتك المأساوية». ولست أدري إذا كنت أفلحت بإقناعه بحسن نيتي، لكن يعقوب الغنيم الذي سيصبح فيما بعد أحد أفضل أصدقائي «والذي لا يزال يشغل نفس الوظائف» قد وافق على منحي على الأذن بالسفر. فاصطحبت زوجتي وابنتي إيمان التي كانت في الثالثة من عمرها، ثم صعدنا إلى طائرة متجهة إلى بيروت حيث كان ينبغي لنا أن نمضي الليلة قبل أن نأخذ الطائرة إلى القاهرة، ولكننا اصطدمنا برفض السلطات اللبنانية في أن تعطينا تأشيرة دخول مؤقت (ترانزيت) لأربع وعشرين ساعة، ودعينا لتمضيه الليل في مطار بيروت في غرفة صغيرة لا نستطيع حتى أن تتمدد فيها، فرحت أترافع لصالح زوجتي وابنتي إيمان التي كانت في الثالثة من عمرها، ثم صعدنا إلى طائرة متجهة إلى بيروت حيث كان ينبغي لنا أن نمضي الليلة قبل أن يأخذ الطائرة إلى القاهرة. ولكننا اصطدمنا برفض السلطات اللبنانية في أن تعطينا تأشيرة دخول مؤقت (ترانزيت) لأربع وعشرين ساعة، ودعينا لتمضية الليل في مطار بيروت في غرفة صغيرة لا نستطيع حتى أن تتمدد فيها، فرحت أترافع لصالح زوجتي وابنتي، عارضاً أن أبقى في المطار بينما تمضيان هما الليلة في فندق بالعاصمة. ولكن عبثاً، إذ أن ضابط الأمن لم يتزحزح عن م وقفه.

وفي أثناء ذلك. تم إدخال كلب إلى الغرفة التي كنا محتجزين فيها. إذ لم يكن باستطاعته هو الأخر أن يدخل إلى البلاد، لأنه لا يحوز على شهادة صيحة نظامية، كنت بدأت أتعزى

بفكرة أنه ليس ثمة تمييز يفصل بين الفلسطينيين والكلاب، عندما جاء من يسعى وراء صاحبنا العاثر الحظ، بعد أن نال إعفاء استثنائياً بسبب «تدخل رفيع المستوى» تم لصالحه, وقد ظل هذا الحادث، الذي يرمز إلى المصير الذي ينتظر الفلسطينيين محفوراً في ذاكرتي، بحيث أني بعد ذلك بعشر سنوات، رؤيته لشخصية لبنانية تشغل حالياً منصباً هاماً داخل حزب الكتائب، لأدلل له على قدر الفلسطينيين البائس وعلى معنى كفاحنا. فشزرني ببرود وقال لي بلهجته ازدراء: «إن حركتك التحريرية لم تدرك أي هدف من أهدافها ولا تزالون غرباء غي مرغوب فيهم ولن تحصلوا مطلقاً على حق الدخول إلى البلدان العربية. والنتيجة الملموسة الوحيدة لوجودكم في لبنان، هو أنكم ساهمتم بدعواكم في حقل الأجور، إلى رفع الأجرة التي ندفعها لخدمنا». فضررت أسناني وكظمت غيظي ولم أجب. كان علي أن أضبط، أعصابي في لحظة كنت أحاول فيها المفاوضة على اتفاق يهدف إلى تجنب اللبنانيين حربا أهلية مدمرة وتجنيب المقاتلين الفلسطينيين محنة جديدة قاسية في بلد يشكل بالنسبة إليهم آخر ملاذ لهم في العالم العربي غير أن زوجة محدثي التي كانت شاهدة على محادثتنا لم تستطيع أن تكبح سخطها على مثل هذه الصلافة الشرسة. فقالت بحدة: « لو كنت مكان أبو أياد، لقتلتك في الحال..» غير أن محدثي لم يخطئ في نقطة واحدة، فنحن برغم صراعاتنا وانتصاراتنا، وبرغم الآلاف من شهدائنا، بما في ذلك الذين ضحينا بهم في ميدان المعارك العربية، لا تزال أبداً تعامل كالموبوئين بالطاعون.

وأريد أن أذكر بهذا الصد، حالة قريبة العهد بين كثير من الحالات الأخرى، هي تلك التي حدثت لتدعو أحمد الأسطل الذي يحمل جواز سفر مصري حسب الأصول، ولكنه وجد نفسه ذات يوم في عام 1976 ممنوعا من دخول مطار القاهرة. ووضعته السلطات المصرية في طائرة متجهة إلى دمشق حيث ما لبث أن أبعد باتجاه الكويت. وهناك وضعوه في طائرة متجهة إلى عمان التي رفضت قبوله. وهكذا فقد قام بجولة حول مختلف البلدان العربية، ولمدة أسابيع، قبل أن يتمكن بعد مداخلات كثيرة، من أن يجد ملاذا. والأسطل حسب علمي، لم يرتكب أي عمل يستحق العقاب، لكن تقريرا ما من تقارير الشرطة مبيناً على أشاع، يكفي لتجريم فلسطيني. أن شعباً بلا وطن، لهو شعب بلا حول وبالتالي بلا دفاع. أمن العجيب بعد هذا، إذا بحثنا عن انعكاس هويتنا، بل وجودنا في رموز مثل جواز السفر أو العلم، ومن بداية سنوات الستين، راح الاستياء ينتشر بين الفلسطينيين بسبب اللامبالاة التي كانت تظهرها إزاءهم مختلف الأنظمة العربية، فكانت الحاجة إلى منطقة قتالية في مجلة فلسطينيا تزداد إلحاحا. لا سيما بعد الحملة التي خضناها في مجلة فلسطينيا.وكان التقدير السائد لدى العديد من الحكومات العربية، هو أنه

يجب ملئ هذا «الفراغ» بإنشاء حركة تأخذ على عانقها الغضب المتزايد الذي يهدد بأن ينقلب ضدها. فكانت لا بد لها من أن تجد الرجل القادر على تنظيم الحسيني الذي كانت مهابته لا تزال عظيمة أن لم نقل سليمة كاملة لدى قطاع واسع من الرأي العام، كان لا يزال جاهزا. غير أن عبد الناصر لم يكن شغوفا بمفتي القدس السابق. فقد منحه حق اللجوء السياسي إلى مصر ولكنه منعه من القيام بأي نشاط عام.

كان تقدير الريس أن الزعيم الفلسطيني الهرم يرمز إلى ماض ولى إلى الأبد، وانه على كل حال، أفقد نفسه الاعتبار بتعاونه مع ألمانيا النازية. فكان يفضل عليه أحمد الشقيري وهو محام محترف ومحدث لبق وخطيب ومجيد، كما أنه اكتسب فوق ذلك تجربة في الحياة الدولية بتمثيله العربية السعودية في الأمم المتحدة.

وهكذا فقد جرى تكليف أحمد الشقيري في شهر أيلول (سبتمبر) 1963، بالبحث عن وسائل تأكيد وجود «كيان فلسطيني» فكان عليه أن يتشاور مع الحكومات العربية لهذا الغرض، بهدف عقد مؤتمر فلسطيني يؤسس منظمة تمثيلية.

وما لبثت منظمة فتح أن اكتشفت المناورة وقدرت خطوة هذه المؤسسة التي تشكلها وتحركها وتشرف عليها الأنظمة العربية، على الحركة الوطنية الفلسطينية. وقد سبق لنا، ياسر عرفات، وأنا، أن عرفنا الشقيري جيداً في مطلع سنوات الخمسين في الفترة التي كنا نقود فيها الاتحاد الطلاب الفلسطينيين فقررنا الاتصال به لإقناعه بالتعاون معنا. وخلال محادثة أولى معه، في القاهرة، حاولت أن أفسر له لماذا نعتقد أن منظمة تشكل «من فوق» ستكون منظمة غير فعالة إذا لم تتمتع بدعم «القاعدة» الفعال. وعرضت عليه التنسيق السري بين نشاطاته العلنية وبين عمل نخوضه بصورة سرية. وبهذا تصبح منظمة التحرير الفلسطينية التي ستعهد إليه أول قمة عربية بتشكيلها في كانون الثاني (يناير) ضرباً من الوكالة اليهودية . كما قلت له . ونوعا من الواجهة الشرعية للكفاح المسلح الذي يقوم به مناضلونا على أن يتم تأمين الاتصال بيننا وبين منظمة التحرير عبر بعض أطرنا (كوادرنا) التي يستطيع الشقيري تعيين بعضنا من أعضائها في اللجنة التنفيذية للمنظمة.

وأصغى إلى أحمد الشقيري . الذي كان لا يزال يجهل كل شيء عن فتح . بكثير من الانتباه والتعاطف كما بدا لي. ثم طلب مهلة للتفكير. وخلال جولته في العواصم العربية كلمه بعض الرفاق المكلفين بذات المهمة المناطة بي، بلغة مماثلة. إلا جوابه كان سلبيا. وأبلغني أن وظائفه وعلاقاته مع الأنظمة العربية وواجبه في عدم الأضرار بإستراتيجية الجامعة، التي كان قوامها في تلك الحقبة، منع إسرائيل من تحويل مياه نهر الأردن لصالحها، تمنعه من عقد مثل

هذا التحالف معنا. وبعد ذلك بعدة سنوات، أي بعد أن أبعد عن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية راح يبرر موقفه السلبي بإلقاء المسؤولية على عبد الناصر وعلى قادة آخرين. والواقع هو أن تفسيراته المتأخرة ليست مقنعة. إذ لماذا كان عليه أن يستشعر الحاجة إلى الحصول على موافقة رؤساء الدول العربية ما دمنا عرضنا عليه إقامة علاقات سرية بيننا لكن الشقيري بدلا من إن يساعدنا كما وعد، فإنه راح بعد ذلك يحاربنا بأقصى ما لديه من طاقة.

وقد دعي أول مؤتمر وطني فلسطيني إلى الانعقاد في 28 أيار (مايو) 1964. فكانت المسألة المطروحة علينا حينذاك هي مسألة ما إذا كان ينبغي لنا أن نقاطعه أم لا. فطبيعة رعايته، وتركيبه والهدف الذي ينزع إليه وغير ذلك من العوامل، كانت تدفعنا إلى التغيب عنه9. غير أن أسبابا أخرى كانت على العكس من ذلك، تحث على اشتراكنا فيه: منها ضرورة عدم الانقطاع عن الحياة السياسية الفلسطينية، ومنها الضرورة الأخرى الأكثر إلحاحا، إلا وهي ضرورة التسرب إلى داخل منظمة غنية وقوية للإفادة من الوسائل التي تتمتع بها. فقد كان يسعها فعلاً أن تستخدم استخداما مفيداً كواجهة لنشاطاتنا السرية. وهكذا فإن عددا من رفاقنا (منهم أبو جهاد ومحمد النجار وكمال عدوان وخالد الحسن) شاركوا في المؤتمر واستغلوا مشاركتهم للدفاع عن أطروحات فتح الرئيسية، ولا سيما أطروحة الكفاح المسلح. كنا نحاول أن نفتح طريق حرب العصابات التي كنا نعد لها إعداداً محموما بحسب وسائلنا المتواضعة. ولما كنا لا نتمتع بدعم مالي من قبل أية حكومة كانت، فإننا رحنا نشتري من سوق السلاح أسلحة خفيفة بكميات ضئيلة، ومن نوعيات سيئة الجودة، في غالب الأحيان. على أن أحد مشكلة واجهناها، كانت مشكلة إعداد فدائيينا العتيدين، وهم أكثر من ألف ممن نظمناهم في خلايا. كنا نستطيع عند الاقتضاء أن نشرك عسكريين قدامى ممن خدموا في مختلف الجيوش العربية أو في القوات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية. إلا أنه لا بد من تهيئة أماكن آمنة لأغراض التدريب.

كان النظام العربي الوحيد الذي يؤيدنا عام 14964، هو نظام بن بلا الذي رخص لنا بإقامة ممثليه في الجزائر غير أن بن بلا، الذي كان وثيق الصلة بعبد الناصر، كان يرفض إعطاءنا أية معونة مادية. وإنما تسلمنا أول شحنة من السلاح من الجزائر، عام 1965ن بعد تسلم بومدين مقاليد السلطة وعلى كل، فقد كان ذلك بفضل اللواء حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، الذي كانت لنا معه علاقات طيبة منذ عام 1964.

كان الأسد في تلك الأثناء قائدا لسلاح الطيران. فكان يستلم الأسلحة المرسلة لنا بالطريق الجوي على سبيل الوديعة، ثم يسلمها لنا بدون علم حكومته ودون علم حزب البعث الذي ينتمي إليه. والواقع هو أن النظام السوري كان معاديا لنا. ولكنا نتمتع بتوطؤ رجلين يشغلان مناصب

حساسة: الأسد واللواء أحمد السويداني رئيس الاستخبارات العسكرية الذي سيرقى فيما بعد إلى منصب رئيس الأركان العامة. وهكذا فقد استطعنا أن نمتلك منذ مطلع عام 1964، معسكرين للتدريب في سوريا. وفي موضع آخر، كان فدائيونا يقومون بتمارين على إطلاق النار في مناطق صحراوية، وأحيانا في وسط بدوي، وكانوا حين يعوزهم ذلك، ينخرطون في جيش التحرير الفلسطيني الذي بدأ أحمد الشقيري بتكوينه تحت إشراف منظمة التحرير الفلسطينية.

كان جيش التحرير الفلسطيني طعما وخديعة. إذ لم يكن مرصودا لمحاربة إسرائيل الأمر الذي كانت كافة الأنظمة العربية تتلافاه بأي ثمن . وإنما لتحويل الفلسطينيين عن محاولة خوض كفاح مسلح مستقل. ولم تكن هذه الحسابات دون أساس، وكان من واجبنا أن نحبطها، فإنه لا بد لنا من البدء بالعمل بلا إبطاء. وهكذا فقد عقدت قيادة فتح اجتماعا في الكويت في بداية خريف عام 1964، لمناقشة المسألة. فكانت المناقشة حامية بين ممثلي منحيين متباينين. فبعض رفاقنا ممن سنشير إليهم بعد ذلك باسم «المتعلقين» وقفوا ضد ما اعتبروه محاولة سابقة لأوانها بصورة خطيرة. وراحوا يؤكدون أن شن حربا لعصابات لا يزال أمراً مبكراً للغاية خاصة وأننا كنا قليلي أو سيئي التجهيز، وإن عدد مناضلينا لا يزال ضئيلاً نسبياً. ثم خلصوا إلى القول بأنه أولى بنا أن ننتظر إلى أن تصبح فتح حركة جماهيرية تتمتع بقوات أساسية قبل أن نقذف بأنفسنا في مشروع قد يثير ضدنا مجمل العالم العربي.

وكنا بضعة أشخاص بينهم . ياسر عرفات وأنا وأبو جهاد ومحمد النجار وأبو مازن وفاروق القدومي وخالد الحسن وسليم الزعنون ومحمد غنيم وسواهم ندافع عن وجهة النظر المقابلة تماماً. قلنا إن الوضع ناضج بالنسبة للكفاح المسلح، فالجماهير الفلسطينية لم تسممها بعد ديماغوجية الشقيري ولن تلبث أن تتأثر وتؤخذ بجديتنا وعزمنا على العمل. وقلنا أن عبر السياق المعاكس. فكان أن استحقينا بسبب هذه الأطروحة التي اعتبرت متهورة وصف «المغامرين». وقد دفعنا المأزق الذي أفضينا إليه، إلى عقد اجتماع موسع في دمشق في شهر تشرين أول 1964، لكوادر فتح القيادية في البلدان المحاذية لإسرائيل وخاصة لأطر الضفة الغربية وغزة، أي تحديداً، الأراضي التي ستنطلق منها أولى غارات الفدائيين فانقسم الاجتماع وفقاً للشرخ نفسه الذي حدث في الكويت، ولكن نقاشات طويلة أفضت هذه المرة إلى موقف أجماعي على مشروع «المغامرين» وبعد ذلك بأيام جرى توقيت ميعاد أول عملية عسكرية ضد إسرائيل، فكان يوم 31 كانون الأول (ديسمبر) 1964.

وفي هذا اليوم ستعبر مجموعات من المغاوير المكونة في الضفة الغربية وغزة ولبنان الحدود الإسرائيلية سرا لتقوم بغارات على عدة مواضع ضد أهداف عسكرية واقتصادية، ولا سينا

لتقويم بغارات على عدة مواضع ضد أهداف عسكرية واقتصادية، ولاسيما ضد المنشآت المرصودة لتحويل مياه الأردن إلى الدولة اليهودية. غير أنه جرى توقيف فريق غزة بالكامل من قبل دوائر الأمن المصرية قبل موعد العملية بأسبوع. فالواقع هو أن عميلين ناصريين أفلحا في التسرب إلى داخل الفريق. بيد أن المحافظة على السر تمت بصورة أفضل في الضفة الغربية ولبنان، حيث تمكن فدائيونا من انجاز مهماتهم . وقاموا بحوالي عشر عمليات . بنجاح. ولم يوقعوا خسائر هامة بالعدو، فذلك لم يكن على أية حال هدفنا الأساسي. كنا نسعى إلى إخراج عمل صارخ مذهل يصعق مخيلة الإسرائيليين الذي كنا نريد أن نبلغهم وندلل لهم على وجودنا كفلسطينيين يسعون إلى تدعيم إرادة الصراع بصورة مستقلة استقلالا ذاتيا عن الأنظمة العربية التي قذفنا في وجهها هذا التحدي، وأخيراً تدعيمها أمام الرأي العام العالمي الذي كان يجهل أو يتجاهل قدر ومصير شعبنا.

تم تحضير عملية 31 كانون الأول 1964 بصورة دقيقة وعلى مدى أكثر من شهرين. وأعطينا الفدائيين أمرا، بين جملة ما أعطيناهم من أوامر، بألا يحدثوا خسائر في أرواح السكان المدنيين الإسرائيليين كائنا ما كانت الذريعة فقد كانت تلك هي إرادتنا في البدء. إلا سلوك السلطات الإسرائيلية اضطرنا بعد ذلك، لسوء الحظ، على أن نخالف القاعدة التي أقمناها. فالغارات الانتقامية الإسرائيلية، توقع بصورة عامة العديد من الضحايا بين المدنيين الفلسطينيين وخاصة عندما تدك مخيمات اللاجئين بصورة همجية عمياء فمن الطبيعي أن نرد نحن بصورة مطابقة، لردع العدو عن مواصلة المجزرة ضد الأبرياء. فالعقيدة الصهيونية ذات الجوهر العنصري معروفة تماماً: فهي تقوم على تبرير إبادة عشرات بل مئات الفلسطينيين وأحياناً على تدمير مناطق بكاملها تدميراً تاماً، كعوض عن موت إسرائيلي واحد. وبطبيعة الحال، فإن سلطات تل أبيب فوجئت بعمليتنا التي تمت في 31 كانون الأول. كنت يومها في مهمة مراقبة في بيروت فرحت أصغي بدون انقطاع إلى الإذاعة الإسرائيلية التي كانت تذيع بلاغات مشوبة بالتشوش. كانت البيانات تنسب غارات الفدائيين إلى منظمات بأسماء تجهلها بالكامل. وإنما وعى المسؤولون الصهاينة طبيعة وإبعاد المشروع بعد أن نشرنا بلاغنا العسكري الأول في أول كانون الثاني (يناير) موقعا باسم «العاصفة» لأننا كنا لا نعرف مقدما، ما إذا كان مشروعنا سينجح أم لا. ولما كنا لا نريد توريط فتح، فقد اخترنا اسم العاصفة كإجراء احترازي. ولن نشير إلى العاصفة ليست سوى النجاح العسكري من حركتنا إلا بعد ذلك بكثير.

أما بالنسبة لوسائل الأعلام العربية، فقد أصابنا منها، بعد بضعة أيام من الصمت المذهل سيل من القدح والسباب. فنحن بالنسبة لمصر لا يمكن أن نكون إلا إخواناً مسلمين

متعصبين من عملاء الاستعمار. فصحيفة الأنوار اليومية الموالية للناصرية. والتي تصدر في بيروت خصصت صدر صفحتها الأولى لعنوان «يبين» فيه أننا عملاء وكالة المخابرات المركزية الأميركية (السي. أي. إيه). أما السعوديون فكان رأيهم أننا عملاء الشيوعية الدولية. وأما الأردنيون من جهتهم فصنفونا في خانة معسكر الثوريين العروبيين.

لا بل أن وطنيين فلسطينيين لا ينتمون لفتح، لم يعفوا عنا هم أيضا. فقد انتقدنا وطنيون من أمثال غسان كنفاني . الذي سيغتاله الإسرائيليون عام 1973 . بمقالات ملتهبة نشرت في صحيفة المحرر اليومية. وقد أجبت على مقالاتهم على أعمدة الصحيفة ذاتها، باسم مستعار. أما أحمد الشقيري فراح يندد بنا باسم منظمة التحرير الفلسطينية كأعداء لحركة التحرير الفلسطينية. ثم ما لبث أن واكب على مهمة إنشاء منظمات وهمية حتى لا تنفرد «فتح» في الساحة وحدها.

والحقيقة هي أن أحمد الشقيري لم يكن سوى أداة الجامعة العربية التي كانت تسعى لتدميرنا، فالفريق المصري علي عامر، الذي كان يشغل في تلك الحقبة منصب قائد القوات العربية الموحدة، وجه مذكرة إلى كافة الحكومات العربية طالباً إليها قمع نشاطاتنا بشدة لعدم «إعطاء إسرائيل ذريعة لمهاجمة البلدان العربية». فكان أن اغتنم الأردن ولبنان ذلك، ليمنعا الصحافة حتى من ذكر اسم العاصفة. بحيث أن بعض الصحف التي حظر عليها نشر بلاغاتنا، كانت تلتف على حظر الرقابة، بأن تنقل تصريحات الناطقين الإسرائيليين الذين كانوا يشيرون إلى العاصفة وصنائعها.

وفي 28 كانون الثاني (يناير) 1965 نشرنا أول بيان سياسي مهرناه باسم العاصفة وأعلنا فيه ارتباطنا وتعلقنا بالأمة العربية ونضالاتها. ولكنا وجهنا إليها نداء ندعوها فيه إلى دعمنا في كفاحنا المسلح الذي شرعنا به لوضع حد للأمر الإسرائيلي الواقع. ثم خلصنا إلى القول «بأننا لن نضع السلاح طالما لم تتحرر فلسطين ولم تحتل المكانة التي تستحقها في قلب الأمة العربية.»

لكن الأنظمة العربية اصمت أذانيها عن هذا النداء، مكثفة في الآن ذاته حملة القمع. فشهيدنا الأول أحمد موسى سقط برصاص أردني. فقد كان عائدا من مهمة في إسرائيل حيث تمكن من الإفلات من القوات الصهيونية، فقتل بعد أن اجتاز خطوط العدو من قبل جنود الملك حسين. وتكاثرت المداهمات وزخات الرصاص في وادي الأردن بحيث أن 250 فلسطينيا يشتبه بانتمائهم أو تعاطفهم مع العاصفة، كانوا عشية حرب 1967 في السجون الأردنية. وكذلك فإن القمع كان شبيها في بقية البلدان العربية وإن كان أقل شراسة مما هو حاله في الأردن. بحيث أن الفلسطينيين كانوا مراقبين مطاردين معتقلين.

غير أننا كنا مبتهجين لأن بلدين على الأقل، كانا يشذان عن هذه القاعدة ففي الكويت تبنت دوائر الأمن إزاءنا موقفا محايداً، وفقا لتقاليدها في الحكمة والتسامح، وكذلك بسبب تعاطفهما مع حركة تحرر لا تتهدد سلطة واستقرار النظام القائم. أما في سوريا فكان الوضع أكثر تعقيداً. فالحكومة السورية وحزب البعث كانا يعتبراننا «انفصاليين» وذلك بالقدر الذي كنا لا نشاطرهم فيه تصوراتهم العروبية، ولكن عدداً من المناضلين البعثيين كانوا يقدمون لنا المساعدة، تقديراً منهم بأن كفاحنا هو على كل حال، أهل للدعم.

غير أن سلطات دمشق عمدت، بدون أن تحاربنا إلى مناورات مختلفة لاحتوائنا بل وللسيطرة علينا. فراحت تعمل بالاتفاق مع مناوئينا «المتعقلين» داخل قيادة فتح، محاولة التسرب إلى منظمتنا والسيطرة عليها بإدخال عناصر مؤيدة لها، إلى داخلها. كانت هذه حالة يوسف العرابي ومحمد حشمت، وكلاهما فلسطينيان ذوي نزعة بعثية وإعداد عسكري، تطوعا في صفوف العاصفة. كنا نعتبرهما كمقاتلين مخلصين لقضيتنا، إلى أن قتلا في نهاية شهر شباط . فبراير 1966 برصاصات مسدس ولم يتضح لنا حتى اليوم كيف قتلا؟

وما لبثت السلطات البعثية أن ارتابت في أن نكون قمنا بتصفيتهم. وهكذا فقد جرى توقيف قادة فتح الذين كانوا موجودين في دمشق حينها . ياسر عرفات، أبو جهاد، أبو علي إياد، وأبو صبري، وكذلك سبعة أعضاء آخرين أقل أهمية. وجرموا بالاغتيال.

وعلى الفور غادرنا فاروق القدومي ومحمد يوسف النجار وأنا، الكويت متجهين إلى دمشق بغرض تأمين الإفراج عن رفاقنا. وهناك راح العقيد صلاح جديد، الرجل القوي في النظام الذي كان قد أقامه لتوه العقيد صلاح جديد، الرجل القوي في النظام الذي كان قد أقمه لتوه بعد أن أقصى الشريحة «اليمينية» في البعث، يصغي إلينا بكثير من الأدب والمجاملة. وبعد محادثة طويلة فهمنا أن القضية بين يدي حافظ الأسد الذي تمت ترقيته منذ فترة بسيطة إلى منصب وزير الدفاع، فبدت لنا محاولتنا وكأنها بدأت بداية حسنة. فمع أني لم التق بالأسد مطلقا، إلا إني كنت أعرف العلاقات الوثيقة التي أقامها منذ سنتين مع ياسر عرفات وأبي جهاد. وقلت في نفسي أننا لن نجد مشقة في إقناعه ببراءتهم لاسيما وأنهم اضربوا عن الطعام منذ ما يقرب الشهر وإن حياتهم في خطر.

وكانت أول مفاجئة هي أن حافظ الأسد جعلنا تنتظر ثلاثة أيام قبل أن يحدد لنا موعداً، وكان موضوع الاستغراب الثاني والذي زاد من قلقنا هو أنه تلقانا قريب عتبة مكتبة بوزارة الدفاع وهو يسألنا بجفاء عما نريد. ثم قاطع العرض الذي كنت أقدمه له ليبلغني بأن رفاقنا المسجونين مذنبون وأن شيء أو أحداً لا يستطيع أن يقنعه بالعكس. فنشب بيننا جدال عنيف. وعندما بلغ

منى الحنق مداه، قلت لـه «أن موقفكم يؤكد شكوكنا بأنكم تسعون في الواقع إلى خنق الكفاح المسلح الذي بدأناه، في المهد. وعلى أي حال فانا أشكركم على استقبالكم، ولكن فلتعلموا أنكم تتحملون أما التاريخ المسؤولية في أنكم وجهتم ضربة شديدة إلى حركة التحرير الفلسطينية.»

وسكت حافظ الأسد، ثم بعد لحظة تأمل، دعانا في اللحظة التي كنا نتظاهر فيها بأننا نهم بالانسحاب، للدخول إلى مكتبة ودار نقاش دام أكثر من ثلاث ساعات. وطرح علينا ألف سؤال حول فتح وإيديولوجيتها وأهدافها ثم وبخاصة حول عرفات (الذي كان يعرف حينها باسمه القتالي رؤوف) الذي كانت شخصيته تحيره. مع أن ياسر لم يكن مجهولاً بالنسبة للسلطان السورية فقد أوقفته سلطات دمشق في نهاية عام 1965، لاشتباهها بضلوعه في تخريب خط أنابيب التابلاين، ثم أفرجت عنه بعد ذلك ببضعة أيام لعدم توفر أدلة ضده. وخلص حافظ الأسد إلى القول وهو ظاهر الرضى: «اذهبوا لتوكم إلى سجن المزة، فسوف تغادرونه مصحوبين برفاقكم المسجونين وسأعطي الأوامر اللازمة للإفراج عنهم» وقد وفى بوعده فيما يتعلق بعشرة من المتهمين. أما الحادي عشر، وهو مناضل بسيط من فتح فلا يزال إلى اليوم في السجن برغم أنه برئ من التهمة الموجهة إليه».

واتخذت قيادة فتح قراراً «بتجنيد» نشاطات الأشخاص المفرج عنهم كبادرة حسن نية إزاء السلطات السورية، وتكفيرا عن الأخطاء التي ارتكبوها إلا أن عرفات لم يكن يحتمل هذا الأمر الذي شعر به حينها وكأنه عقاب. فهو بطبيعته لا يستطيع أن يظل ساكناً، فكان أن عرض علينا الصفقة التالية: تكلفه حياته إذا ما فشلت، ولكنه ستكون مفيدة للحركة إفادة خاصة، إذا ما تكللت بالنجاح، فقبلنا عرضه.

وعلى هذا فإنه انطلق مع مجموعة من الفدائيين باتجاه الحدود اللبنانية الإسرائيلية. غير أن دوائر الأمن في بيروت، اعترضته لسوء حظه، وراح اثنان من ضباط المكتب الثاني يتبادلان استجوابه. فكان احدهما، وهو سامي الخطيب، القائد الحالي لقوات الردع العربية، يحاول أن يتحرى عن هوية رفيقنا الذي ارتاب في انتمائه إلى مخابرات عبد الناصر. غير أن عرفات كشف اسمه الحقيقي بدون أن يشير إلى كونه عضو اللجنة المركزية في النهاية كشف اسمه الحقيقي بدون أن يشير إلى كونه عضو اللجنة المركزية في فتح وقائد قوات العاصفة. بيد أن الشكوك التي تحوم حوله بدت وكأنها تتأكد حين تدخل المكتب الثاني السوري بناء لطلبنا، لصالحه، ذلك أن السلطات اللبنانية لم تكن تجهل بأن ثمة تعاونا وثيقا كان يربط دوائر الاستخبارات المصرية والسورية. أما نحن، فإننا ابلغنا من جهتنا حكومة بيروت، بأننا سنقوم، إذا مل يجر الإفراج عن عرفات ورفاقه، بسلسلة عمليات في لبنان على سبيل الانتقام. وتحت التأثير المزدوج لهذا التهديد

ولضغوط دمشق، فإن مسؤولي بيروت أطلقوا سراح عرفات وبقية الفدائيين من سجن الرمل بعد ثلاثة أسابيع من الحبس.

كان من الواضح أننا لن نستطيع مواصلة مهمتنا، لغا إذا أعدنا العلاقات مع الأنظمة العربية إلى طبيعتها. فاتخذنا عدة إجراءات تهدف إلى تطمين الحكومة السورية وكلفنا ياسر عرفات وفاروق القدومي بإجراء اتصالات مع السلطات المصرية التي كنا نعرف بالتجربة إن لها تأثيرا حاسماً على عدد من البلدان الأخرى في المنطقة.

وتلقى رئيس المخابرات المصرية الغني، صلاح نصر، مندوبينا المطلقي الصلاحية في ظروف غريبة للغاية. فقد بدأ بإصدار أوامره بحضورهم، بالهاتف، كلي تحجز لهم مقصورة فاخرة في فندق عمر الخيام الذي كان حينذاك أحد أفخم المؤسسات الفندقية في العاصمة المصرية. ثم طلب بعد ذلك إلى معاونيه أن يضعوا أنفسهم بتصرف ضيوفه وأن يزودهم بما يشاؤون ثم أضاف موضحاًن بما في ذلك أجمل نساء القاهرة.

كان صلاح نصر الذي سيوقفه عبد الناصر ويحاكمه غداة هزيمة يونيو . حزيران 1967 بتهمة الفساد والتآمر ضد أمن الدولة . يتصرف عامة على هذا النحو مع من يحاول أفسادهم. غير أن سلوكه صدم رفيقينا إلى أقصى الحدود. فكان أن رد عليه فاروق القدومي بجفاء فظ قائلاً: «إننا ممثلو حركة ثورية يرتبط بها مصير شهب بكامله. لذلك فإنك لن تفلح في إقامة علاقات معنا إذا كنت تسعى إلى تأسيس هذه العلاقات على طعم الحظوة والغانيات. وتفاجأ صلاح نصر بادئ الأمر، ثم عاد فتمالك نفسه وأكد أنه لم يقصد ذلك مطلقاً. كان يريد أن يعرف فقط ومقدماً، ما هي حركتنا بالضبط وكيف تعمل... وكم تضم.. وفي أية بلدان تتواجد.. ومن أين نستمد مواردنا المالية وكيف نشترى أسلحتنا.. وهل بالإمكان أخيرا، معرفة أسماء الأشخاص الذين يشكلون قيادة فتح.

وانذهل ياسر عرفات وفاروق القدومي، ولكنهما بطبيعة الحال رفضا الإجابة على أي سؤال من هذه الأسئلة وبات من البديهي أنه لا طائل في مواصلة الحديث مع رجل يتصرف كبوليسي، في حين أنهما كانا يعتقدان أن باستطاعتهما التفاوض على تعاون سياسي، وعلى ذلك فإن رفيقينا عادا من القاهرة بخيبة أمل عميقة واشمئزاز غير عميق. وبعد ذلك بضعة أشهر، أي في تشرين الثاني . نوفمبر . أو كانون الأول ديسمبر 1966 على ما أعتقد، قررنا القيام بمحاولة جديدة لإقامة علاقات مع النظام المصري شمس بدران (الذي سجن هو أيضا بعد حرب 1967) أن يساعدنا على تشكيل خلايا فدائية في النقب تكون مهمتها إنهاك الجيش الإسرائيلي في زمن السلم، وكذلك في حالة اندلاع الحرب بين مصر والدولة اليهودية،

على أن نتكفل نحن من جهتنا بوضع ما بين 200 و300 فدائي في القسم الصحراوي من النقب بينما يقدم لهم المصريون دعما لوجستيكيا (أي لجهة نقلهم وإيوائهم وتغذيتهم).

كان شمس بدران يصغي بصمت المتعجرف المتعاظم. ثم أعلن لنا بشيء من السخرية بأن مشروعنا «مثير للاهتمام بالتأكيد» ولكنه لا يرى كيف يسعه الاشتراك فيه دون أ، يعرف مقدما من هي فتح ومن هم قادتها. كانت عقلية لا تختلف بشيء عن عقلية محدثنا السابق رئيس المخابرات. وإنما اقتضى الأمر أن تحدث هزيمة الجيش المصري في حزيران 1967 وأن تجري عملية تطهير النظام التي تلت ذلك، لكي نستطيع أخيرا أن نمد جسرا بين الحركة الفلسطينية وبين أقوى الدول العربية. وبرغم ضآلة الدعم الخارجي الذي كنا نتمتع به، فإن فتح زادت من قتاليتها وتماسكها فغداة عملية 31 كانون الأول . ديسمبر . 1964 زاد مناوئو الكفاح المسلح داخل القيادة أي «المتعقلون» من ضغوطهم بغرض تحييد «المغامرين» كما كانوا يصفوننا. فاستخدموا كافة الوسائل للبرهنة على أن مشروعنا قد أضر بالحركة. فإذا جرى توقيف مناضل في الأردن؟ أنا إذا لمسؤولون.. أفتتهمنا الصحافة بأننا عملاء وكالة الاستخبارات المركزية، (السي آي اي)؟ أنا إذا لم نعد الرأي العام كفاية لحرب العصابات التي شنيناها.. أو فشلت الغارة التي قام بها فدائيونا؟ أنها خطيئتنا لأننا/ في رأيهم، لم نجند عسكريين محترفين.. وهل الأنظمة العربية تحمل علينا وتشنع؟ أن في ذلك لدليلاً على أن مشروعنا سابق لأوانه.

كان الجدال في أوجه حين أهوى مناوئونا بأقنعتهم وكشفوها بمناسبة اتهام ياسر عرفات وصحبه بقتل ضابطي العاصفة. فقد ارتكب «المتعقلون» خطأ التحلل من رفاقنا المسجونين., ثم أن الإفراج عن هؤلاء الأخيرين مبرئين من كل اتهام، أعلن نهاية رفاقنا هؤلاء الذين لم يلبثوا بعد ذلك بقليل أن انسحبوا من قيادة فتح التي عادت متجانسة.

ومنذ ذلك الحين، بتنا قادرين على مواصلة وتطوير حرب العصابات ومن عام 1965 حتى عشية حربا لأيام الستة، قام فدائيونا بحوالي مائتي غارة تقريبا. ولا ريب في أن معظمها جاء على نطاق متواضع بحيث أنه لم يكن يعرض أمن واستقرار الدولة الصهيونية للخطر، ولكن هذه العمليات ساهمت في زيادة التوتر بين إسرائيل والبلدان العربية التي كانت إسرائيل . ويا لسخرية القدر . تتهمها بتشجيع ودعم الحركة الفدائية؟، وفي الخامس من حزيران يونيو 1967، علمت من الإذاعة بأن إسرائيل شنت هجمة جوية صاعقة ضد مصر. كانت العطل المدرسية قد بدأت فغادرت الكويت في اليوم ذاته إلى. وانتهت بذلك مرحلة من حياتي كمناضل ذلك أنني سأصبح منذ ذلك الحين، ما يدعى «باثوري المتفرغ» فالحرب التي بدأت لتوها، ستسجل كذلك منعطفا رئيسيا في تاريخ الحركة الفلسطينية.

(4) المد

كانت السيارة الصغيرة التي تتكدس فيها خمستنا، تسير بأقصى سرعتها على الطريق من الكويت إلى بغداد. وقد اخترنا هذا الانعطاف إلى الشمال لتلافي الطريق التي سارت فيه ارتال الجيش الإسرائيلي المدرعة المتجهة نحو الجنوب أي نحو الأردن. ولم نكن نبالي ببهاء الصحراء العاري وهي تمتد على مرمى النظر ولا بالحرية الخانقة المنبعثة من أشعة الشمس الحارقة ولا بضوء النهار الذي يعمي الأ[صار ولا بالظلمة الداكنن الباردة التي تحيط بنا في الليل. فقد كانت ثمة فكرة واحدة تستحوذ علينا الوصول بأسرع ما يمكن إلى دمشق، حيث ياسر عرفات وأبو جهاد وأبو علي إياد وأبو صبري، أي «مفرغو» قيادة فتح. كان علينا أن نجتمع لنحدد السلوك الذي ينبغي لنا اتباعه على ضوء الحرب التي اندلعت لتوها في 5 حزيران (يونيو) 1967. كانت الطريق طويلة صعبة مبهمة بحيث أننا تهنا في الرمال أكثر من مرة. وكنا نتعاقب على القيادة ليلا نهار، لكن عقلنا كان في مكان آخر. وكنا صحابتي الأربعة . وهم كوادر في الحركة . وأنا، نصغي إلى الإذاعة دون انقطاع. وقد حيرنا التفاوت في نشرات الأخبار، بالصورة التي كانت تبث بها من القاهرة وتل أبيب ولندن في بادئ الأمر، ذلك أننا كنا نثق بقدرة وقوة الجي المصري، فتصلب عبد الناصر فيا لمواقف التي اتخذها في الأسابيع التي سبقت الحرب، وخطبه الملتهبة التحيدات التي قام بها خاصة حين أقفل الخليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، يجعل المرء يعتقد، ليس بأن الريس لا يخشى المواجهة وحسب، بل إنه يتمناها. غير أن الريبة بدأت تتسرب منذ الساعات الأولى من النزاع. والروايات المتباينة عن تطور المعارك، بدأت تصير صريحة التناقض، ولم تلبث أخبار إذاعة القاهرة المتناقضة مع لهجة تل أبيب المتوازنة المصبوغة بصبغة الثقة والاطمئنان. إن زادت في اضطرابنا، ولم يكن سيؤر المعارك على الجبهات الثلاث المصرية والسورية والأردنية يسير ببديهة الحال، لصالحنا. وقلنا في أنفسنا أين الحقيقة.

فالحرب لا تزال في بداياتها، ولم يتح للعالم العربي بعد أن يعبء موارده كلها. ووصلنا إلى مقصدنا في مساء السادس من حزيران متأخرين عشر ساعات عن الأجل المضروب. وبالرغم من أني كنت منهكا، إلا أنني ذهبت على الفور إلى مكتب فتح حيث علمت أنه لم يبق في دمشق أي عضو من رفاقنا أعضاء القيادة فقد التحقوا بقاعدة اله9امة التي قدمتها لنا السلطات السورية لتدريب حوالي 400 أو 500 فدائي. غير أن معظم هؤلاء قد تسربوا بقيادة ياسر عرفات وراء خطوط العدو حيث كانوا يحاولون إعاقة تقدم القوات الإسرائيلية. وخلال اليومين التاليين، بدا

أن النكسات التي لحقت بالجيوش العربية أمر لا ريب فيه، شأن إمارات الهزيمة المحتملة. على أني كنت أتوقع كل شيء، إلا الهزيمة المذلة التي أعلنها عبد الناصر في الكلمة التي أذاعها يوم 9 حزيران . يونيو . ولا أحسب أني حزنت عليه في أي يوم بقدر ما حزنت في ذلك اليوم وإذا فإن الأمر العجب كان أمر حقا: والطائرات المصرية جمرت على الأرض في الساعات الأولى من النزاع، ومشاة الجيش تشتتوا في سيناء، والجيش الصهيوني يعكسر على طول قناة السويس. وعبد الناصر يستسلم! من كان سيتخيل ذلك/ وإذا فإن الزعيم الأمة العربية العظيم، رجل القدر، ذاكم الذي سيساعدنا على تحرير جزء على الأُل من وطننا المحتل، قد ألقى بنفسه في مغامرة دون أن يعد لها الحد الأدنى من الأعداد.؟ كانت المرارة تختلط بالغضب. والجيوش العربية كل الجيوش العربية، لم تكن قادرة إذا على أن تدفع الجيش الإسرائيلي الصغير. بل الأمر أسوأ من ذلك، فقد تخلت عن المزيد من الأراضي للصهاينة.

وبلغ الاندحار الذي أحسسنا به، رفاقي وأنا، بعد أن كان ياسر عرفات والقادة الآخرون قد عادوا مسرعين إلى دمشق، ذروته بعد أن سمعنا عبد الناصر يعلن استقالته في نهاية خطابه في 9 حزيران. فشعرنا بأننا تلقينا هزيمة مزدوجة، عسكرية وسياسية، وأقول هزيمة سياسية لأن سقوط عبد الناصر كان يعني بالنسبة إلينا نهاية كل أمل. إذ أن الريس يبقى برغم كل شيء، رمزا لرفض الأمر الواقع وللمقاومة التي يجب في نظرنا أن يشتعل فتيلها ضرورة. ولم يكن رد الفعل هذا خاصا بنا وحدنا. فقد اندلعت مظاهرات كثيفة عفوية مؤثرة من اصى العالم العربي إلى أقصاه. كانت الجموع تعبر عن ألمها بالعويل مطالبة في الحين نفسه، الرجل الذي قادها إلى الهزيمة أن يبقى في مقر قيادته. فالفرح العارم الذي تلقى به الإسرائيليون استقالة عبد الناصر اقنعنا بأن علينا أن نؤيده في المحنة. وخلال ساعات، استحال الحقد الذي كنا نشعر به إزاء الريس إلى تحدي. ثم أن إرادتنا في المقاومة إلى جانبه تعززت في الأيام التالية عندما أدركنا إلى أي حد كانت البرجوازيات والأنظمة الرجعية تشارك الإسرائيليين فرحتهم إزاء انهيار النظام الناصري.

وما أن سحب عبد الناصر استقالته حتى انعقد مؤتمر لفتح في دمشق في 12 حزايرن . يونيه، لمناقشة جدوى وملائمة استئناف الكفاح المسلح. وانقسم المجتمعون . شأنهم في خريف عام 1964 يوم كان علينا أن نقرر الشروع بحرب العصابات . إلى معسكرين بين أنصار ومناوئي العمل الفوري. وكنا نحاول يوما بعد يوم واجتماعاً بعد اجتماع، أن نجيب على المسائل الملحة المطروحة: فهل سنواجه المنتصرين بالسلاح. وهل لدينا أدنى حظ أو فرصة في إحباط قدرة إسرائيلي العسكرية. أو لا نخاطر باستثارة انتقامات رهيبة توقع على أهالي الضفة الغربية.

وإذا كنا سنمتنع عن القيام بأي عمل، أفلا تلحقنا الجماهير الفلسطينية بالمهزومين وتحتقرنا احتقارها لهم. كان كلا التيارين الماثلين أمامنا، يشتملان على مخاطر جسيمة بالنسبة لمستقبلنا. وقد أفضت مناقشاتنا التي دارت في جو محمود شبيه بذلك الذي كان سائدا في خريف عام 1964، إلى سلسلة من الإجراءات الرئيسية:

1. جرى تعيين عدد من الأطر والكوادر العليا منهم محمد النجار وعبد الفتاح حمود وأنا، ليصبحوا «متفرغين» ويوقفوا أنفسهم على تنظيم الحركة في المرحلة الجديدة التي بدأت.
2. جرى توجيه نداء إلى كافة المناضلين لجمع السلاح الذي تركته الجيوش العربية في ساحات المعركة أو في مخازن السلاح. وبموازاة ذلكن فإنه سيباشر بشراء السلاح وبكافة الوسائل من الأسواق المحلية أو الدولية بواسطة المتاجرين به والمهربين الخ.
3. جرى شن حملة جمع تبرعات وخاصة بين الأثرياء من فلسطيني المنفى. وتلقى محمد النجار وكمال عدوان وأبو مازن وخالد الحسن الإشارة بدق النفير لأصدقائنا والمتعاطفين معنا. كما تم تكليف آخرين بالتماس المعونة من البلدان النفطية. فالواقع هو أننا لم نعد نخشى من توريط استقلاليتنا المالية الذاتية، التي دافعنا عنها حتى الآن دفاعاً حريصاً. فقد كان تقديرنا هو أن الوضع المأسوي الذي يجد عدد من الأنظمة العربية نفسه فيه، لا يسمح لهذه المنظمة بأن تضع شروطاً سياسية على المعونة التي تقدمها لنا.
4. أجيز لعدد من الأطر، على رأسهم ياسر عرفات، بأن يذهبوا إلى الأراضي المحتلة . في الضفة الغربية وغزة . خلسة لتدعيم وتوسيع جهاز فتح السري بهدف استئناف الأعمال الفدائية. على أن المناضلين الذين اختيروا لهذه المهمة التي تفوق كافة المهمات في دقتها، كانوا من أبناء الأراضي المحتلة بحيث يتمكنوا من التنقل هناك تنقل «السمك في الماء».
5. اتخذ عدد من التدابير لإقامة قواعد فدائية على طول خطوط وقف إطلاق النار وعلى طول نهر الأردن في جنوب لبنان خاصة.
6. أرسلت وفود إلى أربعة عربية هي مصر وسوريا والعراق والجزائر بهدف إجراء مشاورات معها حول ملائمة استئناف الأعمال الفدائية الفلسطينية. وحدد المشتركون بمؤتمر 12 حزيران (يونيه) لأنفسهم مهلة شهرين لإنجاز هذه المهمات الست، ثم تتم الدعوة بعد ذلك لمؤتمر جديد بهدف اتخاذ قرار نهائي بصدد

البدء في العمليات. وقد تم بلوغ الأهداف التي رسمناها لأنفسنا تماماً، كما أنها تجاوزت بعض الأحيان ما كنا نأمل به. فتراخي سلطة الدولة في «بلدان المواجهة» سهل علينا الاستيلاء على مخزونات هامة من السلاح راكمناها في ترساناتنا. والتبرعات النقدية التي جمعناها من الأثرياء الفلسطينيين كانت عديدة وسخية وإن ظلت غير كافية بالنظر إلى حاجاتنا التي ما كان إلا للدول أن تستطيع تلبيتها.

وقد أظهر الملك فيصل لدى استقباله لأبي جهاد في جنيف حسن الاستعداد إزاءنا. فهو على معرفة بوجود فتح منذ مطلع سنوات الستين، عبر كي اليماني وزير النفط الحالي، الذي كانت تربطه علاقات صداقة مع أحد أعضاء منظمتنا. وقد طمأن أبو جهاد العاهل السعودي إلى أن فتح لا ترتبط بأي حزب وإن مبدأها هو عدم التدخل بالشؤون الداخلية للبلدان العربية. وأما الملك فيصل فإنه أشار من جانبه إلى أنه يؤيد وجهات نظر والده المغفور له الملك السابق عبد العزيز الذي كان يعتبر أن تحرير فلسطين لا يمكن أن يتم إلا على أيدي أبنائها، وهي قناعة أدت به إلى عدم الموافقة على تدخل الجيوش العربية عام 1948. إذا فإن العاهل السعودي كان يؤيد حصول الفلسطينيين على الوسائل المالية وغير المالية اللازمة لهم لمواصلة كفاحهم.

أما الاتصال بالقادة الليبيين فكان أقل يسرا نسبياً. فقد ذهبنا . فاروق القدومي وأنا . إلى البيضاء حيث يقيم الملك السنوسي. ولكن العاهل العجوز الذي لا يستقبل الزوار الأجانب إلا نادراً، أحالنا على رئيس وزرائه عبد الحميد باكوش الذي تلقانا بعداء فظ. فقبل أن ندخل مكتبه، وقبل أن يدعونا إلى الجلوس، راح يقول لنا بخشونة بأن يرتاب بنا بقدر ما يرتاب بحركتنا، وأنه لا يؤمن بجدية الثورة التي نريد خوضها وأن هذه الثورة لن تؤدي على كل حال، إلى أي شيء ذي قيمة. ثم أضاف: «وإذا كنت شعبي واسع فالليبيون لسوء الحظ شعب من الحمقى...» وأجبته: «شعب من الحمقى. حسنا أيها السيد الرئيس إننا ذاهبون لتونا لنذيع في الناس هذا الحكم الغريب الذي تصدرونه على شعبكم. فأنا لم أعد أرى فائدة في الشروع في حوار معكم».

وأما فاروق القدومي وقد صدم بمثل ما صدمت، فإنه استطرد يقول بلهجة أحد: «أنكم لا تفهمون شيئاً من قضيتنا، وتحتقرون شعبكم رغم أنكم كنتم أبان سنواتكم الجامعية مناضلاً شيوعياً. أن الرأي العام لا يجهل أنكم غطستم في صفقات سلاح مريبة. إن شعبكم سيحاكمكم ذات يوم...» بان عبد الحميد باكوش مضطربا بادى القلق، فغير لفوره لهجته وحديثه. ثم دعانا بلطف إلى الجلوس وإلى شرب فنجان قهوة بصحبته. وقال إننا أسأنا فهمه. فهو يدعم الثورة الفلسطينية بكل تأكيد، وهو يقر بالمبدأ ولكنه لا بد من تحديد أشكال هذه العونة. فهل تتلطف ونعود لرؤيته ولكن في مكتبه في طرابلس هذه المرة؟

واستغلينا المهلة لنشن حملة جمع تبرعات مع «اللجان الشعبية» التي كان ممثلونا قد شكلوها في طول البلاد ابتداء من مطلع سنوات الستين. كان لدينا الكثير من المتعاطفين ولاسيما من أثرياء التجار الذي طالما ساعدونا بكرم وسخاء. وقد أعدت لنا لجنة مدينة بنغازي استقبالاً حاراً على نحو خاص. وعلى أثر اجتماع عقد على شرفنا، أعلن لنا رئيس المجموعة أنه تم جميع مبلغ عشرة آلاف دينار وأنه يتمنى أن يقسمه مناصفة بين فتح والعاصفة. كان يجهل . شأن كافة الناس . أن هاتين المنظمتين ليستا سوى منظمة واحدة. فشكرته ثم أشرت له بأقصى ما يمكن من جد، إلى أن فاروق القدومي ينتمي إلى العاصمة، في حين أنني أثمل من جهتي أنني أمثل من جهتي منظمة فتح.

وبعد ذلك بأيام استقبلنا رئيس الوزراء في طرابلس، في جو مختلف بالكامل عن جو لقائنا السابق في البيضاء. كان عبد الحميد باكوش ودودا حار النبرة لا يتردد أما كل ما نطلبه منه. وغادرنا ليبيا نحمل في جيوبنا نحوا من ثلاثين ألف دينار، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لماليتنا في ذلك الحين.

وتلافينا في أن نثير مع رئيس الوزراء الليبي مسألة استئناف الكفاح المسلح. فقد كنا لا نريد من جهة أولى أن نذعر كما كان من السابق لأوانه من جهة ثانية أن نتحدث عن ذلك، لأننا لم نفرغ بعد من مشاوراتنا مع البلدان العربية الأخرى.

وقد أيد بلدان من هذه البلدان بدون تحفظ شن الأعمال الفدائية الفلسطينية فوراً. وهذان البلدان هما الجزائر، بطبيعة الحال، وبسبب تجربتها الخاصة أبان حرب الاستقلال، ومصر. صحيح أن عبد الناصر امتنع عن استقبال موفدينا المطلقي الصلاحية فاروق القدومي وخالد الحسن، إلا أنهما استقبلا بالمقابل من قبل وزير الخارجية محمود رياض ورئيس تحرير الأهرام محمد حسنين هيكل. وبرغم أن نجي عبد الناصر ومؤتمنه كان يؤيد العمل الذي تعتزمه فتح، إلا أنه لم يكن يخفي تحفظاته إزاءنا. فقد قال «إننا نعرف القليل عنكم. والملف الذي فتحته مخابراتنا حول العاصفة. فارغ عمليا. والقناع الذي تتقنعون به يحيرنا. وعلى أي حال فإن قدرتكم على التكتم والتخفي، هما مؤشر على جديتكم».

بقي أن نستشير السوريين والعراقيين. كان العراقيون يتخبطون بحيث أن رئيس الدولة العراقية عبد الرحمن عارف أنهى محادثته مع ممثلينا وهو يعلن: «لسنا مع مشروعكم ولسنا ضده. وبصراحة فإننا لا ندري ماذا نقول فيه، فيعود إليكم إذا أن تتخذوا القرار الذي تجدونه حكيماً».

أما الرئيس نور الدين الأتاسي فكان قاطعاً من جانبه. فقد حذرنا بقوة من القيام بأعمال فدائية ضد إسرائيل. «إذ أنكم ستخسرون وستجروننا جميعاً معكم إلى الكارثة». ثم راح يتوسل موفدي فتح قائلاً «أعطونا الوقت لنسترد أنفاسنا». خلال ذلك تلقينا تقارير من ياسر عرفات الذي كان يعيش متستراً في الأراضي المحتلة. وكذلك فإن الرفاق الذين كانوا ينجزون مهمة مماثلة لمهمته لاحظوا بفرح كما لاحظ هو، بأن الهزيمة العربية لم توهن عزيمة أهالي الضفة الغربية وغزة، وأنهم يؤيدون متابعة النضال بكافة الوسائل. وبالرغم من أن عرفات كان يخفي هويته الحقيقية، إلا أنه كان يستقبل بأذرعة مفتوحة ويؤوى ويلقى الحماية. ولم يجد أية صعوبة، شأن صحابته، في التنقل من مكان إلى مكان لا بل إنه استطاع أن يدخل أكثر من مرة إلى مسقط رأسه – القدس – وإلى تل أبيب.

كان في وسعنا أن نمضي، مؤيدين بثقة شعبنا، إلى الأمام برغم موقف الدول العربية المشوب اذاءنا. وعندما اجتمعنا في 20 آب . أغسطس . لنتخذ قرارنا النهائي، كان عرفات لا يزال في الأرض المحتلة. فعاد مسرعاً بناء على طلبنا ليشارك في النقاش الذي كان حاداً لأن بعض الكوادر كانوا لا يزالون معادين للقيام بعمل يعتبرونه سابقا لأوانه. غير أن الأجتماع انتهى إلى إجماع وإلى قرار راسخ: ففي 31 آب . أغسطس . سينطلق فدائيونا لمهاجمة القلعة الصهيونية. وقد اتخذت عملياتنا في الاراضي المحتلة أشكالاً متنوعة: زرع ألغام، كمائن، هجمات بالقنابل اليدوية وغير اليدوية، طلقات بازوكا وقذائف صاروخية. كانت أهدافنا متواضعة: رفع معنويات الجماهير العربية ومناوشة العدو وإبقائه في حالة تيقظ، وفي أفضل الأحوال، ارباك الاقتصاد الإسرائيلي. ولم نفكر في أية لحظة من اللحظات أن عملنا سيضع أمان الدولة اليهودية في خطر. وإنما هي وسائل الأعلام العربية، وأحياناً الأجنبية هي التي ضخمت محمل ومدى عملياتنا، تضخيما خارج القياس مثيرة بهذا، ذلك الوعم الخطير القائل بأنه سيكون بوسعنا تحرير فلسطين. وأعتقد أن هذه المبالغات كانت محسوبة في بعض الأحيان وتهدف إلى الإضرار بنا. بحيث إذا حان الحين، جرى إظهار «عجزنا» كفشل بهدف افقادنا الثقة أمام شعبنا وأما الجماهير العربية.

يبقى أن الاسرائيليين ردوا على نشاطاتنا بقمع شديد. وقاموا بموجات من الاعتقالات حرمتنا من مئات المناضلين والانصار. وتعزى خسائرنا إلى عاملين على الأقل: قدرة المخابرات الإسرائيلية وتهور مقاتلينا. كان حماسهم وقلة تجربتهم يقودانهم إلى تحدي سلطات الاحتلال بصورة مكشوفة والمخاطرة بمخاطرات لا جدوى فيها. ثم إنه لم يكن على الإسرائيليين أن يبذلوا كبير جهد في ملاحقة المقاومين بعد أن وضعوا يدهم على محفوظات الإدارة الأردنية القديمة

ومخبريها ووشاتها. وببديهة الحال، فقد كان لدينا ثغرة يجب سدها. فأنشأنا دائرة مكافحة جاسوسية تولى قيادتها فاروق القدومي قبل أن تسند إلي في نهاية عام 1967. وتلقى بعض الكوادر الذين انتخبناهم بدقة إعدادا سريعا في مصر وسواها قبل أن ينتشروا في الأراضي المحتلة والبلدان العربية المجاورة. ثم إن عددا من المخبرين الذين عملوا لصالح البوليس الإسرائيلي تقدموا إلينا معترفين بذنبهم. فأعطيناهم بصورة عامة، بعد إجراء استجوابات كثيفة معهم، إمكانية التكفير وذلك أما بإلحاقهم بمخابراتنا الخاصة وأما عبر قيامهم بمهمات ذات خطورة خاصة. وكانوا يسجلون قبل الانطلاق في العملية تصريحا حول نشاطاتهم السابقة لصالح إسرائيل ثم يعرضون أسباب تحولهم. وكنا نحتفظ بحق نشر تصريحاتهم في حالة موتهم أو إذا ما تبين أنهم عملاء مزدوجون . الأمر الذي لم يحدث أبداً.

وقد طبقنا منذ البداية قاعدة عدم المعاقبة على الخيانة بالإعدام. كنا نعدم فقط أولئك الذين أدى تعاونهم مع العدو إلى خسارة بشرية في صفوفنا. لكن هذه الحالات الأخيرة كانت نادرة نسبيا، ذلك أن عدد الذين اعدموا خلال عشر سنوات كانوا في حدود عشرين من الوشاة فقط. أما المتعاونون مع العدو من أمثال الشيخ الجعبري، عمدة الخليل السابق، فلم نكن نتخذ ضدهم بصورة عامة أي عقاب، كان تقديرنا فيس الواقع هو أن من الأولى تحييدهم بعزلهم سياسياً، عن الأهالي. وقد أخذ علينا بعض أصدقائنا في العالم الثالث أحيانا أننا لم نصفي أخصامنا جسديا. بحيث أننا أسهمنا بذلك في تغذية الانقسامات والتشوش في الحركة الوطنية الفلسطينية. إلا أن قادة فتح كانوا يعتبرون دائماً وابدأ أن الحوار الديمقراطي هو الطريقة الصحيحة الوحيدة . والمجزية على المدى الطويل . من أجل امتصاص الاختلافات.

ومهما يكن من أمر، فإننا كنا في الأشهر الأولى التي تلت حرب عام 1967، نواجه العدو وحدنا، وأسلحتنا في يدنا، في حين أن المنظمات الأخرى التي ستشكل بعد ذلك ببضع سنوات «جبهة الرفض» لم تكن قد ظهر ت بعد على المسر ح، أو أنها لم تكن قد اتخذت قرارها بعد بخوض الكفاح المسلح.

كانت فتح أفضل منها تحضيرا واستعدادا لشن الأعمال الفدائية على المدى القصير. فبخلاف التجربة التي اكتسبناها منذ قيامنا بأول عملية في 31 كانون أول . ديسمبر 1964 فأننا كنا نتمتع بدعم سوريا والجزائر اللوجستيكي كما أن الجزائر كانت وافقت عام 1966 على تأمين تدريب رجالنا تدريبا عسكريا.

وقد فتحت هزيمة الأيام الستة أفاقا جديدة أمام نمونا وتطورنا فالنظام الأردني بات أضعف من أن يتصدى لمشروعنا. وأفرج الملك حسين عن مئات الوطنيين الفلسطينيين الذي

كان قد سجنهم في السنوات التي سبقت النزاع كما أنه أغمض عينيه عنا حين عمدنا إلى إقامة قواعد على طول نهر الأردن لتكون بمثابة نقاط إسناد لفدائيينا.

قم أن المؤازرة لمتكن تعوزنا لا بين السكان المحليين ولا داخل القوات الأردنية التي أقمنا معها علاقات ممتازة. كان الضباط الأردنيون الأصل الذي سيبرتكبون بعد سنتين مجرزة بحق الفلسطينيين، يسهلون لنا مهمتنا تسهيلا عظيما. وكذلك كان الأمر بالنسبة للوحدات العراقية التي وصلت متأخرة جداً إلى الجبهة للمشاركة في القتال والتي كانت لا تزال ترابط قرب خطوط وقف أطلاق النار. فقد أعطانا ضباط بغداد – ياسر عرفات وأنا – أوراقاً ثبوتية مزورة تتيح لنا التجربة بحرية. وكان مما يزيدنا شعوراً بالراحة هو أننا أقمنا قواعد فدائية قرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يوفرون حماية مثلى لنشاطاتنا. وجعلنا من أحدى القواعد القريبة من تجمع الكرامة مقر قيادة عملياتنا العام. وبما أنها كانت تقع بين تلال تبعد أربعة كيلومترات عن نهر الأردن،فإنها كانت تحتل موقعاً استراتيجياً نفسياً.

وفي مطلع شهر آذار . مارس 1968، تلقينا الرسالة من مسؤول في المكتب الثاني الأردني هو غازي عربيات، يلتمس فيها إجراء محادثة مع قادة فتح. وقد ترددنا بادئ الأمر . ياسر عرفات وأنا . في أعطائه جوابا بالإيجاب. فنحن لم يسبق لنا أن قابلنا ممثلا عن النظام الأردني. ثم أننا لما كنا نختلج بضرب من البراءة السياسية في تلك الحقبة، فأننا كنا نعتقد أن أي اتصال مثل هذا الاتصال، سيكون محرجا ملوثا، بل غير لائق بحركة ثورية. إلا أن إلحاح عربيات دفعنا إلى أن تقبل في النهاية أن تجري المحادثة يوم 10 آذار . مارس في أحد منازل الكرامة. وقد أطلعنا عربيات على معلومات مصدرها وكالة المخابرات تشم هجوماً واسع النطاق على قواعدنا المقامة على طول نهر الأردن. ونصحنا، من باب الصداقة، بالتروي ودعانا للذهاب إلى عمان لمقابلة رئيس الأركان العامة اللواء عامر خماش الذي يود التباحث معنا حول هذا الموضوع.

وقد حدثنا اللواء خماش في يوم الاثنين 18 آذار . مارس بحديث أكثر وضوحاً وأشد أحكاما. وأخبرنا أن الهجمة الإسرائيلية ستتم خلال الأيام الثلاثة المقبلة، وأن الحكمة تقضي بأن يتلافى الفدائيون أية مواجهة وأن ينسحبوا إلى داخل الأراضي الأردنية. قم ألحل قائلاً بأن قيادة فتح ترتكب خطأ جسيما إذا ما نقي عرضت نفسها لضربات العدو. وأنه إنما ينبغي لنا أن نقي أنفسنا ذلك بإسراع ما يمكن.

كان اللواء خماش محقاً. في المطلق. فالفدائيون . بحكم قانون حرب العصابات . لا يخوضون معركة مع جيش نظامي. وفعاليتهم رهن بقدرتهم على الحركة. إلا أن اعتبارات سياسية

دفعتنا إلى أن نخالف نصائح محدثنا. وقلنا له مفسرين، أن الفلسطينيين، ثم أن العرب بصورة أعم، لن يفهموا أن نخلي السياحة حرة مرة أخرى أمام الإسرائيليين. أن واجبنا هو أن نعطي الامثولة وأن نبرهن على أنة العرب أهل للشجاعة والكرامة. أننا سنقوض وسندمر، إذا ما أمكن، أسطورة الجيش اليهودي الذي لا يقهر. وأمام تصميمنا، ويأسه من إقناعنا، فإن اللواء خماش اقترح علينا أن نطلب مقابلة الملك الملك حسني. فرددنا عليه دعوته بأدب محتجين بقلة ما تبقى لدينا من وقت لكي نستعيد للدفاع عن قواعدنا على طول نهر الأردن.

هجوم ولدى عودتنا إلى الكرامة في اليوم نفسه، استدعينا كافة المسؤولين العسكريين في المنطقة لنعلمهم بالهجوم الإسرائيلي الوشيك ولنطلب إليهم أن يقرروا ما إذا كان ينبغي تلافي المواجهة أم لا. ولم نشأ عرفات وأنا . أن نؤثر في الحكم الذي ينبغي للفدائيين بأي حال من الأحوال، أن يتراجعوا أمام العدو، ولكن على أعضاء القيادة، بالمقابل، بالمقابل، أن يغادروا الأمكنة كإجراء أمني. إلا أن عرفات وفاروق القدومي وأبو صبري وأنا . قررنا أن نشترك في المعركة، وتوزعنا في مختلف قطاعات الكرامة واستقر كل منا في مغارة على خاصرة التلال المحيطة بها.

وفي 21 آذار . مارس، أي بعد ثلاثة أيام من تحذير اللواء خماش، أيقظني أحد الفدائيين عند الفجر ليعلمني ببدء الهجوم الإسرائيلي. كان في وسع المرء أن يميز ارتال مصفحات الجيش الصهيوني وهي تجتاز نهر الأردن تتبعها تشكيلات من المشاة. وبدأت المدفعية بالقصف بينما راحت الطائرات المروحية (الهيلوكوبتر) تلقي بالمظليين خلف خطوطنا.ل وهكذا فقد راح حوالي الـ 15000 رجل يندفعون في هجومهم على قواعدنا على جبهة تمتد ثمانيين كيلو مترا تقريباً. إلا أنه كان بادياً أن الهجوم الرئيسي يتجه نحو الكرامة التي كان علينا أن ندافع عنها بأقل من 300 رجل. ودون أن ينتظر تعليمات القيادة الأردنية العليا، فإن مسؤول المنطقة، اللواء مشهور حديثه، أصدر أمره إلى المدفعية الأردنية بالرد. واستقبلت الدبابات الإسرائيلية في الكرامة بإطلاق نار غزير من بنادق الآر.بي.جي وبوابل من القنابل اليدوية.

وهبط الفدائيون من التلال ليخوضوا المعركة مجابهة وحسبما لجسم أحيانا وبالسلاح الأبيض. وأبدى بعض منهم بطولة انتحارية. فقد رأيت مثلا أحد شبابنا من رجال الكومامندوز وهو يدمر دبابة بأن يلقى بنفسه تحت زردها (جنزيرها) وقد لف نفسه بحزام محشو بالمتفجرات. أما أنا فأني نجوت من الموت مرتين. كان أحد الفدائيين الذين أقودهم . ويدعى جورج . قد غادر المغادرة فيها بحثا عن ذخيرة.ولست أدري أي توجس غامض دفعني إلى مغادرة المكان لاستقر وراء صخرة تقع فوق المغارة بما يقرب من مئة متر. فبعد ذلك بقليل شاهدت جورج يتقدم نحو

المغارة رافعاً ذراعيه تتبعه مجموعة من الجنود الإسرائيليين. ثم قذف هؤلاء بقنبلة مسيلة للدموع داخل مخبئي السابق قبل أني يقتحموه.

ولما كنت أعاني من آلام من ظهري، فأنني لم استطع اللحاق برجالي الذين تسلقوا التلال ليحتلوا مواقع أكثر أمانا. وحين بقيت وحيداً، فأنني شاهدت مجموعة أخرى من الجنود الإسرائيليين تتجه نحوي وأصابعهم على زناد رشاشاتهم وهم يبحثون بصورية بادية عن مرمى. فبقيت جامدا بلا حراك حتى اللحظة التي لم يعد يفصلهم فيها عن الصخرة التي أقبع خلفها إلا بضعة أمتار . وأخرجت مسدسي ببطء وهو جاهز للإطلاق. لم يكن فيه (في مشطه) سوى خمس رصاصات، كنت أدخر أخيرتها لنفسي. إلا أن الجنود الإسرائيليين توجهوا بغتة أخرى مخلفينني وراءهم. وبعيد ذلك بقليل جاءت مجموعة فدائية تبحث عني وتساعد على تسلق التلال لا يوائي في مكان أقل تعرضا للخطر.

وتواصلت المعارك حتى المغيب، وبعدها شرعت القوات الإسرائيلية بلم موتاها وجرحاها كمقدمة للانسحاب. لقد دمروا ثلاثة أرباع مباني الكرامة، إلا أنهم كانوا راجعين في الحقيقة بخفي حنين. فخسائرهم كانت مرتفعة: ثلاثون قتيلا ومئة جريح بحسب بياناتهم، وأكثر من ذلك بحسب تقديراتنا. ثم أنهم بخاصة لم يفلحوا في التغلب على المقاومة الضارية التي أبداها فريق صغير من الرجال قر عزمهم على أن يموتوا قبل أن يستسلموا. واحتفى العالم العربي كله بمعركة الكرامة واعتبرها نصرا باهراً.

وحيكت الأساطير حول مأثرتنا هذه. وتدفق عشرات الآلاف من الأشخاص وكبار شخصيات المملكة الأردنية، عسكريين ومدنيين، إلى المدينة لينحنوا أمام جثمان شهدائنا الذين ينوفون على المئة والذين صففناهم في سرادق.

واستبد الحماس بالجماهير الفلسطينية التي امتلأت فخرا بانتصار الكرامة بعد عقود الاهانة والمذلة، ورأت فيه بداية تحررها. وبدأ الآلاف وعشرات الآلاف من الشباب والشيوخ يسعون إلى الانتساب لفتح. كان الطلبة الثانويون والجامعيون يتركون دراستهم ليلتحقوا بصفوفنا. لكن طاقاتنا على الامتصاص كانت برغم كل شيء، محدودة، فكنا مجبرين على القيام بعملية انتخاب قاسية. فلم نجيد، على سبيل المثال، من الخمسة آلاف مرشح الذين تقدموا إلينا في الثماني والأربعين ساعة التي تلت معركة الكرامة سوى تسعماية فقط. وعرفت الحركة الفدائية انطلاقة لا سابق لها. وبدأ مغاويرنا يكثفون عملياتهم مستفيدين من تعاطف أهالي الأراضي المحتلة الفعال. وزادت العمليات من معدل 12 عملية شهرياً عام 1967 إلى معدل 52 عملية شهرياً عام 1968 إلى 199 عملية عام 1969 إلى 279عملية

شهريا في الأشهر الأولى من عام 1970. فمن إلقاء القنابل في المتاجر الكبرى ومواقف سيارات الأوتويس في إسرائيل إلى إطلاق القذائف الصاروخية على التجمعات الحدودية إلى المناوشات على خطوط وقف إطلاق النار، إلى الهجمات على ثكنات الجيش اليهودي. بحيث أن مناضلينا لم يتركوا سلطات الاحتلال تتوقف أو ترتاح.

ثم أن الجرأة ونكران الذات اللذين أظهرتها النسوة الكثيرات اللاتي التحقن بالمقاومة، تنتزع أعجاب الكافة بما في ذلك أولئك الذين كانت لهم أحكامهم المسبقة إزاءهن. كانت الطالبات الثانويات أول من قام بالمظاهرات العنيفة ودون على هجوم قوات الأمن. وأدى عدد من جربتوفيقهن فأنن أظهرن شجاعة أدهشت حتى سجانيهن. فقد وضعت أحداهن حملها في السجن وتحملت المخاض برباطة جأش. وتعرضت ثانية حين رفضت الاعتراف للاغتصاب على يد الجلادين في سجن غزة. وقد تقدم عدة فلسطينيين بطلب يدها، ناقضين العقلية المحافظة التي تسود في مجتمع محافظ كمجتمعنا. بل أن هذا الحادث الذي لا سابق له، تكرر مرات عدة في حالات مشابه. فقد كان من شأن المقاومة وأثرها أنها شجعت تحرير المرأة وانعتاق الرجال من التقاليد المتحجرة.

ثم إنه تولد عن نمو فتح وتطورها بضع مشكلات تنظيمية حاولنا أن نحلها بصورة جماعية. وقد طرحت أحدى المشكلات نفسها بصورة غير متوقعة، واقتضت قرارا عاجلاً، فكان على أن أتخذ القرار بدون التشاور مع أعضاء اللجنة المركزية الآخرين، ذلك أني تلقيت بعد مرور ثلاثة أسابيع على معركة الكرامة تقريراً سرياً، بصفتي رئيس استخبارات فتح . يفيد بأن أحد أعضائنا يستعد للمناداة بنفسه قائد لقوات العاصفة، الجناح العسكري من فتح. كانت خطته هذه تخاطر بإثارة أزمة داخل الحركة وتشويشاً خطيراً في الرأي العامل، سيما وأن تركيب قيادة فتح كان لا يزال في ذلك الحين سرياً، فكان في وسع أي كان أن يدعي العضوية فيها. وكان المذكور سيبث إعلانه في الساعات التالية. وإذ وجدت نفسي وحيداً في دمشق لا أستطيع الاتصال على وجه السرية برفاقي في اللجنة المركزية ، الذين كانوا في غالبيتهم متوزعين بين القاهرة وعمان وبيروت فأني اتخذت المبادرة لوضع حد لهذا الشذوذ. وهكذا فقط أعطيت الصحافة في 15 نيسان . أبريل 1968 بياناً يعلن تعيين ياسر عرفات ناطقا باسم فتح (وبالتالي باسم العاصفة) موضحاً بأنه الشخص الوحيد الذي يحق له الكلام باسم الحركة. كما نشرت كذلك تصريحاً قصيراً باسم عرفات . حررته كذلك بدون علمه . يعلن فيه قبوله لمسؤولياته الجديدة مضيفاً أن قيادة فتح تظل قيادة جماعية.

وقد علم عرفات بالخبر من الإذاعة فكان أول المندهشين غير أنه لتواضعه عارض تعيينه هذا خلال اجتماع عقد بعد ذلك في دمشق مؤكداً أن ثمة من هم أجدر منه وأحق بهذا المنصب. لكن بقية أعضاء القيادة الآخرين، وافقوا كما توقعت على اختياري. فعرفات لم يكن أحد أقدم مناضلي الحركة وحسب بل أنه كان ثمة إجماع بيننا على احترامه وتقديره. بيد أن المهم هو أن فتح باتت ممهورة بالنسبة للمرحلة الجديدة، بوجه بارز جديد بتمثيلها أمام الرأي العام وأمام المؤسسات الدولية.

ثم أن مهابتنا بلغت، بفضل انطلاقة الأعمال الفدائية، الذروة، فقررنا الاستفادة من هذا الوضع لنقيم علاقات وثيقة مع كافة الأنظمة العربية المستعدة لمساعدتنا. وهكذا فإن الملك حسين الذي كنا بالنسبة إليه قوة لمنافسة، وبديلاً ثورياً لنظامه، قد أضطر لأن يعلن جهاراً بعد مرور يومين على معركة الكرامة: «كلنا فدائيون».

وقررنا أن نقوم بجولة منظمة على البلدان العربية الرئيسية بادئين بأكبرها، عنيت مصر، ولما كانت تجاربنا مع مخابرات عبد الناصر تجارب مخيبة للأمل، فأننا طللنا . فاروق القدومي وأنا . إجراء محادثة مع رئيس تحرير الأهرام محمد حسنين هيكل الذي استقبلنا بطيبة خاطر. وكان الانطباع الذي تركه للوهلة الأولى في نفسي نجي الريس ومؤتمنه النافذ، انطباعاً سيئاً وبدا لي في لباسه المتأنق وسيجاره الكبير القابع بين شفتيه واطمئنانه المفرط لدى الكلام، وكأنه يتحدث إلينا من قبل التنازل. وقلت في نفسي أنه لا يمكن أن يكون لدى هذا الرجل أدنى تعاطف مع القضية الفلسطينية. إلا أني لن البث فاكتشفت أني أخطأت الحكم عليه. وعلى كل حال فإنه عاد وأصبح أحد أفضل أصدقاء المقاومة.

كانت أول محادثة بيننا وبين هيكل قصيرة نسبيا، وبعد أن قال لنا كل الخير الذي يرجوه من عم لحركتن، فإنه أكد لنا أن النظام المصري يود إقامة علاقات «على أرفع مستوى» مع فتح. ثم عرض علينا أن يصطحبنا لتونا إلى الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي . الحزب الوحيد في مصر . على نفسه صبري. وعلى الطريق طرح علينا بينما كان يقود سيارته بنفسه سؤالا لأنه أعاد تكرار السؤال. وإنما بدأنا نفهم قلقه عندما وصلنا . ويا لدهشتنا العظمى . ليس إلى مقر الاتحاد الاشتراكي العربي وإنما إلى مقر عبد الناصر.

ذلك أن هيكل . الذي يجب عمليات الإخراج المسرحي حبا جما . كان قد وما أن جلسنا حتى سألنا بلهجة بادية الجد وهو يشير بأصبعه إلى حافظة الوثائق التي يحملها فاروق القدومي «أصبح أنكم تحملون هنا متفجرات لقتلى؟» ثم أضاف «اطمئنوا فأنا أمزح. فقد تلقيت من المخابرات تقريراً يحذرني بأنكم ستحاولون اغتيالي. ومزقت هذا التقرير السخيف كما عارضت

اقتراح هيكل بتفتيشكم على مدخل مقرى». وكانت مناسبة بالنسبة إلي لأهاجم المخابرات التي اضطهدتنا في سنوات الخمسين (كان عبد الناصر لا يتذكر الطالب الذي كنته عام 1955 والذي تحاور معه غداة الغارة على غزة) كما رويت له كيف أن رئيس مخابراته حاول أن يفسد ممثلينا عام 1966 وقد أجابني عبد الناصر بأنه أجرى تغييراً عميقاً في المخابرات غداة حرب 1967 ثم المح وهو يحلل لنا أسباب الهزيمة بأنه كان عشية النزاع لا يسيطر على المفاصل الرئيسية في الدولة وفي الجيش خاصة. وهكذا فإنه ترك نفسه كما قال ينقاد إلى حرب كان يريد تلافيها. إلا أنه أكد بأنه يتحمل برغم كل شيء المسؤولية الكاملة عن الهزيمة.

ثم أن صراحته شجعتنا على أن نحدثه بمنتهى الحرية عن فتح. وراح هو يسائلنا على مدى أكثر من ساعتين حول تأسيس منظمتنا وإيديولوجيتها ومصادر تمويلها ونشاطاتها. كان يريد أن يعرف كيف استطعنا أن نصمد للإسرائيليين في الكرامة وما هي القيمة التقنية لبنادقنا . الرشاشة الآر.بي. جي. ونعد أن أصغي إلينا باهتمام كبير تناول مسألة توجهنا السياسي الذي كان يبدو أنه يقلقه. أصحيح أن بيننا الكثير من الأخوان المسلمين .تلك الحركة التي يخشاها أكثر من أي شيء آخر؟ ألسنا معادين للناصرية؟ وعندما طمأناه بأجلوبتنا، فإنه راح يسائلنا حول شخصية ياسر عرفات. فشرحنا له أن عرفات الذي يود على أي حال لقاءه، يشكل جزءاً من قيادة جماعة تماماً.

وأفضت هذه المباحثات التي دامت أكثر من خمس ساعات، إلى نتائج ملموسة. فقد عبر لنا عبد الناصر عن رغبته في إقامة علاقات مباشرة مع فتح بدون المرور بالمخابرات (الأمر الذي كنا نرفضه على كل حال) واتفقنا على أن يكون هيكل، فيما عنى المشكلات السياسية واللواء صادق (رئيس المكتب الثاني) فيما عنى المسائل ذات النطاق العسكري المتباحثين الوحيدين معنا. ووعدنا عبد الناصر بأن يقدم لنا الأسلحة وأن يؤمن تدريب الفدائيين. ثم أضاف: أنه ليست لدى مصر الوسائل لتزويدنا بمعونة مالية وأوصانا بأن نعمد إلى الملك فيصل فيماعنى هذا الموضوع، الأمر الذي كنا نعتزم القيام به على أي حال. واستقبلني العاهل الوهابي في ذات اليوم الذي وصلت فيه إلى العربية السعودية التي كنت اعرفها قليلاً بالنظر إلى أني أقمت فيها في شهر تشرين الأول .أكتوبر 1953 كعضو في وفد اتحاد الطلاب الفلسطينيين. كما خصنا الملك السابق سعود باستقبال حار وسلمنا قبل الانصراف ما يوازي 30000 دولار وهو مبلغ ضخم استخدمناه في تمويل نشاطات اتحاد الطلاب الفلسطينيين. وقد أهر الملك فيصل، الذي استبقاني طيلة أربع ساعات عطفا حادا على الحركة الفلسطينية، وأن عرض مطولا شكاواه من العناصر اليسارية والماركسيين «المندسين» في رأيه

بين الفدائيين. وامتنع وهو الرجل المرهف من أن يذكر أسماء أو أن ينتقد هذا النظام العربي أو ذاك. إلا أنه لم يكن ببديهة الحال، يكن، أية ثقة بالنظام السوري الذي كان يسيطر عليه حينذاك صلاح جديد، ولا كان يحب عبد . الناصر.

وكان تقديره هو أن علينا أن لا نتشابه أو نتماثل مع أي نظام عربي. وعلى هذا فإن العربية السعودية سيساعدنا بقدر ما يمكن من تكثم. ثم راح يلح قائلاً «ونحن لا ننتظر منكم مديحاً ولا انتقاداً». كما وافق بناء على اقتراحي، على السماح بإنشاء «لجان دعم» في المملكة تكلف بجمع الهبات وبأن تحسم تلقائياً نسبة تصل إلى سبعة بالمئة من رواتب الفلسطينيين المقيمين في العربية السعودية، وهي مبالغ ستستخدم في تغذية صندوق فتح. ثم أضاف وهو المولى الكبير، بأنه سيدفع لحركتنا مبلغا مكافئاً لكامل الأموال التي تجمع من الأفراد.

وكذلك فإن زيارتي للسودان . وهي المرحلة الثالثة في ا لجولة التي قمت بها صيف عام 1968 . محثمرة على نحو خاص. كان يصحبني هذه المرة فاروق القدومي وأبو صالح، وقد تأثرنا جميعاً بالروح الديمقراطية والتسامح والمروءة والكرم لدى السودانيين . فغداة وصولنا، نظمت أحزاب المعارضة بما في ذلك الشيوعيون والأخوان المسلمون، اجتماعاً شعبياً كبيراً على عتبة الفندق الذي نقيم فيه. فكان الخطباء يهاجمون رئيس الحكومة محجوب الواقف إلى جانبنا مذكرين بأنه يدعم منظمة التحرير الفلسطينية (التي كان لا يزال يرئسها الشقيري) ماليا ولي فتح، فتهتف الحشود «محجوب خائن». ووجدتني محرجاً، فأخذت الكلام لأعلن أن ثمة مفاوضات جارية بيننا وأنني مقتنع بأن محجوب لم يرفض معونة حركتنا.

وفي ذات السماء، كان رئيس الحكومة وزعماء المعارضة، أي نفس أولئك الذين هاجموه قبل ساعات، يحضرون حفل استقبال على شرفنا، وكم كانت دهشتي حين رأيتهم يتبادلون أحاديثاً حبية بل ودية، وحتى كانوا يحترمون معتقدات مواطنيهم الدينية بكثير من الدقة، إلى حد أنهم قطعوا محادثة خاصة مع وفدنا لأداء الصلاة في المسجد. أقول ذلك لأدلل إلى أي حد وجدتني مدهوشاً ومصدوماً لدى اندلاع الحرب الأهلية في السودان بعد ذلك بثلاث سنوات تماماً والتي كانت حصيلتها إعدام قادة أنحزاب الشيوعي الرئيسيين.

وثمة حدث آخر استرعى انتباهي لدى مكوي في السودان. فخلال اجتماع عام نظمه اتحاد النساء السودانيات، وقفت أحدى المناضلات المكلفات بجمع ثياب صوفية للفدائيين، لتطرح علي سؤال التالي: «ألا تظنون أنه لن يكون ثمة طائل في هذه الثياب في الشتاء المقبل إذا صح أنكم ستكونوا قد حررتم فلسطين؟» وقد أتاح لي هذا السؤال أن أقيس مدى الأسطورة التي أنشأتها

الصحافة العربية حول إمكانياتنا. لكنه بدا لي في ذلك اليوم إنه من غير اللائق أن أعرض علنا نقائص وقصور . كي لا أقول خيانات . بعض الأنظمة العربية إزاء القضية الفلسطينية. إذ كيف إلى تفسير رعاية حلفائنا الطبيعيين لموازين قوى تميل بصورة ساطعة لصالح إسرائيل. وإذا فقد اكتفيت بأن اجيب بالقول أنه لا ينبغي اليأس من حدوث نصر قريب.

ثم إن علاقاتنا بمختلف الحكومات العربية تحسنت بصورة واضحة، فلم يعد علينا أن نجعل من منظمة التحرير الفلسطينية أداة بروزنا على المسرح السياسي. كان أحمد الشقيري قد استقال، على كره، من منصب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عام 1967 وحل محله بالوكالة يحيى حموده. وقد حاول الشقيري خلال محادثتين أجراهما مع قادة فتح في شرهي حزيران . يونيه وآب . أغسطس 1967، أن يقنعنا بأن الملك حسين خانه، وأنه سلم الضفة الغربية عمداً إلى إسرائيل. كان يحاول أن يحصل مجددا على ثقة الرؤساء العرب الذين كان من المقرر أن يعقدوا اجتماعا لهم في نهاية شهر آب . أغسطس في الخرطوم. إلا أن الرياح جرت بعكس ما اشتهت سفنه، إذ أنه تعرض لهجوم عنيف من الكثيرين منهم، كما أسلمه حاميه عبد الناصر إلى قدره.

ومنذ ذلك الحين أكب الرئيس المصري على محاولة اصطياد عصفورين بحجر: فهو بتشجيعه دمج الحركة الفدائية بمنظمة التحرير، فإنه كان يسعى إلى وضع حد لازدواجية السلطة . السلطة الشكلية التي تمثلها منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الشرعية التي نمثلها نحن . ثم أن يقيم من جهة ثاينة اطاراً مناسيا لتوحيد المقاومة. فالواقع هو أن عدة منظمات منافسة لفتح ظهرت بعد حرب عام 1967 وكانت تشكل، بالرغم من أنها أقليات، قوى ينبغي تجميعها بصورة أو بأخرى.

ولم نكن في البداية مجمنعين على إدارة الحلول محل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. كان بعض منا يخشى على الحركة أن تنالها البيروقراطية وأن يضعف نقاؤها الثوري بنتيجة ذلك. ووضعنا عدة شروط بدت لنا ضرورية ولا غنى عنها لقيامنا بالتعاون في هذا المجال. فلا بد من أن تحوز المنظمات الفدائية على أغلبية المقاعد في داخل المجلس الوطني الفلسطيني، وهو ضرب من برلمان منظمة التحرير الفلسطينية. ثم افلحنا على أثر مساومات شاقة، في الحصول في منتصف حزيران . يونيه 1968 على قرابة نصف المقاعدة ولم يغير المجلس الوطني الفلسطيني الرابع الذي انعقد في القاهرة في الشهر التالي، شيئا في تركيب اللجنة التنفيذية . الجهاز الأعلى في منظمة التحرير الوطني الذي جرى تبنيه في وجهتنا السياسية. وجرى تعديل الميثاق الوطني الذي جرى تبنيه في أول مجلس عقد في القدس عام 1964 برئاسة الشقيري، لإدراج وتوضيح «إن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد المؤدي إلى تحرير فلسطين».

ولم تقبض المنظمات الفدائية على زمام منظمة التحرير إلا في شباط . فبراير 1969، خلال دورة المجلس الوطني الفلسطيني الخامس بعد أن كانت أمنت لنفسها خلال ذلك الأغلبية المطلقة في المقاعد. ثم عينت اللجنة التنفيذية الجديدة كرئيس لها ياسر عرفات، الذي بكى انفعالا أمام ضخامة المسؤوليات التي بات عليه الاضطلاع بها. وخلال هذه الدروة أخذ المجلس الوطني الفلسطيني على عاتقه هدف فتح الاستراتيجي والذي عرضته في 10 تشرين أول . أكتوبر 1968 خلال مؤتمر صحفي . إلا وهو إنشاء دولة ديمقراطية في فلسطين يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في مساواة تامة وتكافؤ كامل.

ثم إن كافة البلدان العربية، بما في ذلك تلك التي كانت ولا تزال تحاذر منظمات أقصى اليسار الفدائيةن تلقت بارتياح ورضى تولي المقاومة منظمة التحرير الفلسطينية. والسبب الرئيسي لهذا الارتياح، هو أن فتح التي كانت تتمتع بثقة الغالبية من هذه البلدان ، قد أمنت لنفسها، وكما ينبغي أن يكون نفوذا راجحا، إن في داخل المجلس الوطني الفلسطيني وإن في داخل اللجنة التنفيذية. وأتاح لنا هذا التكريس الذي حصلنا عليه على مستوى العالم العربي أن نخوض عملا يهدف إلى تأمين مرتكزات دولية للحركة. وما كان يمكن لهذا العمل إلا أن يتوجه باتجاه البلدان الاشتراكية بالنظر إلى العداء واللامبالاة التي كانت الدول العظمى الغربية ومن يدور في فلكها، تظهر ازاءنا. فقد افقدتنا الممارسة اليومية تدريجياً، بأكثر مما افقدتنا قراءاتنا، الأحكام المسبقة التي كنا تنعل لبها في مطلع سنوات الخمسين أزاء الماركسية والبلدان الاشتراكية غير أن من الصحيح كذلك أن علاقاتنا بالاتحاد السوفياتي ظلت متباعدة ومشوبة بالحذر. فقد ابطأ القادة السوفيات في إدراك معنى كفاحنا، ربما لأنهم تأثروا بالأحزاب الشيوعية العربية التي كانت تواصل التنديد بروح «المغامرة» لدينا وتتهمنا بأننا إخوان مسلمون ورجعيون. وعلى هذا فقد تلقينا بارتياح الدعوات التي تسلمناها في مطلع عام 1970، لزيارة الصين الشعبية وفييتنام.

كان قد سبق لياسر عرفات أن زار بكين مرتين في عامي 1964 و 1966 وكانت الزيارة الأولى ناجحة بحذر، بينما تمخضت الثانية عن وعود بالمعونة تجسدت بعد حرب الأيام الستة. والواقع هو أن عدة مجموعات من الفدائيين تلقت اعتبارا من عام 1968 اعداداً عسريا في معسكرات التدريب في الصين. إلا أنه بقي علينا أن ننمي وتعزز هذه العلاقت. وقد كان هذا الهدف في بالنا حين سلكنا، ياسر عرفات وأنا، طريق بكين في شهر فبراير شباط 1970. وكانت الدواعي السياسية والامنية توجب أن تظل هذه الرحلة سرية. وإمعانا في التمويه، فإننا سلكنا طرقا مختلفة لنلتقي في باكستان حيث نستقل الطائرة من هناك. وحاولنا أن لا نسترعي الانتباه. فكان عرفات مثلا يلبس طعما رسميا مستبدلا غطاء رأسه التقليدي . الكوفية والعقال .

بقبعة لينة محترمة . لكنها كانت احتياطات لا طائل فيها. إذ ما كدنا نجلس في الطائرة حتى وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع عبد السلام جلود. وبدا لنا جلود . الشخصية الثانية في ليبيا . غريبا. فقد كان خافض الرأس بادي الإحراج، وحيانا بقليل من الملاطفة ثم لزم الصمت طوال الرحلة. وعرفنا بعد ذلك إنه كان يقوم هو أيضاً بزيارة سرية للصين، هي أول زيارة يقوم بها منذ قيام الثورة الليبية في أول أيلول . سبتمبر 1969. وقد لقينا لدى توقفنا في شنغهاي، ما لقيناه في مطار بكين من استقبال رسمي وشعبي حار وأنزلونا في قصر قديم كان لسفارة فرنسا قديما قبل أن يزورننا مختلف المصانع والمؤسسات الشعبية. وذات يوم باغتناهم بطلب زيارة كومونة. فقد كان ثمة حملة صحفية عارمة في تلك الأثناء تهاجم هذا الشكل من وحدات الانتاج، فكان الفضول يستبد بنا لمعرفة الكيفية التي تعمل بها في الواقع. واستجاب مضيفونا للطلب بكثير من اللطف. ووضعوا المنشآت التي زرناها والأحاديث الطويلة التي أجريناها مع السكان والمسؤولين المحليين والتوضيحات التي قدموها لنا، إلى إقناعنا بالدور الإيجابي الذي تلعبه الكومونات في اقتصاد البلاد.

ثم إن جدية الصينيين أثرت في نفسي. فهم منصرفون إلى الكد اليدوي أو الذهني ويكرسون أوقات فراغهم لنشاطات بسيطة سليمة. واسترعاني نمط حياتهم المشوب بالتقشف (بالتطهرية). وسحرنا شو أن لاي، الذي أجرينا معه محادثات ودية طويلة، بذكائه الحاد ورهافته وسعة ثقافته. ثم إن الاسئلة التي طرحها علينا نمت، ليس عن عميق تعاطف إزاء الشعب الفلسطيني وحسب، وإنما عن عميق معرفته كذلك بالمشكلة وسياقها المحلي والدولي. وكان يتذكر بالتفصيل، وهو ذو الذاكرة الفريدة، الأجوبة التي حصل عليها من زوار فلسطينيين آخرين على ذات الأسئلة التي وجهها إلينا. الأمر الذي كان يتيح له أن يستخلص نتائجه الخاصة. وعندما تعرضنا لمسألة موقفنا من الاتحاد السوفياتي، وهي أدق المسائل على الإطلاق، فإننا شرحنا له أننا نريد إقامة علاقات ودية مع موسكو. وأضفنا بأننا نأمل في أن لا تنال مثل هذه العلاقات من تعاوننا مع الصين الشعبية. كان من البديهي، أن النظام الصيني يريد، كما يظهر من الشعارات التي تغطي جدران بينكين، تعبئة السكان ضد «امبريالية الاتحاد السوفياتي الاشتراكية».

وأصغى إلينا شو أن لأي برصانة ثم أجابنا، أما عظيم دهشتنا، بأنه يفهم شواغلنا. «فأنت تمثلون حركة تحرر وطني، ومن الطبيعي أن تحاولوا تأمين الزر والمساعدة حيثما وسعكم الحصول على ذلك.» ووعدنا بدعم الصين الكامل ودعانا إلى توضيح حاجاتنا بدقة. ثم ضرب لنا موعدا لموافاته في اليوم التالي في وزارة الدفاع، حيث أعلمونا للتو بأن طلباتنا العسكرية أو المدنية قد قبلت. وغادرنا الصين إلى فيتنام الشمالية على متن طائرة عسكرية صينية. كنت

منفعلا إزاء هذا الاحتكاك الذي سأحتكه مع شعب أعجب بعناده وصلابته وبطولته. فكل ما قرأته وسمعته عن مقاومة الفيتناميين للاحتلال الفرنسي أولا، ثم للعدوان الأميركي بعد ذلك، كان يشكل بالنسبة لي مصدر أمل وكنت أقول في نفسي أن الشعب الفلسطيني شعب صغير وفقير بالموارد، هو الآخر، وسيكون في طاقته أن يواجه أقوياء هذا العالم وأن ينال حقه في الاستقلال والحرية. كان كل ما سأراه وأسمعه في فيتنام الشمالية مصدر إثراء وحماس متزايد بالنسبة إلي. ووجدنا باطن مطار هانوي، حيث استقبلنا المكتب السياسي في حزب العمل (الشيوعي) خيرا من ظاهره. فأبعاده متواضعة، ومظهر مقفرة يشهد بأن البلاد في حالة حرب: فمدرجاته المحفوفة بالمدافع المضادة للطائرات تحتلها في غالبها الطائرات المروحية وطائرات الميغ 17 و 19.

واتصل الحديث الذي خضناه مع مضيفينا في صالونات المطار نحوا من ثلاث ساعات. وعندما عبرت عن دهشتي لهذا الانتظار الطويل، فإنهم أجابوني بدون أدنى حرج بأن السلطات لا تزال تبحث عن بين لا يوائنا وسيارة لتقلنا. ولم يقدر لي أن أرى خلال الأسبوعين اللذين اقتنتهما هناك سوى خمس عشرة سيارة خاصة تتجول في المدينة. ولاحظت أن بؤس الفيتناميين كان متقدما في بعض النواحي على بؤس الفلسطينيين وأن ظروف الحياة في هانوي، أسوأ من تلك التي يعانيها مواطني منذ ثلاثين سنة في مخيمات اللاجئين. فغالبية مباني العاصمة الفيتنامية كانت إما مصابة بالقذائف وإما في حالة تداعي متقدمة. بينما يتحمل الأهالي صعوبات الحياة اليومية، بما في ذلك النقص في المواد الغذائية الضرورية جداً، بصبر ورباطة جأش عظيمين.

واسترعاني الدور الذي تلعبه النساء الفيتناميات. كن يعملن بنشاط في كل مكان: في المصانع والمكاتب والمدارس وكذلك في ورش البناء وحتى في ميادين المعركة. فكافة مزالق إطلاق صواريخ سام، التي قدر لي زيارتها، إنما كان يتولى تشغيلها فتيات ما فتئت هشاشتهن تدهشني. ومما يزيد من تقديري لانعتاق المرأة الفيتنامية. هو إنها ظلت طيلة قرون، بل وحتى فترة متأخرة، خاضعة لنظام تمييز وقهر، شرس. فكان من «الطبيعي» مثلا، إن يبيع الأب بناته لمن يدفع الثمن الأعلى، تلبية لحاجات عائلته. وكانت الزيارات التي قمنا بها للقواعد العسكرية ومخيمات التدريب ذات فائدة عظمى لنا ذلك أنه أتيحت لنا فرصة دراسة أساليب تنظيم وإعداد ولاحظنا باهتمام وجود مفوضين سياسيين، شبيهين بمفوضنا، لم تكن مهمتهم أغناء وتكثيف بواعث المقاتلين وحسب، بل القيام بدور صلة الوصل بين الحزب والجيش.

وقد أثر فينا الجنرال جياب إلى أبعد الحدود، سواء بما يتعلق بمعارفه العسكرية، أو بثقافته السياسية، أو بتواضعه ورهافته. وبدأ وزير الدفاع أول محادثة بيننا بذكر آية من القرآن

تؤكد على أن القوة أمر ضروري لمواجهة العدو (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ثم استطرد محذراً إيانا من الانسياق وراء الأوهام التي يمكن أن تتولد عن أفكار رائجة مثل «الحرب الشعبية» و «السلطة عند فوهة البندقية». ثم أضاف وهو يستشهد أبدا بالتجربة الفيتنامية: ذلك أن الأمور ليست بمثل هذه السلطة. فلا ريب في أن البندقية هامة، إلا أنها لا تكفي لتأمين الانتصار. ولا بد من أن يضاف إليها المدفع والصاروخ وكافة مجموعة الأسلحة التي يتمتع بها المعتدي.

وواصل الجنرال جياب حديثه قائلا: «ولا ريب في أن لدى الفيتناميين والفلسطينيين كشعبين يعانيان من نفس الشر، الكثير من الأمور المشتركة بينهما. ولكن كفاحنا يتمتع بمزايا كثيرة تفوق ما يتمتع به كفاحكم بكثير. فنحن بخلاف الفلسطينيين الذين يعيشون في وسط معاد وغير ودود، فإننا نتمتع من جهتنا بداخل ودي وبالبر الصيني الذي يقدم لنا عمقا استراتيجيا لا يقدر بثمن، إضافة إلى أن المعونة المتعددة الأشكال التي تقدمها البلدان الاشتراكية.» ثم خلص إلى القول إن ثمة ثلاثة مقومات لا غنى عنها لانتصار حرب شعبية: الأسلحة البالغة التطوران والإيديولوجية المعبئة، والتنظيم القادر على لم شمل الجماهير وتأليبها وقيادتها. وحول هذا الموضوع الأخير، شرح لنا الجنرال جياب كيف توصل حزب العمل إلى إنشاء وبعث الحياة في الجبهة الوطنية التي أفلحت في اجتذاب كافة الفئات الاجتماعية أو الدينية من السكان من بوذيين ومسيحيين ومسلمين ومن العمال والفلاحين بطبيعة الحال، وكذلك . ويا لعظيم اندهاشنا . من الطبقات الوسطى والصناع والتجار والصناعيين الذين تأذت مصالحهم من قبل الامبريالية الأميركية. وبدا لنا برنامج الجبهة الوطنية . الذي أتيح لنا أن نقرأ من خلال إقامتنا . مثيرا للخيبة للوهلة الأولى. فهو مكتوب بعبارات بسيطة لا تثير ، كما أن الأهداف التي يرسمها للحركة كانت تبدو لنا بديهية بل وديزة مجملة: الوحدة الوطنية، تحرير الوطن، الديمقراطية ألخ. إلا أننا أدركنا لدى إمعان التفكير، بأنه توخي في تصميم النص وتصوره أن يستجيب لحاجات السكان كافة وبدون استثناء. ولم أستطع عند ذاك من أن أمنع نفسي عن التفكير بالسفسطة التي تسود العالم العربي، وبالألف شعار وشعار من تلك الشعارات التي كنا نطلقها بدون أن يكون في مقدورنا أن نضع ولو واحداً منها موضع التطبيق، وبالمزايدات الديماغوجية التي هي أهل لتنفير أفضل الإرادات وأجود النوايا. وقلت لنفسي أن لدى الأحزاب والحركات السياسية العربية الكثير مما تعلمه من تواضع وتكتم وواقعيو القادة الفيتناميين. ودفعتنا مباحثاتنا ع أعضاء المكتب السياسي في حزب العمل إلى التفكير تفكيراً أعظم ببرنامجنا. كنا قد صغنا في تلك الحقبة هدفنا الاستراتيجي الذي كان قوامه إنشاء دولة ديمقراطية اتحادية في مجمل فلسطين. ولكننا لم نحسب

حساب أية مرحلة انتقالية ولا أي تسوية مؤقتة. ودون أن يشيروا إلى فتح أو إلى منظمة التحرير الفلسطينية صراحة، فإن محادثينا من أعضاء المكتب موضحين لنا أنهم اضطروا إلى الخضوع إلى تنازلات مختلفة، كان بعضها أحيانا في حجم تقسيم البلاد إلى دولتين مستقلتين. كما أنهم اعطوا مثالاً آخر على روحيتهم الشديدة الواقعية لدى تركيز صيغة البيان المشترك الذي كان ينبغي نشره لدى زيارتنا. فقد لاحظت كعضو في اللجنة المكلفة بتحرير النص، تردد زملائي الفيتاميين أمام اقتراحاتنا المتعلقة بالتنديد بإسرائيل والصهيونية. وقال لي أحد هؤلاء الزملاء، وهو عضو في المكتب السياسي، بأنه يود لو نلجأ إلى عبارات أكثر اعتدلا،بل إلى عبارات غامضة، من أجل عدم تكدير اليهود الأميركيين الذين يناضلون كثيراً منهم في الولايات المتحدة في الحركة المؤيدة لفيتنام. وهنأت محدثي على صراحته وعلى ترويه بخاصة، ووافقت لفوري على الصيغة المخففة فيما عنى المقطع المتعلق بإسرائيل الذي قدموه لي. وبالمقابل فإن البيان أعلن دعم فيتنام لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. وهنا أيضاً دار في خلدي أن علينا أن نتعلم الكثير من رفاقنا الفيتاميين الذين لا يترددون بالتضحية بالثانوي محافظة على الأساسي. أما على الصعيد العملي، فإننا حصلنا من مضيفينا على موافقة بمنحنا تسهيلات واسعة لتدريب مغاويرنا في معسكراتهم. ولما كنا نعلم محدودوية وسائلهم، فإننا لم نطلب إليهم أية معونة أخرى.و

ها قد مضى ما يقارب التسع سنوات على تلك الزيارة المشهودة، ولا يزال أعز أماني، هو أن أعود إلى هناك . بمجرد أن تتيح لي التزاماتي ذلك . لأشاهد التحولات التي حدثت منذ أن حقق الشعب الفيتنامي انتصاره التاريخي ووحد وطنه.

وبعيد عودتي من فيتنا م بقليل، تلقيت في ربيع عام 1970، دعوة لحضور الاحتفالات التي ستجري في شهر تموز . يوليو في كوبا بمناسبة ذكرى الثورة الكاسترونية. ولما كنت منشغلا بتطور الموقف في الشرق الأوسط وخاصة في الأردن حيث كان التوتر يتنامى بين الملك حسين وبين منظمة التحرير الفلسطينية، فإنني لم أقرر إعطاء رد إيجابي على الدعوتن إلا قبل الموعد المحدد ببضعة أيام. والواقع هو أنني وافقت على الذهاب إلى كوبا لأتلافي حضور الاحتفالات التي كانت الحكومة المصرية تنظمها في ذات الأسبوع بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لسقوط الملكية. فوفقا للمعلومات السرية التي أفضى بها إلي، فإن عبد الناصر كان يعتزم أن يعلن، في الخطاب الذي سيلقيه بهذه المناسبة، قبوله بمخطط روجرز حول تسوية مصرية إسرائيلية وكنا معادين عداء شديداً لمثل هذا الاتفاق، ولم أكن أتمنى بطبيعة الحال أن أكون حاضراً حين يعلن عبد الناصر انضمامه إلى المشروع الأميركي. وبرغم الإلحاح، المشبوه في نظري، الذي أبداه

محمد حسنين هيكل، صديق عبد الناصر ومؤتمن سره، فإني دفعت الدعوة متذرعا باستحالة رفض دعوة فيدل كاسترو.

كانت الرحلة التي قمت بها من القاهرة إلى كوبا بطريق مدريد، أحد أنهك الرحلات التي قمت بها في حياتي. فبعد انتظار طويل في مطار العاصمة الإسبانية، حيث تولى الحرس الكوبي المرافق (الغورلية) أمرنا، اقلع الوفد الفلسطيني الذي كنت أقوده على متن طائرة متواضعة تابعة للشركة الوطنية الكوبية. واستمرت الرحلة أكثر من خمس عشرة ساعة، وضمن أوضاع تذكرني بأوضاع التزام العامل في الريف المصري. كانت الطائرة المكتظة بعدد من الركاب يزيد على عدد مقاعدها، والمزدحمة بالحقائب والصرر التي تعيق المرور، تبدو وكأنها تطير كيفما كان.

ووجدتني جالسا إلى جانب أمين الهويدي، كبير سادة المخابرات المصرية وكان يشكو مثلي من ضيق المقاعد ومن الحرارة. وقال لي وهو يمسح العرق عن جبهته: «وإذا فإنكم تعتزمون محاربة مخطط روجرز وعبد الناصر» فأوضحت له أننا نعارض أي مشروع يزرى بالحقوق الوطنية الفلسطينية، فأجابني بأنه ينبغي لنا أن نثق بعبد الناصر ووطنيته وأمانته للقضية الفلسطينية وفي مطار هافانا، استقبلني نظيري الكوبي، رئيس المخابرات الكوبية، وهو رجل يتمتع بحس دعابة عظيم، وأصبح فيما بعد صديقاً لي. وما أن استقر بي المقام في منزل بسيط حتى قدموا لي برنامج مباحثات بدا لي مفرطا. إذ كان علي أن استقبل ممثلي حركات التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وكان مما يزيد اللائحة طولا، هو أنها كانت تضم ممثلين عن عدة تنظيمات متنافسة في كل بلد من بلدان أمريكا اللاتينية. بحيث أن الانقسامات داخل منظمة التحرير الفلسطينية بدت لي أمراً لا يؤثر له بالنسبة إلى التفتت الذي يسود هذه الحركات. وكان أن تعديت على قواعد اللياقة، مخاطراً بإسقاط عدد من الفصائل الصغيرة وطلبت من مضيفي أن يقصروا لقاءاتي مع التشكيلات الرئيسية في كل بلد من البلدان المعنية.

وهكذا، فإن الوقت الذي تمكنت من اكتسابه بهذه الطريقة، أتاح لي الانصراف إلى مختلف النشاطات الأخرى. وحضرت بخاصة، الاجتماع الذي عقدته على شرفي الجالية الفلسطينية التي تبلغ نحوا من خمسين عائلة هاجرت إلى كوبا منذ عهد بعيد. كان الأحداث الذين ولدوا في البلاد لا يتكلمون إلا الإسبانية، وأحيانا الإنكليزية. وأما الكهول فينطقون بعربية تقريبيةز لكن اللقاء كان مؤثراً برغم كل هذا. فقد رأيت الدموع وهي تنهمر على وجوه عدة، وأنا أعرض أهداف النضال الذي شرعنا به.وفي يوم آخر، دعاني فيديل كاسترو لأزور مزارع قصب

السكر. وإنما تعرفت إلى هذه القوة الطبيعية لدى هذا الرجل الصريح الخشن المرح، خلال هذه الجولة الريفية التي قمنا بها في سيارته التي كان يقودها بنفسه. وقد أظهر خلال مناقشاتنا ذات الطابع السياسي، معرفة عميقة بنزاع الشرق الأوسط عامة وبالقضية الفلسطينية بصورة خاصة. فهو يعتبر إسرائيل كما قال لي، حجر شطرنج بيد الامبريالية الأميركية. ولكنه شأن القادة الفيتناميين رغب إلينا في إلا يشتمل البيان المشترك على عبارات مهينة للدولة الصهيونية. وفسر لي ذلك بقوله أن كوبا على علاقة بأوساط عمالية يهودية نافذة بسبب تجارتها الخارجية كما أنا تقيم من جهة ثانية علاقات دبلوماسية مع إسرائيل لا يردي أن ينال منها. ثم أضاف ولكن «ثق أني سأتخذ الاجراءات المناسبة حين يحين الحين».

وبعد هذه المحادثة بثلاث سنوات، ومن على منبر مؤتمر دول عدم الانحياز الذي انعقد في شهر أيلول . سبتمبر من عام 1973 في الجزائر، أعلن فيديل كاسترو بصورة باهرة قراره بقطع العلاقات مع إسرائيل. فكنت أحد أوائل الذين أخذوه بالأحضان تهنئة له. والحق، هو أن كلامه المتروي في تموز . يوليو 1970 لم يكدرني قط سيما وأنه أولاني، من باب التعويض، حرية في التعويض، حرية في التعبير عما أشاء، وفتح لي أعمدة الصحف واضعا بمعنى من المعاني موجات الإذاعة والتلفزيون الكوبي تحت تصرفي. فاستغليت ذلك وأفدت منه أفادة واسعة لأقدم عدة تصريحات ومقابلات. لكن ذلك لم يكن المكسب الوحيد الذي تحقق من الزيارة. فقد برهن فيديل كاسترو عمليا عن دعمه لكفاح الشعب الفلسطيني المسلح، عندما قدم لنا معونة عسكرية هامة، وخاصة على شكل إمدادات، وتدريب للفدائيين في كوبا. ولم نثر مطلقا مسألة إرسال متطوعين كوبيين إلى الشرق الأوسط ذلك إننا لا نعاني . كما تعرف الكافة . نقصا في المقاتلين، بل إن العكس هو الصحيح.

شكل الخطاب الذي ألقاه فيديل كاسترو في 26 تموز . يوليو 1970، أما مئات الألوف من الأشخاص، بالنسبة إلى أحد أكثر المشاهد الخارقة التي قدر لي أن أحضرها. فالرئيس الكوبي هو بلا ريب أحد أعظم خطباء عصرنا إذ أنه يمسك بأنفاس المستمعين إليه على مدى ست ساعات متكلما بنبرة الغضب حينا،وبلهجة ساخرة حينا آخر، مستشهداً بيسر ووضوح بتواريخ وأرقام تدليلا على أحاديثه الأخاذة شأن صوته، بحيث أنه غالباً ما يضع المستمعين المصفقين له تصفيقا حاداً في حالة هيجان.

وعندما أخذ مدعويه الأجانب الذي كنت بينهم بأيديهم رافعاً ذراعيه على الطريقة الكوبية لتجري تحيتنا واحداً بعد الآخر، فإني شعرت بالانفعال وهو يبلغ تراقي حين سمعت الحشود تزأر بصوت واحد: «فلسطين! فلسطين!». كنت فخوراً سعيداً ومتأثراً.

كان اسم بلادي كما هتفت به مئات ألوف الكوبيين لا يزال يدوي في أذني حين صعدت إلى الطائرة . التي كانت تابعة هذه المرة للشركة الوطنية المغربية . لأعود إلى الشرق الأوسط. كنت أجهل في تلك اللحظة أن الملك حسين سيحاول بعد أقل من شهرين أن يمحو فلسطين من الخارطة ويزيلها من اللغة.

(5) الجزر

دقت معركة جرش وعجلون ناقوس نهاية المقاومة الفلسطينية في الأردن. فعلى مدى الأيام الخمسة الممتدة بين 13 و 17 تموز . يوليو 1971، راح نحو من ثلاثة آلاف فدائي متحصنين في الغابات والهضاب المكسوة بالأشجار في هاتين الناحيتين الواقعتين في شمال المملكة يقاتلون حتى الطلقة الأخيرة ببطولة خارقة ضد قوات الملك حسين الهائجة المنفلتة العقال، والتي كانت مذابح أيلول . سبتمبر 1970. فكانت الدبابات والمدرعات تطلق النار لتقتل ثم تسحق الناجين في عبورها.

وقد رفض القائد المحلي، أبو علي إياد، عضو اللجنة المركزية في فتح أن يستسلم. لكنه أسر على إثر عملية مطاردة هائلة، فعذب ومثل به ثم قتل. وطالت المجزرة بالكامل نحوا من سبعمائة فدائي: ووقع نحو من ألفين آخرين في الأسر وسلموا في وقت لاحق إلى سلطات دمشق، وأفلح نحو من مئة في اللجوء إلى سوريا أو أنهم . لعظيم المذلة . لجؤول إلى الضفة الغربية المحتلة حيث وافقت السلطات الإسرائيلية على منحهم حق اللجوء.

وهكذا انطوت إحدى أكثر صفحات المقاومة دموية، وهكذا أيضا انتهى عصر زهو الحركة الفلسطينية، الذي كان انتصار الكرامة في آذار . مارس 1968 أحد ذراه بلا نزاع. فقد مر ما يزيد عن ثلاث سنوات على يوم راح الملك حسين، الذي بهرته تلك المأثرة،يهتف قائلاً: «كلنا فدائيون!» فكيف وصلنا إلى حيث وصلنا؟ صحيح ولا ريب أن العاهل الهاشمي لم يكن شغوفا بنا، وأنه برغم جميل كلماته، لم ينفك عن الدسيسة لا يرادنا مورد التهلكة، إلا أننا ساعدناه مساعدة عظيمة على بلوغ هدفه حين تعاظمت أخطاؤنا في التقدير، وكبواتنا، بل . ولم لا نقر ونقولها بصراحة؟ . واستفزازيتنا. غير أنه يظل أن الصدام كان أمراً مقضيا بحكم الأشياء ولا مفر منه.

كانت المظنة والريب تسيطر على الملك حسين. فكان يعتقد برغم تضميناتنا المتكررة، أننا نسعى إلى سلبه السلطة. ولا ريب في أن بعضا من المحيطين به، بل وبعض الشخصيات الأجنبية أيضاً، كانوا يغذون هذا القلق، بقصد أو بغير قصد. وهكذا مثلاً فإن الملك الحسن الثاني قال له ذات يوم أنه يعتبر تسلم الفدائيين للسلطة في عمان أمراً طبيعيا. وإذ صدمته كلمات العاهل المغربي فإنه راح يسأل ياسر عرفات بعد ذلك بقليل عما إذا كان يطمح حقاً إلى الحلول مكانه! مع أننا لم ننفك نؤكد له أن فتح ألزمت نفسها منذ تأسيسها بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان المضيفة للفلسطينيين، وأن دعمه للحركة الفلسطينية يجعل منه بطل

الأمة العربية. كان حسين يقتنع نصف اقتناع بحسن نوايانا فيتأرجح بين التشكك وعدم التصديق. وبدأت علاقاتنا بـه تتوتر في منتصف شهر تشرين أول . أكتوبر 1968 بعد مصرع رفيقنا عبد الفتاح حمود . الذي كان أحد أوائل القيادات لفتح . بحادث سيارة. كنت أنا وثيق الصلة بحمود منذ مطلع سنوات الخمسين. فقد انتخب في ذات الوقت الذي انتخبنا فيه، ياسر عرفات وأنا، في قيادة اتحاد الطلبة الفلسطينيين، فلم ينقطع عن النضال إلى جانبنا، في القاهرة أولا ثم في قطر حيث شغل مناصب هامة كمهندس. وبرغم أنه والد سبعة أطفال، فإنه عرض غداة حرب الأيام الستة أن يترك وظيفته المجزية جداً ليصبح «متفرغا» في الحركة. وكان في اليوم الذي قضى فيه نحبه، على موعد مع عرفات ومعي في إحدى النواحي الأردنية القريبة من الحدود السورية. ولعلمي بدقته في مواعيده فإن القلق بدأ يعتريني عندما لم يأت في الساعة المتفق عليها. ولم ألبث أن أنبئت بأن حادثا خطيراً قد وقع على الطريق على مسافة غير بعيدة من البيت الذي كنا سنلتقي فيه. ولتوجسي ما هو أسوأ، وخشية مني في أن أكون شاهداً لمشهد لا طاقة لي باحتماله، فإني طلبت إلى عرفات أن يذهب بمفرد إلى مكان الحادث. وعان عرفات باكيا. كان عبد الفتاح حمود الذي لم يكد يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر، قد لقي مصرعه وراء مقود سيارته.

وقررنا أن تسير جنازته في عمان، حيث ظهرنا فيها للمرة الأولى. وهناك ألقيت أمام عشرات الألوف من الأشخاص الذين جاؤوا ليودعوه الوداع الأخير، خطاباً يثني على صنيعه وصنيع المقاومة. وكان أن قلق الملك حسين من هذه التظاهرة العامة في عاصمته وبدأ يحيك وينفذ المؤامرة التي ستفضي بعد أقل من عامين، إلى نزاع مسلح في أيلول . سبتمبر 1970. وبعد مرور شهر على جنازة عبد الفتاح حمود، في تشرين ثاني . نوفمبر 1968، جرى اختطاف ضابط من الحرس الملكي الأردني على يد منظمة سرية تدعي أنها فلسطينية، ولكننا لم نسمع بها قبل ذلك مطلقا. وإنما عرفنا بعد ذلك بكثير، أنه جرى تكرين الفريق المذكور وتمويله وتسليحه على يد المخابرات الأردنية. بقي أن الملك حسين وضع جيشه في حالة استنفار وهدد باقتحام مخيمات اللاجئين لإلقاء القبض على الخاطفين وتحرير رهينتهم. فكان أن طلب فريق من قادة مختلف المنظمات الفدائية . بينهم ياسر عرفات ويحيى حموده وبهجت أبو غربية وحامة أبو سته وأنا . مقابلته بغرض ثنيه عن ذلك. وكانت تلك أول مرة أقابل الملك فيها شخصياً.

وقد أفادتني المحادثة . التي ظلت صامتا لأعاينه معاينة أفضل . إفادة بالغة حول شخصية الملك حسين. فبرغم أنه كان يعلم علم اليقين أنه لا يد لنا ولا علاقة في اختطاف ضابط الحرس الملكي، فإنه اظهر استياءه بقحة وراح يغضب غضبات مفاجئة تستحيل أحياناً إلى بدايات حركات عنيفة. ولقينا الكثير من العناء في تهدئته. واحتججنا ببراءتنا وأوضحنا له أننا

نجهل كل شيء عن المنظمة التي تدعي القيام بهذه المحاولة التي ندينها نحن على أي حال بمنتهى الشدة والحزم. ثم أكدنا له مجددا على إرادتنا في الحفاظ على علاقات جيدة مع السلطات الأردنية. وفي النهاية أذعن الملك وأصدر أوامره لقواته برفع حصارها عن مخيمات اللاجئين. وإنما تأجل الأمر مجرد تأجيل كما ستثبت ذلك الأحداث. وقد تصرف حسين بكثير من المهارة والخداع. فراح يعد الرأي العام ويعد جيشه خاصة، بصبر ومنهجية للمواجهة التي يتمناها فيغذى التوتر ويثير الأزمات، ليس بمعونة الفصائل المفروضة على المقاومة التي كونتها مخابراته وحسب ، بل إنه كان يستفيد من العملاء المحرضين المهندسين في المنظمات الفدائية.

وكان بعض هؤلاء يشغلون في هذه الأخيرة مناصب ذات تبعات كما سنكشف ذلك فيما بعد، ففي حزيران ـ يونيه 1970 مثلاً، استدعاني عبد المنعم الرفاعي ـ وهو رجل في الغاية من النزاهة ـ إلى مكتبه بعيد تشكيله الحكومة، وراح يسمعني تسجيلاً لخطاب ألقاه عشية ذلك اليوم، أبو الرائد عضو المكتب السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي يرئسها الدكتور جورج حبش. كان أبو الرائد يهاجم في خطابه بعبارات مبهمة، لا الملك وحسب، وإنما زوجته ووالدته. وكان الخطاب من البذاءة بحيث أنني لم أطق الإصغاء للتسجيل إلى آخره.

ثم أطلعني عبد المنعم الرفاعي على رسالة من الملك يطلب فيها من رئيس وزرائه أن يقفل كافة مكاتب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وإلا عهد للجيش بذلك. فأسرعت إلى القصر الملكي لأوضح لحسين بأننا مضطرون برغم التقزز الذي يثيره فينا أبو الرائد، أن ندافع شأننا في ذلك شأن الجماهير الفلسطينية، عن حق الجبهة الشعبية في الوجود، أما هجوم قوات الأمن. ومرة أخرى تراجع الملك خطوة ليعاود الوثوب خطوات. وإنما اكتشف أمر أبي الرائد كعميل للمخابرات وطرد من منظمته بعد ذلك بكثير.

ومن جهة ثانية، فإن الانقسامات داخل المقاومة، ساعدت الملك في مخططاته. فبعد مرور بضعة أشهر على حرب الأيام الستة، ظهرت إلى حيز الوجود عدة منظمات فدائية، غالباً ما كان هدفها الوحيد، هو اختطاف قيادة الحركة من فتح. كما أن بعضا منها لم يكن سوى انبثاق وتعبير عن الأنظمة العربية التي كانت تسعى إلى نقل خصوماتها وصراعاتها إلى المسرح الفلسطيني.

وإذ ذاك باتت المواقف الديماغوجية والمزايدات امرأ محتوما. وبات كل فريق يحاول أن يظهر أنه أشد «ثورية» وأوفى تصلبا من جاره. ولا زلت أذكر أن ممثلي بعض المنظمات الفدائية لم يكونوا يترددون، في بعض اجتماعات العمل المعقودة مع حسين، في أن يستشيطوا غضباً ويضربوا الطاولة بقبضتهم ويقدحوا في أعضاء العائلة الملكية، فيتهمون خال الملك، الشريف

ناصر مثلا، بتهريب المخدرات. فكنت أجهد في مثل هذه الحالات بأن أعيد رفاقي إلى جادة الصواب موضحاً بأن سلوكهم لا يمكن أن يخدم إلا أخصامنا، وعلى رأسهم الملك. وكان من الصعب في بعض الأحيان تمييز التطرف السياسي، من الاستفزاز الذي يدبره العلماء المأجورون. فازدهار الشعارات اليسارية . شأن ذلك الشعار الذي يدعو الجماهير إلى إيلاء «كل السلطة للمقاومة» - وتوزيع صور لينين في شوارع عمان وحتى داخل المساجد، والدعوات إلى الثورة وإقامة نظام اشتراكي، كل ذلك كان ينم عن عدم وعي أجرامي. كان المتطرفون يتنافسون في الخلط بين معركة التحرر الوطني التي تقصر فتح دعوتها عليها، وبين الصراع الطبقي.

ومن الصحيح كذلك أن سلوكنا نحن لم يكن غاية في التماسك فبرغم أننا كنا نسعى وراء الحصول على دعم كافة السكان، بدون تمييز لأصلهم، إلا أننا كنا نحوا منحى إهمال الأردني الأصل، لصالح الفلسطينيين. ثم إن الفدائيين الذين كانوا فخورين بقوتهم ومآثرهم، كثيراً ما اظهروا شعوراً بالتفوق، وأحيانا بالغطرسة بدون أن يأخذوا حساسيات ومصالح الأردنيين بعين الاعتبار. والأخطر من ذلك كله، هو موقفهم إزاء الجيش الأردني الذي كان يعامل كعدو بأكثر مما يعامل كحليف ممكن. غير أن الصحيح كذلك، أن حسين تفنن في حفر الهوة بين الفدائيين والقوات الملكية. وذلك بإثارة الصدامات الدموية أولاً، ثم بمنح الضباط والجنود الذين شاركوا فيها أجازات جماعية أثر كل معركة. فكان هؤلاء يصطمون لدى عودتهم إلى منازلهم بعداوة مقاتلينا، التي يمكن أن تفهم على كل حال. ولما كان العسكريون يجدون أنفسهم مهانين مذلين مخزيين، وأحياناً معتقلين، فإن تشوقهم إلى الصدام معنا كان يزداد. وقد علق الملك على تكاثر هذه الحوادث في الأشهر الأولى من عام 1970 مفسرا سلبيته الظاهرة إزاءها لأحد المقربين منه، قائلاً: إني أمد لهم (أي للفدائيين الحبل الذي سيشنقون به...) وبلغ التوتر أوجه في شهر تموز . يوليو 1970، عندما دعونا لعقد دورة استثنائية لمجلس المقاومة المركزي الذي يضم ممثلي نحو من اثنتي عشرة منظمة. وفور انعقاد الاجتماع، طرحت على رفاقي سؤالين: هل ترغبون بالاستيلاء على السلطة في عمان؟ وإذا كنتم ترغبون في ذلك، فهل تقدرون؟ إن نسبة القوى تتيح لنا الظفر؟ وأجابوا في غالبيتهم بالنفي على كلا السؤالين. فهم يعتقدون من جهة أولى، إن على المقاومة أن تتلافى الوقوع في شرك مسؤوليات الدولة والبيروقراطية، كما أنهم من الجهة الثانية مقتنعون بتفوق القوات الملكية الساحق.

وبهذا، فإنهم أكدوا اقتناعي بان التكتيك يحل لدى غالبية أعضاء المجلس المركزي محل الإستراتيجية. ومن هنا كان الغموض الخطر في سياستهم التي كانت تقودنا وفق قناعتي، إلى كارثة مباشرة. والحل هو أ، الملك، كما أوضحت حينذاك،لن يتحمل طويلا السلطة الموازية التي

أقمناها في مملكته. فكان لا بد لنا من أن نختار خيارا واضحاً يتفق مع تحليلنا ومع إستراتيجيتنا. فإذا كان من الصحيح أننا لا نريد قلب النظام الملكي، وأنه على أية حال أعصى من أن يقهر في اللحظة الحالية، فإنه يكون من الواجب الملح علينا كما رحت أؤكد، أن نعيد علاقاتنا مع حسين إلى طبيعتها قبل أن يفوت الأوان.

وبعد أن أنهيت عرضي، توجهت نحو بوابة الخروج وأنا أقول للمجتمعين: «من كانت تهمهم مصلحة الشعب الفلسطيني فليتبعوني فنذهب معا للتفاوض مع القصر على نمط تعايش!» فبقين الأغلبية مسمرة بينما غادرت قبضة من مندوبي مختلف المنظمات الأخرى غير فتح، قاعة الاجتماع برفقتي. ولن يفهم تهافت وتناقض غالبية مجلس المقاومة المركزي، إن لم أضف أنهم مقتنع ين بأن الملك لم يجرؤ على مهاجمة الفدائيين المنتشرين في العاصمة وفي البلاد، خشية أن يوقع مجزرة بالسكان، كما أن بعضا منهم كان يعتقد أن الجيش الملكي، أو جزءاً هاماً منه على الأقل، سيتمرد إذا ما تلقى الأمر بأن يطلق النار على أعداد الناس عشوائياً.

أما أنا فأني كنت شخصياً مقتنعاً بالعكس. فالملك قد أمن ولاء ضباطه بعد أن غمرهم بالامتيازات المادية. كما كان الجنود جميعاً . بما في ذلك الفلسطينيون الذي يشكلون قرابة القوات الملكية وليس 60 بالمئة منها كما يكتب عادة . معبئين ضد حركة الفدائيين بدعاية ذكية. كانت هذه الدعاية تظهرنا كملحدين وأعداء الله، وشيوعيين يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع قوى دولية مريبة بما في ذلك يهود اليسار المتطرف. وكنا نسعى، وفق ما يقوله ثالبونا، إلى الاستيلاء على السلطة لصال ح قوى أجنبية، لا للدفاع عن مصالح الشعب الفلسطيني. وبرغم هذه التعبئة، فإن حسين احتاط وأبعد الفلسطينيين عن صفوة الوحدات العسكرية وخاصة عن المدفعية والمدرعات التي استخدمها استخداماً واسعاً في معارك أيلول . سبتمبر 1970 وتموز . يوليو 1971 في جرش وعجلون.

ومما زادني قلقا على قلق، هو أن الملك حسين لن يبدو في نهاية شهر آب . أغسطس واثقاً من نفسه ثقة لها ما يبررها، فبعد أن التحق، شأن عبد الناصر، بمشروع التسوية مع إسرائيل، الذي ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ الخارجية الأميركية ويليام روجرز، فإنه بات يتمتع بدعم قوي على ؟؟؟؟؟الدولي، وبخاصة، في العالم 7 آب . أغسطس، أي بعد مرور أسبوعين على دخول وقف إطلاق النار . الذي أنهى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية . الإسرائيلية بين البلدين . حيز التنفيذ، ذهب حسين إلى الإسكندرية، حيث حظي باستقبال حار من قبل عبد الناصر. ولدى عودة الملك إلى عمان، أشاعت السلطات الأردنية، أنه أخذ من الرئيس المصري الضوء

الأخضر لسحق الحركة الفلسطينية التي وقفت بالإجماع ضد مخطط روجرز وقرار الأمم المتحدة رقم 242 الذي يرتكز المخطط عليه.

غير أن مجلس المقاومة المركزي كان منقسماً بشأن الموقف الذي ينبغي اتخاذه من عبد الناصر. فهل ينبغي أن نتصادم مع النظام المصري؟ وأجابت الغالبية التي تؤيد السياسية المغامرة على هذا السؤال بالإيجاب. أما فتح، ومعها منظمة الصاعقة الموالية لسوريا وبعض المستقلين، فكانت على العكس من ذلك، مصممة على عدم قطع الجسور مع مصر. ومنذ ذاك فأننا قررنا إرسال مندوبين إلى عبد الناصر سعياً وراء نمط تعايش.

وثمة أسباب عديدة كانت تدفعنا إلى القيام بهذا المسعى. فمن الناحية التكتيكية، كان الهجوم على الريس عملاً انتحارياً من قبلنا في ظرف تتعرض فيه لخطر تلقي طعنة في الظهر من حسين. كما أنه لم يكن في وسعنا من الناحية الإستراتيجية أن نسمح لأنفسنا بقطع علاقاتنا مع أقوى البلدان العربية، والتي كان وزنها الدولي الداخلي والمحلي ثميناً بالنسبة إلينا. ثم أننا كنا، فضلا عن ذلك، نثق بوطنية عبد الناصر. وكنا نعرف أنه لن يخوننا لأنه سبق له وأعلن جهاراً بأنه يفهم تماماً أطرح المقاومة للقرار 242 ورفضها لذلك النص الذي لا يستجيب بأية صورة من الصور إلى تطلعات الشعب الفلسطيني.

كان الوفد الذي إلى الإسكندرية يضم ياسر عرفات وفاروق القدومي وهايل عبد الحميد وأنا (عن اللجنة المركزية في فتح) وضافي جمعاني (عن ا للجنة المركزية في فتح) وضافي جمعاني (عن الصاعقة) وإبراهيم بكر (مستقل). واستقبلنا عبد الناصر ببعض الفتور ثم قال لنا لفوره «لقد تنزهت في حديقتي ط وال ساعة لأتمالك غضبي وأنا استقبلكم». كان مغضباً من الهجمات التي كان يتعرض لها في منشورات فتح والتي لأظهر لنا بعض نماذج منها كانت مبعثرة على مكتبه. ثم أضاف أنه لا يحق لنا أن ننتقده قبل أن نعرف البواعث التي دفعته إلى قبول مخطط روجرز.

وأشار خلال المحادثة التي دامت أكثر من سبع ساعات إلى أن هناك إمكانية بنسبة واحد بالألف في أن يتحقق مشروع السلام الأميركي لأنه يعلم مقدماً أنه ليست لدى إسرائيل النية مطلقاً في احترام التزاماتها وإعادة الأراضي المحتلة بكاملها. ولكنه سيواصل برغم ذلك جهوده للتوصل إلى تسوية سلمية. وبانتظار ذلك فإنه لا بد له من كسب الوقت ليستعد للحرب التي تبدو له الوهلة الأولى أمراً لا مناص منه. وأضاف أنه خلال زيارته الأخيرة لموسكو طالب بتسليم مصر صواريخ سام 7، وحصل عليها بعد أن فهدد بالاستقالة. ثم أفضى لنا بأنه «سوف نستغل وقف إطلاق النار الساري حالياً، لنضع هذه الصواريخ على طول قناال السويس».

وروى لنا أن القادة السوفيات اندهشوا في بادئ الأمر من انضوائه تحت راية مشروع أميركي وعرضوا عليه كبديل مشروعاً تقدمه له موسكو وواشنطن سوية. فرفض المشروع موضحاً لمحادثيه بأنه يريد أن «يحرج» الولايات المتحدة التي التزمت لأول مرة منذ حرب حزيران . يونيه 1967، بجلاء إسرائيل الكامل تقريباً عن الأراضي التي غنمتها. وأضاف: أن ميزة القرار 242، هو أنه نصدق على حق العرب في استعادة أراضيهم المفقودة، بإقرار دولي. ثم استطرد عبد الناصر يقول بلهجة ساخرة وهو يلتفت نحو ياسر عرفات: «كم تظن أنه يلزمكم من السنين كي تدمروا الدولة الصهيونية وتبنوا دولة موحدة ديمقراطية على كامل فلسطين المحررة؟» وأخذ علينا ممارستنا لسياسة غير «واقعية» وقال أن دويلة في الضفة الغربية وغزة، وهي خير من لا شيء.

دارت المحادثة في الجزء الأعظم منها تفي جو حبي أولاً ثم ودي بعد ذلك وبدأ عبد الناصر مرتاحاً ودعانا إلى العشاء على مائدته. ثم أبدى لنا قلقه من الوضع في الأردن. وقال لنا «أن أعلم أن المخابرات الهاشمية أشاعت أنني شجعت الملك حسين على ضربكم. أن العكس هو ا لصحيح. فقد حذرته حلال زيارته الأخيرة للقاهرة من مثل هذه المحاولة مرتين. مرة في اجتماع مغلق، ومرة ثانية بحضور رئيس وزرائه عبد المنعم الرفاعي».

وغادرنا الإسكندرية ونحن نصف مطمئنين، إذ لم يكن يعدو أن الملك حسين يأخذ تحذيرات عبد الناصر بعين الاعتبار، لأنه كان يقوم بدك مراكز المقاومة. وانتهت المعارك المتفرقة وشبه اليومية، والريبة المخيمة، بأن أرهقت الرأي العام الذي بدأ جزء منه يظهر تبرمه بالفدائيين الذي بات يعتبرهم مسؤولين عن الصدامات. وفي مناخ الأزمة هذا، عمدت الجبهة الشعبية في 16 أيلول . سبتمبر إلى اختطاف أربع طائرات،وقادتها إلى مدرج هبوط في الأردن بعد أن عمدته باسم «مطار الثورة» موجهة بذلك اهانة جديدة للملك.

وبدت لنا العملية على أرفع قد من الشبهة، شأن قرار رئيس الجبهة الشعبية، الدكتور جورج حبش، بمغادرة عمان قبل ذلك بشهر وفي وسط الأزمة، ليقوم.. «بزيارة ودية» إلى كوريا الشمالية. كانت ضربة عتو تضع المقاومة بمجملها في منصة الاتهام معطية بذلك حسن الذريعة التي كان يحلم بها لينتقل إلى الهجوم. فحتى العراق الذي كان مؤيداً لنا من حيث المبدأ، وجه ضربا من الإنذار لفتح طالباً توقيف قراصنة الجو وإطلاق سراح الرهائن، ذلك أنهم كانوا يعزون إلينا سلطانا ما كنا نملكه في الواقع. ولم يفلح ياسر عرفات في الحصول الأعلى «تعليق» عضوية الجبهة الشعبية في اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكن هذا الإجراء بدأ قميئاً بصورة مثيرة للسخرية بعد تدمير الطائرات المخطوفة بالديناميت، واحتجاز بضع عشرات من المسافرين بينهم نساء وأطفال.

وعمت المعارك شمال الأردن حيث راحت المدفعية الملكية تقصف مكاتبنا قصفاً منتظماً. كان علينا أن نرد وأن نسرع في الرد. والغريب هو أن العراق كان يحرضنا على الاستيلاء على السلطة. فقد جرى تقديم عرض ملموس لنا بهذا المعنى قبل اختطاف الجبهة الشعبية للطائرات ببضعة أشهر. فخلال زيارة رسمية لعمان، التقى وفد يمثل نظام بغداد ويضم ثلاثة من أبرز أعضائه نفوذاً هم: عبد الخالق السامرائي وزيد حيدر . عضوا القيادة في حزب البعث . ومهدي عماش وزير الداخلية، بياسر عرفات وبي في شهر أيار . مايو بقاعدة الحبانية. وقال لنا موفدو وبغداد: « نظموا محاولة انقلاب، فستدعمكم الوحدات العراقية المرابطة في الأردن لقلب النظام الملكي وإقامة سلطة شعبية» وكان في مشروعهم أن تحتل هذه الوحدات الزرقا واربد في الشمال بينما يستولى الفدائيون على عمان.

كان شعور عرفات وشعوري هو أن هذا العرض تعوزه الجدية. واقترحنا على محادثينا الحصول بادئاً على تأييد سوريا، وإذا أمكن مشاركتها في المشروع وكنا نعلم أن التفاهم بين بغداد ودمشق أمر مستبعد عملياً بالنظر إلى المنافسات والخصومات بين العاصمتين. ثم تبيت أن ريبتنا كانت في موضعها عندما لاحظنا سلبية الجيش العراقي أثناء الحرب التي ستندلع بعد ذلك بأيام بين الفدائيين والقوات الملكية. وهكذا فقد حاولنا كل ما تمكن محاولته في الأسبوعيين الأولين من أيلول . سبتمبر لنتلافى المواجهة. فدخلنا في مفاوضات مضنية دارت تحت رعاية توسيط من الجامعة العربية هو الوزير السوداني السابق أمين الشلبي. وكنا لا نزال في 14 أيلول نتردد في الانضمام إلى اتفاق تسوية كان يبدو لنا جائرا متعسفاً، حين خابرني عبد المنعم الرفاعي بالهاتف. كان صوته في الطرف الآخر من الخط عصيباً قلقاً.وقال لي رئيس الوزراء «وقعوا الاتفاق بالغاً ما بلغت الكلفة» دون أن يقدم أية تفسيرات، ثم أقفل الخط.

كنا نثق بالرفاعي الذي لم يكن وفاؤه للملك ينال من رأفته وتساهله مع المقاومة وإلا فإنه سيشن علينا حرباً عامة. فذهبت لفورى إلى القصر ووقعت بروتوكول الاتفاق كما قدم إلي ثم أبلغت الرفاعي بذلك للحال فأذاع النص مباشر من إذاعة عمان. وحسبنا عند ذلك أننا تلافينا الأسوأ.

لكننا كنا مخطئين، ذلك أن الملك أقال حكومة الرفاعي في صبيحة اليوم التالي، وكلف اللواء، محمد داود، الفلسطيني الأصل، بتشكيل حكومة حرب كان كامل أعضائها من العسكريين. وفي اليوم ذاته، شنت وسائل الإعلام ولا سيما الإذاعة والتلفزيون حملة استغاثة إلى كافة رؤساء الدول العربية. لكنكان الأوان قد فات. ففي غداة اليوم التالي شنت القوات الملكية هجوماً عاماً ضد الفدائيين غير مترددة في . قصف كافة أحياء عمان قصفا عشوائياً.

وهكذا ومهما بلغت الغرابة في ذلك، إلا أننا لم نكن مستعدين لمواجهة هذا الامتحان بر غم أنه كان متوقعاً منذ بضعة أشهر: كان عدد من مسؤولي المقاومة يعتقدون اعتقاداً راسخاً لا حدود له بأن حسن لا يجرؤ على ذلك, وإنما تشكلت قيادة موحدة من مختلف التنظيمات الفدائية قبيل بدء المعارك ببضع ساعات، إلا أن جيش الملك احتل مقر قيادة فتح العسكرية العامة، خلال دقائق. كنا قد أقمنا مقر القيادة هذا في جبل الحسين. وهو دحي سهل الاتيان على نحو خاص، في حين أنه كان بوسعنا أن نقيم في حي الأشرفية الذي يعصى عملياً على كل اقتحام. وذهبت إلى مقر العمليات العسكرية، الذي كان يقع هو الآخر في جبل الحسين، ولكنه لم يسقط بيد القوات الملكية. ووجدت هناك ياسر عرفات الذي كان يحاول يائسا الاتصال بالملك بالهاتف، في حين أن القذائف كانت تتساقط حولنا كالمطر. وقلت لده: أقفل الهاتف فالهاتف لا يجدي نفعاً، أن أحداً لا يريد حتى أن يخاطبك! كنت مصيباً فيما أقول. فقد طلب الكلام مع الملك ثم من عدة عديدة من أعضاء بطانته واحداً بعد واحد، فكان جوابهم جميعاً هو أنهم يؤدون صلاة الصبح ولا يريدون أن يزعجهم مزعج.

كنا أقل تنظيماً مما كان حالنا يوم معركة الكرامة. فلم معد أي مخطط للمعركة ولم نكن نستطيع أن نتصل ببعض القيادات العسكرية ولم نعد مخابئ لأعضاء القيادة. وكان خمسة منا موجودين في ذلك الصباح في دائرة العمليات العسكرية. وكان ينبغي لنا أن نتفرق بسرعة. واقترحت على عرفات أن يتحصن في جبل الويبدة، بينما غادرت أنا المكان بصحبة فاروق القدومي وإبراهيم بكر وبهجت أبو غريبة لنتجه نحو مقر الاستخبارات العامة في المقاومة. وما كدنا نصل إلى طرف الشارع، حتى رأينا أربع أو خمس دبابات من الجيش الملك يتخرج وتتقدم نحونا وهي تطلق النار في كافة الاتجاهات.

فأسرعنا نحو أقرب منزل حيث وجدنا قاضياً أردنياً من الطائفة المسيحية عرض ضيافته. ولم نكن بعد أننا سنضطر لأن نمضي خمسة أيام دراماتيكية في صحبته.

ولن نلبث أن نعرف أن الحي محاصر من قبل قوات الملك حسين التي فرضت منع التجول على مجمل المدينة. ورسمنا عدة خطط للفرار، لكن المراقبة كانت على قدر من الشدة، ولا سيما في النهار، بحيث اضطررنا إلى التخلي عنها. وذات يوم، عمدت قوات الأمن إلى تفتيش كافة بيوت الحي بصورة منتظمة. وراح صوت آمر يزيده المذياع ضخامة يطلب من المستحيل علينا أن نقاوم فدسسنا مسدساتنا تحت الفراش ونزلنا إلى الشارع.

كان الجنود المسلحون بالرشاشات, يتطلعون بريبة وحذر ويسائلون ويفتشون ويشمون الأيدي طلبا لرائحة البارود التي تنم عمن استخدم الأسلحة النارية. ثم إن رائدا شابا راح يتفرس

فينا وهو يقترب منا. ثم قال لنما بلهجة ملتبسة: «ماذا تفعلون هنا؟» فبادر القاضي الذي كنا ملتجئين عنده للإجابة بدلاً منا بشجاعة: «أنهم ضيوفي، أصدقائي لي من الكويت». وأمام عظيم دهشتنا، فإن الضابط أكتفي بذلك ولم يطلب معرفة المزيد وتركنا نمضي فقد كان لنا، برغم كل شيء، أصدقاء في داخل القوات الملكية.

لكن ما أن كدنا نهم باللحاق بالمنزل، حتى صباح جندي بسيط: «هذا رئيس فدائيين! أنا أعرفه». ثم أسرع نحو إبراهيم بكر وضعفه. وإذ تفاجأ الضابط، فإنه أشار إلينا لننسحب منسلين، في حين وضعت القيود بيدى رفيقنا.

وفي السماء قررنا أن نقلت مهما كلف الأمر من أحد ثقوب الشبكة التي بدأت تضيق حولنا. وفي غمرة الليل، وكانت الساعة الثامنة والنصف تقريباً ، أنسل فاروق القدومي خارج النافذة بواسطة حبل. وقبل أن أتمكن تقريباً، أنسل فاروق القدومي خارج النافذة بواسطة حبل. وقبل من أن ابتعه رأيته في العتمة وهو يعاود الصعود فجأة. وراح يفسر لي وهو يلهث، أن قدمه لاقت جسماً صلباً قبل أن يصل إلى الأرض. وهكذا فقد تبين له وجود دبابة ترابط شباكنا. وفي غداة اليوم التالي. علينا أن حظر التجول سوف يرفع في اليوم التالي لمدة ساعة للسماح للأهالي بالتمون. وهكذا فقد حانت أخيراً الفرصة التي تسكننا من مغادرة ملاذنا، واللحاق بصورة أو بأخرى بمقاتلينا وبما أن نلبس ثياباً مدنية، فإن بوسعنا أن نمر دون أن ينتبه الناس إلينا إلا أننا استيقظنا في صباح اليوم التالي على جلبة وضجيج. فقد جاءت قوات إضافية تضم دبابات ومدرعات وبدأت تحاصر المجموعة السكنية. وما أن استقر المقام بهذا التشكيل العسكري حتى دوي صوت مذياع يقول: « أبو اياد! أننا نعرف انك تختبئ هنا. سلم نفسك، وإلا قصفنا الحي كله!».

وعشت آنذاك أكثر ساعات حياتي قلقاً. كان رأي بهجت أبو غريبة هو أنه ينبغي أن نذعن للأمر، توفيراً لخسائر بشرية لا طائل في هدرها. أما فاروق القدومي وأنا، فقد ترددنا. إذا لم نكن نستطيع الركون إلى استسلام مذل. بل لقد فكرنا في أن نقتل أنفسنا بان نفرغ مسدساتنا على القوة التي تحاصرنا. وأما مضيفنا فإنه لم يقل شيئاً، ولكلنه كان بادي الرعب. وأما الجيران الذين خمنوا هويتنا أثر توقيف إبراهيم بكر، فإنهم جاءونا بعضهم أثر بعض يطلبون إلينا تسليم أنفسنا، لا بل أن أحدهم، وهو قريب بعيد القدومي، تعرف عليه وراح يمارس عيه ضغوطاً خسيسة. وأما صوت المذياع الوخاز، فإنه أزداد تهديداً.

وقرابة الساعة العاشرة، أي بعد الإنذار الأول بأربع ساعات انهمرت الرشاشات وتتالت الانفجارات المرعبة وأصيب عدد من منازل الحي.

واختلطت فرقعة الطلقات التي استقرت في مصاريع نوافذنا، بصيحات النساء وبكاء الأطفال. وجاء بعض هؤلاء الأطفال . بعد أن أرسلهم ذووهم يطرقون على بابنا ويضرعون إلينا لكي نغادر المكان. ثم جاء أحد جيراننا يعطينا ثلاثة أعلام بيضاء اقتطعها من شرشف فراش. فقطعتها أربا. ولحسن الحظ فإن الجنود الأردنيين أوقفوا إطلاق النار بعد ذلك بقليل. فاغتنمنا فترة السكون لنقنع جيراننا بالصبر حتى الظهر أي حتى الساعة التي سيرفع فيها منع التجول. وبهذا منع التجول. وبهذا نغادر المنزل بدون أن نرفع أذرعتنا بعلامة الاستسلام. ويظل شرفنا سليما.

وما كدنا نسير في الشارع المقفر بعد دخول الهدنة حيز التنفيذ بدقائق، حتى نادانا أحد العسكريين ليقودنا إلى رئيسه الذي يريد رؤية أوراقنا. وكان جوازاً سفر بهجت أبو غربية وفاروق الصادرين باسميهما الحقيقيين يشيران غلى صفتهما كأستاذين في الكويت. ولم يكن لدي من جهتي أية وثيقة أقدمها. وبذل القدومي كل مواهبه ككوميدي وصاحب نكتة ليزيل ريبة وحذر الضابط الذي كان يصر . ربما لأنه عرف هويتنا . على اقتيادنا من عمان ويستخدم كمركز اعتقال.

وكانت الشاحنة التي صعدنا إليها تضم نحوا من عشرة مشبوهين وينهال الجنود عليهم بالضرب. لكن الضابط أوصى حراسنا بأن لا يضربونا قبل إجراء التحقيقات الاعتيادية. ولسوء حظي . وحسنة أيضاً . فإن ضابط الاستخبارات الذي قدمنا إليه، مصطفى الاسكنجرية تعرف لعلي فوراً. واحتضنني بين ذراعيه قبل أن يذكرني بأنني خلصته ذات يومهن مجموعة فدائيين أخذوه رهينة, وأعفانا من عمليات التعذيب التي توقع معتقلي الطبربور . الذين كنا نسمع صرخاتهم . بإحالتنا فوراً إلى المركز للمخابرات بعد أن أخطر بتوقيفنا.

كان الاستقبال الذي حظينا به هناك استقبالاً سيء الطالع. فقد خلعوا أحذيتنا ونزعوا كافة أمتعتنا الشخصية قبل أن يأخذونا حفاة إلى زنزانات تحت الأرض وجبسونا ثلاثتنا في زنزانات متجاورة. وكانت زنزانتي تبلغ المترين طولا والمتر الواحد عرضاً، رطبة قذرة الرائحة بحيث أنها قززتني للحال. وجعلتني الاثنتا عشرة ساعة المتوالية التي أمضيتها في عتمة دامسة دون طعام أو شراب. أغرق في كآبة عميقة. ليس لأن اغتيالنا كان يبدو لنا أمراً محتوما، ,إنما بسبب الوصمات التي سيحاول أعداؤنا تلويث شرفنا بها بعد إعدامنا. إذ لا ريب أنهم سيقدمون توقيفنا . وتوقيف إبراهيم بكر . كاستسلام جبناء ، بهدف تحطيم معنويات قواتنا.

وفي ساعة متأخرة من الليل، أخرجت من الزنزانة لأتعرض لأول استجواب، كان الضابط المحقق لطيفا بل محببا وقدم لي سيجارة فرفضتها برغم أن كنت مدخنا مدمنا. ثم رفضت أن

أجيب على أسئلته طالما لم يحضر إلى جانبي أو غريبة والقدومي اللذين كنت أسعى للاطمئنان على مصيرهما. وراح الضابط يلح: هل أستطيع على الأقل أن أدله على مكان جهاز إرسال راديو العاصفة اليسرى، الذي كان ببديهة الحال يزعج السلطة الملكية إلى أقصى حد. وأجبت بأنني لا أعرف عنه شيئاً (وكان ذلك صحيحاً) وأنني حتى لو كنت أعرف موضعه لفضلت الموت على أن أرشد إليه. وعندما انتقلنا إلى التهديدات قلت لمحدثي أن الفدائيين سيعرفون متى عاد السلام، كيف يصفون حساباتهم مع من يفرطون، مثله، في الحماس.

وتوقف عن الإلحاح ثم استدعى أبو غريبة والقدومي. ولم ينس القدومي دوره الذي يجيده، فراح يعرب عن استنكاره الشديد وسخطه التام، مبديا أنه لم يلق في حياته من الإهانة . وهو الذي يشغل في منظمة التحرير منصباً يوازي منصب وزير . بقدر ما لقي اليوم! وكنا لا نزال نضحك من طرف خفي حين دخل رئيس المخابرات نذير رشيد واحتضننا بين ذراعيه على الطريقة العربية مرحبا بنا. كان اللواء رشيد معارضا قديماً للنظام الأردني ولاجئا سياسيا طيلة عدة سنوات في مصر قبل أن يعود فيلتحق مجدداً بالملك حسين، ويقدم نفسه كقومي عربي صلب. وأوقف الاستجواب وأصدر أمراً بأن نعامل بعد الآن معاملة حسنة. فقد فهم، وهو الداهية بأنه لا جدوى في الإلحاح وأن الحكمة تقضي بالحفاظ على حياتنا. لكن ذلك لم يكن رأي سلفه رسول الكيلاني وهو من أصفياء الملك حين التقاني بعد نهاية المعارك. فقد قال لي: « إن أفدح خطأ ارتكب هو الإبقاء عليكم. ولو أعدمناكم في الحال، لكنا كسبنا الحرب» قال ذلك بحضور القدومي في لقاء عابر.

يبقى أنه في غداة محادثتنا مع رئيس المخابرات بدا الوزراء وكبار المسؤولين وكبار ضباط الاستخبارات يتوافدون إلى الغرفة الفسيحة التي وضعت بتصرفنا لخوض مناقشات سياسية حادة جعلتنا نملها لأنها كانت تبدو لنا عقيمة لا طائل فيها. وفي اليوم التالي، بدأت حرب الأعصاب. وبدأ ضباط الحرس « يفضون إلينا»، مرة بأن ياسر عرفات استسلم، وتارة بأنه قتل. وحينا بأن «البحرية الأميركية» (المارينز) تستعد للإنزال لمساعدة القوات الملكية. وقد تركتنا هذه المعلومات في حالة قلق. كنا لا نزال نجهل بأن وحدات سورية عبرت الحدود لتساعد الفدائيين، مثلما كنا نجهل أن ضغوطاً سوفياتية ومصرية كانت تمارس على دمشق لتسحب قواتها تلافيا لتدخل عسكري إسرائيلي . أمريكي. وإنما عرفنا فيما بعد، بأن الجيش السوري انسحب بعد دخوله بأربعة أيام. أما الوحدات العراقية فإنها ظلت سلبية كما توقعنا تماما. وقد اسمعني ضابط استخبارات أردني أبان اعتقالي تسجيلاً لمحادثة بين الملك حسين واللواء حردان التكريتي وزير الدفاع العراقي حيث كان الوزير يعلن بوضوح: «إن قواتنا، وفقا لتعداتنا، لن

تتحرك...» والواقع هو أن الجيش العراقي سحب من الأردن بعد معارك أيلول . سبتمبر 1970. ذلك أن بغداد . كما سيفسر لي الرئيس البكر بعد بضعة أشهر . خافت من تدخل أميركي يعرض النظام البعثي للخطر.

وباختصار، فإن كافة الأصداء التي كانت تتناهي إلينا من خارج سجننا لم تكن أخبارا مفرحة. وذات مساء جاءتنا ثلاث شخصيات أردنية بينها رئيس الأركان العامة ورئيس الاستخبارات للتباحث معنا. فعرضت عليهم مشروع اتفاق لوقف إطلاق النار لا يدخل حيز التنفيذ إلا بعد موافقة ياسر عرفات وبقية أعضاء القيادة. وألحيت برغم اعتراضات فاروق القدومي وإبراهيم بكر . بأن يعرض المشروع على الملك حسين على مسؤوليتي وحدي. كان تفكيري هو التالي: إذا كان الفدائيون على وشك الهزيمة، فإنني أكون قد قدمت لهم مخرجاً مشرفاً، ووفرت حياة كثيرين، أما إذا كان الظرف لصالحهم فإنني أكون المتورط الوحيد بالمبادرة. وكان المشروع الذي حررته بحضور محادثي الأردنيين يتضمن أربع نقاط: عودة الجيش الملكي إلى ثكناته، إخلاء الفدائيين لعمان، الشروع في مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، إقامة قواعد فدائية على طول الخط الفاصل عن الأراضي التي تحتلها إسرائيل.

وبناء على اقتراح الشخصيات الأردنية المطلقة الصلاحية هذه، فإنني قرأت النص بصوت عال فسجلوه بدون علمي ونقلوه للملك. وكان الاتفاق بيننا هو أن نذهب رفاقي وأنا إلى سفارة مصر حيث نتصل بعرفات بالراديو لأخذ موافقته. غير أن الملك انتهك التعهدات المعطاة حين بث من راديو عمان منذ صباح 23 أيلول . سبتمبر اقتراحاتي . بعد أن قدمها كاقتراحات صادرة عن قيادة فتح . معلنا موافقته عليها. وكنت أوضحت تماماً بأنه ليست لي كسجين أية صفة تخولني التفاوض فضلاً عن اتخاذ قرار باسم منظمتي. يبقى أنني، وأنا لا أزال أجهل ما حل بمشروعي، وافقت في اليوم نفسه طبقا لما تم الاتفاق عليه، أن أذهب إلى سفارة مصر بصحبة القدومي وبكر، إذ كان أبو غريبة مريضاً. إلا أن السيارة المدرعة التي وضعونا فيها لم تفلح في التقدم أكثر من بضع عشرات من الأمتار، فقد كانت المعارك التي تدور في هذا القطاع على جانب عظيم من الكثافة. وأجبرتنا العيارات وانفجارات القذائف على أن نعند أدراجنا بعد عدة محاولات غير مثمرة. وهكذا أدركت أخيراً بأن الفدائيين لم يهزموا وأنهم لا يزالون يسيطرون على عدة أحياء من العاصمة. وكنت أجهل بطبيعة الحال أن قوات المقاومة حررت في اليوم ذاته مثلث أربد . الرمثا . جرش و أنها تسيطر على هذه المدن الشمالية الثلاث.

ولدى عودتي إلى السجن، دعوني للذهاب إلى قصر الحمر، حيث ينتظرني الملك وأعضاء الوفد الذي أرسله رؤساء الدول العربية من القاهرة للتوصل إلى وقف المعارك. وكان يقود الوفد، الرئيس السوداني اللواء جعفر النميري ويضم رئيس الوزراء التونسي الباهي الأدغم ووزير الدفاع الكويتي الشيخ سعد العبد الله، ورئيس المكتب الثاني المصري، الفريق صادق. وكان هذا الأخير قد سبق الوفد إلى عمان ليطلب من الملك باسم عبد الناصر أطلاق سراحي وسراح القدومي. ورفض عرضا لزيارتنا في السجن وألح على أن ندعى إلى القصر.

وبعيد وصولنا غلى مدخل المقر الملكي، جاء حسين ليرحب بنا. وعانقني بحرارة وقال لي بلهجة اللائم: «أأنت راض عن المأساة التي نعيشها؟» وأجبته: «يا صاحب الجلالة: لقد فعلنا كل ما في وسعنا لتلافي هذه الكارثة، وأنتم لا تجهلون ذلك. لكن أتعرفون ما تفعله قواتكم؟ وهل تعلمون أنها تقوم بذبح الأهالي؟ وأن رجالكم يعذبون الشباب الوطنيين في معسكر دالخ القصر مؤكدا لي أن سيفتح تحقيقاً بهذا الموضوع.

دارت المحادثة التي جرت بيننا وبين أعضاء الوفد العربي بحضور حسين، حول وسائل الاتصال بعرفات لفرض وقف أطلاق النار بأسرع ما يمكن كان الجو متوتراً، وانسحبت مع بعض أفراد البطانة الملكية إلى الطابق الأرضي من القصر. وبينما كنت أتحادث مع رئيس الوزراء السابق أحمد طوقان، فإنني طلبت بعض الماء لأشرب. فرماني مرافق عسكري شاب كان يقف إلى جانبنا بعبارة شتيمة مضيفا أنه يفضل أن يراني «أموت عطشاً». وذهب أحمد طوقان ليبلغ الحادث إلى الملك الذي ما لبث أن جاء بعد دقائق وفي يده كوب ماء.

غير أننا لم نكن نملك إلا الأعداء فقط في المحيط الملكي. فبينما كنا ننتظر نهاية المداولات أبلغني ضابط ضابط أردني كبير على انفراد بأن الأمر صدر للجيش بقصف مدينة أربد في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم ذاته. فأسرعت لفوري إلى الطابق الأول لأطلب من حسين، أمام أعضاء لوفد العربي أن يعطي أمراً مضاداً لمنع حدوث مجزرة جديدة. وإذ أخذته المفاجأة، والغضب أيضاً، فإنه بدأ بالانكار وصاح «لكن من ذا الذي قدم لك هذه المعلومات الخاطئة، أريد أن أعرف». ورفضت بطبيعة الحال أن أكشف له المصدر. وبناء على طلب أعضاء الوفد العربي، ذهب الملك إلى الغرفة التي يستخدمها كمركز اتصالات، ثم عاد ليعلن بأن قيادة الأركان أكدت له «أن أربد لن تقصف» وقرر الوفد العربي أن يعود مساء اليوم نفسه إلى القاهرة ووافق الملك حسين على أن يطلق سراح صحابتي الثلاثة. ولكنه أصر على الاحتفاظ بي في عمان، حيث يمكن أن أكون، وفق ما قال، أكثر فائدة. إلا أن أضطر أن يرضح للفريق صادق الذي كرر أمامه بحزم، أن عبد الناصر أعطاه الأمر بالأ يغادر عمان إلا برفقتي.

ولم أعلم، إلا وأنا على متن الطائرة التي تقلنا إلى القاهرة من فم اللواء النميري بالضربة الغادرة التي سددها إلينا. فقبل مغادرته عمان، أذاع رئيس الدولة السودانية بدون علمي بيانا لوقف إطلاق النار من راديو عمان، كان قد تفاوض عليه مع حسين، ولكنه عزاه إلى رفاقي الثلاثة وإلى. واستبد بي الغضب عندما قدم إلي الرئيس السوداني نص الاتفاق، وألقيت الوثيقة أرضا وأنا أقول له أنه باطل لاغ. وبالفعل فإن قيادة فتح نشرت بياناً بهذا المعنى مبدية أننا لم نوافق عليه لأننا كنا مسجونين ولسنا في وضع يمكننا من ممارسة أرادتنا بحرية. كان جمال عبد الناصر ينتظرنا في مطار القاهرة واحتضنا بحرارة وهو بادئ السعادة لدى رؤيتنا سالمين معافين جميعاً. وأخذنا في سيارته إلى قصر القبة لفي ضاحية القاهرة حيث كان رؤساء الدول العربية مجتمعين منذ بضعة أيام ينتظرون المهمة التي قام بها مندوبوهم في عمان. وقدمت لهم عرضا عن الوضع في الأردن، واصفا وحشية القوات الملكية، والدمار الرهيب الذي شاهدته في شوارع العاصمة، ملحا على الخسائر البشرية التي تحل بالأهالي المدنيين وعلى إدارة الملك حسين في تصفية المقاومة.

وقد صدمت، وأنا أتكلم، من قلة التحسس لدى غالبية المستمعين إلي. كانت وجوههم ساكنة باردة ونظراتهم غائبة أو لا مبالية. صحيح أنهم كانوا يصغون إلي بأدب، ولكنه إصغاء متجرد غير آبه جعلني استشعر البرودة نفي ظهري. أفصحيح أن من أراهم أمامي هم زعماء الأمة العربية الساخطة المنكرة لهذه المأساة الرهيبة التي يعيشها الشعبان الأردني والفلسطيني؟!

وعندما أنهيت عرضي، أوصلنا عبد الناصر . القدومي وأنا . بسيارته إلى فندق هيلتون بالقاهرة حيث كان يقيم طيلة اجتماع «القمة». ثم استقبلنا بعد ذلك في الجناح الرئاسي بحضور نائب الجمهورية حسين الشافعي ورئيس الوزراء السابق علي صبري ثم ما لبث أن طرح علينا لتوه السؤال التالي: ماذا تريدون أن أفعل لمساعدتكم. كان عبد الناصر بقسماته المتعبة بالذنب لديه إزاءنا. وقال لنا مفسراً إبطاءه بالتدخل (حوالي خمسة أيام) لوضع حد للمعارك في الأردن: «كنت في مرسي ضئيلة الأهمية، شبيهة بكل تلك المواجهات التي سبقتها...» كان يسعى إلى التعويض تعن قصوره. وراح يلح قائلاً: « هل تريدون أن نضع إذاعة القاهرة بتصرفكم مجدداً؟» (كان قد منعنا عنها قبل ذلك بثلاثة أشهر كرد على الانتقادات التي وجهناها إلى مخطط روجرز). وأجبته بأنه يجب الإسراع بأقصى ما يمكن إيجاد الوسائل اللازمة لإخراج ياسر عرفات من عمان. ثم أضفت موضحاً، إن الملك حسين لن يوقف المعركة طالما بقي رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن. والحال هو أنه يجب إيقاف الحرب بأسرع ما يمكن. فرفقاً

للمعلومات التي أملكها فإن هجمة الجيش الملكي ضد حي الاشرفية حي قام عرفات مقر قيادته، كانت إلى ازدياد في حين أن ذخائر مقاتلينا كانت إلى نفاذ. ثم انتقدت الطريقة التي أنجز بها الرئيس السوداني جعفر النميري مهمته، قبل أن اقترح عودته إلى عمان لتخليص عرفات.

واستمرت محادثتنا مع عبد الناصر طوال الليل، وانتهت بموافقته على مشروعي.وقال لي أن الفريق صادق سيكلف بتركيز خطة خروج عرفا. فلم يبق علي سوى أن أقنع بقية رؤساء الدول المعنيين بمهمة اللواء النميري الجديدة. فأما الملك فيصل فكان مغلقاً أبداً، ثم عين بعد بعض التردد مستشاره رشاد فرعون كعضو في الوفد. وأما أمير الكويت فعين وزير دفاعه على عجل. وذهب أبو غريبة وفاروق القدومي إلى سوريا لإقناع الرئيس الأتاسي الذي غاب عن اجتماع القاهرة، في حين أن إبراهيم بكر رافق الوفد العربي إلى عمان. وعارض عبد الناصر معارضة حازمة أمر اشتراكي بالوفد خشية أن اعتقل مرة أخرى.

غير أن اللواء النميري رفض، أمام دهشتي الكبرى، أن يقود الوفد إذا اعتبر أن مهمته انتهت، وانه على أي حال لا يريد أن يضع بعد قدميه في عمان. ولم يرضخ في النهاية إلا بناء لإلحاح عبد الناصر الذي كان يجله كثيراً.

ثم أن الفريق صادق بدأ تنفيذ الخطة التي وضعها لإيصال عرفات إلى القاهرة،منذ وصول الموفدين العرب المطلقي الصلاحية إلى عمان. وقد أوصلوا بناء على طلبهم إلى سفارة القاهرة حيث اتصلوا برئيس منظمة التحرير بالراديو وبواسطة شيفرة تجهلها السلطات الأردنية، وضربوا لله موعدا في حي تسيطر عليه المقاومة. وفيما كان بعض أعضاء الوفد العربي يتفاوض مع الملك حسن، كان آخرون قد ذهبوا لملاقاة عرفات مزودين بلباس بدوي كويتي. وبهذا الزي التنكري، تمكن رفيقنا من مغادرة الأردنية على متن ذات الطائرة التي أقلت الوفد إلى القاهرة.

وما أن علم الملك حسين، الذي كان لا يزال حتى ذلك الوقت يتذرع بمختلف الأعذار ليتخلف عن حضور مؤتمر رؤساء الدول العربية . عن طريق برقية وعيد أرسلها إليه عبد الناصر . بان عرفات أفلح في الفرار، حتى ركب الطائرة إلى مصر. وكما توقعت، فإنه تم التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار وافق عليه الطرفان وأعلن للفور، على أن يطبقه الجيش الأردني تحت أشراف ضباط عرب أرسلوا إلى عمان.

وفي غداة توقيع اتفاق عرفات ، حسين في القاهرة في 28 أيلول . سبتمبر، كنا . فاروق القدومي وأنا . لدى أصدقاء حين توقفت الإذاعة فجأة وبدأت تبث بدون سبب ظاهر، آيات من الذكر الحكيم، وخالجنا شعور إزاء علامة الحداد هذه، بأن مصيبة حلت بعبد الناصر. ثم لم يلبث بعض الصحفيين الأصدقاء أن أكدوا لنا النبأ الرهيب: فالرجل الذي أنقذنا مات! وبرغم ألمي

الذي لا يطاق ولا يحتمل، فإنني حررت باسم فتح رسالة تعزية إلى أنور السادات، بصفته نائب رئيس الجمهورية. كان النص ينبع من قلبي وكنت واثقاً أن كل كلمة فيه، تعبر عن أعمق مشاعر الفلسطينيين كافة. وجاء في الرسالة ما فحواه، أن عبد الناصر الذي يجسد تطلعات وأحلام الأمة العربية كلها، قد سقط في ساحة الشرف، وستظل أفكاره محفورة في ذاكرة الأجيال المقبلة من الشعب الفلسطيني الذي أعاد إليه كما أعاد لكافة الشعوب العربية الأخرى، الكرامة والأمل.. وعلم عرفات وأبو جهاد وأبو مازن الذين كانوا يتجولون ذلك المساء في سيارة المساء في سيارة بدمشق، بالنبأ من الإذاعة التي بثت النبأ كما بثت نص برقيتي. وانفجر الثلاثة بالبكاء. وعندما رأيت عرفات الذي عاد مسرعاً إلى القارة كانت الدموع لا تزال تنهمر من عينيه.

وقد يدهش البعض من عمق حزننا، معللين لدهشتهم بالخلافات وأحياناً بالمصادمات التي جرت بيننا وبين عبد الناصر. أن هؤلاء لن يفهموا كذلك أسي الشعب المصري الذي راح يندب ويولول بالملايين في جنازته، مثلما نادى به في 10.9 حزيران . يونيه، بعد حرب الأيام الستة. كان عبد الناصر أبا لنا جميعاً وهادياً، حتى ولو كان يحدث له أن يخطئ. وقد أدى كوطني، خدمات جلى للشعب المصري، وقدم، كقومي عربي، معونة لا تقدر للشعب الفلسطيني. ذلك أنه كان يحبنا حبا صادقاً.

وظل وفيا للالتزامات التي قطعها لنا منذ لقائنا الرسمي الأول عام 1968 وكان كثيراً ما يستقبلنا دون أن يحسب حساب الوقت الذي يوليه لنا. فكانت محادثاتنا تتصف بالصراحة وتنتهي دائماً بنتائج ملموسة. ولا زلت اذكر محادثة أجريناها معه . عرفات وأنا . في تشرين ثاني . نوفمبر عام 1969 بحضور أنور السادات. فقد حرص على أن يوصلنا إلى درج مدخل منزله، ثم راح يتتبعنا بعينيه ونحن نتجه نحو سيارتنا. ورأيت نظرته، كانت نظرة مشرقة مليئة بالحنو الأبوي وبالرضى. وهمس السادات الذي كان يسير إلى جانبنا يقول: «أن الريس يحبكما كثيراً أنتما الاثنين، وهو يسعد كثيراً عندما يراكما متحدين في الكفاح، فأيداه بلا قصور، فإنه يحتاج إلى ذلك».

ويقينا أنه تأخر في الرد على الهجمة التي شنها الملك حسين ضد الفدائيين في أيلول 1970 بحيث أن بعض المرتابين لم يترددوا في تبني الإشاعة التي روجتها المخابرات الأردنية والتي تقول أنه «أعطى الضوء الأخضر» للملك للتخلص من الفدائيين. لكن كافة الأمور تبدو لي وكأنها تكذب هذه الأطروحة. فلو كان يريد دمارنا حقا، أفكان بذل كل هذا الكد لإيقاف المعارك وإنقاذ قادة المقاومة. قم أن الأسباب التي قدمها لي ليفسر سلبيته أبان الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى من الحرب، بدت لي أن صادقة صريحة. وإذا لم تكن كذلك، فإن اسوأ

الافتراضات التي يمكن أن نقول بها هي تلك التي تقول أن عبد الناصر كان يسعى إلى «تلقينا درساً» وان يذكرنا بحدودنا في اللحظة التي كنا نحاول فيها قطع الطريق أمام تسوية سلمية مبنية على «مخطط روجرز».

وأنا، على أية حال، واثق من أن حسين ما كان سيجرؤ على إنجاز مشروعه الرامي إلى تصفية الفدائيين في الأردن، لو أن عبد الناصر بقي حيا. بحيث أن مجازر جرش وعجلون، التي تشكل نهاية إستراتيجية، كانت ستصبح مستحيلة. وإنما رضخ الملك وقبل بوقف إطلاق النار تحت ضغط الرئيس المصري الذي كان نفوذه غالباً على العالم العربي، راجحاً فيه. كما أنه اضطر بعد ذلك، حين وجد نفسه معزولاً إلى أن يوقع مع منظمة التحرير الفلسطينية اتفاق 13 تشرين أول . أكتوبر. وهو لم يكن ينوي حين وقع الاتفاق أن بطبقه، كما أفضي لي بذلك في وقت لاحق، وصفي التل، الذي جرى تعيينه رئيساً للوزراء وحاكماً عسكرياً للأردن في 28 تشرين الأول. كانت شروط الاتفاق تبقي لنا حرية عمل واسعة، كما كانت تسمح لميليشياتنا بالبقاء في المدن. لكنه كان ثمة بند بخاصة لم يكن في استطاعة الملك أن يحتمله، عنيت البند الذي يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني.

فالواقع هو أن أحد أهداف حرب أيلول، كان بالضبط إعادة حق التفاوض على مستقل الأراضي الفلسطينية المحتلة في الضفة الغربية وغزة إلى العرش الهاشمي.

وعندما عدت إلى عمان في نهاية شهر تشرين الأول . أكتوبر، خصصت زيارتي الأولى للقاضي الذي آوانا بشجاعة، صحابتي المنكودى الحظ الثلاثة وأنا، وبطبيعة الحال، فقد حافظت على سره ولم تفلح في اكتشافه. ورحنا نمرح ونثير حول مائدته العامرة، بعض الفصول المأساوية ـ الكوميدية في محنتنا المشتركة. وأجريت عدة مباحثات مع حسين ووصفي التل، تهدف إلى تركيز إطار علاقاتنا المستقبلة. ولم يكن وصفي التل الذي كنت أعرفه، يوحي إلي بأية ثقة، كنت أسميه «العميل الأيدلوجي». ذلك أنه كان مترفعاً على الصعيد المادي، ولكنه ذو طواعية مخفية عندما يتعلق الأمر بتنفيذ سياسة لندن، في الفترة التي كان نفوذاً انكلترا غالباً على الأردن. ثم اتخذ موقفاً مماثلاً من الإمبريالية الأميركية.

كان وصفي التل، المعروف بشراسته التي لا تعرف الشفقة أو الرحمة، ذا مهارة وحنكة أيضاً، وكان ليحتك بالأوساط القومية في الأردن محاولاً التلاعب بها، مفلحاً في ذلك أحياناً. وخلال محادثاتنا في خريف عام 1970 انطلاقة جديدة للحركة الفدائية. وقال أنه يردي مساعدتنا وأنه بيس علي إلا أن أشير لما «نطلب ونتمنى». ولم يظل علي ذلك خاصة وأنني كنت أراقب عن كثب مناوراته التي ستؤدي في أقل من تسعة أشهر بعد ذلك، إلى تدميرنا.

فخلال شهري تشرين الثاني . نوفمبر وكانون الأول . ديسمبر، أقام بجوار كافة مواقعنا «مراكز درك» لم تكن في الحقيقة إلا مركز للجيش الملكي. وفي كانون الثاني . يناير، بدأت الحوادث والمصادمات وحوادث إطلاق النار تندلع بين الفدائيين وقوات الأمن كما لو أن وراءها سحر ساحر.

وأبلغنا وصفي التل بأنه لا يسمح بهذا الوضع الفوضوي الذي توجده حركة لا تستطيع فرض الانضباط في صفوفها. وطالب بمغادرة الفدائيين لكافة مدن المملكة وبنزع سلاح الميليشات. ثم أكد أن على مقاتلينا أن يتجمعوا في جرش وعجلون حيث يستطيعون مقاتلة العدو بصورة أفضل. ووافق ممثلونا في نهاية شهر كانون الثاني . يناير على عقد اتفاق ينص على تسليم السلاح ظانين أن في وسعهم مغافلة السلطات وإفراغ الاتفاق. وما أن وافاني الخبر إلى حيث كنت، في الكويت، حتى عدت مسرعاً إلى عمان. كنت مقتنعاً بأننا ارتكبنا خطأ فادحاً سوف يكلفنا ثمناً باهظاً. وقد صوبت الأحداث لسوء الحظ رأيي. وبدأ وصفي التل بإصدار قانون يوقع عقوبة الإعدام بكل شخص يحمل سلاحاً نازياً. ثم بدأ الجيش بعد ذلك يفتش الإحياء منزلاً منزلاً ويكتشف مخابئ سلاحنا بسهولة مذهلة. وببديهة الحال، فإن قوات الأمن كانت على قدر حسن من الإطلاع على نشاطاتنا السرية. وقد أتاحت لنا التحقيقات التي قمنا بها لاحقا أن نكتشف عدداً من عملائهم، الذي كانوا يبدون في الغالب مناضلين متعصبين من أنصار التطرف. الأمر الذي عزز قناعتي بأن دعاة التطرف، لا يمكن أن يكونوا إلا أغبياء أو خونة...

وبدت لي معالم المؤامرة وهي تتضح، فطلبت الملك . ولم يكن في وسعي هذه المرة أن أراعي أصول المجاملة التي طالما راعيتها حتى الآن إزاءه. وقلت له بالحرف: « إذا ما ضربت الفدائيين في أخر معاقلهم في جرش وعجلون، فأني أقسم أي سألاحقك حتى أخر نفس في حياتي ولو إلى طرف الدنيا، لأوقع عليك العقاب الذي تستحق! «وأخذ حسين بادئ الأمر، ثم اكتفى بأن تميم قائلاً: «لا سمح الله...» ولم أره منذ ذلك الحين.

وفي الشهرين التاليين تكاثرت الإجراءات المتخذة ضد الفدائيين، واحتل الجيش كافة المخيمات اللاجئين,، وتكاثف القمع، وازدادت الحوادث المسلحة التي تصطنعها السلطة حتى ابتذلت. وأدارت الأنظمة العربية وجهها عنا ولم تعد تأبه بمصيرنا. وبدأ لي أن ساعة المواجهة القصوى حلت. فقررت أن أقاتل بوجه حاسر صريح. ودعوت في الخامس عشر من أيار إلى اجتماع عان في مخيم اللاجئين بالوحدات في عمان.

وقال لي رفاقي إن ذلك «مستحيل»، فالناس أكثر رعباً من إن يشاركوا بمثل هذه المظاهر», ولثقتي في شجاعة مواطني فإنني طلبت أن يعقد الاجتماع في مدرج يستطيع أن

يضم أكثر من 10.000 شخص. إذ أليست هذه هي المرة الأولى منذ حرب أيلول . سبتمبر 1970 التي يخاطب فيها أحد قادة المقاومة الشعب؟ غير أني أبلغت عشية الاجتماع بأن الجيش أحاط بالمدرج وركز الرشاشات على أسطح المباني المحيطة. وقلت ما هم فالاجتماع سيعقد على كل حال. وفي صبيحة اليوم التالي، جاءني منظمو الاجتماع في الساعة الرابعة إلا ربعا أي قبل موعد الاجتماع بخمس عشر دقيقة وهم قلقون ليقولوا لي إن المدرج لا يزال خاوياً خواء مؤيسا. وبرغم كل شيء فأنني اتخذت طريقي ماشياً إلى مخيم الوحدات فوصلت إليه في الساعة الرابعة تماماً. لأشاهد هناك مشهداً ينم عن معجزة، فلم يكن الملعب الرياضي مكتظاً وحسب، بل كان يفيض بحشود كثيفة غالبيتها العظمى من النساء، اللاتي كثيراً ما كن يحملن أطفالهن الرضع على سواعدهن، ومن الأطفال والمسنين. وكانت النسوة يلبسن اللباس الوطني، الطويل المزدان بالزر كشة المتعددة الألوان.

وعلمت في وقت لاحق أن الاتفاق في مختلف مخيمات اللاجئين كان يقضي بالذهاب إلى الاجتماع في اللحظة الأخيرة. وهكذا فإن قوات الأمن لم تستطع أن تكبح الموج البشري الذي أندفع على الوحدات.

ولاحظت الجنود وأنا أصعد إلى المنصة، وعم على السطوح لابسين بزات القتال وأيديهم على الزناد يصوبون مدافع رشاشاتهم باتجاه الحشود التي كانت تتجاهلهم. وعندما أخذت الكلام، خاطبت العسكريين الذين يحاصروننا للحال. وقلت: «هل تظنون أنكم تخيفوننا بانتشاركم هذا. كلا! فلا الضربات ولا الطلقات جعلت الفلسطينيين يتراجعون عن هدفهم الوحيد بتحرير وطنهم. ولو كنت مكانكم لاعتراني الخجل. إذ بدلا من أن تكونوا على الجبهة تقاتلون الجيش الإسرائيلي، ها أنتم مجبرون على توجيه أسلحتكم نحو نساء وأطفال لا سلاح لديهم ولا دفاع».

وما كدت أنهي هذه الخطبة القصيرة حتى ارتبك الجنود وحولوا مدافع أسلحتهم بعضهم أثر بعض أمام تصفيق الجمهور. كما أن كثيرين منهم غادروا مواقعهم تدريجياً أثناء خطابي ليختلطوا بالحشود. ثم خاطبت الحشود بعبارات قاسية في صراحتها وسردت تاريخ علاقات المقاومة بالسلطة الأردنية، ونددت بازدواجية وصفي التل والملك حسين. فقد أخلفا وعودهما لنا دائماً وبانتظام، ووقعا اتفاقيات لم تكن أية نية لاحترامها. وانتهكا تعهداتهما حين احتلت قواتهما المخيمات وطردت الفدائيين من المدن. وتابعت أقول: ولقد أقسما على أن يبقيا على فدائيينا المحتشدين في جرش وعجلون ولكن معلوماتنا تشير إلى أنهما يعدان لمجازر جديدة. ثم خلصت إلى القول وقد بلغ بي الانفعال مداه: «وهذه بلا ريب آخر مرة تشاهدوني فيها بينكم . كونوا أقوياء! فالمستقبل لنا!».

وبعد ذلك بشهرين تماماً، أي في صبيحة الخامس عشر من تموز . يوليه، أسرعت بالذهاب إلى مصيف مرسي مطروح المصري، حيث كان يجتمع الرئيس السادات والعقيد القذافي رئيس الدولة الليبية ومحمود الأيوبي، رئيس وزراء سوريا وعضو من مجلس الثورة السودانية لتدارس التي بدأ الناشبة في المغرب. جئت أطلب إليهم التدخل على عجل لوقف المجازر التي بدأ الجيش الأردني ن. وبتنفيذها منذ يومين في جرش وعجلون. وعندما أخطروا بوصولي وبما جئت من أجله، فإنهم جعلوني أنتظر عشر ساعات قبل أن يأذنوا لي بدخول خلوتهم! وعلى أية حال فأنهم كانوا سيجعلونني أنتظر أكثر لو لم يعلموا بأنني توجهت ساخطاً نحو سيارتي لأعود من حيث أتيت إلى القاهرة.

وبعد أن استمعوا إلي، اقترح العقيد القذافي أن يتدخل سلاح الجو المصري لتحطيم الحصار المفروض على منطقة جرش وعجلون، وأن تفتح الحدود السورية (المقفلة منذ حرب أيلول) أمام الفدائيين وأم الأسلحة الجزائرية التي وصلت إلى مرفأ اللاذقية وجمدتها سلطات دمشق منذ أسابيع.

واستدار السادات نحوي وقال لي: «ما رأيك» وأجبت «أو تعتقد أيها السيد الرئيس أن طلباني تكون أكثر تواضعاً من طلبات القذافي؟ الأمر الأساسي هو أن تفعلوا شيئاً، أي شيء لوقف المذابح». وأحرج السادات والأيوبي ولم يبديا حراكاً. ولحسن حظ رئيس الوزراء السوري، فإنه استدعي على الهاتف. ثم ما لبث أن عاد وهو مشرق الوجه. فقد أبلغته دمشق أن وفدا سوريا فلسطينيا يفاوض الآن على وقف لإطلاق النار يعتبرونه وشيك الحلول. وبعد يومين استنفذت الجريمة ، ولم يبق في وسع أحد أن يفعل أي شيء للثلاثة آلاف فدائي من القتلى والجرحى والموقوفين أو الهاربين. وفي 18 تموز . يوليو أعلن وزير الإعلام الأردني عدنان أبو عودة، الذي كان من أكثر زواري مثابرة أبان أسري، على الصحفيين بلهجة لا تخلو من الطلاقة الوقحة بأن اتفاقيات 13 تشرين أول بين الملك والمقاومة باتت لاغية. وقلبت بذلك صفحة من تاريخ بصورة نهائية.

ولم يبق لنا إلا أن نعلن إفلاسنا، وأن نعرض بيان إدارتنا وأن نخطط للمستقبل على ضوء الدروس التي استخلصنها من تجربتنا. وعندما عقدت القيادة أول اجتماع بكامل هيئتها في شهر أيلول . سبتمبر 1971، فإن رفاقي باتوا يفهمون فهما أفضل الأسباب التي حدث بي في أيلول إلى أن أعرض وقف إطلاق النار على الملك، ذلك أن بادرتي التي لم يملها على أي ضغط خارجي، كانت تنزع إلى وقف الإراقة غير المجدية للدم، ومنع تعريب النزاع الذي كنت اعتبره بمثل خطورة الفتنمة التي كان يخشاها قادة هانوي. وأدين في هذا الاجتماع تصرف

متطرفـي الجبهـة الشـعبية التـي يقودهـا جـورج حـبش خاطفـة الطـائرات عشـية المعـارك. أما على الصعيد العملي، فإننا قررنا إنشاء جهاز سري في الأردن يتولى الإعداد لإسقاط النظام. وجرى تعييني مسؤولاً عن هذه المنطقة. ومن جهة أخرى فإنه صدرت عن الاجتماع تعليمات بتعزيز قواعدنا في لبنان كما وكيفما، للعودة إلى شن الهجمات الفدائية ضد إسرائيل انطلاقاً من الجنوب.

وأخيراً فقد تقرر أن تجري الدعوة لعقد مؤتمر استثنائي في شهر تشرين الأول . أكتوبر من السنة التالية لتحديد الوسائل اللازمة لإعطاء الحركة اندفاعاً جديداً.

كان مؤتمر فتح الذي انعقد في شهر تشرين الأول . أكتوبر 1971. أحد أهم المؤتمرات التـي شـهدتها منظمتنـا أبـان وجودهـا كلـه. فقد بـدأ تنفيذ مبادئ المركزيـة الديمقراطيـة: ولأول مـرة يجري تعين أعضـاء المؤتمر (حـوالي ثلاثمايـة) وأعضـاء القيـادة (تسـعة) بالانتخابـات. وأظهـرت إعـادة انتخـابي لعضوية اللجنـة المركزيـة بأغلبيـة ساحقة مدى الثقـة التـي كنت لا أزال أتمتـع بهـا لدى «القاعدة» وجرى تعديل الأنظمة الداخلية واعتمد خط سياسي جديد. وكان أحد البنود البـارزة هو ذلك الذي ينص على أن حزب العصابات هي أحدى البنود البارزة هو ذلك الذي ينص علـى أن حرب العصابات هي إحدى الوسائل (الوسيلة الوحيدة) التي نملكها لخوض نضالنا التحريري.

غير أننـا كنـا نواجـه مشكلة هامـة جداً منذ نـهايـة معركـة جرش عجلون المأساوية. فبعد يأس وخيبة أمل المناضلين، جاء التعطش للانتقام. ذلك أن معارك «أيلول الأسود» أوقعت عددا يتراوح بين 700 و 800 قتيل وجريح دون أن نـذكر ضـحايا تموز . يوليو 1971 في شمال الأردن. وقبل أن يقضـي قائد منطقـة جرش عجلون، عضـو اللجنـة المركزيـة فـي فتح، أبـو علـي أياد، نحبه، فإنه أفلح في إرسال رسالة أخيرة إلينا وقال: بعد هذه الكلمات سأدمر جهاز الإرسال، نموت واقفين ولا نركع...».

وقد حفظت شبيبة فتح هذه الجملة الأخيرة. ولأنـه لم يعد في الوسع خوض حرب فدائية تقليدية عبر الحدود الإسرائيلية، فإنهم كانوا حريصين على ممارسة عنف ثوري من نـوع آخر، أي من ذلـك النـوع الـذي يطـاق عليـه الصـهيوني وحسـب، وإنمـا القتلـة والخونـة العرب الـذين جعلـوا أنفسـهم مسـاعدي إسرائيل. وتلافيا لأن يتخذ هذا العنف شكلاً فردياً فوضـوياً، فإنـه لم يكن ثمـة سبيلاً أخر أمامنا سوى . تحويل وتوجيه موجة الغضب وإعطائها بنية وذلك بأن نزودها بمحتوى سياسي.

(6) حرب الأشباح

بعد ظهر الثامن والعشرين من تشرين الثاني . نوفمبر 1971، كان وصفي التل المحاط بحرسه ومساعديه يخطو بخطى رشيقة على السلم الواسع في فندق شيراتون بالقاهرة. فتقدم منه شابان، ثم دوت رصاصتان وتهاوى رئيس الوزراء الأردني في بركة من الدم. وبذلك تم الاقتصاص، وأعدم أحد جلادي الشعب الفلسطيني. وها هي «أيلول الأسود» المنظمة السرية التي أنشئت في مطلع الخريف، أتمت أولى مآثرها.

كان قد جرى أعداد عدة مشاريع اغتيال لتنفذ في عمان أو في القاهرة . حيث كان التل يشارك في مجلس دفاع الجامعة العربية . ، ثم نبذت في اللحظة الأخيرة. وكان بوسع الشابين اللذين أعدما وصفي التل، الاعتماد على رفيقين لهما في داخل الفندق فيقتلانه في البهو فيما لو تمكن من اجتياز عتبة الفندق سالماً. ثم إن المفاجأة ساعده على نجاح المشروع. فالواقع هو أن الفاعلين انتظروا يومين قبل القيام بالمحاولة، أي الوقت الكافي لتراخي الرقابة البوليسية. وجرى قتل رئيس الوزراء الأردني، رمز خيانة القضية الفلسطينية، أما أنظار مختلف الوزراء العرب الذين انطرحوا جميعهم أرضاً إبان عملية إطلاق النار. بحيث أن مشهدهم هذا، أفرح المسؤولين عن المحاولة، لأنهم كانوا يسعون بالضبط إلى توجيه تحذير إلى كافة من يحاولون التضحية بمصالح وحقوق الشعب الفلسطيني، في العالم العربي.

وإذا كنت بحكم طبيعتي وإيديولوجيتي عدوا لدودا للاغتيال السياسي، ثم للإرهاب عامة، إلا أنني لا أخلط كما يفعل كثيرون في أرجاء العالم، بين العنف الثوري وبين الإرهاب، وبين ما يشكل فعلاً سياسياً وبين ما ليس كذلك. وأرفض الفعل الفردي الذي يرتكب خارج أي تنظيم أو أية إستراتيجية أو تمليه بواعث ذاتية، ويدعي الحلول محل كفاح الجماهير الشعبية. وعلى العكس من ذلك، فإن العنف الثوري ينخرط في حركة واسعة ذات بنى يشكل قوة متممة لها، ويساهم في مدها في فترات الجزر أو الهزيمة، بانطلاقة جديدة. لكنه يصبح نافلاً لا جدوى فيه عندما تسجل الحركة الشعبية نجاحات سياسية على الصعيد المحلي أو على المسرح الدولي. و «أيلول الأسود» لم تكن منظمة إرهابية مطلقا. بل تصرفت دائماً كرديف ملحق بالمقاومة في الحين الذي لم يكن بوسع هذه الأخيرة فيه، أن تضطلع بمهماتها العسكرية والسياسية كاملة. وقد أكد أعضاؤها دائماً وأبداً أنه ليست لهم أية صلة عضوية بفتح أو بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وقد عرفت عدداً منهم. وأستطيع أن أؤكد أنهم ينتمون في غالبيتهم إلى مختلف المنظمات الفدائية. وبالنظر إلى أنهم خرجوا من صفوف هذه المنظمات، فإنهم كانوا يترجمون

ترجمة صادقة مشاعر الإحباط والسخط التي تعتمر الشعب الفلسطيني إزاء مذابح الأردن وإزاء التواطؤات التي مكنت من تنفيذ هذه المذابح، ومظاهرات الفرح التي استقبلت إعدام وصفي التل هي أكبر شاهد على ذلك. ولهذا فإن السلطات المصرية، مراعاة منها للإرادة الشعبية، لم تلبث أن أطلقت سراح منفذي العملية الذين جاؤوا ليضافوا إلى أبطال المقاومة.

وبعيد أسبوعين من إعدام التل، ضربت «أيلول الأسود» تابعاً آخر من أتباع حسين، وأحد أقرب مستشاريه إبان اشتباكات أيلول . سبتمبر: عنيت زيد الرفاعي الذي كان حينها سفيراً في لندن. كان الرفاعي يقدم نفسه، وهو المرهف الذي ينتمي إلى عائلة كبرى، كمصلح موفق، إلا أنه كان يمارس دوراً خطيراً.

فبينما كان عائدا إلى منزله الكائن في مقر السفارة في 15 كانون الأول . ديسمبر تعرضت سيارته الأنيقة لزخات رصاص سلاح أوتوماتيكي. فألقى نفسه بصورة غريزية على أرض السيارة وخرج بجرح طفيف في يده. أما الشاب الفلسطيني الذي حاول اغتياله فإنه تخلص من رشاشه. ولخوفه من أن يكتشف ويعتقل فإنه أندس في أول منزل صادفه في طريقه. وكانت ساكنة البيت امرأة عجوز لم تشتبه في أمره بشيء، فاستضافته بضع ساعات. ولما كان يملك جواز سفر ثانيا، ومزورا أيضاً، فإنه غادر لندن في اليوم التالي من مطار إحدى المقاطعات بدون أن يزعجه مزعج. فالحق هو أن السلطات البريطانية، شأن بقية السلطات في البلدان الأوروبية الأخرى، تفضل تلافي التعقيدات فلا تغالي في بذل الجهود لاعتقال المغاوير الفلسطينيين.

وقد اتخذت المعركة ضد النظام الأردني أشكالاً متنوعة. وكان أحد هذه الأشكال هو مضايقته بلا هوادة ولا انقطاع لإضعافه وإجباره على الإذعان للقوة. وأعدت «أيلول الأسود» خطة واسعة النطاق تحتاج إلى عدة أشهر من الأعداد الدقيق وتهدف للتوصل إلى إطلاق سبيل مئات من المعتقلين السياسيين في السجون الأردنية، وتقضي بإرسال مجموعتين من المناضلين المجربين تكلف أحداهما باحتلال سفارة الولايات المتحدة وأخذ السفير الأميركي ومساعديه رهائن لمبادلتهم بإطلاق سراح السجناء. وفي حال فشل هذه المجموعة، تقوم المجموعة الثانية باحتلال رئاسة الحكومة وتعتقل أعضاءها توصلا إلى ذات الهدف.

وكان الرجل الذي اختير لتنفيذ هذه المهمة التي تفوق سائر المهمات دقة، هو صديقي أبو داود الرجل الذائع الصيت داخل المقاومة بسبب تفانيه وشجاعته النادرين. فقد كان يقود الميليشات في الأردن قبل طرد الفدائيين منه، وتميز خلال «معركة عمان» في أيلول 1970. وهو يتمتع بذاكرة مدهشة بحيث أن في استطاعته أن يسمي الشهداء واحداً واحداً ذاكراً أصولهم

العائلية وأسلافهم. وبما أنه كان معروفاً تماماً في العاصمة الأردنية، إن لدى الأهالي وإن لدى المخابرات، فإنه كان يخاطر مخاطرة كبرى بقبوله بالعودة خفية إلى عمان. ثم راح يستعد لذلك بضعة أشهر مقدماً: فأطلق لحيته وبدأ يحيا حياة بالغة التكتم في بيروت ودمشق، مكانا إقامته الاعتياديين.

وعهدت «أيلول الأسود» إلى ثلاثة من أعضائها في عمان، استئجار ثلاث شقق تحت «تغطية» ملائمة، لإيواء الخمسة عشر فدائياً الذين سيشاركون في العملية. أما أبو داود فإن أحد أصدقائه الحميمين، مصطفى سوف يأويه ويأوى المرأة التي سترافقه على أنها زوجته. ومع أن مصطفى لم يكن عضوا في الحركة، إلا أنه كان يتمتع بثقة كافة المناضلين الكاملة. فهو في الخامسة والثلاثين من عمره وأمضى سبع سنوات في السجن لقيامه بنشاطات شيوعية، قبل أن يضع نفسه عام 1968، في خدمة المقاومة التي كان يظهر لها أخلاصا متقدا مطلقاً. ثم أن عمله كموظف في وزارة الأعلام الأردنية، كان يقدم ستارا من الاحترام يناسب تماماً الدور الذي أو كله إليه مؤتمرو «أيلول الأسود». وغادر أبو داود الكويت في 13 شباط . فبراير 1973 وهو يأتزر بعباءة واسعة موشاة بالذهب ويلبس كوفية وعقالاً على رأسه، فبات يبدو وهو جالس وراء مقود سيارته الأميركية الفخمة برفقة «امرأته» التي تلبس هي الأخرى ثياباً تقليدية، كرجل أعمال خليجي لا شبهة فيه. ومن الكويت توجه إلى بغداد سالكاً من هناك طريق عمان فوصلها في اليوم التالي ونزل عند مصطفى. وأطلع مضيفه على مخطط العملية التي ستتم بعد ظهر اليوم التالي، وطلب إليه أن يعرض الخطة شخصياً على كل مسؤولي المجموعتين الفدائيتين المكلفتين بالتنفيذ. وأعطاه لهذا الغر عنوان أحد الشقق الثلاث المستأجرة كما زوده بكلمة السر. ثم إن المناضلة التي جاءت مع أبي داود، رافقت مصطفى لتسهل له المهمة. ذلك أنها في واقع الأمر زوجة أحد الفدائيين الخمسة عشر، ولا بد أن يبدد حضورها كل تحفظ ممكن إزاء مصطفى.

وبعد أن أنجز الرسولان المهمة، عادا برفقة بن بلـلا . الاسم القتالي لأحد مسؤولي المجموعتين . لأنه كان يريد الحصول على إيضاحات إضافية من أبي داود، أما أو داود، فإنه غادر هو ورفيقته منزل مصطفى في ذات الليلة ليسلكا طريق دمشق. وكان من المقدر أن يقوم مناضلان آخران . هما زوجان شابان . ويجهلان كل شيء عن العملية وعن هوية أبي داود الحقيقية . بمواكبة أبي داود بسيارتهما حتى الحدود السورية للاطمئنان على سلامته وإبلاغ ذلك لرئيس «أيلول الأسود» أبو إيهاب، الذي كان يتابع العمية من عاصمة عربية أخرى.

وانتظر أبو إيهاب طيلة الليل وطول النهار التالي دون أن يصله أي خبر. وبما أن الهجوم على السفارة الأميركية لم يتم، فإنه كان من البديهي أن عقبة ما قد حدثت. ولم يعلم

بالكارثة إلا في غداة اليوم التالي حين اتصل بهم سؤول من عمان ليبلغه أن أبا داود ومرافقته، وعنصري الرصد المكلفين بإتباعه إلى الحدود، وأفراد مجموعتي المغاوير، قد أوقفوا جميعاً. وقد تمت مداهمات البوليس للشقق الثلاث التي ينزل فيه الفدائيون في ذات الحين الذي أوقفت فيه سيارة أبي داود في أحد شوارع عمان. كان كل شيء يشير إلى أن دوائر الأمن الأردنية كانت على علم تام بالقضية. كما كان من الواضع أن الواشي لا يمكن أن يكون إلا مصطفى، الشخص الوحيد الذي لم يجر توقيفه، والشخص الوحيد الذي كان يعرف . باستثناء أبي داود وزوجته . بالعملية معرفة شاملة.

واتصل به أو إيهاب بالهاتف بلغة مرموزة (شيفرة) وراح يسأله بكل براءة عن أخبار المغاوير. فأبلغه مصطفى بالتوقفات وطمأنه على مصير داود . برغم أن هذا الأخير أخضع، كما علمنا فيما بعد، لعمليات تعذيب لا تحتمل. ولما كان قرار أبي إيهاب قد قر على معاقبة الخائن، فإنه راح يتخيل خدعة يجتذب بها مصطفى إلى شرك. وهكذا فإنه أرسل إليه رسالة يخبره فيه بعزمه على القيام بعملية واسعة جديدة بهدف إطلاق سراح أبي داود ورفاقه وطلب منه موافاته إلى القاهرة لمناقشة المشروع.

كان الطعم مغريا ولاسيما بالنسبة لرؤساء مصطفى الذين كانوا يريدون معرفة المزيد. وجرى تحليل الرسالة ومناقشتها في اجتماع شارك فيها نذير رشيد، رئيس المخابرات والأمير حسن شقيق الملك، بصفته المسؤول عن أمن الدولة وعدنا أبو عودة وزير الإعلام. وكان هذا الأخير المعارض الوحيد لسفر مصطفى بعد أن اشتبه بالمكيدة. ومع هذا، فإن مصطفى غادر عمان إلى القاهرة مزوداً بأمر مهمة. إلا أن الدهشة استولت عليه حين وصوله، عندما علم أن أبا إيهاب ينتظره في عاصمة عربية أخرى، بعد أن اضطرته إلى البقاء هناك . كما قيل له . قضية هامة، والحقيقة هي أن القاهرة لم تكن تتلاءم مع مخطط رئيس «أيلول الأسود» فاختار بالتالي بلدا على جانب كاف من التساهل يتيح له تسوية حساباته مع الشخص الذي خان . وفق أرجح الاحتمالات . ثقة المنظمة.

غير أن مصطفى أثار مشكلة أمر المهمة الذي لا تزيد مدته عن خمسة أيام ولا يخوله الذهاب إلى بلد آخر غير مصر. فعرضوا عليه وثيقة مزورة تتيح له الذهاب والإياب باسم مستعار مما كان يناسب تماما خاطفيه، الذين كانوا يسعون لأسباب تختلف عن أسبابه هو . إلى محو كل أثر له. وبما أنه لم يكن يرتاب بشيء، فإن مصطفى وافق على العرض، وسافر إلى العاصمة العربية المعينة. وعلى المطار وجد سيارة تنتظره لتقوده إلى أبي إيهابن الذي أستأجر لهذه المناسبة منزلا مكتوما.

كانت المواجهة دراماتيكية من اللحظة الأولى. فقد خص أبو إيهاب ضيفه باستقبال بارد. ورفض أن يصافحه ثم أمره بالجلوس والصمت. وبدأ بتوجيه الاتهامات إليه على التتالي ذاكراً الأدلة الاتهامية التي تمكن خلال ذلك من جمعها. فنفجر مصطفى باكيا وبدأ بالاعتراف، بأنه هو الذي سلم مجموعة أبي داود للبوليس. ولم يدهش أبو إيهاب من السرد الذي سرده مصطفى كثيراً. فقد عرف عدداً من قدمى المناضلين الذين جندتهم المخابرات الأردنية، شأن مصطفى، إبان سنى الاعتقال. فمصطفى سلك ذات السبيل الذي سلكه عدنان أوب عودة. فقد ارتد هذا الأخير وجحد إيمانه الشيوعي واضعاً نفسه في خدمة البوليس، قبل أن يصبح أحد أصفياء الملك ووزيراً للأعلام. وأما مصطفى فإنه كان، حسب الأصول، يعلن أراء مفرطة الجذرية، الأمر الذي أتاح له الاندساس في صفوف الجبهة الشعبية التي يرأسها جورج حبش حيث تمكن بفضل مناخ التطرف السائد فيها، أن يقوم بنشاطات الاستفزاز والوشاية دون أن يخاطر مخاطرة كبرى بالانكشاف.

ولهذا، فإن مشروع «أيلول الأسود» كان بالنسبة إليه بمثابة نعمة. فأخطر دوائر الأمن بوصول أبي داود الوشيك دون أن يكون في وسعة بعد تزويدهم بمعلومات حول طبيعة وتاريخ تنفيذ العملية. وبمجرد أن تلقى هو نفسه هذه المعلومات، فإنه لجأ في تأدية مهمته إلى الحيلة. فبينما كان يرافق «زوجة» أبي داود إلى الشقة التي يشغلها مسؤولا المغاوير، فإنه تذرع بحاجة طارئة لشراء بعض الحاجيات، وذهب إلى مقر الأمن ثم عاد فلحق بها بعد نصف ساعة. وبعد أن أطلع البوليس على الساعة المحددة لذهاب أبي داود، فإنه لم يبق عليه إلا أن ينشر شباكه ويعتقل كافة أفراد المجموعتين. واستمر استجواب مصطفى عدة أشهر، أفادنا خلالها بمعلومات ثمينة بينها أسماء عملاء المخابرات الأردنية داخل الحركة الفلسطينية. وقد أفلح أبو إيهاب في اجتذاب ستة منهم لا يزالون معتقلين حتى الآن في بلد عربي صديق للمقاومة أما مصطفى، فبالنظر إلى أن نشاطاته السابقة كلفتنا خسائر في الأرواح، فإنه حكم بالإعدام. غير أن الإعدام لم ينفذ إلا بعد مواجهة نهائية مع أبي داود الذي أطلق سراحه بعد سبعة أشهر من اعتقاله.

غير أن التقلبات التي سبقت إطلاق سراحه تستحق الرواية. فقد أوقف في 15 شباط . فبراير وحكم هو وصحابته الخمسة عشر بالإعدام. وفي اليوم الثامن والعشرين من الشهر نفسه قررت «أيلول الأسود» أن تنتقل إلى العمل لتجبر الملك حسين على التراجع. ففي أول آذار . مارس، قامت مجموعة مغاوير مؤلفة من ثمانية فدائيين باحتلال سفارة العربية السعودية في الخرطوم، حين كان نحوا من أربعين شخصاً من أعضاء السلك الدبلوماسي يحضرون حقل استقبال، وأخذوا خمسة دبلوماسيين كرهائن، وهم سفيرا المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة

والقائمون بالأعمال الأميركية والبلجيكية والأردنية ثم طالبوا من بين ما طالبوا به، بإطلاق سراح أبي داود وصحابته.

ولم يفهم الرأي العام في ذلك الحين لا اختيار سفارة بلد اشتهر بأنه صديق للمقاومة ولا اختيار الدبلوماسيين المعتقلين. والواقع هو أنه كان للصدفة للمقاومة ولا اختيار الدبلوماسيين المعتقلين. والواقع هو أنه كان للصدفة نصيب كبير في العملية، وفقا للعرض الذي قدمه لي القائمون بها بعد ذلك. فهم، لاقتناعهم بأن الملك حسين لن يذعن حتى ولو هلك نصف الشعب الأردني، فأنهم قرروا ممارسة ضغوطهم عبر الولايات المتحدة التي يمكن أن يكون تأثيرها على الملك حاسما. فكان المرمى الذي صوبوا إليه هو القائم بالأعمال الأميركي الذي خدم في عمان حيث اضطلع بمسؤولية جسيمة في الإعداد لحرب عام 1970، وكان سيترك وظيفته في الخرطوم نهائيا في 2 آذار- مارس. وعلى هذا، فأن حفل الاستقبال الذي أقيم على شرفة في سفارة المملكة العربية السعودية، كان آخر حفل له قبل سفره إلى واشنطن. ولم تكن لدى أبطال المحاولة أنية في إعدام رهائنهم. وبعد رفض حسين الاستجابة إلى مطالبهم، بناء على طلب عاجل من الرئيس نيكسون، فإنهم طلبوا طائرة لاقتياد رهائنهم إلى واشنطن حيث كانوا يعتزمون إجراء مفاوضات هناك، والدفاع عن قضيتهم أما الرأي العام الأميركي. وبناء على تحريض نيكسون أيضاً، فإن الرئيس السوداني، لم يرفض طلبهم وحسب، بل إنه دفع بجيشه في مساء الثاني من آذار إلى مهاجمة السفارة. وبهذا اضطر فدائيو «أيلول الأسود» إلى إعدام ثلاثة من رهائنهم هز الأميركيان والقائم بالأعمال البلجيكي الذي كان تعاطفه مع إسرائيل أمراً مشهوراً. أما سفير العربية السعودية الذي استخدموه كوسيط، والقائم بالأعمال الأردني الذي كانت زوجته قريبة من المقاومة، فإنه أبقي عليهما بطبيعة الحال. وبعد مساويات مضنية، سلم أفراد الكوماندوز أنفسهم في 4 آذار . مارس. وبعيد ذلك بساعات، صدق الملك حسين حكم الإعدام الصادر ضد أبي داود ورفاقه. غير أن الملك عاد تحت ضغط عدة رؤساء دول عربية وبينهم الرئيسان السادات وبو مدين وكذلك أمير الكويت فأجل تنفيذ الإعدام، ثم خفضه في 14 آذار إلى عقوبة السجن مدى الحياة. وأخيرا، وبمناسبة صدور عفو عام في شهر أيلول، وقبل تشرين أول . أكتوبر 1973 بثلاثة أسابيع ، أطلق سراح أبي داود وبقية من جرى تجريمهم معه.

غير أن العجيب هو أن ختام «قضية أبو داود» لم يجر في عمان، وإنما في باريس، حيث استدعاه البوليس الفرنسي، بعد ذلك بثلاث سنوات أي في شهر كانون الثاني . يناير 1977، متهما أياه بأنه «إرهابي خطر» وبأنه أحد منظمي المحاولة ضد الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ في أيلول . سبتمبر 1972. وقد كان سلوك إدارة أمن الأراضي الفرنسية غريبا من

أكثر من جهة. فالتهمة الموجهة ضد أبي داود لا ترتكز من جهة أولى، إلا على الادعاءات الإسرائيلية التي لا تستند إلى ما يؤكدها. كما أن مسؤول فتح هذا كان قد زار باريس عدة مرات بعد إعادة اعتباره إليه في الأردن واستقبال الملك له دون أن يتعرض له أن متعرض. صحيح أنه كان يحمل لأسباب أمنية وشان كافة مسؤولي المقاومة، جواز سفر باسم مستعار، إلا أن السلطات الفرنسية كانت تعرف هويته الحقيقية. لا بل إنه كان في طريقه لزيارة وزارة الخارجية الفرنسية في الكي دورسيه، حسن ألقى البوليس القبض عليه.

لهذا فإن في وسعنا أن نطرح العديد من الأسئلة، إن لجهة هذا التأويل، وإن لجهة بواعث الفاعلين. وقد سبق أن كشفت قضية بن بركة وجود عناصر خائنة لوطنها داخل المخابرات الفرنسية. وأنا شخصياً مقتنع من جهتي بأن وكالة المخابرات المركزية الأميركية (السي. آي. إيه) والمخابرات الإسرائيلية (الموساد) ليستا غريبتين عن مبادرة بعض أفراد إدارة الأمن الفرنسية (دي. إس. تي) تلك، والتي كان هدفها الرئيسي هو إفقاد سياسة الرئيس جيسكار ديستان الشرق أوسطية الثقة والاعتبار.

وعلى أية حال، فإن مما لا يرقى إليه شك، هو أن البوليس . الذي كان بالغ الخفة في اعتقال أبي داود لا يظهر حماسا بالغا لكي لا نقول غير ذلك . في المطاردة عندما يتعلق الأمر بالإرهابيين الإسرائيليين. فقد ارتكبت العشرات من الاعتداءات ضد المكاتب الفلسطينية ، وقتلت أربع شخصيات على الأقل من شخصيات المقاومة في باريس على يد عملاء المخابرات الإسرائيلية، دون أن القبض على مرتكبي هذه الاعتداءات أو على أحدهم.

واغتيال محمود الهمشرى وباسل القبيسي هما أشهر هذه الاعتداءات. أما الأول فقد كان الممثل الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية، ورجلا سياسيا كل نشاطاته علنية. وقد قتل بواسطة صاروخ موجه. وكان الهمشري متزوجا من فرنسية ويحيا حياة وادعة ويستفظع كافة أشكال التعصب والعنف. وكذلك الأمر بالنسبة لباسل القبيسي، الأستاذ في الجامعة العربية، الذي أطلق عليه الرصاص في حي المادلين في وسط باريس.

ثم أن لائحة الجرائم التي ارتكبها الإرهابيون الصهاينة، تظل طويلة على التعداد. غير أنني أود أن أشير إلى أن كافة الشخصيات التي استهدفتها لم تكن متورطة، لا من قريب ولا من بعيد، في النشاطات العنيفة للمقاومة: فغسان كنفاني كان كاتبا وأيديولوجيا وقتل في بيروت في شهر تموز . يوليو 1972، وأما بسام أو شريف، المسؤول عن الدوائر الإعلامية في الجبهة الشعبية، والدكتور أنيس صايغ، المؤرخ ومدير معهد الأبحاث الفلسطينية، وأما وائل زعيتر، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في إيطاليا، فقتل برصاصات أطلقت عليه في شهر تشرين . أول

أكتوبر من ذات السنة، بينما كان عائداً إلى شقته المتواضعة في روما متأبطاً بعض الكتب وبعض الخبز. كان زعيتر رجلاً يسارياً قريباً من الحزبين الاشتراكي والشيوعي في إيطاليا ويعارض الإرهاب بكافة صوره وأشكاله معارضة شديدة، لأسباب سياسية وأيديولوجية. ثم أن الأمور كانت تجري كما لو أن الإسرائيليين لا يسعون وراء إزاحة أنصار العنف، بل المعتدلين والرجال السياسيين الذين أخذوا على أنفسهم توضيح عدالة قضيتنا للرأي العام العالمي، ممن لم يكن لديهم أية وسيلة للدفاع عن أنفسهم. غير أن فظاعة الاغتيالات، تظل في نهاية التحليل، أقل إغاظة من المجازر الجماعية التي يرتكبها الجيش الإسرائيلي ضد شعبنا. فالقصف العشوائي للتجمعات السكنية الفلسطينية ولمخيمات اللاجئين، والذي يقتل بدون تمييز المئات بل الآلاف من المدنيين من نساء وأطفالاً وشيوخاً، نادراً ما أثر لسوء الحظ، في الرأي العام العالمي الذي نجده، على سبيل المثال، أكثر إسراعاً إلى السخط والاستنكار لدى خطف طائرة تعرض حياة بضع عشرات من الأشخاص للخطر.

وما يزيدني راحة وحرية في إصدار هذا الحكم، هو أنني أنا نفسي، شأن مجمل قيادة فتحن نعادي خطف الطائرات عداء صلباً حازماً لأسباب سياسية وإنسانية في آن معا. وباستثناء حادثتين اثنتين تقريباً، فإن منظمتنا أدانت كافة أعمال القرصنة الجوية التي قامت بها مختلف الفصائل الفلسطينية منذ نحو من عشر سنوات. أما الحالتان اللتان بدتا لنا مبررتين (الأولى عام 1969 والثانية عام 1972) فتتعلقان مباشرة بالإسرائيليين وتدخلان لذلك، في نظرنا، ضمن فئة أعمال الحرب المشروعة. فبقدر ما نأبى ونرفض تعريض حياة الأبرياء وحياة مواطني دول غير ضالعة ضلوعاً مباشراً في النزاع العربي . الإسرائيلي، تتردد أن تتحفظ في مهاجمة عسكريي ومسؤولي الدولة اليهودية الذين ما انقطعوا عن محاربة وقمع الشعب الفلسطيني.

والمصير الذي يتعرض له آلاف الفلسطينيين الرازحين في السجون الإسرائيلية، هو أحد مشاغلنا الرئيسية. فمن المعروف أن التعسف والاستبداد الكاملين يسودان الأراضي المحتلة. إذ يجري توقيف الناس على أساس تخمين مبتسر أو وشاية ما. كما أن المحاكم العسكرية تطبق على هواها ووفق ما تمليه اللحظة، ثلاثة تشريعات قمعية: التشريع البريطاني الموروث عن زمن الانتداب، والتشريع الأردني الذي استن في سنوات الخمسين بعد ضم الملك عبد الله للضفة الغربية، والتشريع الإسرائيلي المطبق منذ غزو حزيران 1967. هذا دون أن نذكر القوانين المصرية التي لا تزال مطبقة في منطقة عزة.

وتقدم السلطان الإسرائيلية قرارها القاضي بعدم توقيع عقوبة الإعدام بالفدائيين، كفعل إنساني متحضر. غير أن العقوبة الموقعة برجال المقاومة أشد سوءا من الموت. فهم يعلمون

حين يدخلون السجن بأنهم سيبقون فيه حتى نهاية حياتهم، اللهم إلا إذا حدث ما لا يحتمل حدوثه، عنيت قيام تسوية نهائية للنزاع. والواقع هو أنهم محكومون بصورة عام، بعقوبات جسيمة تصل إلى 15،10 أو عشرين سنة! وأم امن يتوصلون إلى قضاء عقوبتهم، فإنه يحجز عليهم (إدارياً) وفقا للقانون الصادر في زمن الاستعمار البريطاني. وما الذي يمكن أن يكون أكثر إثارة لليأس بالنسبة لرجال يعانون من التنكيل الدائب، فضلاً عن السجن وعن أوضاع اعتقال، هي باعتراف المسؤولين الإسرائيليين أنفسهم، أوضاع يرثى لها. كما يتعرضون عند الاقتضاء للتعذيب، وما الذي يمكن أن يكون أبلغ تبديداً من هذا للمعنويات وخاصة بالنسبة لمقاتلي المقاومة الذين يعرفون مقدما المصير الذي سيلاقونه إذا ما وقعوا في الأسر.

لقد كان هذا العامل النفسي يطرح ولا يزال على قادة المقاومة مشكلة عويصة. فلا بد لهم من العمل لإطلاق سراح قسم من الأسرى على الأقل ليظهروا بذلك إن التعسف الإسرائيلي حدوده. والواقع هو أنه تم بذل كل ما يمكن بذله في هذا السبيل، ولكن دون طائل، فمحاولات الهرب المنظمة، أجهضت الواحدة بعد الأخرى. والمداخلات إسرائيل النداءات والمساعي المتكتمة التي قامت بها الهيئات الإنسانية كالصليب الأحمر، والدول العظمى والصغرى وهيئة الأمم المتحدة والبابا ومختلف المؤسسات الدينية، بجدار من اللا مبالاة وعدم التحسس. ومن هنا كان اللجوء إلى القوة وإلى خطف الطائرات من قبل الفصائل الفلسطينية.

إلا أنه تبين ان سلاح اليأس النهائي هذا، غير فعال هو الآخر. فباستثناء أو عملية اختطاف طائرة عام 1969، أي تلك العملية التي أخذت إسرائيل على حين غزة، فإن المسؤولين الإسرائيليين رفضوا رفضاً قاطعاً إجراء أية تسوية مع الخاطفين. بل ثمة ما هو أسوأ من ذلك، إذ كانوا يبذلون قصارى جهدهم، لدى كل مواجهة، للاقضاء إلى نهاية دموية بهدف تأليب الرأي العام العالمي ضد الفدائيين. وهكذا فإنه سريعاً ما ظهر لنا، أن خطف الطائرات لا يخدم قضيتنا، بل يضر إضراراً فاحشاً بمعنى معركتنا التحريرية نفسه.

ولهذا السبب ذاته، أن تفتح بلا هوادة مختلف العمليات الأخرى مثل تلك المغامرة الخرقاء التي قام بها أولئك الذين احتلوا في أيلول . سبتمبر 1973، سفارة العربية السعودية في باريس ليأخذوا بعض الدبلوماسيين كرهائن أو العملية . التي تفوق هذه شبهة . والتي قام بها المغامر كارلوس في كانون أول . ديسمبر 1975، حين هاجم مقر منظمة الدول المصدرة للنفط . أوبيك في فيينا، لحساب ما يرجح أن يكون قوى خفية تعمل على المسرح الدولي للنفط، ولقد طالما تردد بهذا الصدد ذكر اسم العقيد القذافي الذي حاكت الصحافة الدولية حوله أسطورة فيها (كسوبر .

إرهابي) أو ما فوق إرهابي. إلا أنني أستطيع أن أوكد من جهتي وبناء لمعرفتي بالوقائع، بأن الرئيس الليبي ظل بعيداً كلياً عن كل عمليات العنف التي نظمت في السنوات الأخيرة تقريباً.

وبالمقابل، فإن فتح لم تندد بالعملية التي قامت بها «أيلول الأسود» في العاب ميونيخ الأولمبية في أيلول ـ سبتمبر 1972. وقد يدهش المرء لهذا الموقف إذا لم يعرف بواعث وأهداف وسلوك القائمين بها، والأحداث التي أفضت إلى الخاتمة الدموية التي انتهت إليها. وبما أنني أعرف جيد المعرفة لكلا مسؤولي مجموعتي المغاوير الذين قاموا بالعملية، مصالحة وشي غيفارا ـ وفقا لا سميهما القتاليين . وبما أنني استجوبت مطولاً الناخبين الثلاثة من المجموعة والذين يعيشون حالياً في بيروت، أجد نفسي في وضع يتيح لي أن أقدم سردا بالقدر، الذي تسمح به القواعد الأمنية، من التفصيل.

في مطلع عام 1973، وجهت منظمة التحرير المنظمة التحرير الفلسطينية رسالة رسمية إلى اللجنة التي تدبر الألعاب الأولمبية مقترحة اشتراك فريق من الرياضيين الفلسطينيين بالألعاب. وبما أن العرض ظل بلا جواب، فإن المنظمة أرسلت رسالة ثانية، لم تلق هي الأخرى غير الصمت التحقيري. فكان من البديهي، أننا عير موجودين بالنسبة لهذه المؤسسة المحترمة التي تدعى أن ليس لها طابع سياسي، أو أننا ـ وذلك احتمال فادح سوءاً من الاحتمال الأول ـ لا نستحق الوجود.

وقد أثارت هذه الاهانة ـ التي جاءت بعد مرور أقل من ستة أشهر على إبادة الفدائيين في حرب جرش وعجلون ـ سخط وغضب مقاتلينا الشباب. فقررت يستهدف ثلاثة أهداف: تأكيد وجود الشعب الفلسطيني إزاء الكافة وضدهم الإفادة من الانتشار الخارق للوسائل الإعلامية في ميونيخ لتعطي قضيتنا دويا عالمياً، بالمعنى الإيجابي أو السلبي ما هم! وأخيراً التوصل إلى إطلاق إسرائيل لسراح مقاومين،حدد عددهم الأولي بمائتين.

وينبغي لي أن أقول أننا لاحظنا، وبالعظم كآبتنا حينها، أن قسما هاما من الرأي العام العالمي تأثر لتوقف العرض المسرحي، الذي تمثله الألعاب الأولمبية بالنسبة إليه، لمدة أربع وعشرين ساعة، بأكثر مما تأثر للمصير المأساوي الذي عاناه الشعب الفلسطيني طوال أربع وعشرين سنة، أو من النهاية البشعة التي انتهى إليها المغاوير الخمسة ورهائنهم التسعة. وقد جرى الإعداد للعملية بجدية ودقة مثاليتين. والمسؤولان اللذان جرى اختيارهما قبل العملية بثمانية أشهر، هما من المناضلين المجربين الذين شاركوا في معارك الأردن، في عمان ـ في أيلول 1970، وفي جرش ـ عجلون في تموز 1971. كان عمر مصالحه ذويه، وهم من الفلاحين الفقراء، إلى الضفة الغربية. كما كان يحمل درجة التبريز في الجيولوجيا ويتمتع

بشخصية مؤثرة بالنظر إلى قامته المهيبة وذكائه الوقاد، واختار الالتحاق بصفوف منظمة فتح حيث عهد إليه بوظيفة مفوض سياسي. وبالنظر إلى إجادته فوق هذا كله، للغة الألمانية، فإنه كان في وضع يؤهله لتولي قيادة المجموعة، شأنه في ذلك شأن صديقه وشريكه شي غيفارا، المتمرس بالأساليب الفدائية برغم حداثة سنة (25سنة) وبرغم دراسته الحقوقية في باريس. ووفقاً للأهداف السياسية الثلاثة المعينة للمحاولة فإنه أو كل إليهما القيام بأربع مهمات واضحة: رسم خريطة تفصيلية لسير العملية، اختيار ستة فدائيين آخرين يشتركون معهم في المحاولة، الحصول على الأسلحة الضرورية وإيصالها إلى داخل القرية الأولمبية، وأخيراً الاضطلاع بتنفيذ الخطة، بما في ذلك المساومات التي ستدور لمبادل الرهائن الإسرائيليين بالمساجين الفلسطينيين.

وبطبيعة الحال، فإن مصلحة وشي كانا يتمتعان بحشد من المعاونين والمنفذين لإيصال مشروعهم إلى غايته. ولم يكن اختيار أفراد المجموعة بالأمر اليسير. ففي الفترة الأولى، جرى اختيار خمسين فدائياً شابا ممن تتراوح أعمارهم بين 17 و 20 سنة ليتلقوا تدريباً مكثفاً. وكانوا ينحدرون جميعاً من مخيمات اللاجئين في (لبنان وسوريا من الأردن بخاصة)، وينتمون في معظمهم إلى عائلات متواضعة ويحدروهم جميعاً حافز إرادة تحرير أفراد عائلاتهم المسجونين في السجون الإسرائيلية. كانوا يجهلون كل شيء عن المهمة التي ربما أوكلت إليهم، إلا أنهم كانوا يتحرقون لكي يكونوا بين المختارين المحظوظين وقد أثار الاختيار النهائي بعد المآسي. فقد استبعد أحد الفدائيين اليافعين لأنه سبق لاثنين من أشقائه أن سقطا في ساحة الشرف. فسخط الشاب الصغير واحتج وتضرع وانفجر باكيا. ثم راح يهدد بالانتحار إذا لم يضم إلى مجموعة المغاوير.

فانتهى الأمر بالمسؤولين إلى الأذهان وضموه إلى المجموعة. فكان أحد أوائل من سقطوا برصاص قوات الأمن الألمانية. وقبل أن ينتشر المصطفون الستة في مختلف البلدان الأوروبية، حيث ينبغي لهم أن يعتادوا نمط الحياة والغربية، فإن مصالحه وشي لذهبا إلى ميونيخ على سبيل الاستكشاف. وتمكن أولهما، بعد أن غير ملامحه بأن اصطنع، بين جملة ما اصطنعه، شعراً مستعاراً، من أن يجد عملا كخادم مقصف في القرية الأولمبية حيث كانت الاستعدادات للحدث الرياضي تجري على قدم وساق.

واستغل هذا الوضع ليقوم بتفتيش الأمكنة وتجريها بانتظام وذلك لجهة ترتيب الأجنحة وخاصة الجناح الإسرائيلي، ولجهة المنافذ والمخارج الممكنة. قم راح يستفيد من جملة صلات الصداقة التي أقامها مع عدد من المستخدمين الألمان وسوناهم وكذلك مع شابة أسيوية شغفت به، ليجمع كمية من المعلومات راح يبلغها شيئاً فشيئاً إلى شيء الذي استقر في بلد أوروبي

مجاور. وهكذا فإن هذه العملية التي استغرقت أربعة أشهر، أفضت إلى مخطط عمل واضح ومتماسك.

إلا أن عقبة طرأت في اللحظة الأخيرة، طرحت مشكلة جدية على المنظمين ففي الموعد المضروب لتسليم الأسلحة إلى المغاوير؟، بلغهم أن الرقابة البوليسية تعززت فجأة في ألمانيا على المراكز الحدودية والطرق والمحطات وخاصة في المطارات وذلك في حين كانت المهلة المتبقية أقصر من أن تتيح استخدام وسيلة نقل أخرى غير الطائرة... فقرر المنظمون أن يلعبوا رهانهم كاملاً، وكدست الأسلحة المودعة في أحد البلدان العربية بدون علم حكومته، في ثلاث حقائب وعهد بها إلى مناضلة بواسطة جوازات سفر مزورة. وسافر «الزوجان» إلى بون مصحوبين بحقيبتين إضافيتين تحتويان على أمتعتهم الشخصية. ولدى خرجهما من المطار طلب إليهما موظف الجمارك وكان محاطاً برجال أمن، أن يفتحا حقائبهما غير أن الرجل عاند وأبي، معلناً أنه يشعر بالإهانة إزاء هذه المعاملة.فهو رجل أعمال وسائح كبير، كما زعم، ولم يحدث له أن عوامل كشقي أو أهين بهذه الطريقة. وباختصار، فإنه تذرع بحجج غير مقنعة تنحصر قيمتها الوحيدة في كسب الوقت، في وضع كان يبدو يائساً بصورة ظاهرة.

وأصر موظف الجمارك على أنه لا يستطيع أن يخرق قانونا يطبق على كافة المسافرين. أما ممثل «أيلول الأسود» فإنه راح يتردد أمام سبيلين ممكنين. فإذا استمر في رفضه فتح حقائبه فإنه سيضطر للرحيل في أول طائرة تغادر بون بحيث أن عملية ميونيخ ستلغى في هذه الحال. ولهذا فإنه اختار البديل الثاني وطلب باستكانة إلى موظف الجمارك أن يعين له الحقيبة التي يريد تفتشيها من بين الحقائب الخمسة التي كانت لها كلها متشابهة. وفتح الحقيبة المعينة ثم نشر... الملابس الداخلية النسائية التي كانت فيها. فارتبك الجمركي وراح يغالي في الاعتذار مرحبا بهما في ألمانيا الاتحادية.

ووصلت الأسلحة إلى مقصدها قرابة الخامس والعشرين من شهر آب . أغسطس، في أي قبيل بدء الألعاب الأولمبية بعشرة أيام تقريباً. وفي بون، بودلت حقائب «الزوجين» بحقائب مماثلة، ولكن خاوية، وتولاها مناضلون آخرون فقاموا بوضع أسلحة . وهي عبارة عن رشاشات وقنابل يدوية وسواها . في صناديق ودائع الأمانات في محطة ميونيخ حيث سيأتي أفراد مجموعة المغاوير لطلبها كل بمفرده وبمفتاحه الخاص في ساعات مختلفة، قبيل دخولهم إلى الحرم الأولمبي.

وسبقهما مصالحه وشي ودخلا من البوابة الكبرى بفضل بطاقتي الدخول اللتين نجحت صديقة أولهما بالحصول عليها. أما رفاقهما الستة فكان عليهما أن يتسلقوا السياج المحيط بالقرية

الأولمبية والذي يبغ علوه مترين. وضرب لهم موعد مع الرجل الذي سوف يقودهم إلى هناك يستخدمونه كمرتكز أو كمرقاة عند طرف السياج. وقبيل وصولهم كانت إحدى المناضلات اللاتي لا تعوزها الذي يقوم بالحراسة. وأكد تمكنت بذلك من إلهائه، فإن إفراد المغاوير نجحوا في القفز عن السياج بدون أن يعيقهم أي عائق. وبعيد ذلك بساعات، كانت الفتاة والدليل قد غادروا ألمانيا بالطائرة.

كان الجناح الذي يقيم فيه الرياضيون الإسرائيليون يبعد مسافة خمسين مترا عن السياج.وقد اصطدمت المجموعة . التي كانت تلقت تعليمات دقيقة بعدم إحداث ما يريق الدم إلا في حالة الدفاع الشرعي عن النفس . بمقاومة عنيفة من قبل اثنين من مدربي الفريق الرياضي، فنشب أثر ذاك عراك انتهى بمقتلهما. أما الرياضيون التسعة الذين أخذوا كرهائن فقد وعملوا معاملة حسنة، ب لأكثر من حسنة. وأبلغهم مصالحة وشيء خاصة بأنهم سيبادلون بمعتقلين فلسطينيين.

وخلال مدة الإحدى وعشرين ساعة من محاصرة المبنى على يد البوليس الألماني، دارت بين الفدائيين ورهائنهم مناقشات ودية طويلة. كانت أعمار هؤلاء الآخرين تتراوح بين 18 و 30 سنة وكانوا في معظمهم مهاجرين جدد وبولونيا وليبيا وفقاً لما ستذكره الصحافة الدولية. وينتمي كثيرون منهم إلى أطر وكوادر الاحتياط في الجيش الإسرائيلي. وقد أوضح لهم الفدائيون بأن مكان فلسطين في الألعاب الأولمبية، قد أسند ظلما إلى إسرائيل، التي كان ينبغي على كل حال أن تطرد من هذا التجمع العالمي شأنها شأن جنوب أفريقيا وروديسيت.

وقد أكد مصالحه . الذي تزوج أحد أقاربه الأقربين من يهودية . للرياضيين، بأن الفلسطينيين لا يكنون أية كراهية لليهود أو حتى للإسرائيليين الذين هم شأن الفلسطينيين وأن بصورة مختلفة عنهم، ضحايا المغامرة الصهيونية وبالرغم من أن الرهائن كانوا مهتمين بالحوار، إلا أنهم أصروا على أن السياسة ليست مركز اهتمامهم.

وظهر أن المفاوضات مع المسؤولين الألمان . الذين عملوا كوسطاء بين الفدائيين وإسرائيل . هي بالصعوبة التي كانت متوقعة، وكان عناد السيدة غولدا مئير رئيسة الحكومة الإسرائيلية في تلك الأنباء غير طبيعي تماماً، من حيث أنها لم تظهر أية إرادة في إنقاذ حياة الرهائن. أما المغاوير الذين كانت التعليمات الصادرة إليهم توصيهم بألا يقتلوا أسراهم، فإنهم راحوا يمدون فترة الإنذار ساعة بعد أخرى، على أمل أن تقدم لعن صيغة تسوية ما. كانوا يعملون مقدماً انه لا يمكنهم الحصول على أطلاق سراح المئتي معتقل الذين أعدت لائحة بأسمائهم وفقاً لعددهم ونزعاتهم السياسية، وتوزعهم على العشرة آلاف سجين المعتقلين في السجون الإسرائيلية.

إلا أنهم كانوا مستعدين عملياً لمبادلة رهائنهم التسعة بخمسين أو عشرين أو حتى بتسعة معتقلين فلسطينيين. غير أن أملهم خاب ولم يقدم لهم المفاوضون الألمان والإسرائيليون أي عرض مضاد، اللهم إلا تقديم مبلغ غير محدد من المال أو «شيك على بياض» ـ كما لو كانوا مجرد أشقياء . وذلك في مقابل إطلاق سراح الرهائن وتقديم جوازات مرور للثوريين الستة. وفي اللحظة التي وصلت فيها المساومات إلى مأزق خطير، قامت سفارة عربية بإيصال اقتراح إلى مصالحة يمكن أن يكون موضوع اتفاق سري: وقوام الاقتراح هو أن يجري إطلاق سراح الرهائن الإسرائيليين واستبدالهم بمتطوعين ألمان يقتادهم الفدائيون إلى أحد البلدان العربية. وبعد ذلك بشهرين أو ثلاثة أشهر تقوم إسرائيل بإطلاق سراح خمسين سجيناً سراً بعد أن تتولى عدة دول عظمى ضمان احترام الدولة الإسرائيلية لتعهداتها هذه. كانت الصيغة مغرية. فهي تمتاز بأنها ترضي الجانب الفلسطيني وتنفذ، في الحين نفسه، ماء وجه القادة الصهاينة.

وقرر مصالحه، وهو المناضل المنضبط، أن يعرض هذا الاقتراح على لا رؤسائه التسلسليين الذين لم يحسبوا حساب مثل هذا الاقتراح لوضع مخططهم. وكان عليه أن يلجأ في الحالات الشبيهة بهذه الحالة إلى الشخص، أسمه القتالي طلال . كان قد أعطى رقم هاتفه في تونس قبل البدء بالعملية. ولسوء حظ الجميع، فإن طلال هذا، كان محجوزاً في مطار تونس بسبب إهماله الحصول مقدما على تأشيرة دخول. غير أن الشخص الذي أجاب على مصالحه بالهاتف، يدعى هو أيضاً طلال. وكان طلال الحقيقي هذا يسكن لدى والده السفير الأردني السابق فرحان الشبيلات الذي أقام في تونس بعد أقالته من منصبه بسبب تعاطفه مع المقاومة. ولم يكن يتوقع زيارة صديقه المنتحل لاسم طلال. ومنذ ذاك، حدث التباس لا يصدق على الهاتف بين مصالحه وبين ابن السفير الذي لم يفهم لماذا يخابرونه من ميونيخ ليفضوا إليه بحديث ملغز غير مفهوم. ولم يكن يعرف حتى أن صديقه الفلسطيني قد انتحل لنفسه بهذه المناسبة اسم طلال. أما مصالحه فإنه دهش هو الآخر من جهته لوقوعه على طلال آخر غير ذلك يعرف أن خط الهاتف الذي وضعته السلطات الألمانية بتصرفه مراقب، فإن رئيس المجموعة اكتفى بالقول أنه سيعاود الاتصال به بعد ساعة.

وخلال الاتصال الهاتفي الثاني، لم يكن طلال المنحول قد وصل إلى منزل السفير شبيلات بعد. ثم أن مصالحة لم يعاود الاتصال بعد هذا، وابلغ أصحاب اتفاق التسوية برفضه للاقتراح. ولست أدري ما إذا كان هذا الاقتراح سيلاقى بومها القبول في إسرائيل أم لا. ولكنني متأكد، بالاستناد إلى محادثة أجريتها مع طلال المنحول، بأن مسؤولي «أيلول الأسود» كانوا سيقبلون به كمخرج مشرف للمأزق. لكن من يسعه أن يدرى؟

فلو أن طلال لم يصل متأخراً جداً إلى منزل السفير شبيلات، أو لو أن أحدى محاولاته العديدة في الاتصال هاتفياً بمصالحه أفلحت فربما أن أعضاء مجموعة المغاوير ورهائنهم كانوا جميعاً اليوم أحياء سالمين! أما الخاتمة المفجعة التي أفضت إليها هذه الحكاية نتيجة لازدواجية الحكومة الألمانية المشؤومة، فمعروفة. فقد انتهكت هذه الأخيرة الاتفاق المعقود والعهد المعطى وأمرت نخبة قناصتها بفتح النار على أفراد الكوماندوز كان مصالحه وشي قد هبطا لتوهما من طائر اللوفتهانزا بعد أن فتشاها ليتوجها نحو طائرات الهليكوبتر التي تضم الرهائن المنتظرين فيها، فكان أول المصابين نحو طائرات الهليكوبتر التي تضم الرهائن المنتظرين فيها، فكانا أول المصابين وقد ردا على النار بشجاعة قبل أن يسقطا في بركة من الدم ثم زحفاوهما في طور الاحتضار نحو بعضيهما وتصافحا مصافحة أخوية قبل أن يلفظا أنفاسهما الأخيرة. ثم أن مقاتلا ثالثا كان يقوم بالحراسة سقط قتيلاً هو الآخر. ولم يشاهد انفجار طائرتي الهليكوبتر إلا بد موت أفراد المجموعة الرئيسيين الثلاثة وبعد انتهاء تبادل إطلاق النار. وعلى هذا، فإن الفدائيين اللذين كانا يرافقان الرياضيين الإسرائيليين . وحد في كل طائرة . لم يعمدا إلى قتل رهائنهما والانتحار معهم، إلا بعد أن لاحظا أنه لمل يبق لديهما ما يأملانه. أما الأعضاء الثلاثة الباقون، فإنهم جرحوا فسلموا أنفسهم.

وبالإجمال، فإن تضحيات أبطال ميونيخ لم تذهب هدرا. فإن كانوا لم يتوصلوا كما كانوا يأملون إلى تحرير رفاقهم السجناء في إسرائيل، إلا أنهم بلغوا الهدفين الآخرين المرسومين للعملية: فقد اطلع الرأي العالمي على المأساة الفلسطينية بفضل دوى الألعاب الأولمبية. كما فرض الشعب الفلسطيني حضوره على هذا التجمع الدولي الذي كان يسعى لاستبعاده. أما الخاتمة . المسؤولية الراسخة الجسيمة فيها.

ثم أن السلطات الألمانية راحت تسعى مدفوعة بشعور بالذنب أو ربما بدافع من الجبن، إلى التخلص من الفدائيين الأسرى، وجاءتها الفرصة بعد ذلك بشهرين في 29 تشرين الأول . أكتوبر 1972 عندما قامت مجموعة مغاوير فلسطينية باختطاف طائرة بوينغ تابعة لشركة لوفتهانزا تعمل على خط بيروت . فرانكفورت إلى زغرب. وطالبت بالإفراج عن الناخبين من عملية ميونيخ، فأفرج عنهم للفور ليعودوا جنوداً مجهولين في صفوف المقاومة. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الطارئ المأساوي . الهزلي أفضى إلى أزمة دبلوماسية. فقد حمل سفير ألمانيا الغربية في تونس تسجيل المحادثات الهاتفية بيديه لوتقدم باحتجاج جاد إلى الحكومة التونسية مطالباً بتسليم مسؤولي «أيلول الأسود» الموجودين في تونس. وبعد عمليات أخذ ورد طويلة، ثم الاتفاق على عدم إشاعة القضية. ومع هذا فإن عمليات أخذ ورد طويلة، تم عائلته

طردوا من تونس. وبعد عمليات أخذ ورد طويلة ، تم الاتفاق على عدم إشاعة القضية. ومع هذا فإن السفير شبيلات وسائر أفراد عائلته طردوا من تونس بعد أن كانوا يتمتعون بحق اللجوء فيها.

أما مصالحة، فإنه أدى مهمته بأن احتمى بموقف الانكفاء الوارد في المخطط الذي كلف بتنفيذه. ذلك أنه، إزاء تصلب الإسرائيليين اقترح، محل نهائي، أن يسافر الفدائيون ورهائنهم إلى القاهرة.وإنما وضع هذا الحل البديل، كمحاولة إضافية لتلافي إعدام الرهائن بدون الأضرار بمصداقية «أيلول الأسود». فمصر كا كانت ستسمح مطلقاً بأن تمرغ سيادتها على أرضها. وعلى هذا فإن الرهائن الإسرائيليين كانوا سيحتجزون بصفتهم رعايا لبلد عدو، فلا يطلق سراحهم إلا إذا قبلت السلطات الإسرائيلية بالمبادلة. أو بعبارة أخرى، فإن مصيرهم لم كين سيختلف، في أسوأ الافتراضات، عن مصير المقاومين الفلسطينيين المعتقلين في سجون الدولة اليهودية.

غير أن المستشار ويللي براندت كان يطمح بالحصول على المزيد. فقد اتصل هاتفياً برئيس الحكومة المصرية عزيز صدقي وأبلغه آخر اقتراحات مصالحة، طالباً إليه العمل بحيث يجري إطلاق سراح الرياضيين الإسرائيليين وطردهم لدى وصولهم إلى القاهرة بصحبة الفدائيين، بعد أن تقوم السلطات المصرية بتحييد هؤلاء الآخرين. وبطبيعة الحال. فإن عزيز صدقي الذي أبلغني المحادثة كلمة كلمة، رفض اقتراح المستشار موضحاً انه لا يليق بشرف حكومته أن تخون ثقة الفدائيين على هذا النحو. ولست أدري ما إذا كان المستشار براندت عارفاً أم لا، بأن السلطات الألمانية كانت تتآمر، أبان هذه المحادثة وبتعاون وثيق مع المخابرات الإسرائيلية، من أجل اغتيال الفدائيين، وقد جرى إعداد عدة مشاريع قبل أن يقر القرار على أن ينصب الكمين للفدائيين في مطار فيور شتنفيلد بروك العسكري، حيث كان يفترض أن يطير المغاوير والرهائن من هناك على متن طائرة لوفتهانزا القاهرة.

أما المسؤولون الإسرائيليون فإنهم حاولوا من جهتهم تقنيع جريمة بجريمة أبشع منها. فبعد مرور ثمانية وأربعين ساعة على مجزرة ميونيخ، قام الطيران اليهودي بدك نحو من عشرة مخيمات من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ولبنان دكا وحشيا، قاتلاً أو جارحاً ما يزيد على مئتي برئ. وفي اليوم ذاته كشف إيبا ايبان القناع مصرحاً إن إسرائيل ستولي الأولية بعد الآن للصراع ضد الإرهاب على السعي وراء السلام.

تواصلت «حرب الظلمات» أو حرب الأشباح كما يسميها البعض وهي تزداد كما وكثافة. ووجهت مخابرات الدولية الصهيونية بطرود ملغوية إلى جمهرة مناضلينا في عدد من العواصم والحاضرات بينها وبرونت والجزائر (حيث أصيب ممثل منظمة التحرير الفلسطينية أبو خليل بجراح جسيمة) وطرابلس (حيث أصيب مصطفى عوض زيد ممثل منظمة التحرير بالشلل

والعمى) والقاهرة (حيث أرسل طرد إلى اثنين من قادة فتح، فاروق القدومي وهايل عبد الحميد، أفلتا منهما سالمين) وستوكهولم (حيث فقد عمر صوفان مدير الصليب الأحمر أصابع يديه) وبون (حيث أصيب عدنان أحمد من اتحاد الطلاب الفلسطينيين بجراح جسيمة) وكوبنهاغن (حيث فقد الطالب أحمد عبد الله ذراعه). وبعد مقتل ممثلي منظمة التحرير في روما وباريس . زعيتر والهمشري . جاء دور ممثل المنظمة في نيقوسيا حسين أبو الخير حيث اغتيل في 25 كانون الثاني . يناير 1973.

وقد ردت «أيلول الأسود» بقدر ما في وسعها، مضاعفة من عملياتها. فبعد مقتل أبي الخير بثلاثة أيام، قام بقتل عمل إسرائيلي ف قلب مدريد كان يتسمى باسم باروخ كونهن في حين أن أسمه الحقيقي هو مويس هنان ايشي. ولما كان حائزاً على عدة جوازات سفر فإنه غلبا ما كان ينتقل تحلت هويات مختلفة بين عاصمة أوروبية وأخرى وخاصة باريس وبروكسل وروما. كان من البديهي أن كوهن يشغل وظائف هامة داخل مخابرات الدولة اليهودية. فقد شكل، بين جملة ما شكله، شبكة من الطلاب الفلسطينيين في إسبانيا، كان إفرادها في معظمهم من مواليد الضفة الغربية وغزة، مسندا إليهم مهمات الإثارة والاستفزاز والتجسس. وكانت أحدى مهماتهم الاستعلام عن الفلسطينيين المقيمين في إسبانيا وخاصة ميولهم وانتماءاتهم السياسية, وكانت أحدى مهامهم الأخرى هي جمع المعلومات والاستخبارات في البلدات العربية . كمصر ولبنان مثلا . البلدين اللذين كان بعض هؤلاء المجيشين يزورونهما أثناء العطل المدرسية. وفي مرحلة لاحقة، أنشأ كوهن خططاً لمهاجمة مؤسسات أسبانية يملكها يهود أو أن لها علاقات تجارية وأعمالية وثيقة مع إسرائيل وذلك بهدف الحط من اعتبار الفلسطينيين في نظر الرأي العام، والتسبب في طردهم من أسبانيا.

غير أنه يجهل أن العديد من هؤلاء المجيشين، أعضاء في «أيلول الأسود» وأنهم يتظاهرون بالتعاون معه بناء على طلب هذه المنظمة. وإنما تقرر إعدامه عندما بدأ يشك جدياً بأمانة ووفاء هؤلاء الذين لم يكونوا يقومون بتنفيذ المهمات التي أوكلها إليهم، متذرعين بذرائع مختلفة. وبات إعدامه أمراً ملحاً عندما أعلن بعيد مصرع محمود الهمشري في باريس، بأنه نقل إلى وظائف أخرى. فقد كان كوهن وفقاً لمعلومات «أيلول الأسود» أحد مدبري اغتيال ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا.

ثم أن كوهن نفسه حدد موعد إعدامه عندما أبلغ «صلته» الفلسطيني في مدريد بأنه سيلاقيه في 28 كانون الثاني . يناير في مدريد للمرة الأخيرة.

وذهب الطالب وفق ما هو متفق عليه إلى مقصف (بار) يقع في أحد شرايين العاصمة الرئيسية. والواقع أن ثلاثة من أفراد «أيلول الأسود»ن كانوا على الموعد. فبخلاف محادث العميل الإسرائيلي، فإنه كان هناك رجلان مسلحان، أحدهما داخل المقصف والآخر خارجه وينتظران اللحظة المواتية للشروع بالعمل.

وبعيد وصوله إلى المقصف، أبلغ كوهن الطالب بأنه سيقدمه إلى خليفته ودعاه إلى أن يتبعه. فكان ذلك نعمة غير مأمولة. لكن الطالب الذي كان ينتمي إرجاء الإعدام لكي يتمكن من معرفة العميل الإسرائيلي الجديد، لم يجد أية وسيلة لتحذير شريكيه. وقد قلق هذان الآخران عندما شاهدا كوهن وصاحبه يغادران المقصف فجأة. فهذا الانتقال غير متوقع، بحيث أن الرجل المستهدف قد يفلت منهما ويختفي فجأة في زحام المشاة كعادته. وفتح أحدهما النار عن كثب فأردى كزهن قتيلا، بينما أطلق الآخر النار في الهواء إرهاباً، بحيث أن المغاوير الثلاثة سيتمكنون من الضياع في الزحام قبل أن يغادروا الأراضي الأسبانية بالطائرة.

وهكذا فإن «أيلول الأسود» رمت برمية واحدة فأصابت المخابرات الإسرائيلية (الموساد) إصابتين. ذلك أن إعدام كوهن أدى إلى تصفية مجمل الشبكة الإسرائيلية في إسبانيا. إذ لما كانت المخابرات الإسرائيلية تجهل أي «مجنديها» الفلسطينيين هو قاتل عمليها، فإنها اضطرت، من قبيل الحكمة والاحتراس إلى قطع علاقاتها بكافة أعضاء المنظمة التي كونها كوهن بصبر وأناة.

وفي هذه الاندفاعية، قتلت «أيلول الأسود» في أذار . مارس، 1973، عميلا إسرائيلياً آخر هو سمحا غير لتزر في نيقوسيا، وبعد ذلك بشهر تقريباً أي في 9 نيسان . أبريل –جرت محاولتان في العاصمة القبرصية، أحداهما ضد مقر سفير الدولة الصهيونية والثانية ضد طائرة تابعة لشركة العال كانت جاثمة في المطار. على أن ما وصف بأنه رد إسرائيل، كان صاعقاً. فغداة اليوم الثاني لهذا الهجوم المزدوج الذي يتصادف مع الذكرى الخامسة والعشرين لمجزرة دير ياسين نزلت وحدة مغاوير إسرائيلية في بيروت واغتالت ثلاثة من قادة المقاومة الرئيسيين هم: يوسف النجار (أبو يوسف)، كمال عدوان وكما ناصر.

كنت وثيق الصلة بكمال ناصر فبخلاف اجتماعاتنا السياسية، فإننا كنا نرى بعضنا مرة على الأقل في اليوم، مؤثرين أن يكون ذلك في الليل عندما يتوفر لكلينا الوقت، فنتحادث ساعات طويلة. كان كمال شاعراً مجيداً يشع ذكاء وحساسية وطيب مزاج، ويعرف كيف ينشد يأس شعب منهك، وكيف يغني آمال المقاومة، وكان إنساناً تأتلف كيف ينشد يأس منهك، وكيف يغني آمال المقاومة، وكان إنساناً فيه الروحانية والدعابة . وكنت أحب فيه نزاهته العميقة وأما نته كمناضل.

فقد كان بعثياً في قناعاته، وانفصل عن حرية عندما اعتبر أن الحزب لا يتصرف دائماً وفقاً للمبادئ التي يمن بها.

وبرغم تعاطفه مع فتح إلا أنه لم ينتسب إليها لأنه لم يكن يتفق مع حركتنا اتفاقا دائماً كاملاً. وإنما كان يمارس وظيفته كناطق وحيد باسم منظمة التحرير الفلسطينية، بصفته شخصية مستقلة.

كانت محادثاتنا التي لا تنتهي تدور في الغالب حول مشكلة تمسك بشغاف قلوبنا: عنيت وحدة الحركة الفلسطينية. فكان هذا يقودنا إلى إثارة مزايا وعيوب المقاومة ووسائل تصحيح الانحرافات أو الأخطاء المرتكبة, وكم من مرة لعبنا دور الوسطاء أو دور الساعين بالمصالحة.

قبيل الغارة الإسرائيلية التي أودت بحياة كمال ناصر ويوسف النجار وكمال عدوان بنحو من عشرة أيام، كنا بضعة أشخاص ؟ـ بينهم هؤلاء الثلاثة وياسر عرفات . مجتمعين في شقة كمال. وكان الشهداء العتيدون الثالثة يقطنون نفس المبنى: كمال عدوان في الطابق الثاني وكمال ناصر في الثالث ويوسف النجار في السادس. فعل تراني توجست يوم ذاك غيابهم المأساوي. يبقى أني حين لاحظت لدى وصولي عدم وجود حرس أو أي تشكيل امني، ولن تلبث أن تحط طائرة عمودية (هيليوكوبتر) إسرائيلية في الأرض البور المواجهة لمبناكم ثم تختطفكم ثلاثتكم!» وانقلب قولي إلى ممازحة قبل أن يعود مع عرفات إلى الموضوع ليطلب إليهم أن يسهروا بصورة أكثر جدية على أمنهم. فأجابوا بأنهم لا يريدون إزعاج الجيران بإقامة حماية ملفتة للنظر كثيراً في المبنى.

وتشاء الصدف أن يقرر مجلس منظمة التحرير المركزي، الذي كنا ننتمي إليه خمستنا، أن ينعقد بصورة استثنائية في بيروت . وليس في دمشق كالعادة . في يومي 9 و 10 نيسان . ابريل (تاريخ الغارة الإسرائيلية) وطال اجتماع يوم 9 إلى ساعة متأخرة من الليل نمت بعدها، كما كان يحدث لي كثيرا . لدى كما ناصر. وعلى أثر جلسة صباح اليوم التالي، عرض النجار وعدوان وناصر على أن آتي فأتغذى معهم في مطعن على شاطئ البحر اشتهر بطيب السمك فيه. والحال هو أنني كقاعدة عامة، أتلافي، لأسباب أمنية، ارتياد المحلات العامة. ولا أدري أية نزوة دفعتني ذلك اليوم إلى قبول الدعوة: وعلى كل، فقد أحسست بحاجة إلى أن لا أنفصل عن رفاقي الثلاثة ولو لساعتين. وبعد أن تناولنا وجبة كانت لذيذة على نحو خاص، وسادها طيب المزاج، ذهبنا معاً إلى المجلس المركزي الذي تنتهي مداولاته في الساعة التاسعة مساء.

وعاد يوسف النجار وكمال عدوان إلى منزلهما. فعرضت على كمال ناصر أن ننهي السهرة في شقته. إلا أنه أجابني، أمام عظيم دهشتي، بلهجة مزاح: « أفضل أن أموت على أن

استقبلك عندي!» ثم راح يوضح لي بعد ذلك بجدية أن عليه أن ينظم مرثاة في الشاعر عيسى نخلة الذي مات لتوه، وأنه متيقن من أن وجودي سيمنعه من أن وجودي سيمنعه من العمل. وإذا فقد تركته آسفا. ثم تذكرت أن على أن أزور الناخبين الثلاثة من عملية ميونيخ، فقررت أن أذهب لأسمع حكاية مغامرتهم. وحين وصلت إلى مقصدى ، لاحظت وجود هرج قتال في الشارع حول المبنى الذي تحتله الجبهة الشعبية الديمقراطية التي يرأسها نايف حواتمه، والذي يقع على مبعدة نحو عشرة أمتر من المبنى الذي ينزل فيه الفدائيون الثلاثة. وحين سألت بعض مناضلي الديمقراطية عن سر الهرج قالوا لي أن مغاويرهم مستنفرون بسبب الهجوم الوشيك الذي ستشنه الجبهة الشعبية التي يرأسها الدكتور جورج حبش على مكاتبهم. واستشطت غضباً، وعبرت لهم عن رأيي في هذا الحلاف الأخرق بين منظمتين من منظمات المقاومة، ممن تقضي طبيعة الأمور عليهما بأن يكرسا جهودهما لمحاربة العدو.

وبطبيعة الحال فإني لم أكن أعلم في تلك اللحظة كم أن الأحداث ستصوب قولي. فقد كانت الساعة التاسعة والنصف، ولم يكن في تخيل أحد، أن المغاوير الإسرائيليين وليس مغاوير الجبهة الشعبية، سيقومون بعد ثلاثة ساعات بمهاجمة مبنى الجبهة الديمقراطية. غير أن أنصار نايف حواتمه كانوا قد وضعوا في هذا المبنى المؤلف من تسعة طوابق، دوائرهم الإدارية والمالية والإعلامية وجزءاً هاماً من محفوظاتهم، منتهكين بذلك أدنى القواعد الأمنية الأولية. ثم أن المحادثة التي أجريتها بعيد ذلك مع الناخبين الثلاثة من عملية ميونيخ، أبعدتني عن مشاغلي الآتية المباشرة. فالتفاصيل التي زودوني بها عن سير العملية شغفتي. كما أن السرد الذي سردوه لي عن التعذيب الذي لا قوه في السجون الألمانية بلبل خاطري. وذلك أن التنكيل الذي نزل بأحدهم، أورثه عاهة جنسية دائمة. ثم أن الثلاثة راحوا بدورهم يسائلونني عن الأوضاع السياسية. وفجأة سمعت صوت عيارات نارية. فنظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل. ووجدتني غضب مرة ثانية وأنا أفسر لصحابتي أن المعركة الجارية هي على الأرجح معركة بين أنصار حبش وحواتمه.

وتكاثفت الطلقات، ثم جاءت أصوات انفجارات قوية لتزرع الريبة في رأسي. فقد كان ثمة مطر منهمر من القذائف التي تتساقط على مبنى الجبهة الديمقراطية. وقلت في نفسي أنه غير المحتمل بل من المستبعد أن يلجأ المهاجمون إلى مدافع الهاون، وبدأت أخمن الحقيقة عندما برز بواب المبنى الذي كنا فيه، فجأة من رأسه إلى أخمص قدميه بحيث أنه لم يستطيع أن يضيف على هذه الكلمات شيئاً.

وإذا، فإن التنبوء الذي تنبأت به لعشرة أيام خلت، بدون أن أكون كثير الإيمان به، قد تحقق. فالإسرائيليون قائمون على أبوابنا بالمعنى الحرفي للكلمة. وقلت في نفسي أنهم إذا كانوا عرفوا أن يحددوا مقر الجبهة الديمقراطية، أفلا يعرفون كذلك أن فدائيي ميونيخ الثلاثة يقطنون المبنى المجاور لمقر الديمقراطية؟ وأن ياسر عرفات يقطن هو الآخر في منزل يقع على بعد أمتار من مبنى الجبهة الديمقراطية. ولما، كنا مسلحين بمسدسات جيب بسيطة، فإنه لم يكن في وسعنا صحابتي الثلاثة وأنا . أن نفعل شيئاً يذكر، اللهم إلا أن نلجأ إلى قفص أو بئر سلم المبنى على موازاة الطابق الرابع. وأوصل أحدنا المصعد إلى الطابق الخامس ثم جمده هناك بأن فتح بابه.وهكذا يصبح المهاجمون مضطرين للصعود على أقدامهم والتعرض لنيراننا. فقد كنا عازمين المقاومة حتى آخر طلقة نملكها.

ثم أن حريقاً قوياً تبعته سلسلة من أصوات القصف والتحطم جعلتنا نفترض أن مبنى الجبهة الديمقراطية قد تعرض للنسف. ثم تباطأت أصوات تبادل العيارات النارية. ونزل صحابتي إلى الشارع يتجسسون على المغاوير الإسرائيليين بينما كانوا ينسحبون مغطين انسحابهم بإطلاق نار متقطع., كان أعداؤنا يرتدون لباس الفدائيين ولكنهم كانوا يتبادلون الكلام بالعبرية. ثم نزلت بدوري إلى الشارع فتعرفت على الجثث الممددة على أرض المبنى واليت تعود إلى المناضلين الثلاثة الذين ينتمون إلى الجبهة الديمقراطية والذين وبختهم قبل ذلك ساعات عندما علمت أنهم يتأهبون لقتال مغاويير الجبهة الشعبية. أما رفاقهم الذين كانوا في المبنى لحظة الهجوم فإنهم سلموا في غالبيتهم ذلك أنهم لحسن الحظ، غادروا المبنى قبل تدميره ليردوا على المهاجمين.

واجتزت الشارع وذهبت إلى منزل عرفات الذي كان سليما هو الآخر. وعلمت أن الإسرائيليين قصفوا المبنى الذي يقيم فيه، غير أنهم، بالنظر إلى عدم تيقنهم من وجوده به، فإنهم لم يلجوا في القصف خاصة وأن حرسه قاوموا مقاومة صريحة. وأفرج عن بعض الفدائيين الذين كانوا مسجونين في الطابق الذي يقع تحت أرض المبنى لارتكابهم بعض المخالفات، وسلحوا في بداية المعركة فأسهموا في رد الجنود الإسرائيليين. أما عرفات فتابع المعركة من سطح المبنى وهو يصدر تعليماته للمقاتلين.

ولما كان قد بلغ عرفات أني كنت إبان المعركة موجودا في مبنى مجاور، فإنه كان مقتنعاً بأني قتلت. ولهذا فإنه حين تلقاني احتضني طويلاً بين ذراعيه. كان بادئ الانفعال، وأطلعني على الأخبار التي وصلته: فالمغاوير الإسرائيليون الذين نزلوا في الجنوب قرب صيدا وفي بيروت شنوا هجماتهم على عدة أهداف فلسطينية في آن معاً. وأضاف عرفات: على أن أجسم ما في الأمر، هو أنهم دخلوا شقة يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر، ولكنه لا

يدري ما إذا كان هؤلاء قد اختطفوا أم قتلواز وبعيد ذلك بدقائق بلغنا النبأ الصاعق: فرفاقنا الثلاثة قتلوا حقا وصدقا.

وقررت لفوري أن أذهب إلى شارع فردان حيث يقع مبنى الشهداء الثلاثة. وبالنظر إلى المخاطر التي كانت لا تزال قائمة بالنسبة للتنقل في المدينة فإن عرفات حاول أن يردعني عن ذلك ولكن دون جدوى. وكان أن أصابني المشهد الذي كان ينتظرني في مسكن كمال ناصر الهلع. فقد رأيت صديقي . عبر غيمة من الدخان المتولد عن صاروخ أطلقه الإسرائيليون قبل اقتحامهم المنزل بلحظات . ممددا في وضعية المصلوب. وكان وجهه يبدو وكأنه مخرم بخمس عشرة رصاصة على الأقل. فقاتلوه لم يهملوا الرموز، في عجالة مهمتهم المشؤومة. ولم ينسوا أن كمال مسيحي الطائفة وناطقا باسم منظمة التحرير الفلسطينية. وبخلاف ذلك فإن المهاجمين رشوا بالرصاص سريره والسرير الموضوع في غرفة الجلوس الذي كنت آوي إليه عادة، وذلك لاستخراج كل من يمكن أن يكون قد التجأ تحتهما.

كان كمال يلبس (بيجاما)، مما يشير في الظاهر إلى أن الهجوم فاجأه في نعاسه في اللحظة التي كان يهم فيها بالرقاد. وكان شباك نافذته مفتوحاً والستائر البندقية اللون منتزعة، كما لو أنه كان حاول الفرار في البداية. ثم أنه رد بعد ذلك بواسطة مسدس جيب وجدناه إلى جانبه. إلا أن مقاومته لم تطل لأن المسدس كان ينقص رصاصتين فقط. وعندها تذكرت أني كنت كثيراً ما أنا كده وأقول له: «أن أنت إلا شاعر ولن تستخدم السلاح في حياتك مطلقاً!» ولعلي لم أخطئ كثيراً في ذلك.. أفلم يمت في اللحظة التي كان ينظم فيها مرثاة؟! ونحن نعرف ظروف اغتيال رفيقينا الآخرين معرفة أوفى، بفضل شهادات أفراد أسرتهم. فقد قتل المغاوير الإسرائيليون الفدائي الوحيد الذي كان يحرس مدخل البناية بواسطة مسدس كاتم للصوت، قبل أن يصعدوا بالمصعد إلى الطابق السادس. ونسفوا بوابة مدخل بيت النجار بواسطة قنبلة بلاستيكية. وكان رفيقنا، وهو الذي يحب التبكير في الرقاد، قد نام، في حين أن أبناءه وهم صبي عمره ست عشرة سنة اسمه يوسف، وأربع بنات، يذاكرون دروسهم في غرفهم. وركض يوسف إلى مدخل البيت وواجه المغاوير الإسرائيليين الذين صرخوا بالعربية: «قل لنا أين أبوك؟» فاستبد الرعب بالصبي وأسرع إلى غرفته ثم خرج من النافذة وهبط إلى الطابق الخامس متسلقاً على قسطل، والتجأ هناك. خلال ذلك استيقظ النجار على الهرج وأقفل على نفسه باب الصالون الذي يفصل غرفته عن المدخل. وبينما كان بعض المغاوير يحاولون اقتحام الباب طلب إلى زوجته أن تناوله مسدسه. ودوت بعض الطلقات خلف الباب فانتهى به الأمر إلى أن انفتح. وأصيب النجار إصابة خطرة فراح يترنح وهو يشتم المعتدين عليه صائحاً: «جبناء خونة»

وحاولت امرأته أن تحميه بأن وضعت نفسها بين زوجها وبين الإسرائيليين. لكن هؤلاء واصلوا إطلاق النار ببرود وقتلوا الزوجين معاً.

خلال هذا الوقت، احتلت شقة كمال عدوان الواقعة في الطابق الثاني. وكان كمال عدوان لا يزال يعمل، فتنبه إلى وجود ضجيج مشبوه على السلم. ولم يكد يمسك ببندقيته الرشاشة حتى بدأ المهاجمون باقتحام باب الدخول. وحتى قبل أن يتمكن من الرد تلقى عدة رصاصات في رقبته، ذلك أن مجموعة ثانية من المغاوير الإسرائيليين تسللت إليه من نافذة المطبخ متسلقة على المجارير الخارجية، وأطلقت النار في ظهره. أما زوجته وولده اللذان كانا يشاهدان المشهد البشع عاجزين عن اتيان أي أمر. فإن الإسرائيليين أبقيا عليهما، ثم توجهوا نحو الطابق الثالث ليقتلوا ضحيتهم الثالثة، كمال ناصر.

ومن البديهي أن مغاوير الجنرال دايان . الذي كان حينذاك وزيرا للدفاع . ما كانوا سيستطيعون القيام بعملية استغرقت قرابة ثلاث ساعات في قلب بيروت، بدون أن يعترضهم رقيب ولا حسيب، لولا تمتعهم بتواطؤ شركاء محليين هامين. فجيش الدولة اللبنانية ويدركها وأمنها العام لم يحاولوا التدخل مجرد محاولة. وقبيل الهجوم على مبنى فردان ببضع دقائق، حدث انقطاع غريب تماما في التيار الكهربائي، غمر الحي كله بالظلام. وكان المهاجمون يتنقلون، أن في بيروت أو في الجنوب، بسهولة لا يوازيها قدراً، إلا معرفتهم التفصيلية بالأمكنة. ولم نكن نملك في ذلك الحين أي برهان نؤيد به شكوكنا. إلا أن التعاون الوثيق بين الأحزاب اليمينية اللبنانية وبين إسرائيل كما ظهر، إبان الحرب الأهلية، بعد ذلك بسنتين، قد بدد آخر أوهامنا بصدد التواطؤ الذي سهل عملية 10 نيسان . إبريل 1973.

وعامة القول، هو أن إسرائيل تتمتع في صراعها ضد الشعب الفلسطيني، بوسائل هامة لا سبيل إلى مقارنة اتساعها بوسائلنا نحن.. فقد كان في وسعها أن تعتمد في «حرب الظلمات» على ملاكات هامة حسنة التنظيم، جيدة التجهيز، وعلى تكنولوجيا متقدمة، وعلى عدد من السفارات في الخارج تستخدمها كمحطات لوجستيكية، بدون أن ننسى المساعدات المطلقة التي يؤديها لها أفراد الطائفة اليهودية المنتشرة في العالم. غير أن الفلسطينيين المحرومين من أية دولة وحتى من ملاذ أمين، والذين يواجهون ليس عداوة إسرائيل وحسب، وإنما عداوة مختلف القوى الأجنبية بما في ذلك بعض البلدان العربية، تمكنوا بالرغم من هذا كله أن يسجلوا بعض الانتصارات الباهرة في هذه المعركة غير المتكافئة.

ولا ريب في أن الإسرائيليين لم يتراجعوا عن مشروعهم القاضي بتصفية قادة الفدائيين لاعتقادهم أنهم يستطيعون بذلك تدمير الحركة الوطنية الفلسطينية. ولا ريب في أنني أظل أحد

أهدافهم الأولية. فطوال سنوات، غذت المخابرات الإسرائيلية . وشريكتاها الأردنية والأميركية . حملة صحفية تهدف إلى إظهار ليس كرئيس «أيلول الأسود» وحسب، وإنما كمدبر نعدد من العمليات الإرهابية، مع أن عدة منظمات أخرى قد أدعت القيام بها. وقد أحبطت عدة محاولات لاغتيالي في السنوات الأخيرة في بيروت ودمشق. غير أنني أعترف بأن محاولة أكثر أرابة وبالتالي جدية أوشكت أن تكلفني حياتي وحياة أفراد عائلتي في آب . أغسطس 1973.

فقد أبلغني أحد حراسي حينها، وكنت مارا بالقاهرة حيث تقيم زوجتي وأولادي الستة في منزل استخدمه كذلك كمكتب خاص، بأن شاباً يريد رؤيتي على عجل مؤكداً أنه يحوز على معلومات يريد أن يفضي بها إلي على انفراد. فلم يكن في وسعي إلا أن استقبله. وقال لي أنه مكلف بقتلي. وإثباتا لأقواله فإنه فتح حافظة وثائقه وقدم إلي مسدسا مزودا بكاتم صوت. ثم تابع قائلا: ولما لم أكن أريد أن أخاطر بأن أقتل أو أعتقل إبان محاولة الاغتيال المرسومة، فإنني فضلت أن أعترف إليك ثم طلب إلي في مقابل ذلك أن أوفر له الأمان موضحا أنه يتمنى أن يعيد بناء حياته في أحد البلدان العربية في إفريقيا الشمالية، أو في إحدى دول المعسكر الاشتراكي، إذا تعذر ذلك.

وقال أنه فلسطيني من الضفة الغربية ولكفه ضابط استخبارات إسرائيلية ذكر لي اسمه، باغتيالي. غير أنه بعد أن اجتاز نهر الأردن ليذهب إلى عمان ويركب الطائرة من هناك، أوقفه البوليس الأردني وأخضعه لاستجواب صارم. وبعد أن كشف طبيعة مهمته، فإن أحد ضباط الملك حسين، فالح الرفاعي، وعده بمكافأة إضافية إذا أفلح في قتلي. وقد أثارت هذه المعلومات اهتمامي خاصة وأني كنت أعرف فالح الرفاعي . الذي كان يدير حينذاك . دائرة المخابرات الأردنية المولجة بمكافحة فتح . معرفة جيدة.

وذكر لي محدثي الشاب أيضاً أن تل أبيب وعمان تملكان مخططا تفصيلياً عن مكان إقامتي وأنهما زودتاه هناك بمعلومات دقيقة عن العاملين معي وعن التشكيل الأمني الذي أقامته دوائر الأمن المصرية، وعن تنقلاتي الاعتيادية. وأضاف: وهكذا، فقد كان في مقدوره تماما أن يقتلني قبل ذلك بيومين على عتبة دار الإذاعة، حيث كنت قد ذهبت إلى هناك بالفعل في الساعة التي أشار إليها بمناسبة برنامج إذاعي فلسطيني. وشكرته بحرارة وسألته عن اسمه وعنوانه كي أتمكن من الاتصال به في وقت لاحق. وهكذا عرفت أنه نزل في فندق متواضع، هو فندق اللوتس، ثم غادرني بعد أن ترك لدي حافظة وثائقه ومسدسه بطبيعة الحال. إلا أنني من قبيل الحيطة، طلبت من المخابرات المصرية القيام بتحقيق حوله. فأبلغوني بعيد ذلك بقليل. أنهم وجدوا الكثير من العنت في تحديده. ذلك أن رجلنا تسجل في فندق اللوتس باسم غير

الاسم الذي أعطاني إياه، وغير الاسم المكتوب في جواز سفره. وبخلاف ذلك فإن المحققين المصرين عثروا في غرفة زائري أثر قيامهم بعملية متكتمة، على حقيبة مقفلة بالمفتاح لم يتمكنوا من تفحص محتواها.

وبعد ذلك بثلاث أيام، وفي الساعة السابعة صباحاً، أيقظني أحد حراسي ليبلغني أن ذات الرجل يلح ليراني فوراً. وإذ استولى علي الفضول فإنني وافقت على استقباله. وبمجرد أن دخل الصالون، لاحظت أنه يحمل بيده الحقيبة الصغيرة التي وصفها لي رجال البوليس المصري., فطلبت إليه أن يفتحها فاحمر وتلعثم ثم انتهى إلى الانهيار. واعترف بأن الحقيبة تحتوي على عبوة ناسفة تكفي لتدمير منزلي وقتل زوجتي وأطفالي الستة. ووفقا للتعليمات التي تلقاها، فإنه كان ينبغي له أن يخفي عبوته تحت أحد المقاعد قبل أن ينصرف. أما زيارته السابقة و «اعترافاته» الأولى، فلم تكن تهدف إلا إلى كسب نقطي قبل أن يعمد إلى هذه المرحلة الثانية والنهائية من العملية كما تصورتها المخابرات الإسرائيلية والأردنية. ورفضت عرضه لفتح الحقيبة ثم ما لبثت أن سلمته إلى البوليس المصري. وهو لا يزال منذ ذلك الحين في أحد سجون القاهرة.

وقد جرت محاولات أخرى للاعتداء على حياة أقاربي. فقد تلقى أولادي مرتين علب شوكولاته كانت في الحقيقة ملغومة. ولحسن الحظ فإننا علمناهم . زوجتي وأنا . على أن يكونوا متيقظين. وهم على جانب من الحذر بحيث أنهم يمتنعون حتى عن فتح طرود الحلويات التي ابعث بها إليهم حين أكون في الخارج. ومع أنني مهدد دائماً، إلا أنني لا أخشى الموت. وأنا مؤمن دون أن أكون صوفيا. والرعاية الإلهية التي أبقت علي حتى الآن، لا تعفيني من اتخاذ حد أدنى من الاحتياطات لأومن سلامتي وسلامة ذوي. ولما كنت من الجهة الثانية، شديد النفور والكراهية لإراقة الدم، فإنني جاهدت أبدا لأمنع شباب المقاومة المتحمسين، من القيام بمحاولات اغتيال اعتبرها غير مجدية أو مضرة بقضيتنا.

غير أنه كان من نتائج حرب تشرين الأول . أكتوبر، أنها قدمت السياسة على العنف، تقديما مؤقتا على الأقل.

(7) شرارة أكتوبر

كانت المرة الأولى التي سمعنا فيها كلاماً عن الحرب الوشيكة التي لم ينفك السادات يعلن عنها منذ شهور. ففي شهر آذار . مارس، أي قبل غارة المغاوير الإسرائيليين على بيروت بحوالي شهر. كنا أربعة حين استقبلنا رئيس الدولة المصري: ياسر عرفات ويوسف النجار وأبو جهاد وأنا. وقبل المحادثة، أفضى لنا ضباط من كبار ضباط الجيش، أن موعد المعارك قد تحدد في شهر أيار . مايو. غير أن السادات تحدث إلينا بلغة أخرى تماما. فهو لم يكتف بعد إثارة احتمال قيام نزاع بل أنه راح يشتكي مطولا من تردد الاتحاد السوفياتي في شحن الأسلحة ذات الأهمية الحاسمة. ثم كرس جزءا هاما من المحادثة لاستعراض تاريخ العلاقات المصرية السوفياتية والعداوة التي ويوليها له قادة الكرملين في رأي وفي أواسط شهر آب . أغسطس، طلبنا . فاروق القدومي وأنا . مقابلة الرئيس المصري لمناقشة بعض القضايا الراهنة معه. فأجابنا بأنه مستعد للتحادث مع واحد منا فقط على انفراد. وإذ أثار ذلك استغرابنا فإننا ألحينا على ألا ننفصل، موضحين أن أحدنا لا يكتم عن الآخر سرا. وهكذا، فقد دعانا السادات إلى مقابلته في قصره برج العرب الواقع على الطريق من الإسكندرية إلى الحدود الليبية على بعد بضعة كيلو مترات عن شاطئ المتوسط. واستقبلنا رئيس الدولة المصري وهو بلباس صيفي وبوجه هادئ، تحت شرفة مقره وبدأ حديثه معنا بترهات، ثم اتبع ذلك بطرح أسئلة حول وضع المقاومة الفلسطينية العام. إلا أنه بدا لنا شارد اللب، يولي أجوبتنا اهتماما ضئيلا. ولم نلبث أن عرفنا سبب ذلك. ذلك أنه غير الموضوع فجأة وأعلن علينا بلا مواربة، أنه سيشن الحرب إسرائيل «قبل نهاية هذه السنة». ثم أشار ضمنا إلى الموعد التقريبي عندما أضاف أنه سيبلغنا بصورة أوفى بالموعد، بعد «قمة» البلدان غير المنحازة الذي سوف يعقد في مطلع أيلول . سبتمبر «أي قبل بدء الاشتباكات بقليل». وأنه قد أطلق اسم «الشرارة» على هذه العملية التي سوف تخاض بالاشتراك مع سوريا. ثم بادر مضيفاً: وهذه الحرب لن تكون كاملة، بل سيكون هدفها إخراج المشكلة العربية الإسرائيلية من المأزق. ثم أضاف بكل هدوء، وكما لو أن المسألة بديهية، «وبعد هذا نذهب معاً إلى مؤتمر السلام!»

واعترف أننا لم نول كثيراً من الانتباه، لا القدومي ولا أنا، لهذا التأكيد الأخير، ذلك أن فكرة الحرب ضد إسرائيل كانت تثير لدينا حماسا بالغا. فمصر وسوريا، بلدا ساحة المعركة الرئيسيان، قد فهمنا أخيراً ضرورة الكفاح المسلح! وبطبيعة الحال فإننا أكدنا للسادات تضامننا الكامل وسألناه عما يتوقعه من جانبنا. فأجابنا بأنه يتمنى أن يكون في وسعه التصرف بأكبر

عدد ممكن من الفدائيين ومن وحدات جيش التحرير الفلسطيني لتشترك في المعركة. ثم طلب إلينا أن نتكتم بأقصى قدر ممكن حتى في محادثاتنا مع الرئيس السوري حافظ الأسد الذي لا ينبغي أن يطلع على هذه المحادثة. ثم استدعى بعد ذلك عبد السلام توفيق، الذي كان تعين لتوه على رأس المكتب الثاني، وطلب إليه أن يستقبلنا لتسوية المسائل العملية التي تطرحها مشاركتنا في المعركة.

وحسب الاتفاق، فإن السادات استقبلنا . عرفات والقدومي وأنا . غداة مؤتمر الدول غير المنحازة، وبالتحديد في 9 أيلول . سبتمبر، عشية الاجتماع الذي كان سيعقد بين الأسد وحسين. ولم يبح الرئيس المصري لهذا الأخير بأية كلمة حول مشروعه بصدد الحرب. فالهدف الرئيسي لهذه القمة، هو إعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وسوريا وبين الأردن، بعد أن كانت قطعت بعيد المجزرة التي تعرض لها الفلسطينيون في جرش وعجلون. فمن شأن هذه العودة بالعلاقات إلى طبيعتها، أن توجد أوضاعاً أكثر مؤاتاة على الجبهة الشرقية خلال المعارك المقبلة.

وقدم لنا السادات إبان محادثاتنا معه في 9 أيلول . سبتمبر، عرضا مفصلاً لمشروعه، إلا أنه ألح هذه المرة، على مرحلة ما بعد الحرب، وأشار إلى أنه هو نفسه سيدعو إلى عقد مؤتمر سلام. ولم يسم جنيف كمكان للاجتماع ولكنه عدد البلدان التي ستتمثل فيه، فكانت تقريبا نفس البلدان التي شاركت في اجتماع المدينة السويسرية في شهر كانون الأول . ديسمبر من السنة نفسها: أي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وإسرائيل ومصر وسوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وعندما سألنا نحن بدورنا السادات بأي صفة سوف يدعو الأردن إلى الاجتماع، فإنه قدم لنا تفسيرات لا تقنع كثيراً. وأما بصدد مشاركتنا الخاصة فيه، فإننا لم نعرب له عن أي رأي، لأن علينا أن نعود في هذه المسألة إلى الهيئات القيادية في المقاومة. فالمسألة الأساسية القوية بالنسبة لنا، هي مسألة تحديد الشروط والأوضاع التي سنشارك من خلالها بالمعركة.

وفي 12 أيلول . سبتمبر استقبل السادات لهذا الغرض، عرفات حيث أكد لرفيقنا قبل أن يفترقا، بأنه سيبلغه بالموعد المحدد للاشتباكات في حينه. ولدى عودتنا إلى بيروت، عقدنا على التوالي اجتماعين للمجلس الثوري وللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية لاطلاعهما على نوايا القادة المصريين وذلك بأقصى ما يمكن من إبهام في الكلام وغموض في التعابير. إلا أن ذلك لم يترك أثرا على غالبية رفاقنا بسبب أن الريبة والتشكك كانا يخيمان في تلك الحقبة على جدية التهديدات التي كان رئيس الدولة المصرية يطلقها علنا.

وفي 30 أيلول . سبتمبر، أي قبل اندلاع المعارك بستة أيام، تلقيت رسالة من سفارة مصر في بيروت تطلب منى أن أسافر إلى القاهرة على عجل. وأبلغت ممثلي مختلف المنظمات الفدائية الذين كنت مجتمعا معهم موضحا بأنني أعتقد أن لهذه الدعوة علاقة بالحرب الوشيكة. فأثارت ملاحظتي قهقهات صاخبة. وقال لي أبوماهر اليماني من الجبهة الشعبية (جورج حبش): أراهنك على خروف كامل بأن السادات لن يحارب، فقبلت الرهان. إلا أنني لما كنت لا أعتقد أن النزاع قريب الحدوث، فإنني لم أغادر بيروت إلى القاهرة إلا يوم الخميس 4 تشرين الأول . أكتوبر حيث وصلتها مساء.

ووجدتني أمام حدث غير اعتيادي، ذلك أن ضابطا كبيراً كان ينتظرني في المطار. وما لبث أن قادني إلى وزير الحربية المشير أحمد إسماعيل علي الذي قال لي: «سنهاجم بعد غد. لقد تأخرت في المجيء ولابد من أخبار ياسر عرفات فوراً ». ولم أشأ، من قبيل التروي والحكمة، أن أرسل رسالة «بالشيفرة» بل كان لا بد من العهدة بالرسالة إلى موفد، إلا أنه لم يكن ثمة طائرة تطير إلى بيروت في ذلك المساء. وهكذا فقد حررت مذكرة واضحة وضعتها في ظرف مختوم وسلمتها في صباح اليوم التالي إلى أحد أفراد المقاومة وطلبت منه أتلافها في حال اختطاف الطائرة إلى إسرائيل. واندهش الرسول. إذ لماذا كل هذه الأسرار والاحتياطات فاخترعت له على البداهة تفسيراً، بد له لحسن الحظ مقبولا: فالمغلف الذي سيوصله إلى عرفات يدا بيد، يتضمن كتاب استقالتي من الحركة، التي لا أريد أن افشيها قبل أن تقبل.

وليس من السهل في العادة الاتصال بعرفات في أجل قصير. وعلى هذا فإن حامل الرسالة لم يستطع أن يسلمها له إلا في ساعة متأخرة من مساء الجمعة. وبعيد ذلك بساعات كانت كافة قوات المقاومة قد وضعت في حالة استنفار. وفي الغداة ستنطلق القوات المصرية لغزو قنال السويس في حين أن الجيش السوري سيقتحم سهول الجولان ثم مرتفعاته. وفي يوم الهجوم، طلب إلينا . فاروق القدومي وأنا . أن لا نغادر منزلينا، إذ يجب أن نظل على اتصال بالرئيس السادات الذي يحرص على أن يرانا. وعرفنا بارتياح ببدء الاشتباكات في الساعة الرابعة عشرة من الإذاعة. وفي السابعة عشرة أبلغنا بأن رئيس الجمهورية سوف يستقبلنا في الساعة التاسعة عشرة تماماً، في قصر الطاهرة بمنشية البكري في ضواحي القاهرة.

وبدا المقر الرئاسي الصغير نسبيا والمزخرف بذوق، على هيئة القلعة. فهو محاط بالمدرعات والرشاشات الثقيلة وبعديد وافر من الجند المسلحين بعد أن تحول الطابق الأرضي منه إلى ضرب من مقر قيادة أركان عسكرية. واستقبلنا السادات في صالون مجاور ببزة مارشال (لأنه يحكم الدستور، القائد الأعلى للقوات المسلحة). وعلى عتبة الباب راح يقول لنا بلهجة

المنتصرين وبعينين تلتمعان من السرور: «ألم أقل لكم أنني سأحارب؟ فهل تصدقوني الآن؟» ولم يسبق لي أن شاهدة السادات في مثل هذه الحالة من النشوة. فقد كان يشع الرضا الذاتي ويفيض فرحا ويزخر حماسا: «لقد عطلنا خط بارليف عمليا، والجسور البرمائية قيد الإنشاء. ثمة جسر واحد يسبب لنا بعض الانشغال لأنه ليس صلبا بما فيه الكفاية.» كان السادات يطلعنا على الوضع العسكري، أولا بأول ووفقا للرسائل التي تصل إلى غرفة العمليات أو على أثر تلقيه مكالمة هاتفية قصيرة. وقد راح يصيح وهو يزداد تهيجاً وحماساً: «ألو دباباتنا عبرت قنال السويس للتو والمدفعية تليها بعد قليل.»

وحدثته عن الفرحة التي انفجرت في شوارع القاهرة لدى إعلان الهجوم وأضفت أن الشعب المصري وكافة الشعوب العربية تأمل في أن تمحو العار الذي أوقعته بها إسرائيل في حرب الأيام الستة بحزيران . يونيه 1967. وأصغى إلي السادات جذلا وقال لي: «يا لجمال القوة! نحن أقوياء! وسنربح!» وطوال ساعات ذلك المساء لم يتحدث إلا عن العنف والفتح. وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي لا أسمعه يلفظ فيها كلمة السلام أو المفاوضة. واعترتنا الدهشة عندما صرح لنا قائلاً: «إن جيوشي ستندفع حتى ممري متلا والجدي (نقاط السيطرة على سيناء) ثم أترك بعد ذلك للفدائيين مهمة مواصلة حرب العصابات!» كانت النجاحات الأولى تغذي فيه التفاؤل. وبعيد عبور الجيش الثالث القتال في الساعة الحادية والعشرين والنصف، قال لنا: إنه شيء خارق عجيب فقد توقعنا أن تكلفنا هذه المرحلة عدة آلاف من القتلى. وقد علمت لتوي أننا فقدنا أقل من مائتين. أليس رائعا.»

وحوالي الساعة الثانية والعشرين والنصف، أوصلوا له برقية فاظلم وجهه فجأة. وقرأ الرسالة ثم أعاد قراءتها وبدا أن الحزن والغضب يجتاحانه. وارتسمت عليه بادرة تبرم وقال لنا: «إني لا أتمكن من التصديق. فالسوفيات يبلغونني أن حافظ الأسد طلب من سفيرهم في دمشق العمل للتوصل إلى وقف لإطلاق النار» فجعلنا النبأ نتردى بدورنا في حيرة عظيمة. فالعقل لا يتصور . من جهة أولى . أن تكون موسكو اخترعت هذه القصة ولفقتها تلفيقا. ولماذا؟ . من الجهة الثانية . يطلب الأسد يا إلهي وقف المعارف في حين أن جيشه في الجولان من نصر إلى نصر!

وفي هذه اللحظة التي كنا نطرح فيها هذا السؤال أفلتت من السادات على غير إرادة منه، جملتان لم تنفكا تتسلطان علينا وتلاحقاننا منذ ذاك. فقد قال: <<مع أننا اتفقنا أنا والأسد مع فيصل (ملك العربية السعودية) على أن نواصل الحرب عشرة أيام على الأقل! لأنه يحتاج إلى هذه المهلة على الأقل ليمهد الطريق أمام حظر النفط>>.

وبقينا ـ القدومي وأنا ـ فاغري الفاه أمام جسامة هذا الإعلان. وإذا فإن هدف الحرب لم يكن تحرير سيناء وإنما تسهيل ممارسة الضغوط الاقتصادية على الغرب. وعلى هذا فإنها كانت محكومة بأن تكون جزئية حتى قبل أن تبدأ.

ولم يلبث السادات أن اطمأن. فبعيد تسليمه الرسالة السوفياتية، تلقى في حضورنا مكالمة هاتفية من الأسد عبر له فيها عن أرادته في مواصلة القتال. وراح يؤكد له بقوة: كلا لم أطلب وقف إطلاق النار من سفير الاتحاد السوفياتي في دمشق. ولم تسنح لي من جهتي الفرصة لأسائل أصدقاءنا السوفيات حول هذا الموضوع، إلا أن في وسعي أن أعرض رواية الرئيس السوري كما أبلغني إياها في محادثة لي معه جرت في كانون الثاني ـ يناير ـ 1978.

فقد سخط الأسد واستنكر عندما رويت له حديث السادات عن اتفاق سري معقود مع الملك فيصل. (وكذلك مع الولايات المتحدة، في رأيي، لأنها جنت من عدة نواحي مكاسب سياسية واقتصادية عظيمة من حرب تشرين ـ أكتوبر) وقال لي الرئيس السوري أنه اتفق مع السادات، فقط على أن يطلبا وقف إطلاق النار معا بعد فتح الجولان وسيناء حتى ممري متلا والجدي. ثم راح يبدي التعجب قائلاً: «ولو كنت أعلم أن الجيش المصري سيتوقف على مسافة بضعة كيلومترات وراء القنال، لحددت لجيشي أهدافاً أكثر تواضعا فأوفر عليه خيبات الأمل التي حدثت له بخطأ السادات!» والواقع هو أن توقف الهجمة المصرية أتاح لإسرائيل أن تصرف قوات هامة وتوجهها إلى الجبهة السورية.

وفهمت عندئذ لماذا طلب إلينا السادات في آب ـ أغسطس ألا نكرر على مسامع الأسد ما أفضى لنا به حول الأهداف المحدودة للهجوم الذي يعتزم القيام به. فقد قال لنا حينها ليحضنا على التكتم أن الرئيس السوري يكرهنا، ويكره عرفات بخاصة، فلن يعجبه بالتالي أن نشترك بصورة وثيقة بمشروعهما المشترك. كانت حرب تشرين في نظر السادات «شرارة» فعلاً كما أشار أمامنا في شهر آب وليست الحريق الكاسح الذي كان يأمله العالم العربي كله.

دامت محادثتنا مع السادات مساء 6 تشرين الأول ـ أكتوبر أربع ساعات متواليات. وقد شعرنا بالضيق ـ فاروق القدومي وأنا ـ لاستغلالنا وقت رئيس الدولة الثمين، خاصة وأنه كان مستغرقاً بمهمة عصيبة. إلا أنه كان يلح علينا كلما حاولنا الاستئذان والانصراف أن نبقى برفقته. ولم نفهم حينها مرد لياقته إزاءنا. وعندما استرجع ذلك الآن وأعيد النظر فيه، يراودني الاعتقاد بأنه كان يسعى إلى ضمان تأييد الفلسطينيين له في حالة خسارته للحرب ـ الأمر الذي كان كارثة بالنسبة لمستقبله السياسي ـ أو في حالة ربحه لها. وأعتقد، من منظار هذا الاحتمال الأخير، أنه كان يأمل أن يكسب ثقتنا لكي يتمكن من جعلنا ننخرط في مسار السلام الذي ينوي السير فيه.

ثم تركنا ننصرف في النهاية في الساعة الثالثة والعشرين عندما جاء من يعلن عليه زيارة اثنين من المقربين لـه: نائب رئيس الجمهورية السابق حسين الشافعي ورئيس مجلس الشعب الحالي (البرلمان) سيد مرعي.

ودارت حرب تشرين . أكتوبر . دون أن نسمع كثيراً من الكلام عنا. فالبيانات العسكرية التي كانت تبثها القاهرة ودمشق كانت تذيع الانتصارات المصرية والسورية، ولكنها كانت تغفل في غالب الأحيان أن تشير إلى صنائعنا. أو حتى إلى حضورنا برغم أنه كان فعالا على كافة الجبهات. فقد نقلت عدة وحدات من جيش التحرير الفلسطيني بالطائرات العمودية (الهليوكوبتر) منذ اليوم الأول للقتال وأنزلت وراء الخطوط الإسرائيلية . فاستولت على أربعة تلال من تلال القنيطرة بالجولان. وعبر مغاوير من الفدائيين الحدود اللبنانية القريبة وهاجموا مؤخرة الجيش الصهيوني في الجليل الأعلى. وقام آخرون لقصف عدة كمبيوترات فيما وراء الحدود اللبنانية. ومنذ اليوم السادس من تشرين . أكتوبر، قام نحو من 70000 عامل فلسطيني في الضفة الغربية وغزة يعملون في مؤسسات إسرائيلية بالإضراب عن العمل . وبالإجمال فقد قمنا خلال الأسبوع الأول من الحرب . باعتراف السدة غولدا مئير نفسها . بأكثر لمن مئة عملية.

غير أننا لم نكن نملك منفذا إلى الخط الفاصل بين الأردن والضفة الغربية وطلبنا من السادات أن يتوسط لصالحنا لدى الملك حسين. لكن هذا الأخير أجاب بالسلب على طلب مكتوب من الرئيس المصري . ثم قام موفد من القاهرة بمحاولة جديدة في عمان، عن الماضي إلا أنه أصطدم بدوره برفض حسين. وغضضنا النظر فاروق القدومي وأنا، عن الماضي وقمنا بمسعى لدى سفير الأردن في القاهرة مؤكدين له استعدادنا لطي الصفحة السوداء في تاريخ علاقاتنا، إذا سمحت حكومته، فقط بمرور الفدائيين عبر الأراضي الأردنية. وتوجه وفد من منظمة التحرير الفلسطينية يقوده أبو داود إلى عمان ليحث الملك حسين على دخول الحرب، ولكن عبثاً؟ وإذ ضغطت عليه عدة بلدان عربية ليفتح جبهة ثالثة مع إسرائيل، فإن الملك أرسل في 13 تشرين أول لواء مدرعاً إلى سوريا، ولكنه رفض أن يوافق على الترخيص بمرور الجيش العراقي في أراضيه أو السماح له باستخدام المطارات الأردنية. وقد برر القادة الأردنيون ، موقفهم السلبي هذا، بحجة عدم استعداد قواتهم وضعف دفاعهم المضاد، الذي يعود بدرجة أساسية وفقاً لما أكدوه، إلى عدم إبلاغهم بمشروع مصر وسوريا الحربي. غير أن الأمر لم يكن ذريعة، لأن قوى عربية وغير عربية قد عرضت على الأردن تقديم الدعم العسكري الذي يحتاج إليه.

بيد أن تاريخ حرب تشرين . أكتوبر، لم يكتب بعد، برغم ذلك العدد من المؤلفات الجيدة التي كرست له. فالواقع أن بعض الحقائق لا تزال في الظل، كما أن عدداً آخر منها يشكل

الألغاز لم تفك رموزها بعد. واحد هذه الألغاز، وهي ليست أصغيرها شأنا، هو لا نزاع، عبور رجال الجنرال شارون قنال السويس بواسطة عملية اختراق ستقلب مجريات الأحداث وتنهي انتصار الجيش المصري. فما زلت إلى اليوم أجد في سلوك القيادة المصرية العليا، وفي سلوك السادات نفسه، إزاء محاولة الجنرال شارون أمراً يعصى على التصديق.

وليحكم من شاء على ما سأقول. ففي العشرين من تشرين الأول، أي قبل أربعة أيام من قيام وحدات المغاوير الإسرائيلية بعبور القنال عند نقطة، تعرف باسم الدفرسوار، قريبة من البحيرة المرة الكبرى (التمساح)، قام عملاء المخابرات المصرية المتنكرين بثياب بدوية، بإرسال إشارة إلى القاهرة (بواسطة أجهزة إرسال) تفيد مرور جسور ودبابات برمائية في العريش. فطبيعة هذا العتاد نفسه، هي بحد ذاتها برهان على أن الجيش الصهيوني سيحاول اجتياز القنال وتطويق الجيش الثالث المرابط على الضفة الشرقية للقنال. كما أن قيادة الأركان في القاهرة تملك في ملفاتها عدة مخططات، أعدت منذ أيام عبد الناصر أو منذ عهد قريب ، بهدف تلافي الدفرسوار بالتحدي. وأذن فإنه ليس في الخطة الإسرائيلية شيء غير متوقع. فماذا فعلت القيادة المصرية العليا؟ لا شيء. كما أن المعلومات التي وردت من العريش في 10 تشرين الأول لم تبلغ في ظاهر الأمر للسادات.

وبعد ذلك بيومين، وبعد أن وصلت طليعة قوات الجنرال شارون إلى منطقة الدفرسوار، جاء النفير الثاني، ولكن من جانب ممثلينا هذه المرة. فقد قام قادة جيش التحرير الفلسطيني ووحدات فتح المكلفة مع الجيش الكويتي بالدفاع عن الدفرسوار؟، بإبلاغ القاهرة بالهجوم الإسرائيلي الوشيك. إلا أن المسؤولين المصريين لم يقوموا بأي رد فعل ولم يرسلوا بتعزيزات للدفاع عن هذه النقطة الحساسة، وفي يوم 14 تشرين الأول انتقل الجنرال شارون إلى الهجوم وتمكن من تسريب بضع دبابات وراح يحاول توسيع الثغرة. فقاتل رجالنا ببطولة وسقطوا في ساحة الشرف بالعشرات. كان الوضع عصيبا ولكنه لم يكن يائساً. فلا يزال في الوقت فرصة لكي تتخذ القيادة المصرية العليا إجراءات ترد العدو على أعقابه. ولكنهم تركوا الأمور تجري فيه عن نجاحات جيشه، فإنه لم ينبس بكلمة حول المعارك الجارية على ضفتي القتال. وهو لا يمكن إلا أن يكون على علم بالكارثة لأني أنا نفسي كنت على علم كامل بالوضع.

فكيف نفسر سكوت وسلبية قيادة جيشه العليا؟ إن السر لا يزال كاملا. إن العيب الرئيسي في حرب تشرين، هو أن السادات رسم لها أهدافا محددة، دون أن يدرك أنها لا تستطيع بلوغ هذه الأهداف إلا إذا مضى بهجمته إلى غايتها. بيد أنه برغم تحفظاتنا فقد دعمنا دعما كاملا هذا المشروع الذي ظهر طابعه الوطني عبر الحماس والتفاني اللذين أظهرهما الجند

المصريون والسوريون. فقد قاتلوا بشجاعة ومحوا إلى الأبد صورة الشعوب العاجزة عن السيطرة على التقنيات الحديثة،تلك الصورة التي ساهمت إسرائيل مساهمة واسعة في نشرها منذ قتال عام 1967. فتقدم المدرعات السورية الصاعق في الجولان، واحتلال الجيش المصري لخط بارليف، سيجلان في رصيد الأمة العربية الإيجابي برغم النكسات التي تلقتها بعد ذلك.

ولكنه لا بد بالمقابل من أن يسجل في رصيد الدول العربية السلبي، قصورها وعجزها عن استخدام سلاح النفط الذي تملكه استخداما كاملاً. فبرغم الفوائد المالية الهائلة التي جنتها من الحظر، إلا أنها أنهته بصورة سابقة للأوان، وقبل بلوغ الهدف الذي رسمته لنفسها، عنيت تحقيق جلاء إسرائيل الكامل عن الأراضي المحتلة. فهل كانت مهددة بتدخل عسكري أميركي؟ إن هذا ممكن! وهل عقدوا صفقة تنقذ الولايات المتحدة بموجبها الجيش المصري الثالث المحاصر من قبل القوات الإسرائيلية على الضفة الشرقية للقنال من التدمير، مقابل رفع الحظر؟ إن هذا معقول. ومهما يكن من أمر، فإن من المؤكد أن ضغوطا غربية شديدة . أميركية وأوروبية . قد مورست وأن مصر وسوريا لم تستطيعا مقاومة هذه الضغوط. ثم إن السادات الذي سبق له أن أعلى في خطابه بتاريخ 16 تشرين الأول، عزمه على ألا يفاوض على تسوية قبل جلاء آخر جندي إسرائيلي من الأراضي المحتلة، عاد فترك نفسه ينساق إلى شرك المساومات الذي نصب له وزير الخارجية الأميركية الدكتور هنري كيسنجر.

ولم تكد الحرب تنتهي، وبينما كان الجيش الثالث لا يزال محاصراً، حتى كان السادات يريد أن يبدأ التفاوض مع إسرائيل. وفي 26 تشرين الأول، أي بعد مرور ثمانية وأربعين ساعة على وقف إطلاق النار الثاني، حدد لنا محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير الأهرام، الذي كان أحد مستشاري الرئيس المصري المسموعين في تلك الحقبة، موعدا لمقابلة هذا الأخير في اليوم نفسه. واستقبلنا السادات في قصر الطاهرة. وقبل أن تتمكن من الجلوس . فاروق القدومي وأنا . سألناه فجأة: «وإذا. هل تقبلون بالاشتراك في مؤتمر السلام؟».

كان السادات يبدو قلقا ونافذ الصبر في آن معاً. ففي خطاب 16 تشرين الأول، أشار إلى أن «الفلسطينيين» يجب أن يشركوا بالضرورة في عملية السلام. أما اليوم فإنه يريد أن يعرف ما إذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية توافق على تمثيل الفلسطينيين حول الطاولة المستديرة. وقلت له أننا لا نستطيع الإجابة على سؤاله قبل أن نطلع اطلاعاً واسعاً على حيثيات الموضوع. ونحن نريد أن نعرف ماذا سيكون مؤتمر جنيف بالضبط، ووفق أية شروط سوف ندعى إلى حضوره والمشاركة فيه. وقدم لنا الرئيس المصري بعض التوضيحات: فقد كتب إلى الحكومتين الأميركية والسوفياتية ليعرض عليهما المشاركة في الاجتماع وليقترح مشاركة فرنسا وبريطانيا

كذلك، إلى جانب مصر وسوريا والأردن والفلسطينيين، ثم وبطبيعة الحال، إسرائيل. وأضاف في رسالته أن المؤتمر يجب أن ينعقد تحت رعاية الأمم المتحدة في نيويورك أو في جنيف حيث تملك الأمم المتحدة مكانا لهذا الغرض. ثم أردف من باب طمأنتنا: وأي سوء في هذا! طالما أن الدبلوماسيين العرب يقابلون عادة ممثلي إسرائيل في مختلف محافل المنظمة الدولية.

واعترضنا قائلين أن منظمة الأمم المتحدة مكلفة بتطبيق قرار مجلس الأمن رقم 242 الذي جرى تبينيه في 22 تشرين الثاني ـ نوفمبر عام 1967، وهو القرار الذي نرفضه نحن لأنه لا ينص على حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة ولهذا فإن ذهابنا إلى جنيف أو إلى نيويورك ضمن هذه الشروط، يعني أننا نقبل التفاوض على إعادة حقوق «اللاجئين» كما يشير إليهم القرار 242. وراح السادات يحاول إبعاد واعرضوا وجهة نظركم واعرضوا مطالبكم، أية كانت هذه المطالب. دافعوا إذا أردتم عن أطروحتكم حول ضرورة تفكيك دولة إسرائيل كمقدمة لإقامة فلسطين ديمقراطية متعددة الطوائف. فالأمر الضروري هو أن تكونوا حاضرين في مؤتمر السلام.»

فوعدناه بأن نعرض اقتراحه في أقصر مدة ممكنة على الهيئات العليا في المقاومة. وبانتظار ذلك، فإننا طرحنا عليه عدة أسئلة حول الوضع العسكري لماذا قبل بوقف إطلاق النار بمثل هذه السهولة؟ هل كانت ثغرة الجنزال شارون بمثل هذه القدر من الخطورة والتهديد؟ وحاول السادات أن يقلل من أهمية الثغرة مؤكداً أن الجيش الثالث ليس مهدداً بالإبادة. غير أنه ذكر بالمقابل قيام الولايات المتحدة بتزويد إسرائيل بشحنات من الأسلحة البالغة التطور خلال المرحلة الأخيرة من القتال، و «تخلي» الاتحاد السوفياتي الذي يرفض تزويده بالسلاح الضروري لمواصلة الحرب وبدت لنا الحجة التي أدلى بها لإقناعنا بعجزه، حجة مشتبهة. فالقوات المصرية شنت القتال ـ أولا ـ بسلاح سوفياتي ذي كم وكيف، أكثر من كافيين. وثانيا ـ لأنني كنتن أنا نفسي أسكن قرب مطار الماظة الحربي (في ضاحية القاهرة) وتمكنت أن ألاحظ بعيني اتساع وكثافة شحنات الأسلحة السوفياتية طوال حرب تشرين. ووفقا للمعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية في لندن، وهو لا يمكن أن يتهم بمحبة السوفيات، فإن الجسر الروسي الذي أقيم مع مصر وسوريا اشتمل على 934 رحلة طيران ذهابا وإيابا. هذا دون أن نحسب الشحنات التي تمت بطريق البحر وأفرغت في الموانئ المصرية. ودون أن نتكلم عن الموارد الالكترونية التي أشركتها موسكو في جمع المعلومات عن تحركات القوات الإسرائيلية. وفي يوم 26 تشرين الأول، أي في ذات اليوم الذي أجرينا فيه المحادثة مع السادات، كف هنري كيسنجر النقاب عن أن الاتحاد السوفياتي قد عزز تعزيزا عظيما أسطوله الحربي في المتوسط، ووضع عدة وحدات مجوقلة

(محمولة جوا) في حالة استنفار. فكان الروس بذلك يريدون ردع إسرائيل عن مواصلة هجومها ضد الجيش المصري الثالث.

واشتكى السادات كذلك بمرارة من العقيد القذافي الذي أخذ عليه الأخير علنا السلوك الذي سلكه في الحرب والأهداف المحدودة التي رسمها لها. هذا مع أن الرئيس الليبي لم يدخر وسعا في تقديم معونته المالية والاقتصادية والعسكرية له، على الرغم من عدم اتفاقه معه. فهو لم يقدم لمصر عملات صعبة بالنقد السائل ونفطا وحسب، بل وكذلك طائرات (ميراج) اشتراها من فرنسا وسبعين طائرة ميغ 21، بينها 26 طائرة اشتراها إبان الاشتباكات وأرسلت مباشرة من الاتحاد السوفياتي إلى الجبهة المصرية. ومنذ الساعات الأولى للحرب، أرسل القذافي إلى القاهرة عضوين من أعضاء مجلس الثورة هما الرائد عبد المنعم الهوني والرائد عمر الميحشي، وظلا هناك تحت تصرف السادات، تحسبا لحالة احتياجه إليهما. وكذلك فإنهما أخطرا طرابلس «بثغرة» شارون موضحين أن هذه النكسة قد نالت كثيرا من الرئيس المصري. فما لبث الرائد عبد السلام جلود، رئيس الوزراء الليبي أن ركب الطائرة إلى القاهرة وأبلغ القذافي إثر محادثة مع السادات بأن هذا الأخير «منهار» معنويا.

وقام الرئيس الليبي بدوره بزيارة القاهرة حيث وجد السادات ملازما سريره ويعاني من أوجاع في المعدة وعاجزا، فيما يبدو، عن خوض محادثة متماسكة. وعرض القذافي وهو يتحرق تبرما وعيلان صبر، بأن يذهب بنفسه إلى المقر العام للقوات المسلحة، لمتابعة تطورات المعارك. فرفض السادات رفضا قاطعا مؤكداً له أن جنرالاته أهل تماما للقيام بمسؤولياتهم. والحقيقة هي أنه لم يكن يريد له أن يتدخل بمشروع ندد به بشدة.

وواقع الأمر هو أنه لم يسلف للرجلين أن تفاهما تفاهما حسنا. فقد كان القذافي يكن لسلف السادات إعجابا لا حدود له. كما أن عبد الناصر كان يكن الكثير من المحبة لمنافسه الشاب. وقد قال لنا عبد الناصر أن لدى معمر كراهية هاجسية للشيوعية . فقد استبد به ذات يوم حين ذهبنا معا إلى الخرطوم، غضب مسعور وهو يرى المتظاهرين يرفعون الأعلام الحمراء! وروى لنا عبد الناصر أيضا وهو يتشكى هازلا من بخل القذافي، أن هذا الأخير طالب أن تدفع القاهرة أجرة القوات المصرية المرابطة في ليبيا بالعملة الصعبة. وقال عبد الناصر كذلك، أن الملك السابق إدريس كان يظهر كرما أكبر ويدفع لمصر المعونات كلما طلبتها منه.

وقد عرفت من جانبي الرئيس الليبي معرفة حسنة، وعلاقاتي معه وثيقة وتعود إلى حين تسلمه السلطة. فقد كنت أشارك في المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة عندما علمنا في أول أيلول . سبتمبر بقلب ملكية السنوسيين على يد مجموعة من الضباط الشباب. وذهبنا . بضعة

رفاق وأنا . بعيد ذلك بأربعة أيام إلى طرابلس حيث قابلت القذافي للمرة الأولى فأعطاني انطباعاً جيداً برغم عدم معرفته بالمشاكل العربية. غير أنه كان يظهر حماسا مفرحاً للقضية الفلسطينية. فلم يختر ككلمة سر للثورة اسم القدس؟ وكان حماسه لرئيس الثورة المصرية يصل إلى حد أنه قال لي بعد ذلك بسنة، عندما علم بانضمام الرئيس إلى مخطط روجرز من أجل تسوية سلمية ع إسرائيل: «لئن خان عبد الناصر القضية أو لم يخنها، فإنني باق إلى جانبه أبداً.» ولكنه تبنى موقفا مقابلا تماما إزاء السادات، معاكسا على وجه العموم المواقف التي يتخذها هذا الأخير الذي يعتبره غير جدير بخلافة عبد الناصر.

وثمة حكومات عربية أخرى شجعتنا على الانضمام إلى مسيرة السلام. فوزير الخارجية الجزائرية عبد العزيز بو تفليقة مثلا، فسر لي . إبان زيارته لي في منزلي بالقاهرة عندما مر بها في نهاية تشرين الأول . أكتوبر 1973 . أن الحرب التي انتهت لتوها، ستشرع ، ببديهة الحال، باب مرحلة دبلوماسية طويلة. وأضاف أن هذه الحرب لن تكون ولا ريب آخر حرب عربية إسرائيلية، إلا أنه يبدو له من الضروري أن نحدد خلال ذلك مواقف واضحة من إمكان قيام تسوية متفاوض عليها. ولم يقل شيئاً صريحا، إلا أنني اعتقد أنني فهمت أنه كان يتمنى أن يرانا تتخذ موقفا مسؤولا إزاء مؤتمر السلام. وكان بو تفليقة يضيف دائماً . شأن الرئيس بو مدين الذي قابلته في وقت لاحق بعد ذلك . بأن الجزائر ستظل إلى جانب المقاومة الفلسطينية طالما واصلت الكفاح المسلح. ولا بد من القول أن مواقف القادة الجزائريين كانت دائماً مطابقة لأقوالهم إزاءنا: ووفاء منهم لمبدئهم في عدم التدخل في شؤون الغير، يقومون بدعمنا كائنا ما كان خيارنا: الحرب أو السلام.

وعندما عدنا إلى بيروت غداة محادثتنا مع السادات في 27 تشرين الأول . أكتوبر، كنا نعلم إذا، أن الدول العربية كانت برغم منطلقاتها المختلفة وتبايناتها التكتيكية أو الإستراتيجية، تؤيد بشكل عام انخراطنا في اللعبة الدبلوماسية التي كانت قد بدأت على المسرح الدولي. كان علينا أن نحدد موقفا واضحا كما طلب من الرئيس المصري. فدعونا إلى اجتماع موسع لقيادة فتح لهذا الغرض، في يوم وصولنا إلى بيروت، ودار فيه نقاش طويل. ولم نلبث أن أدركنا أن السادات يضعنا في وضع صعب، أن لم نقل أنه مستحيل. أولاً: لان الدولتين العظميين ذاتهما لم تعطيا موفقتهما بعد على مشروع الريس. وثانيا، وخاصة، لأننا لم نتلق بأية صورة، ووفق أية شروط سوف ندعى إذا ما دعينا. ونحن لا نستطيع أن نغض الطرف عن كون وقف إطلاق النار تم على أساس قرار مجلس الأمن رقم 242 والذي . أعود فأكرر . ينكر على الفلسطينيين أدنى حقوقهم البديهية. وإذا فقد اتخذنا قراراً بعدم الإجابة على مؤتمر السلام لا بنعم أو بلا،

بانتظار أن نتلقى دعوة حسب الأصول. ولن يكون في سعنا أن نحدد موقفنا بصورة واضحة دقيقة إلا لدى شيء ملموس.

وفي 12 تشرين الثاني . نوفمبر، أي بعد مداولاتنا في قيادة فتح، بأسبوعين بالضبط، استقبل السادات ياسر عرفات الذي كان مكلفا بان ينقل إليه جوابنا على السؤال الذي طرحه علينا في 26 تشرين. وقد دهش رئيس منظمة التحرير من موقف رئيس الدولة المصري. ذلك أن هذا الأخير بدا متحفظا نائيا، بل شبه لا مبال إزاء القرار الذي اتخذناه. وخرج عرفات بانطباع واضح بان السادات لم يعد مهتما باشتراكنا باجتماع جنيف. فهو لم يثر حتى احتمال توجيه دعوة إلينا في مرحلة مقبلة محتملة من مراحل السلام. ولم يفهم رفيقنا في تلك الفجاءة الأمر الذي حدا بالرئيس المصري إلى قلب موقفه خلال خمسة عشر يوما.

غير أن ثمة حدثين كانا قد وقعا خلال هذه الحقبة يسعها على ضوء ما سوف يحدث بعد ذلك، أن يفسرا سلوك السادات الغريب: فعشية لقاء 12 تشرين الثاني . نوفمبر، كان قد جرى توقيع اتفاق إسرائيلي . مصري أولي في الكيلو متر 101 ف سيناء تحت رعاية هنري كيسنجر الذي تحادث قبل ذلك بخمسة أيام . أي في 6 تشرين الثاني . مع الرئيس المصري للمرة الأولى منذ نهاية الحرب وإذا، فإنه بدأ سريان مفعول سياسة «الخطوة خطوة» و «التفاقات الجزئية المؤقتة» العزيزة على وزير الخارجية الأميركية. وبدأ يتضح تدريجيا وبجلاء أن كيسنجر أقنع رئيس الدولة المصري باستبعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن مسيرة السلام التي لا تهدف إلى تيسير تسوية شاملة في الشرق الأوسط، وإنما إلى خداع البلدان العربية المعنية بالحصول من إسرائيل على إعادة جزء فقط من الأراضي التي غنمتها عام 1967.

ولم نكن بعد إلا في بدايات «دبلوماسية المكوك» التي ستتيح لكيسنجر أن يضعف العالم العربي بتقسيمه وأن يعد للصدمات الدامية في لبنان والتي تهدف إلى شل المقاومة الفلسطينية، ثم بنهاية التحليل، إلى خدمة . إن لم يكن مصالح الامبريالية الأميركية دائما . فالمطامع الإمبريالية لدى الصهيونية على الأقل. ولم تكن حرب تشرين بالنسبة إلينا نحن الفلسطينيين، كما بالنسبة لمجمل الأمة العربية، إلا انقشاعه قصيرة الدوام. وبدلا من أن تشق طريق تحرير الأراضي المحتلة فإنها عززت النفوذ الأميركي في الشرق الأوسط ويسرت مؤامرات تصفية المقاومة الفلسطينية. وبالمقابل فإن الحرب ونتائجها أثارت في صفوفنا وعيا صحيا سيساعدنا على تكييف أهدافنا على الحقائق، وعلى اتخاذ قرارات جريئة تضع حدا نهائيا لسياسة «كل شيء أو لا شيء».

(8) تحدي السلام

القاعة مكتظة ساخنة متوترة تكاد تنفجر حماسا. والخطباء يتتالون ويلقون بمطولاتهم الملتهبة. وكلما الكفاح المسلح، والثورة، والفتح والتحرير تتردد بل انقطاع، وأنا أتأمل اليافطات والملصقات التي تثير مني الابتسام . على جدران مدرج جامعة بيروت العربية من المنصة التي أجلس عليها، حيث سأكون الخطيب الرئيسي في هذه الندوة التي نظمتها الجامعة. فعلى كل راية وملصقة ترتسم ذات الكلمة مكتوبة بحروف ضخمة: «لا!» لا للتفاوض، لا للتسوية لا للاستسلام، لا للدولة الفلسطينية .

وقط نظمت الندوة خصيصاً لمناقشة مزايا ومساوئ، اشتراك المقاومة المحتل في مسيرة السلام التي بدأت غداة حرب تشرين . أكتوبر. فدعوة السادات إلى مؤتمر يضم الإسرائيليين والعرب بهدف التوصل إلى تسوية نهائية شاملة مبنية على الاعتراف بإسرائيل داخل حدود عام 1948، صدمت الرأي العام الفلسطيني وأضلت هـ وقسمته. فمنذ أسابيع، والمجالات المتقدة تدور في مخيمات اللاجئين وفي الصحافة. والمنظمات الفدائية المنقسمة إلى معسكرين، تتبادل الاتهامات والقدح. فمنظمات «جبهة الرفض» التي ستتكون في صيف عام 1974 . تندد بالموقف «الاستسلامي» بل «الخياني» الذي تقفه فتح والجبهة الديمقراطية التي يرئسها نايف حواتمه، المنظمتان المشبوهتان بتأييد مؤتمر جنيف وبتأييد تسوية تعطي الفلسطينيين «دويلة» في الضفة الغربية وغزة.

كان قادة مختلف التنظيمات الأعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية مدعوين من قبل جامعة بيروت العربية، لعرض وجهات نظرهم خلال سلسلة اجتماعات متتالية. وكان جورج حبش (من الجبهة الشعبية) وجبريل من (القيادة العامة) ونايف حواتمه (الجبهة الديمقراطية) قد سبقوني إلى الكلام. فكان علي في أمسية العاشر من شباط . فبراير 1974 هذه أن أفسر وأبرر موقف فتح.

كان رئيس الجلسة يجهل بصورة ظاهرة الخط الذي قررته قيادة فتح الإجماع، أو أنه اشتبهت عليه وجهة نظري الشخصية. ذلك أنه قدمني إلى آلاف المناضلين المحتشدين في القاعة « بطل الرفض»! حتى أني كنت سأعرض وفقاً لدعواه، لأسباب التي ينبغي أن تدفع الفلسطينيين إلى الإجابة «بلا قاطعة» على كافة «الشبهات» المعددة على جدران المدرج. وحين نهضت لأخذ الكلام . استقبلني الجمهور بهتافات «يسقط الحل السلمي» و « يسقط سلام الاستسلام» «عاشت الثورة المسلحة حتى تحرير فلسطين»! وواجهت لفوري القاعة وأنا ابتسم

ابتسامة واسعة، وأقول: «أني أوشك أن أخيب أملكم» في أضفت: «ولعلي لن ألق التصفيق».ولكنني خلافاً لليافطات المحيطة بنا، أجيب «بنعم» على بعض المسائل المطروحة على المقاومة. وبدأت كلامي في قاعة يلفها صمت كصمت القبور.

وقلت أن حرب أكتوبر . كائنا ما كانت تحفظاتنا عليها . وانتقاداتنا لها، كانت حرباً وطنية أساساً أوجدت وضعاً جديداً في الشرق الأوسط يستدعي قرارات جديدة مبتكرة. ونحن نرتكب خطأ مأسوياً إذا أدرنا عيوننا عن الحقائق التي نواجهها.ولكل من هذه الحقائق طبيعة مختلفة. فنجاحات الجيش المصري والسوري، والتضامن العربي المستجد والزلزال النفساني الذي هز إسرائيل، كل ذلك أسهم في وضع الجلاء عن الأراضي العربية المحتلة في حزيران . يونية1967 على جدول أعمال الساعة. وبين هذه الأراضي المحتلة تمثل الضفة وغزة اللتان تعودان إلى الشعب الفلسطيني بلا جدال.

والمسألة المطروحة اليوم، هي مسألة ما إذا كنا برفضنا لقبول أي شيء آخر غير تحرير فلسطين كاملة، مستعدون لأن نترك جزءاً من تركتنا إلى فريق ثالث. وهل من المعقول أن ندع الملك حسين، يتفاوض باسم الفلسطينيين؟ وهل يحق لنا ألا نبالي أهالي الضفة الغربية وغزة اللتين تعانيان من تنكيل المحتلين. وتابعت أقول أنه تستحيل علينا الإجابة على هذه الأسئلة دون أن نأخذ بعين الاعتبار ميزان القوى المحلي والدولي. فالحركة الفلسطينية لا تتطور في الخلاء. فلها في العالم أعداء وأصدقاء. فلا بد لما إذ ذاك من أن نقيس بدقة طاقتنا على التأثير على الأحداث بدون أن نخدع أنفسنا. والحال هو أن كافة أصدقائنا تقريباً ومعهم عدد من الدول العربية، والمعسكر الاشتراكي . أو على الأقل على مراعاة المراحل. وبن غوريون والزعماء الصهاينة الآخرون قبلوا عام 1948 بإقامة دولة إسرائيل على جزء من فلسطين التي يطالبون بها جميعاً شأننا نحن. وقادة الثورة الفيتنامية قبلوا أثناء مؤتمر جنيف لعام 1954 تقسيم وطنهم إلى دولتين بانتظار أن يواتيهم ميزان القوى. وتلك أيضاًً هي حالة الكوريين الشماليين والجنوبيين. ولينين نفسه ضحى بجزء كبير من الأراضي السوفياتية في معاهدة برست ليتفوسك، لينقذ ما هو أساسي، أي سلطة البلشفية.

مذ ذاك باتت الأسئلة التي أطرحها على المستمعين، أسئلة فظة في بساطتها هل ترانا سندعي أننا أكثر ثورية من القادة السوفيات والفيتناميين والكوريين أو الألمان؟ وهل نوافق على أن نحرم أنفسنا من هامش المرونة والمناورة الذي استأثرت به الحركة الصهيونية طوال تاريخها؟ وبيديهة الحال، فإن علينا أن نميز بين التسوية والتفريط، وأن نعرف أن نأخذ إلى حين ما يقد م لنا دون أن تتخلى عن هدفنا الاستراتيجي، أي عن إقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين،

يعيش فيها العرب واليهود كمواطنين متساويين. وصحت هاتفياً: ينبغي أن ننتهي من سلبية ومزايدات الماضي! قال «لا» التقليدية في الحركة الفلسطينية ليست ثورية وجوبا، ولا الـ«نعم» شكل من أشكال الخيانة ضرورة. بل قد يكون الرفض على العكس، طريقة في الهروب من المشاكل وفي التزيي بزي النقاء العقائدي المنحول.

ثم ختمت كلمتي . التي كثيراً ما قوبلت بتصفيق حاد . بأن عددت القرارات التي اتخذتها قيادة فتح: عدم التخلي عن حقوق الشعب الفلسطيني القاطعة في حق تقرير المصير وفي تحرير وطنه. ومع الملك حسين، خلال ذلك من السيطرة على الضفة الغربية وغزة،لإقامة سلطة وطنية على كل جزء يتم تحريره من فلسطين. والحقيقية هي أن هذه المواقف تشكل الخلاصة التي أفضت إليها مسيرة طويلة وتفكير بدأ في مطلع سنوات النضال. ففي التحليل الذي قمنا به في سنوات الخمسين والستين لسلوك في سلفونا على رأس الحركة الفلسطينية . والذي قدمت خلاصته الأساسية في الفصل الثالث من هذا الكتاب . تبين لنا وجود ضرب من السلبية أردنا أن نتلافاها في ممارستنا الخاصة. فقد ووجه أسلافنا بين عامي 1917 و 1947 باقتراحات متتالية تهدف إلى تسوية النزاع فاطرحوها جميعها، وبحق. ذلك انه لم يكن بينها أي اقتراح يستجيب إلى معيار العدالة، وإلى تطلعات الشعب الفلسطيني. وكان خطؤهم هو أنهم كانوا يرفضون أخذ أي شيء، إذا لم يحصلوا على كل شيء. فساهموا بذلك في تيسير المشروع الصهيوني، أي في الاستيطان السكاني الذي سيؤدي على مر السنين إلى حرمان الشعب الفلسطيني من أراضيه ومن جزء يزداد اتساعا من وطنه. ويقيناً أن مخطط التقسيم الذي أعدته الأمم المتحدة، كان غير مقبول في مبدئه. لكن لماذا لم يقبل القادة الفلسطينيون حلا مؤقتا على غرار المسؤولين الصهاينة، يكون قوامه تأسيس دولة على جزء من الإقليم الوطني الذي أسندته إليهم الأمم المتحدة.

وحين طرحت هذا السؤال على الحاج أمين الحسيني قبل وفاته بثلاثة أشهر، قدم لي الزعيم الفلسطيني عدة أسباب برر بها عجزه، كما قال، عن إنقاذ جزء على الأقل من تركتنا الوطنية. فالدولة العربية المعنية أعاقت من تلقاء نفسها أو تحت ضغط الانكليز . الذين كانوا يكرهونه كرهاً خاصاً كما ذكر . تأسيس دولة الضفة الغربية وغزة، أي في الأراضي التي لم يفلح الجيش الصهيوني في احتلالها وببديهة الحال، فإن ملك الأردن عبد الله، لم يكن يؤيد إقامة كيان فلسطيني لأنه كان ينوي ضم الضفة إلى مملكته. وهذا ما فعله على كل حال بعد حرب عام 1948.

أما الملك فاروق، فإنه لم يكن يسعى من جانبه إلى إلحاق غزة بمصر. وسمح في أيلول . سبتمبر 1948 بعقد مؤتمر فلسطيني في مدينة غزة، أفضى إلى تعيين حكومة

الحسيني . إقامة سلطتها الفعلية في غزة والضفة الغربية. غير أن الحكومة المصرية منعته حتى من الإقامة في غزة بحجة أن الجيش الإسرائيلي «سيستفز» بذلك وقد يحتل القطاع. وعلى هذا فإنه بات على الحكومة الفلسطينية أن تقيم في القاهرة حيث راح رئيسها أحمد حلمي باشا وهو مصرفي ممتهن ينصرف إلى أعماله بأكثر مما ينصرف إلى وزارته الوهمية. وقال الحاج أمين، أنه بعد أن خانته الدول العربية، تخلت عنه غالبية القادة الفلسطينيين الذين انقسموا إلى فريقين، واحد يوالي الأردن والثاني يوالي مصر.

وبالرغم من أن تبريرات الحاج أمين تقبل التصديق، إلا أنها بدت لي غير مقتنعة. ففي تلك الفترة كانت مصر والعربية السعودية معاديتان للأسرة الحاكمة في الأردن ولا توافقان على ضم الملك عبد الله للضفة الغربية. أفلم يكن في وسعه الاعتماد على هاتين الدولتين العربيتين ضد التوسعية الأردنية؟ وإذا كان ذلك من غير ممكن فلماذا لمي ستغيث بالعالم العربي كله، بل وبمنظمة الأمم المتحدة التي قررت التقسيم، ليطالب بالضفة وغزة؟ وعلى أية حال فإن أي وثيقة من وثائق المحفوظات الفلسطينية التي تفحصناها عن كثب، لا تعزز أطروحة الحاج أمين الحسيني .

وباختصار فإنه كان لهذا للأخير وصحابته رؤية إستراتيجية للمستقبل الفلسطيني، إلا أنهم كانوا يفتقدون افتقاداً طاغياً للصفات الضرورية من أجل القيام بتنازلات تكتيكية. وهذه بالضبط هي الثغرة التي حاولت فتح أن تسدها. وخلاف للمظاهر وللقناعة العامة، فإننا لم نقرر إقامة دولتنا على جزء وحسب من فلسطين، غداة حرب تشرين . أكتوبر . فمنذ شهر تموز . يوليه عام 1967، أي بعد شهرين من الهزيمة العربية أو يكاد . تقدم فاروق القدومي من اللجنة المركزية لفي فتح بتقرير سياسي يعرض فيه الإستراتيجية والتكتيك اللذين يجب أن تتبناهما حركتنا. وفي هذه الوثيقة الآنفة نجده. يقترح علينا أن نعلن تأييدنا لقيام دويلة في الضفة الغربية وغزة في حال أعادت إسرائيل هذه الأراضي التي كانت احتلتها لتوها. وأكد أن هذا الهدف ليس مطابقاً على المدى القصير والمتوسط لحق الشعب الفلسطيني في امتلاك أية قطعة من وطنه وحسب, وإنما يستجيب كذلك لتحليل موضوعي للظروف. وبالفعل, فأنه كان من البديهي,أنه كائنا ما كانت انطلاقة وبأس حرب العصابات ضد الدولة الصهيونية, فأنها تظل في المستقبل المنظور, دولة لا تقهر ولهذا فأن عدم توقع المرور بمرحلة مؤدية إلى الهدف الاستراتيجي الذي هو إقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين, يكون أمراً من قبيل الوهم والخيال وبالرغم من واقعية تقرير القدومي وصفائه . وخاصة في الجزء المتعلق منه بالدويلة . فأنه اصطدم بمعارضة حادة داخل الأجهزة القيادية في فتح.

فلم تكن لدينا حينذاك قواعد شعبية على قدر من الاتساع تكفي لعرض الوثيقة على الأطر والكوادر الوسطى في الحركة, فضلاً عن فتح نقاش عام حول موضوعها. وعلى هذا فقد قررنا إحالة تقرير القدومي إلى المحفوظات بانتظار مجيء أيام أفضل.

ثم أن الهدف الاستراتيجي . أي هدف إقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين . لم يحظ بموافقة الكافة. ولكن بعد سنة من المداولات والمناقشات , اتخذنا قراراً بإعلانه لأننا لا نستطيع تأجيله أكثر من ذلك فمن جهة أولى كان الصحفيون يلحون علينا بوابل من الأسئلة حول مغزى كفاحنا ودلالته, فكان من المضحك أن نجيب بالتملص والمداورة, ولا سيما بعد النمو الخارق الذي عرفته أثر حرب عام 1967. ومن جهة ثانية, كان الإسرائيليون يستغلون خرسنا لمصلحتهم مدعين بأن مقصدنا في «تحرير فلسطين من السيطرة الصهيونية» ليس إلا تمويها لأرادتنا في «رمي اليهود في البحر» (في حين أن أحداً منا لم يثر مثل هذا الاحتمال العبثي المتهافت, لا صراحة ولا ضمناً).

وبناء على تكليف القيادة لي بعرض وجهة نظرنا, فأنني أعلنت خلال مؤتمر صحفي عقد في 10 تشرين الأول . أكتوبر 1968, بأن هدفنا الاستراتيجي هو دعم أنشاء دولة ديمقراطية على امتداد فلسطين التاريخية, يعيش فيها العرب واليهود في وفاق وكمواطنين على قدر كامل من التساوي.

وأوضحت أنه ليس لدينا اعتراض . بل بالعكس . على التعايش مع اليهود, الشعب الذي عانى من اضطهادات بشعة, إلا أننا لما كنا غير مسؤولين عن هذه الآلام, فإنه ليست لدينا النية مطلقاً في أن ندفع ثمنها. وإذا فليس في نيتنا أن نتخلى عهن جزء من فلسطين، أو نقر بنظام صهيوني يستبعد في جوهرة العرب ويحرمهم من حقوقهم الطبيعية.

وسألني بعض الصحفيين الحاضرين في المؤتمر: مع أي الإسرائيليين نعتزم التعايش: مع مواليد البلاد؟ مع المهاجرين؟ ثم مع أي المهاجرين منهم، الجدد أم القدامى؟ فأجبت إجابة غامضة، أن على التساؤلات وأن بصدد المحتوى الدقيق الذي سيكون للدولة الديمقراطية. ومرد ذلك سببان: فمن جهة أولى كنا نعتقد أنه ينبغي لنا أن تنتظر رد فعل جانب الخصم قبل أن ندخل في التفاصيل ونتفاوض على تسوية. والحال هو أنه لا إسرائيل ولا أية دولة أخرى صغرى أو عظمى أبدت حتى هذا اليوم أدنى اهتمام بمشروعنا بأن طلبت إلينا على سبيل المثال لأن نوضحه. ومن جهة أخرى فإن الاقتراح الذي عرضته أثار، على الرغم من غموض تعابيره، معارضة عامة أن في صفوف الحركة الفلسطينية بما في ذلك فتح وأن بين الحكام العرب.مع ففكرة مكان الصراعات الدامية، كانت فكرة أكثر حدة من أن يطيقها كثيرون. فقد كان لا من

كثير من الشجاعة بل من التهور لنغطي عن الجراح والاحباطات المتراكمة ، وكذلك عن ذهنية سياسية تكونت عبر عدة عقود من السنين. ولكننا تغلبنا على عبء الماضي حين جعلنا المجلس الوطني الفلسطيني الخامس يتبنى بعد مرور أربعة أشهر على مؤتمري الصحفي (1 . 4 شباط . فبراير 1969) قراراً يؤكد هدفنا الاستراتيجي.

على أن ذلك لم يجعل قيادة فتح تستبعد من اهتماماتها سياسية المراحل التي تعتزم جعل المقاومة ما تقبل بها. وإنما هي أحداث الأردن المأساوية (1970 . 1971) التي جاءت تفتح أعين المناضلين على الحقائق. فقد كان من البديهي من المملكة الهاشمية، أن الثورة الفلسطينية لا تستطيع الاعتماد على أي بلد عربي لتضمن لنفسها ملاذا آمنا وقاعدة لعملياتها ضد إسرائيل فلا بد لنا من أجل أن نمضي قدماً نحو المجتمع الديمقراطي التعديد الذي. نحلم به، أن نقيم دولتنا الخاصة حتى ولو على بوصة من فلسطين. وقد أزداد انتشار وتقدم هذه الفكرة لدى «قاعدة» الحركة، بعد أن أعلن الملك حسين في 15 آذار . مارس مشروعه الخاص «بالمملكة العربية المتحدة» الهادف إلى خلق مملكة على ضفتي نهر الأردن . تشتمل على إقليمين متحدين هما الأردن وفلسطين. وإذا فإنه لا بد لنا، لإحباط مؤامرة الغاصب، أن نطالب بما يعود أكتوبر قراراً بإعلان سياستها المرحلية وهدفها التكتيكي.

وما لبثت المنظمات الفدائية التي سوف تؤلف بعد ذلك «جبهة الرفض» الجبهة الشعبية التي يرئسها جورج حبش، أن شنت علينا حملة قدح. فاتهمنا البعض بالانهزامية، وندد بنا البعض الآخر كاستسلاميين. ووقفوا موقفاً معادياً من إقامة «الدويلة» في الضفة الغربية وغزة، ومن الدولة الديمقراطية المستقلة أيضاً. فالكفاح المسلح لا يمكن أني يكون في رأيهم لا متواصلاً مطلقاً ويمضي حتى غايته. أي أنه ينبغي أن يستمر حتى تحرير فلسطين تحريراً كاملاً. وحاولوا أن يمارسوا إرهاباً ذهنياً بأن راحوا ينددون بأنصار التسوية مخونة. وعادت بي الذاكرة حينها إلى قراءات شبابي وإلى النزاع الذي نشب بين لينين وتروتسكي، فتعززت قناعتي في أننا على صواب.

إلا إننا وفاء منا للقاعدة التي اسسناها منذ تأسيس فتح، امتنعنا عن الرد على الثلب. فقد لاحظنا بالفعل أن الثورة في أمكنة أخرى من العالم، قامت بالتهام بنيتها وجرت تسويات حسبا فيها تحت ذريعة التباينات الأيديولوجية والسياسية، أفضت في الغالب وباسم النقاء الثوري دائماً، إلى حمامات دم. وهكذا فإننا أقسمنا على ألا نستخدم أسلحتنا ضد أخصامنا داخل الحركة الفلسطينية. وألا نحل الطعن والتجريح محل العرض التدليلي وعلى أي حال فإننا نجحنا نجاحاً واسعاً في إدخال ما نسميه «الحوار الديمقراطي» إلى عادات المقاومة.

وكان في عزمنا أن ندعو المجلس الفلسطيني (برلمان المقاومة) إلى الانعقاد بعيد حرب تشرين . أكتوبر لمناقشة الدور الذي ينبغي أن نضطلع به في المرحلة الدبلوماسية الجديدة البادئة. غير أننا فصلنا تأجيل الاجتماع للتوصل إلى الإجماع على برنامج مشترك بين كافة المنظمات الفدائية. كان نايف حواتمه، رئيس الجبهة الديمقراطية متفقاً إلى حد بعيد مع فتح . فهو أحد أوائل الذي بشروا بإنشاء «دويلة» في الضفة الغربية وغزة . فبدأنا مشاوراتنا مع حبش زعيم الجبهة الشعبية. وكان مما يزيدنا ثقة بالحوار، هو أننا برغم تبايناتنا العميقة، نحافظ على علاقات جيدة معه. فخلال فترة «الجزر» التي تبعث مجزرة الفدائيين في الأردن، قام بين منظمته ومنظمتنا تعاون وثيق في مختلف المجالات، ولا سيما في الأراضي المحتلة ولبنان. وحبش الذي أعرفه شخصياً جيد المعرفة، شخص غريب. فهو في العلن دغمائي متصلب خارق في عنفه، ولا سيما حين يخطب ويطيل في الجماهير. ثم أنه كخطيب متدفق يستولي على المستمعين إليه. أما في الحياة الخاصة، فإنه هادئ رزين يصغي إلى محادثيه بانتباه ولا يعوزه التواضع، ويعرب عن أفكار معقولة. وكثيراً ما التقيت به، ولكن خارج منزله الذي يتكتم حوله تكتماً عظيماً. وعلى أية حال فإنه لم يعد يكثر من الظهور منذ أن أصيب بعارض في قلبه. وحبش إنسان بالغ النزاهة ويدافع عن آرائه السياسية باقتناع، ولكن دون التعصب الذي يظهره بعض من رفاقه أعضاء المكتب السياسي في الجبهة الشعبية.

كانت المحادثة التي أجريناها . ياسر عرفات وأبو صالح وأنا . في مطلع عام 1974 معه، على أكثر ما تكون من التشجيع. وبدأ متفهما إزاء اقتراحاتنا بل إنه اقترح أن يعهد إلى شخصيات فلسطينية تعيش في الأراضي المحتلة، بالمشاركة في المساومات الجارية من أجل إيجاد حل سياسي للنزاع العربي . الإسرائيلي. في حين يقتصر دورنا نحن على توجيههم ودعمهم سراً.

ولم يكن لدينا أي سبب يجعلنا نشك بصدقه أو في اعتزامه اللجوء إلى المناورة. فالجبهة الشعبية، شأن جبهة حواتمه، الديمقراطية، وبخلاف كافة المنظمات الأخرى، باستثناء فتح، هي حركة رفضت دائما وصاية أي بلد عربي عليها. فكانت تعقد التحالفات التكتيكية ثم تنهيها محتفظة باستقلالها الذاتي، برغم المعونة المالية والسياسية التي تتلقاها من الحليف الآني. وقد مرت فترة كان حبش وحواتمه يأخذان علينا فيها تعاوننا مع الأنظمة المدعوة «بالبرجوازية الصغيرة» إلا أن التجربة قادتهما إلى تبني موقف عملي (براغماتيكي) مماثل لموقفنا يقضي بالتعاون مع كل دولة مستعدة لدعمهما. غير أنهما كانا يتمتعان في الحقل السياسي بتعاطف

فعال من قبل الدول التقدمية كالعراق وليبيا وجمهورية اليمن الديمقراطي (الجنوب) ثم بقدر أقل بتعاطف الجزائر.

ثم إن محادثاتنا خلال الأشهر الأولى من عام 1974، مع قادة المنظمات الفدائية الأخرى، وخاصة مع الصاعقة (الموالية لسوريا) ومع جبهة التحرير العربية (العراقية الولاء) تكللت هي كذلك بالنجاح. وأفضت مفاوضاتنا إلى إعداد برنامج ذي عشر نقاط تبناه المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في القاهرة في شهر حزيران . يونيه من السنة ذاتها. وكان نجاحا غير مأمول: فقد أعلن ممثلو كافة الفدائيين، بالإجماع، إرادتهم في إقامة دولة مستقلة «على كل جزء أو أية أراضي فلسطينية يتم تحريرها». مضيفين بعد ذلك «إن الهدف الاستراتيجي لمنظمة التحرير الفلسطينية يظل بناء دولة ديمقراطية على كامل الوطن الفلسطيني». غير أن هذا الإجماع الرائع لم يدم، للأسف، إلا قليلا! فما أن انتهت دورة المجلس حتى انفجرت المجادلات والمزايدات داخل مختلف المنظمات فأخذت العناصر الجذرية على رفاقها أنها وافقت على نص «تصفوي» وبطبيعة الحال، فإن المتطرفين انتصروا على المعتدلين، مثلما هو الحال دائماً في مثل هذه المناظرات. وباستثناء فتح والجبهة الديمقراطية والصاعقة . الجبهات اللواتي تتمتع بقيادات متجانسة . فإن كافة الفصائل الأخرى قلبت مواقفها، وشنت حملة شعراء ضد «الدويلة» وبدأت الملصقات المعادية لسياستنا تظهر على جدران بيروت. ولازلت أذكر أن أحداها كانت تعرض خارطة فلسطين وقد اخترقتها عشر رصاصات، ترمز إلى مواد البرنامج المشترك العشر التي تبنيت لفورها... وبعد ذلك بقليل تحالفت رسميا فيما بينها داخل «جبهة رفض» سيكون من شأنها أن تقسم المقاومة قسمة خطرة خلال السنوات القادمات.

وعلى هذا فإنه بات لا بد من النزول إلى الشارع للتصدي للدعاية المناوئة وتبين أن ذلك مهمة صعبة. فكم كانت دهشتي حين ذهبت إلى مخيم اللاجئين في تل الزعتر . الذي سيتعرض سكانه بعد ذلك بسنتين إلى مجزرة على يد الميليشات المسيحية إبان الحرب الأهلية اللبنانية . ورأيت هذا التجمع السكني البائس مغطى بشعارات معادية «للدويلة» الفلسطينية! وخلال المهرجان الشعبي الذي نظم لي، كان الحضور ببديهة الحال يؤيدون، أو يؤيد قسم كبير منهم، على الأقل، سياسة أخصامنا المتصلبة. وبدأت كلمتي بتهنئة المستمعين إلي على روحهم الكفاحية، مضيفاً أننا شعب لا يروض، ولكننا إلى جانب ذلك شعب غريب. فمنذ خمس وعشرين سنة وأنتم، كما قلت لهم، تعيشون في المنفى، إنها خمس وعشرون سنة من الإحباط والمذلات والحرمان، ولكنكم تواصلون رفضكم لكل حل بالتسوية حتى ولو كان مؤقتاً! أليس أنه من العجيب الخارق أنكم تفضلون العيش في أرض غريبة على الإقامة في منطقة محررة من وطنكم

الأصلي؟، والحقيقية هي أن مستمعي الرافضين أبدوا إقليمية محلية ضيقة. فبما أنهم ينتمون بأصولهم إلى الجزء الفلسطيني الذي قامت عليه دولة إسرائيل عام 1948، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم غرباء عن الضفة الغربية! ويشعرون أنهم غير معنيين «بالدويلة» التي نقترحها! بحيث أن جبهة الرفض وجدت هناك أرضا خصبة لأطروحاتها «المتطرفة» ولسياسة كل شيء أو لا شيء من الأهالي، بل الغريب أنه كان يصل إلى الفلسطينيين الأثرياء أو الميسورين من فلسطينيي المنفي، وخاصة أولئك المقيمون في بلدان بعيدة عن ساحات المعركة فهؤلاء لا يتعرضون لأية مخاطر طبيعية مادية، ويعيشون في ظروف اجتماعية مثالية لا يعوزهم فيها أي شيء، ولهذا فإن بوسعهم أن يسمحوا لأنفسهم بترف التصلب دون أن يخشوا الوقوع في النفي الأزلفي! وكذلك الأمر بالنسبة لبعض المثقفين الذي ينصرفون في صالوناتهم إلى لذاذات التحاليل المتحذلقة المنقطعة عن الواقع والتي تفضي كلها إلى سلبية محزنة.

وما انفكيت من جهتي عن القول أن فض المتطرفين الفلسطينيين يلحق يرفض الإسرائيليين الساعين إلى استبعادنا عن كل عملية تسوية قبل أن يدمروننا. ثم أضفت بلا ملال ولا كلال بأن لدى أعدائنا عزما راسخا على ألا يتركوا حتى ولو بوصة من فلسطين التي يحتلونها،وأننا نخدع أنفسنا غدا اعتقدنا بأننا سنحصل دون إطلاق نار على «فلسطين الصغرى» موضوع مجادلاتنا المشبوبة المتقدة. وخلافا لكثير من رفاقنا، فإنني كنت مقتنعا عام 1974 . قتل وكررته عام ذاك . بأن التسوية المتفاوض عليها هي خارج البحث، وستظل كذلك طالما لم يتغير ميزان القوى بصورة ملحوظة لصالحنا.

وفي ربيع عام 1976، أي بعد ذلك، بستين تقريبا، وبينما كانت الحرب الأهلية تستعر في لبنان، والجيش السوري يستعد لشن هجمته على الفلسطينيين زارني جورج في بيروت ليقدم لي تعازيه بمناسبة وفاة والدي. وبعد أن تلافى أثارة خلافاتنا، طرح علي وهو يهم بالانصراف سؤالا يشي بحالته. فقد سألني «هل لا يزال هناك أمل؟» قالها ونظراته يشوبها حزن عميق... ولم تكن منظمات الرفض المحارب الوحيد الذي يحاربنا عام 1974. فقد كان علينا أن نواجه، فضلاً عن إسرائيل، كيسنجر الذي كان يحتمي بظل دبلوماسيته السرية ليكيد لنا ويبعدنا عن المسرح السياسي، متلاعبا بالسادات وبالملك حسين، ملوحا لهذا الأخير بإعادة الضفة الغربية إلى التاج الهاشمي. وهكذا فإن حسين كان رئيس الدولة العربي الوحيدة الذي امتنع عن تصديق القرار الذي تبنته «القمة» العربية في الجزائر (في 26 . 28 تشرين الثاني نوفمبر 1973) والذي يعترف لأول مرة بمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. وقد أبقي القرار سرا بسبب هذا الامتناع وبعد ذلك بثلاثة أيام، أي في أول كانون الأول ديسمبر، صرح

الملك علنا بأن من حق الأردن أن يحصل على انسحاب إسرائيلي من كامل الأراضي المحتلة، قبل إجراء استفتاء يتيح للشعب الفلسطيني أن يختار مستقبله أو بعبارة أخرى فإنه يطالب بحق تمثيلنا في مؤتمر جنيف.

أما بقية رؤساء الدول العربية فإنهم لزموا الصمت. وببديهة الحال، فإن عددا منهم كان يأسف لتصويته لصالحنا في «قمة» الجزائر. فبعيد ذلك ببضعة أشهر سيلقي السادات بقناعة على أثر زيارة حسين له في الإسكندرية (في 18 تموز . يوليو)، عندما سيوقع معه على بيان مشترك يعترف له بحق التكلم باسم الفلسطينيين المقيمين في المملكة الهاشمية (وينيف عددهم عن المليون) . ثم إذا بالصحافة المصرية تفلت في الآن ذاته من عقالها، مندفعة ضد المقاومة وقادتها، حتى إن عددا من الصحف ستصفهم «بالمهربين». ولن يقف من بين كافة الرؤساء العرب سوى الرئيس بو مدين، الذي أجريت معه محادثة طويلة، فيلقي خطابا شديد اللهجة بمناسبة انعقاد مؤتمر طلابي في الجزائر، يندد فيه بالمؤامرة التي تحاك ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

واتضح الخطر عندما أعلن عن الاتفاق على «قمة» عربية في الرباط تعقد في 26 تشرين الأول . أكتوبر التالي. وكان جدول الأعمال يتضمن بطبيعة الحال، مشكلة التمثيل الفلسطيني . وسريعا ما قررت مجموعة من المناضلين الشباب . دون علم من قادة فتح . بأن تنتقل إلى العمل: فهم سيقتلون اجتماعهم السابق في تشرين الثاني . نوفمبر 1973- ضد المنظمة الفدائية الأم، أو «مقسم» الفدائيين كما يسمونها في المغرب. فمنظمة التحرير يجب أن تبقى «الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني» مهما كلف الأمر.

واتخذت كافة الإجراءات المكنة كي لا يفلت العاهل الأردني هذه المرة من العقاب الذي طالما استحقه. فوضعت عدة مشاريع اغتيالات وأوكلت إلى مجموعات مختلفة من المغاوير الذي سيتمركزون في مطار الوصول، وعلى الطريق الذي سيمر بها حسين وعلى عتبة القاعة التي سينعقد بها الاجتماع وفي أمكنة أخرى. ودخل الفدائيون الشباب بصورة إفرادية وبمواقيت مختلفة، إلى المملكة الشريفية مزودين بجوازات سفر مزورة لا تحتاج إلى تأشيرة مغربية ثم انتشروا في عدة مدن مترصدين الإشارة ليجتمعوا في الرباط. وكما كان الحال في العملية التي جرت ضد الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ، فإن الخطة كانت تقضي بألا تسلم الأسلحة إلا قبيل المحاولة بساعات.

كان التشكيل الفدائي قد بات في المغرب عندما التقى مسؤولان من المغاوير عرضاً في أحد فنادق الدار البيضاء قبل افتتاح القمة بشهر قريبا، برجل أعمال ليبي يعرف أحدهما،

ويشتهر بأنه مناصر متحمس للمقاومة الفلسطينية، كما أنه . فوق ذلك . يؤيد أعمال العنف. والواقع هو أنه كان يعمل ، بين جملة ما يعمله في المخابرات المغربية. وبعيد ذلك بساعات اكتشف مناضلانا علامات غريبة تنم عن أن البوليس يراقبهما. فقررا مغادرة البلاد للحال. إلا أنهما ما لبثا أن أوقفا، وحقق معهما وتعرضا للتعذيب. وخلال ذلك أقام عملاء الأمن في غرفة الفندق التي نزلا بها «ليستقبلوا » الزوار المحتملين ويجيبوا على الهاتف. ولن يلبث مناضل ثالث مكلف بتسليم الأسلحة أن يخابر من طنجه معلنا عن وصوله في المساء نفسه محددا رقم الرحلة. ولأنه تهور وخابر من فندقه، فإن البوليس تمكن من الحصول على اسمه المستعار بسهولة وأوقفه لدى وصوله إلى مطار الدار البيضاء. لكن مهمة الأمن المغربي باتت أقل سهولة، عندما خابر مناضل رابع من غرفة هاتف عامة في أغادير معلنا وصوله بطريق الجو. ولما لم يكن لدى البوليس أية وسيلة لتحديد هويته، فإنه حبس كافة مسافري الطائرة وأخضعهم خلال ثمانية وأربعين ساعة لاستجواب صارم. ولكن صاحبنا الذي يحمل جوازا باكستانيا لم يلبث أن اكتشف أمره عندما تبين المحققون أنه لا يعرف كلمة من لغة «مسقط رأسه»... وباختصار فإن الأمن المغربي تمكن بواسطة حيل عدة، أن يعتقل أربعة عشر فدائيا من الفريق الذي دخل إلى البلاد خلسة.

كان التقرير الذي تلقاه الملك حسين الثاني من مخابراته مقلقا على نحو خاص. فقد علم من هذا التقرير . خطأ في الحقيقة . إن المؤامرة لا تقضي باغتيال حسين وحسب، وإنما اغتياله هو أيضاً، والملك فيصل ملك العربية السعودية والرئيس السادات ورئيس الدولة السودانية، اللواء جعفر النميري. وبما أنه لم يتم القبض على سلاح . كما يضيف التقرير . فإن خطر قيام محاولات اغتيال يرتكبها شركاء لهؤلاء، لا يزالون أحرار أن هو خطر لا يزال قائما.

وضع الحسن الثاني قوات الأمن في حالة استنفار، وأخطر بقية رؤساء الدول المعنيين بالمؤامرة، واستدعى ياسر عرفات على جناح السرعة ليطلب منه تفسيرا لذلك. وخلال المحادثة التي تمت في منتصف شهر تشرين الأول . أكتوبر ، اتهمني العاهل الشريفي، بالاستناد إلى تقرير مخابراته بأني أقف على رأس المؤامرة التي أحبطها. واعترض عرفات ودافع عني، وأكد للملك أن قيادة فتح . بما في ذلك هو نفسه . تجهل كل شيء عن القضية. فعرض عليه الملك صور الفدائيين الموقوفين الأربعة عشر، فمل يتعرف إلا على اثنين منهم. خلال ذلك كان المسؤولون عن المحاولة المجهضة يسعون إلى الحد من الأضرار، فالأسلحة المخصصة للفدائيين المعتقلين، كانت مموهة تمويها ممتازا في شاحنة تجتاز اسبانيا في طريقها إلى جبل طارق، وبات من المفترض أن تسلم بين بوم وآخر في طنجة حيث تواجه خطر الوقوع

بين يدي البوليس المغربي الذي سيصبح لديه والحالة هذه أدلة كافية لتجريم رفاقنا. وعلى ذلك فإنه كان لا بد من منع الشاحنة من الوصول إلى مقصدها بأي ثمن. فكان أن ركب أحد أفراد مجموعة المغاوير ،ممن لم يقول في الاعتقال، الطائرة إلى مدريد لزود هناك المخابرات الإسبانية، عبر مخابرة هاتفية مغفلة وبوصف مصفل للشاحنة وحمولتها وللطريق التي ستسير فيها. وهكذا فإن البوليس الأسباني توصل إلى اعتراض سبيل الشاحنة وتوقيف سائقها. وتوقيف مناضل أخر يرافقها. غير ان السلطات الإسبانية التي لم تكن تريد أن تتورط في قضية تتواجه فيها المغرب والفدائيون، أخمدت القضية وطرت الناقلين بعد أن صادرت الشاحنة والأسلحة الموجودة فيها.

ولم اجتماع مجلس وزراء الخارجية العرب الذي انعقد في الرباط قبيل «القمة» ببضعة أيام، في مناخ من الرعب. فالشائعات المخوفة تملأ العاصمة المغربية. ووفقا لم ذكرته هذه الشائعات فإن مئة إرهابي يستعدون للقيام بموجة من الاغتيالات، بل مجزرة، ثم تستشهد بتقرير صادر هذه المخابرات أو تلك . الأميركية، الفرنسية، الألمانية الغربية أو الأردنية . للتتنبأ بأهوال قيامية. ولاحظ أعضاء وفد منظمة التحرير المشاركون بأعمال المجلس كيف أن القلق المتزايد راح يؤثر يوما بعد يوم على موقف الوزراء العرب: فحتى أولئك المعروفون منهم بانحيازهم لصالح الملك حسين انتهوا بأن اصحبوا مدافعين مستمتين عن منظمة التحرير الفلسطينية.

وشكلت قمة الرباط بالنسبة إلينا، انتصارا ساطعا كما هو معلوم. ذلك أن كافة الرؤساء العرب، بما في ذلك الملك حسين، تبنوا سلسلة من القرارات لصالحنا، بينها قراران على الأقل يستحقان التذكير بهما: فقد أكدا مجددا «حق الشعب الفلسطيني في العودة إلى وطنه» وكذلك على حقه «في إقامة سلطة وطنية مستقلة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، على كل قطعة محررة من الأراضي الفلسطينية، وعلى أن البلاد العربية مطالبة بدعم هذه السلطة لدى إقامتها في كافة المجالات وعلى جميع المستويات.»

وأثار بيان «القمة» النهائي لدى نشره فرحا عارما لدى الفدائيين الأربعة عشر المعتقلين، إذ اعتبروا، وبحق، أنهم بلغوا هدفهم. فهم لم يكونوا يسعون إلى إراقة الدم، لأن الأمر الأساسي كان أن تعلن البلدان العربية العدوة أخيراً تأييدها الواضح لحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وللصفة التمثيلية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكنت أشاطرهم فرحهم، إلا أن ارتياحي ظل مشوبا بشائبة المصير الذي يعد لهم. فهم لا يعانون من شراسة أوضاع الاعتقال ولا من التعذيب اللانساني وحسب، وإنما من تبرؤ الأصوات الرسمية في المقاومة منهم. بحث باتوا عرضة للبقاء في زنزاناتهم طيلة حياتهم. وكانت الحملات الصحفية الموحى بها من قبل المخابرات المغربية ضدهم، تصورهم كلصوص متشردين، في حين أنهم قدموا للقضية الفلسطينية خدمة لا تقدر

بثمن، دون أن يريقوا نقطة دم واحدة. ولسخطي على ذلك واستنكاري له، فإني كنت أتحرق تعجلا وعيلان صبر لكي أقوم بالدفاع عنهم علانية. غير أنه كان علي أن ألازم الصمت حائراً يائسا . ذلك أن الأوضاع السياسية ومصلحة المقاومة العليا، لا تسمح لي بأن أتصرف من وحي وجداني. فتبرير عملهم قبل «قمة » الرباط أو أثناءها، كان سيثير أزمة كبرى بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين البلدان العربية تؤدي بهذه البلدان إلى تبني موقف معاد إزاءنا، فأخرب بذلك الجهود التي بذلت لانتزاع اعتراف رؤساء الدول العربية الذي طالما تمنيناه.

وعندما انتهى اجتماع هؤلاء الرؤساء، تعرضت مجددا للإلحاح واللجاج لأسكت مرة أخرى كي لا ألحق الضرر بالعمل الذي يقوم به أصدقاؤنا في الأمم المتحدة من أجل أن تعترف المنظمة الدولية، بمنظمة التحرير الفلسطينية. فهذا الهدف جوهري جداً بالنسبة لمستقبلنا. وقد أصبت حين تمالكت نفسي. فبعد أسبوعين من « قمة » الرباط، استقبل ياسر عرفات في الجمعية العامة للأمم المتحدة استقبال المنتصر. بحيث أن الترحيب الذي استقبله به ممثلو نحو من مئة و أربعين أمة وهم وقوف، في 13 تشرين الثاني . نوفمبر 1974، كان أحد أكثر اللحظات المؤثرة في تاريخ الشعب الفلسطيني. ذلك أن أمم المعمورة كانت تحيي الصراعات التي خضناها والتضحيات التي بذلناها طوال أكثر من نصف قرن. وشعرنا في ذلك اليوم أننا لم نعد في نظر الرأي العام العاملي مجرد شعب من اللاجئين والحفاة وإنما جماعة وطنية لا ريب في أنها مغتصبة مهانة مذلة، إلا أنها فخورة أبدا ومستعدة لمواصلة معركتها. وستتخذ الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد خطاب ياسر عرفات قرارين لا سابق لهما في تاريخ المنظمة الدولية. فهي لم تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وحسب، ولكنها أولت منظمتنا كذلك، بل وبخاصة، وضع المراقب داخل الأمم المتحدة، في الجلسات والأعمال التي بات ممثلونا بعد ذلك يدعون إليها. وبهذا فإننا نلنا الامتياز العظيم بأن نكون أول حركة تحرر وطني تشارك رسميا في المنظمة العالمية وتحظى بمركز مماثل مثلا لمركز سويسرا والكوريين والفاتيكان الخ... وخلال ذلك اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة بحق الشعب الفلسطيني «بالسيادة والاستقلال الوطني».

وقد غمرنا هذا كله. ذلك أننا بلغنا على المسرح الدولي كافة أهدافنا ولم نعد خارجين على القانون و «عصابات إرهابيين» و «قتلة». وفي هذا الحين بالذات قررت أن أرفع صوتي دفاعا عن الأربعة عشر فدائيا المعتقلين ظلما في المغرب.

واستغليت مناسبة انعقاد مهرجان شعبي في 19 تشرين الثاني . نوفمبر في جامعة بيروت العربي، لأدهش المستمعين إلي، ليس بدفاعي عن هؤلاء الأخيرين وحسب، بل بإعلاني تضامني

مع المحاولة التي قاموا بها تضامنا كاملا وبعد أن أشرت إلى الانتصارات الأخيرة التي حققها شعبنا، وخاصة في «قمة» الرباط وفي الأمم المتحدة، أعلنت أنه لا يمكن فصل هذه الانتصارات عن معارك ونضال مناضلينا. مضيفا أن المعتقلين الأربعة عشر في الرباط، إنما قاموا بواجبهم. وخلافا لمزاعم الدعاية المغرضة، فإنه لم تكن عندهم النية في مهاجمة كافة رؤساء الدول العربية، وإنما كان واحداً منهم فقط، هو الملك حسين. ثم هتفت قائلا أنه إذا كان صحيحا أنهم سعوا إلى هذا الغرض فإنني أتحمل المسؤولية الكاملة وأدعي شرف دعم هذه العمل! ثم ذكرت بهذا الصدد بأن الهيئات القيادية في فتح قد اتخذت قراراً أثر مجزرة الفدائيين في 1970-1971، بأن تزيل الملك حسين ونظامه.

ثم تعرضت إثر ذلك لمصير المعتقلين الأربعة عشر، فأعلنت تصميمي على التوصل للإفراج عنهم. ونددت بالتعذيب الذي أوقعه البوليس المغربي بهمن ثم ألمحت إلى أنه إذا ما أصم الحسن الثاني أذنيه عن نداءاتي . وكنت أرسلت إليه قبل ذلك برسالة شفوية بواسطة شخصية تونسية . فإن لدينا من الوسائل ما نجبر بها العاهل الشريفي على أذعان. وبينما كنت مندفعا في هجومي على الحسن الثاني، قاطعني أحد معاوني ليسلمني رسالة. وجحظت عيناي وأنا أحملق في المذكرة الموجزة. ذلك أني قرأت فيها أنه تم إطلاق سراح رفاقنا الأربعة عشر، وأنهم سلسوا إلى مصر التي أودعتهم سجن القلعة بالقاهرة. وأستأنف كلمتي وأنا في غاية الضيق لا أدري كيف سأعدل لهجة خطابيو مضمونه. وغمغمت قليلا ثم رحت أقول أني تسرعت قليلا في الهجوم على الحسن الثاني لأنه في الحقيقة يتحسس مصالح المقاومة الفلسطينية. ثم أعلنت النبأ الذي تلقيته لتوي، ثم ما لبثت أن استطردت لأتعرض لموقف مصر الشائن التي تبيح لنفسها اعتقال رجال أفادوا لتوهم من تساهل المغرب. وصحت بأي حق ينصب السادات نفسه قاضيا؟ ولم أكد انتقل من الهجوم على الحسن الثاني إلى السادات حتى قوطعت مرة ثانية من قبل واحد من جمهور الحاضرين حين سلمني كلمة حررت بهذه العبارات تقريبا: «إن السادات يدعوك لرؤيته فوراً. فأرجوك ألا تنتقده قبل أن تستمع إليه». وكانت الكلمة موقعة بتوقيع أحد أفراد السفارة المصرية في بيروت ممن أعدهم بين أصدقائي الخلص. فهو كضابط استخبارات سابق، قد لنا خدمات كبرى في الأردن إبان مواجهة عام 1970 مع جيش الملك حسين فلم يكن أمامي بديل عن الموفقة على طلبة الملح.

واستأنفت خطابي وأنا أكثر ارتباكا وبدأت أتلعثم وأحاول البحث عن كلمات تتيح لي أن أنعطف بهدوء، بأعف عن السادات دون أن أناقض نفسي. وأخيراً توصلت إلى أو أقول للجمهور

المتحير أن أصدقاءنا المصريين أبلغوني للتو أنباء مطمئنة: فاعتقال الفدائيين الأربعة عشر «إجراء روتيني» وهم يلقون معاملة حسنة. ثم أوجزت حديثي وخلصت بكلام غامض التفاؤل.

وفي اليوم التالي ركبت الطائرة إلى القاهرة. ووجدت في المطار ممثلا عن الرئيس السادات ينتظرني ليقودني مباشرة إلى القصر الرئاسي، شأن ما كانت الحال معه عشية حرب تشرين . أكتوبر. واحتضنني رئيس الدولة المصري وهو يبتسم ويقول: «يبدو أنك كنت تسعى إلى اغتيالي؟» فلم أحاول حتى أن أعترض، إذ أن الاتهام بدا لي عبثيا متهافتا. واستطرد السادات مطلعاً أياي على التقارير التي تلقاها قبل «قمة» الرباط وعلى زيارة الفير المغربي له وتسليمه إياه نتائج التحقيق المقلقة المخيفة. غير أنه أضاف متحببا بأن ارتاب في هذه المعلومات وتشكك فيها. أليس أن عائلتي المقيمة في القاهرة تسكن بجوار مقره؟ أو لسنا أصدقاء قدامى؟، وعلى أية حال فإن ضباط المخابرات المصرية الذين أرسلوا إلى المغرب عادوا مقتنعين بأن الملك حسين هو المستهدف الوحيد بالعملية. وقد تباحثوا مطولا مع الفدائيين الموقوفين الذين يعرفون أربعة منهم لأنهم يقيمون عادة في مصر.

وباختصار، فإن السادات وفر على عناء تقديم تفسيرات للماضي لا طائل فيها. وشكرته على الثقة التي ويوليني إياها ثم قلت له بفظاظة: أنه لا يليق به أن يجعل من نفسه سجان الوطنيين الفلسطينيين. وأضفت أني سأشعر بخيبة عميقة إذا ظل مناضلونا ساعة واحدة بعد في سجن القلعة. فتوجه السادات إلى الهاتف وطلب ممدوح سالم الذي كان حينها وزيرا للداخلية، وطلب منه الإفراج عن المعتقلين الأربعة عشر فوراً. وغادرت الرئيس وأنا خلي القلب، لأعود إلى زوجتي وأولادي.

وبعيد ذلك بثمانية وأربعين ساعة، أي في يوم 22 تشرين الثاني . نوفمبر تلقيت مخابرة هاتفية من إسماعيل فهمي، وزير الخارجية المصري الذي طلب إلي بصوت مضطرب أو أوافيه في الحال. ثم أضاف بغموض أن القضية عاجلة وخطيرة. ووجدته في مكتبه بصحبة رئيس الوزراء ووزير الداخلية وبعض المساعدين فحدق لدى انطباع بأني أمثل أما مجلس حرب. فالوجوه منطوية والجو متوتر. وأبلغني إسماعيل فهمي بالمشكلة بإيجاز. فقد اختطفت طائرة بوينغ تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية، هذا اليوم إلى تونس (بعد هبوط اضطراري في دبي) على يد مجموعة فلسطينية تطالب بإطلاق سراح الفدائيين الخمسة عشر المعتقلين في مصر. وكان بين هؤلاء الأخيرين خمسة من الذين ارتكبوا محاولة مطار روما في 5 نيسان . إبريل 1973 . كما كان بينهم ثمانية آخرون هم المسؤولون عن عملية الخرطوم التي جرت في آذار مارس 1973 ضد سفارة المملكة العربية السعودية (1)، أما الاثنان الأخيران فكانا معتقلين في

هولندا على أثر القيام بعملية فاشلة هناك. كان الرئيس بورقيبة يريد تلافي حدوث مأساة في مطار تونسي ويلح على أن تلبي مطالب قراصنة الجو. وقال لي إسماعيل فهمي: « أننا لا نستطيع الإذعان للا بتزاز». ليسألني بعد هذا: « هل تستطيع مساعدتنا؟ وأن تتوصل إلى تحرير الرهائن ولكنني كنت أعتبر من جانبي أن قيام مجموعة مغاوير بالمطالبة بإخلاء سبيل دون مقابل؟» وينبغي لي أن أعترف بأن الطلب بد لي غريباً وصعب التلبية. فدائيين سجنوا بناء على طلب منظمة التحرير، أمر لا يطاق. فقد كانوا يزايدون علينا ويلقون في وجهنا بتحد لا بد من الرد عليه.

وبينما كنت أتردد في أن أقوم بالعمل بنفسي، اتصل بي السادات هاتفياً وألح علي بالذهاب إلى تونس عارضا أن يضع طائرة خاصة بتصرفي، ووافقت وأوضحت أنني سأكون مستعداً للإقلاع مع بعض معاوني في الساعة التالية. ووصلت إلى تونس، ثم لم ألبث أن توجهت إلى برجل المراقبة حيث كان علي أن أمضي ثلاثة أيام وليلتين في التفاوض على إطلاق سراح الرهائن. فكانت مهمة من أصعب وأغب المهمات التي قدر لي أن أقوم بها. وفي برج المراقبة استقبلني وزير الداخلية التونسي طاهر بلخوجه الذي قابلته هناك لأول مرة وأصبح بعد ذلك أحد أفضل أصدقائي. ثم اسمعني تسجيلا لأول مفاوضات أجراها مع قراصنة الجو. فقد كان هؤلاء منكفئين داخل الطائرة البريطانية ويهددون بقتل كافة رهائنهم. وعندما علموا أني جئت من القاهرة لأكلمهم غمروني بالشتائم وغمروا معي ياسر عرفات وسائر قادة منظمة التحرير الفلسطينية ورؤساء الدول العربية منددين «بخيانتهم».

كان المسؤولون عن العملية ينتمون « لمجموعة الشهيد أحمد عبد الغفور» وأحمد عبد الغفور كان أحد مناضلي فتح قبل أن يلتحق عام 1972 بمعسكر «جبهة الرفض»، قبل أن يقتل في بيروت في ظروف غامضة عام 1974. كان متطرفاً سياسياً ونصيراً من عتاة أنصار العنف.وبعد أن جمع حوله عددا من المعجبين حصل على دعم أبي نضال، وهو منشق أخر لاجئ في العراق. وهكذا فإنه نظم محاولات دموية مختلفة ولا سيما في روما وأثينا، قبل أن يقتل نفسه. وإذا فإني كنت أواجه أخصام عنيدين ويرفضون فوق ذلك بعناد أن يخوضوا أي حوار معي.

وبالرغم من ذلك فإني استخدمت جهاز الإرسال في جهاز المراقبة وتوجهت إليهم وأنا أحضهم على الإصغاء إلي. فذكرت العلاقات الممتازة التي كانت تربطني بأحمد عبد الغفور قبل أن ينفصل عن فتح. وأكدت لهم أن السلطات التونسية، وأنا نفسي، قد أتخذنا قرار للفور بعدم اللجوء إلى القوة وأن همنا الأول هو إنقاذ الرهائن على سمعة المقاومة والاستجابة لمطالبهم.

وأوضحت أنه ليس في الوارد أن نسلمهم فدائيي عملية الخرطوم الثمانية. وبالمقابل فإنني أعد بأن أقوم بكل ما يسعني القيام به للتوصل إلى تحرير الفدائيين السبعة الآخرين الذين يطالبون بهم. ثم أسمعتهم أثر ذلك تسجيلاً لمؤتمر صحفي عقده ناطق باسهم مجموعة الخرطوم في النهار ذاته. والذي يعلن فيه أنه هو ورفاقه لا يريدون أن يبادلوا برهائن طائرة تونس.

ثم خلصت إلى القول لمحادثيي المغيبين «فكروا، وتعقلوا وأعطوني جواباً إيجابياً» ثم تولى بلخوجة الكلام وعرض بدء المفاوضات. وتناهي صوت أجش يقول: « أننا لا نثق بأبي أياد. فنحن نعلم أنه رجل ماكر» فراح الوزير التونسي يلح عليهم ويقول لهم أن بوسعهم الوثوق بنا لأننا لا نخوف عهداً مقطوعاً. وطلبوا منا مهلة نصف ساعة للتفكير. لكن الانتظار طال واستغرق الليل كله ونحن يلفنا صمت كصمت المقابر. وكنا بدأنا نيأس، حين دوى في الصباح صوت رئيس المجموعة ويدعى مروان. وهو يطلب الكلام مع «الأخ أبو أياد...» وتنهدت تنهيدة ارتياح، فقد ربحنا نصف المعركة طالما أنهم يدعونني وللمرة الأولى باسم الأخ.... وبدون أن أضيع الوقت اتصلت بالحكومتين المصرية والهولندية لأطلب إليهما أن يرسلوا لي في اليوم ذاته الخمسة الفدائيين من مصر والفدائيين من هولندا. وكانت الطائرة من لاهاي أول الطائرتين وصولاً، إلا أن القنصل الهولندي أبلغني أن الفدائيين لن يغادروا الطائرة إلا بعد تحرير كافة ركاب الطائرة البريطانية. أما قراصنة الجو الذين كانوا يريدون أن تسير العملية على العكس تماماً، فإنهم طنوا أننا ننصب لهم في الواقع شركا فنرفزوا وهددوا بالبدء بإعدام سجنائهم واحداً واحداً. فدعوتهم إلى الصبر وشرعت في مفاوضة مملة لأكسب الوقت، ذلك إلى أن يصل الفدائيون الخمسة الآخرون من القاهرة.

ولدى وصول هؤلاء بات في وسعي أن أعرض صيغة تسوية يمكن أن يكون لها حظ من النجاح: وقوامها أن تذهب المجموعة القادمة من مص لتلتحق «لمجموعة أحمد عبد الغفور» التي يطلق بدورها سراح كافة ركاب الطائرة، وبعد ذلك يغادر الفلسطينيان الموجودان تحت رقابة البوليس الهولندي طائرتهما ليصعدا إلى الطائرة البريطانية. ثم يقوم طاقم الطائرة . وهم سبعة . يحملون جميعاً الجنسية البريطانية بإيصال قراصنة الجو وصحابتهم إلى البلد الذي يختارونه بعد استعادة حريتهم.

وقبل أن يصعد فدائيو القاهرة الخمسة إلى الطائرة المخطوفة تأكدت من تواطئهم معي. فهم يعرفونني بالشهرة ويقدرون المعركة التي أخوضها.

كما أنهم فوق ذلك مدينون لأنني تدخلت لصالحهم لدى توفيقهم. وطلبت إليهم أن يقوموا بكل ما في وسعهم لإقناع قراصنة الجو بقبول اقتراحي، خاصة بأن يظهروا لهم انه ليست لديهم

أية فرصة لفرض وجهة نظرهم. فهم من جهة أولى معزولون على الصعيد الدولي لأنهم سمعوا الإذاعات ولا بد كما سمعتها أنا، وعلموا أن كافة البلدان العربية بما فيها ليبيا والعراق واليمن الجنوبية، أي الدول المتعاطفة مع «جبهة الرفض» قد أدانت المحاولة إدانة قاطعة. ومن جهة أخرى فإن ابتزازهم هذا لن يفضي إلى شيء لأن جميع الرهائن تقريباً ليسوا بأردنيين ولا بأميركيين. إذ من ذات الذي يقلق لأجل باكستانيين أو هنود أو أي آسيويين آخرين؟ إن ملاحظة ذلك أمر محزن. لكن الأوروبيين لا يهتمون إلا بحياة رعايا هم، أما رعايا العالمة الثالث فإنهم غالباً ما يعتبرونه . وبل يعاملون . كما لو كانوا كائنات أدنى من البشر، وإذا فإن عليهم أن يقنعوا بتسوية تتيح لهم أن ينسحبوا بثمن مغر، ذلك أني أقدم لهم مقابل ذلك الأمان والإعفاء من العقاب.

وقد أدى الخمسة مهمتهم، لكنها لم تكن خالية من الصعوبات ذلك أنها اقتضت مهم بضع ساعات من المساومات والمداولات مع قراصنة الجو. ثم خرج الركاب كما متفق، وهم سبعة وعشرون مسافرا بينهم ثلاثة أوروبيين وأفرج عنهم سليمين معافين. ثم سلم الفدائيان اللذان أفرجت الحكومة الهولندية عنهما، إلى مجموعة «أحمد عبد الغفور» دن حوادث. فأصبح هناك ثلاثة عشر فلسطينيا (بينهم قراصنة الجو الستة) على متن طائرة الخطوط الجوية البريطانية، ومعهم أفراد طاقم الطائرة السبعة، وباتوا مستعدين للإقلاع والذهاب إلى البلد المعين لاستقبالهم.

غير أن رئيس المجموعة، مروان، طلب فجأة أن يتحدث إلي على انفراد. وجرت المقابلة التي أعد لها بدقة، في مهبط الطائرات وبالضبط في منتصف الطريق الواقعة بين الطائرة وبرج المراقبة. فأبلغني أنه يريد هو ورفاقه الحصول على حق اللجوء السياسي إلى تونس مع ضمانة عدم تسليمهم إلى منظمة التحرير الفلسطينية، ولم يكن بإمكاني أن أقبل مثل هذه الشروط دون الرجوع إلى الرئيس بورقيبة الذي رفض رفضاً قاطعاً أن يستجيب لطلب قراصنة الجو وعندها راح الخاطفون يهددون بتفجير الطائرة بمن فيها، فيقتلون بذلك أفراد طاقم الطائرة معهم. فكان علينا أن نعود على بدئنا. وضاعت نصائحي سدة. فعرضت عليهم حينذاك مبادلة الإنكليز السبعة بسبعة من معاونيي، وهكذا يصبح ضحايا هذا الانتحار الجماعي كلهم من الفلسطينيين. وقلت لهم بالمذياع: «وقروا علينا عار إعدام أبرياء انكليز!». وكما توقعت فإن الرئيس بورقيبة تأثر لاقتراحي، ثم أنه لما كان لا يريد أن يكون مسؤولاً عن مثل هذه الخاتمة المأساوية فإنه تعهد بتلبية مطالبه مغاوير عبد الغفور. وهكذا فإنني نجحت في النهاية ولكنه كان نجاحاً «على الحافة».

وخلال هذه الستين ساعة من المساومات المقلقة المحمومة. كان هناك دجل قدموه إلي على أنه دبلوماسي بريطاني، يقف على مقربة مني ويتابع تطور المأساة التي نتلعب. كان منزوياً قليل الكلام ولا يتحدث إلا بالإنكليزية فلم يكن يخطر في بالي أنه يفهم لغتنا. وكم كانت دهشتي عظيمة حين توجه إلي بعربية منقحة ليشكرني بحرارة. وقالي لي «نحن مدينون لك بجميل عميق يا أبا أياد لإنقاذك حياة رعايانا. ولقد تأثرت بالغ التأثر بروحيتك الفروسية وبعرضك المؤثر بالتضحية بفدائيين بدلاً عنهم....» كان محدثي، وهو السفير الذي خدم في مختلف البلدان العربية، مكلفاً من قبل الخارجية البريطانية. وأجبته بأنني لم أقم إلا بواجبي، وانه إذا كان يصر على شكري، فإن بوسع حكومته أن تدفع نصف ثمن طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي أفلحت في إنقاذها لصندوق منظمة التحرير الفلسطينية. فانفجر الدبلوماسي ضاحكاً، وبعد ذلك ببضعة أيام، تلقيت، لدى دعوتي إلى منزلي في القاهرة باقة زهور باذخة من شركة الطيران البريطانية.

غير أن المهمة التي أنجزتها لم تجزني التهاني وحدها. فخلال المؤتمر الصحافي الذي عقدته في تونس غداة تحرير الرهائن، راح صحفي أميركي يقول لي بفظاظة: « أحسب أنكم لم تكونوا من أمركم في برج المراقبة في يسر، يا مستر أبو أياد! أليس مكانكم الطبيعي أن تقبع إلى جانب الإرهابيين في الطائرة!؟ فتمالكت أعصابي وأجبته بهدوء : « سيان أكان المكان برج المراقبة أم سواه من الأمكنة، فأني لا أشعر في أي حيز كان أنني في داري. لكن أترانا نبالغ في الطلب إليكم . وأنتم لكم وطن ودار ثابتة . أن تراعوا الحد الأدنى من اللياقة إزاء من ليس لهم وطن ولا دار.

وكانت لي من ثم مناقشة متقدة مع قراصنة الجو، حول موضوع نجحنا في خنقه في المهد حينذاك، وأثيره اليوم للمرة الأولى . فالواقع هو أن مطالب مجموعة عبد الغفور لم يقتصر على تحرير الفدائيين المسجونين. فقد اشترطوا كذلك استدعاء وفد منظمة التحرير الفلسطينية من الأمم المتحدة. فطلبت من السلطات التونسية إلا تنشر شيئاً حول هذا الموضوع قبل التوصل إلى جعل أفراد العملية يتراجعون عنه أثر مفاوضات شائكة معهم. فقد قلت لهم: لكن هل قرأتم أمام الأمم المتحدةّ؟! وعندما أجابوني بالنفي، رحت أصف لهم مشاهد الفرح التي دارت في مخيمات اللاجئين موضحاً لهم أن الفلسطينيين شعروا بالفخر عندما علموا بأن واحد منهم عرض أمام العالم أجمع، قضية طال تجاهلها، وأن الرجل الذي تكلم باسمنا قد قوبل بالتصفيق من قبل ممثلي شعوب المسكونة كلها. ثم أضفت: ولا ريب في أننا لا نجد لنا كذلك ولا ريب أن نتوهم الأوهام حول سلطان وفعالية هيئة الأمم المتحدة. لكن هل هذا يعني أن علينا أن نسترذل هذا

الانتصار المعنوي والسياسي؟ وانتهى مروان ورفاقه بأن أقروا، على أثر المناقشة، بخطئهم، ثم اعتذروا بارتباك وخجل عما أظهروه من عماء. ومنذ ذلك الحين التحقوا ستتهم بصفوف فتح. ثم أن النقاش الذي أجريته معهم كان مفيداً لي من حيث أنه مكنني من معاينة المقدار من التأثير الذي تستطيع به الدعاية الديماغوجية التي تمارسها جبهة الرفض، أن تتركه على الشباب الوطني، إذا لم يكلف الواقعيون داخل الحركة الفلسطينية أنفسهم عناء الإجابة بتحليل موضوعي للظرف الذي نواجهه ومما يزيد مهمتنا سهولة يسرا، هو أن أطروحات أخصامنا هي أطروحات لا يمكن الدفاع عنها كائناً ما كان المنظور الذي ينظر منه: قومياً أو ثورياً أو ماركسياً. فقادة الجبهة الشعبية يدعون الانتساب إلى الماركسية، ليؤكدوا أن الدبلوماسية هي شكل من أشكال الانهزامية وان الكفاح المسلح وحده ثوري. ثم يشجنون بمثل هذه الحجة دخولنا إلى الأمم المتحدة، المنظمة التي تضم كافة البلدان الاشتراكية بما في ذلك عملاقاً الشيوعية الدولية! إن هؤلاء الماركسيين المنحولين يجهلون حتى تعاليم لينين الذي كان يوصي البلاشفة بالتسرب إلى كافة المنظمات الجماهيرية واثبات وجودهم فيها. ثم تراهم يزعمون لأنفسهم التفوق لغيابهم عن أهم هذه المنظمات الجماهيرية، أي عن تلك التي تضم شعوب الكرة الأرضية كلا و جميعاً.

ورئيس الجبهة الشعبية، للدكتور جورج حبش، نسبي أنه عارض في تشرين الثاني . نوفمبر 1974 دخلنا إلى الأمم المتحدة كعضو مراقب, فعرض علينا في أيلول . سبتمبر 1977 أن يقوم وفدنا بطلب استبعاد إسرائيل عنها لكن هذا ليس تناقض الدكتور حبش الوحيد... وبينما كنا نتجاذبه داخل الحركة الفلسطينية حول الطريقة التي نرد بها على التحدي السلام, كان هنري كيسنجر يعمل بدأب دائب وتكتم بالغ ليعطل مصلحة إسرائيل. كان يعمل ظاهراً كوسيط لا يكل ولا يمل, ويقوم بسلسلة من الزيارات للشرق الأوسط ذاهباً آيباً, غاديا رائحاً كالمكوك بين تل أبيب والقاهرة ودمشق وعمان والرياض إلخ ... وسريعاً ما لوحظ أن هدفه ليس التوصل إلى تسوية شاملة تذهب إلى جذور النزاع, وإنما عقد اتفاقات جزئية سوف تعطي التوسعيين الإسرائيليين فترة راحة طويلة بأن تقيم العرب بعضهم ضد بعض. وقد بدأ الاتفاق الأول الذي عقد بين مصر وإسرائيل تحت رعايتها, في تشرين الثاني نوفمبر197, اتفاقاً بريئاً. أفلم يكن يهدف إلى إنقاذ الجيش الثالث من الاختناق وربما من الإبادة؟ ولم تعارض منظمة التحرير الفلسطينية ذلك. ولكن عندما شرع كيسنجر برحلة مكوكية جديدة بهدف التوصل إلى فك ارتباط عسكري أول في سيناء, فأن منظمتنا انتقدت انتقاداً قاسياً دبلوماسية«الخطوة خطوة» التي لا يمكنها, ببديهة الحال, إلا أن تقضي إلى أثارة الشقاقات داخل العالم العربي. وقد قلقت سوريا بخاصة واستاءت منها. ذلك أنها فهمت أن اتفاقاً جديداً إسرائيلياً مصرياً لا يمكن إلا أن يضعف موقفها إزاء الدولة اليهودية.

وقبيل توقيع اتفاق 18 كانون الثاني . يناير 1974 بينه القاهرة وتل أبيب ببضعة أيام, فأنني سافرت إلى القاهرة لأحث السادات على عدم التورط في هذه الدوامة الخطرة. كانت المفاوضات في نقطة الصفر, فكنت آمل في أن يتغلب التصلب الإسرائيلي مرة أخرى على ضعف الرئيس المصري وموقفه الانهزامي ... غير أنني وجدت السادات مغضبا, ليس ضد الدولة الصهيونية أو ضد كيسنجر, بل ضد... منظمة التحرير الفلسطينية. وأبدى لي انتقادات مرة ثم هاجم ياسر عرفات بعنف بسبب البيان الذي نشرته اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية بصدد التوجه الدبلوماسية الأميركية فيه.

وأظهرت الكثير من الصبر محاولا تهدئته وإعادته إلى الصواب. فقد كنت أريد تلافي حدوث قطيعة في لحظة كنت لا أزال فيها آمل باكتسابه إلى وجهة نظرنا. إلا أنه لم يتراجع ولا قيد أنملة ثم احتد وقال لي:«ولو قدم لي كيسنجر في الغداة متراً مربعاً واحداً من سيناء أخذته منه! ولن أتراجع عن الخط الذي رسمته لنفسي أبداً!» فأبديت بأنه ينبغي على كل حال أن يأخذ بعين الاعتبار موقف سوريا, حليفته في حرب تشرين . أكتوبر. وانتهى بأن قبل بعد كثير من التردد بالتباحث مع الرئيس حافظ الذي كنت تباحثت معه قبل ذهابي إلى القاهرة. وتمت المقابلة بينهما بعيد ذلك في الرياض, إلا أنها لم تفض إلى نتيجة لأن السادات واصل الطريق التي رسمها له كيسنجر, حتى عقد اتفاق سيناء المشؤوم الثاني من أيلول . سبتمبر 1975, وهو الاتفاق الذي سيخرج مصر من معسكر بلدان ساحة المعركة, ويعيق الهوة المحفورة بين القاهرة ودمشق, ويسهم أسهاماً عظيماً في تغذية نيران الحرب الأهلية في لبنان.

وقد انفجرت الصدمات الأولى بين المسيحيين والمسلمين في لبنان, وبين الأحزاب المارونية وبين الفلسطينيين, في الأيام الأولى من عام 1975.

ولم يكن في وسعي وأنا مستغرق بالكامل بالمشاكل المطروحة على الحركة الفلسطينية أن غادر مركزي في بيروت. غير أنني استغليت الهدأة الخادعة التي سادة في شهر تموز . يوليو, وقررت القيام بأول انتقال لي خلال سبعة أشهر إلى الخارج. والواقع هو أنني كنت تلقيت خلال ذلك دعوة لزيارة المغرب بهدف التصالح مع الحسن الثاني. ولم أكن أريد أن أقوم بزيارة رسمية أو علنية مخافة ألا يفضي اللقاء إلى نتائج إيجابية. وعلى هذا فقد تم الاتفاق على أن أسافر مع زوجتي وأولادي لنمضي إجازة في تونس, ومن هناك أسافر سراً إلى المغرب. كنت مسروراً لتمكيني من الإفلات من مسؤولياتي المنهكة في لبنان لبضعة أيام, خاصة وأني أكن مودة خاصة للتونسيين ورئيسهم الحبيب بورقيبة. وبخلاف ذلك, فأني كنت محتاجاً, بالنظر إلى أنني لم أنل قسطي من الراحة منذ سنوات, إلى أن آخذ إجازة بصحبة أطفالي الذين لا أراهم إلا نادراً.

وفي العاشر من آب . أغسطس لقحت بي عائلتي إلى تونس, وبعيد ذلك بنحو من عشرة أيام قادتنا طائرة مغربية خاصة بصورة بالغة التكتم إلى الدار البيضاء, يصحبنا ضباط من المخابرات المغربية، والفدائيون الثلاثة المشتركون بعملية تشرين الأول . أكتوبر 1974، ضد الملك حسين، الذين أفرج الملك الحسن الثاني عنهم. ذلك أني كنت حريصاً بالفعل على تقديمهم إلى العاهل المغربي لإقناعه بأنهم ليسوا بالمتشردين اللصوص كما وصفته مخابراته. وأنزلت في مفر فخم بالدار البيضاء، وبقيت فيها خمسة أو ستة أيام قبل أن يقتادوني إلى الرباط لأقابل الملك. وهناك جرت المقابلة وفقاً لقواعد وأبهة البلاط الشريفي. إذ وصلت إلى القصر في عربة فخمة تتقدمني الدراجات النارية ويرافقني حشد من الحرس.واستقبلني رئيس المراسم الملكية ثم أدخلني إلى مكتب فسيح شاهدت في طرفه الأقصى الحسن الثاني جالساً إلى طاولة عمله. وما أن دخلت حتى نهض واقفاً وتقدم إلى وسط الغرفة ليحيني. إلا أنني لاحظت أن مودته لا تصل إلى حد احتضاني على الطريقة العربية. وكان ذلك طبيعياً باعتبار أننا لم نسو بعد الخلاف الذي يفصلنا. وعلى أي حال فإن سيرته هذه تتناسب مع سيرتي تماماً. ذلك أني أنفر بالفعل من العواطف المصطنعة فلا أعانق شخصا ألقاه للمرة الأولى، أو شخصاً لا أحمل له عاطفة ما. وتبعني الفدائيون الثلاثة الذين يرافقوني ثم حيوا الملك وانسحبوا ليتركونا وحدنا، وما لبث الحسن أن بدأ المحادثات بقوله: « فلننس الماضي، إذ أن من الخير في تقديري أن نفتح صفحة جديدة في علاقاتنا» فأثنيت على قوله ثم أستأذنه في أن نقطة واحدة على الأقل، تهمني على نحو خاص، عنيت الاتهامات الظالمة للفدائيين الذين أوقفوا قبيل «قمة» الرباط بقليل. وقلت له: «كيف أمكن أن تصدقوا يا جلالة الملك أن عدة رؤساء دول، أنتم بينهم كانوا مستهدفين بالعمليات شأن الملك حسين؟» وعددت الجرائم التي ارتكبها العاهل الأردني ضد الشعب الفلسطيني وذكرته بأنه هو نفسه كان قد اقترح منذ سنوات أن يتخلى حسين عن السلطة للمقاومة. ثم قلت له بصراحة فظة بأننا لن نكل في المستقبل عن ملاحقة حسين إذا لم يتخل هو نهائياً عن أوهامه بصدد استعادة الضفة الغربية الخاص أو باسمنا نحن. فالقضية ليست قضية مبدأ وحسب، وإنما هي مشكلة عصيبة ترتهن مستقبل شعبنا.

وأصغى إلي الحسن الثاني بانتباه، ثم قال لي، أن الشعب الفلسطيني يستحق أن يمارس حقه في تقرير المصير، إلا أنه عرض أن يقوم بمساع حميدة لإعادة الحوار بين المقاومة والملك حسين ثم أثرنا بعد ذلك النزاع الذي كان اندلع لتوه بين المغرب والجزائر حول الصحراء العربية، وعرض لي العاهل المغربي وجهة نظره، ثم اقترح على صيغة تسوية وكلفني بنقلها إلى الرئيس بو مدين

الذي كنت سأقابله قبل عودتي إلى بيروت. وقد أتاحت لي هذه المحادثة التي راحت تزداد حرارة، أن أقيس مدى ما يتمتع به الحسن الثاني من أرابه ومهارة، ومعرفة واسعة بالمشكلات الدولية.

ثم سألني قبل أن نفترق، عن مشاريعي، فأبلغته بعزمي على مغادرة المغرب من الغداة فعارض وأصر على أن أبقى حتى أول أيلول . سبتمبر على الأقل. لكن لماذا أول أيلول بالذاتّ؟ وأجابني أحد معاونيه عندما لسألته في ذلك بعد انتهاء المقابلة، بألغاز إذ قال: «لأن أطفالك يريدون ذلك». كنت أجهل أنهم يعدون لي دون علمي احتفالا بعيد ميلادي الذي يصادف في 31 آب . أغسطس، والذي كنت نسيته بالكامل. غير أنني بقيت في الدارة الجميلة التي وضعوها بتصرفنا قرب الشاطئ خلال فترة الثلاثة أو الأربعة أيام الباقية، والتي استغليتها لأقابل مختلف شخصيات المعارضة.

وستظل سهرة الواحدة والثلاثين من آب محفورة في ذاكرتي كإحدى أجمل سهرات حياتي. ذلك أنه لم تتح لي، وأنا المستغرق في أنهما كأتي أو في تنقلاتي، أن أجد نفسي وسط أسرتي في مناسبة كهذه. ووجدتني محاطاً بأطفالي الستة و زوجتي والمناضلين الفلسطينيين الثلاثة وبشخصية كبيرة من البلاط الملكي، أمام وليمة شهية وكعكة ميلاد ضخمة مزدانة بعدد من الشموع يوافق عددها عدد سني عمري. وغنينا فلسطينية ومغربية بصاحبها نقر العود، حتى ساعة متأخرة من الليل. وفي الغداة، علمت من الإذاعة في الجزائر أن مصر وإسرائيل عقدنا اتفاقاً جديداً، وهاماً المرة، حول فك ارتباط عسكري في سيناء. كنت أجهل التفاصيل، وأجهل بخاصة البنود السرية في البروتوكول الملحق بالاتفاق الذي لن يكشف مضمونة إلا بعد ذلك بعدة أشهر . إلا أنني توجست بأن يكون حقاً وصدقاً، مرحلة تنحو نحو معاهدة صلح منفرد مطابقة لإستراتيجية إسرائيل الدبلوماسية.

وحين سألني الصحفيون الجزائريون عن هذا الاتفاق، فأني كنت أول قائد فلسطيني يشجب تفريط السادات. فاتهمته بأنه يسدد عليها اتفاق سيناء، بالنسبة للقضية العربية وللسلام الأهلي في لبنان. فأعرب رئيس الدولة الجزائري عن اقتناعه بأن التفاهم الإسرائيلي المصري سيؤدي إلى تفاقم الشقاقات بين القاهرة ودمشق، ثم أضاف بأنه لا يستبعد أن يقوم الأميركيون بتشجيع الصداقات الدموية في لبنان أضعافاً للحركة الفلسطينية. وكان يرى أن حياة القادة الفلسطينية أن تتخذ مثل هذا الموقف بادئاً، وإلا فأن إعلاناً بهذا المعني من جانبه سيكون سابقاً لأوانه وغير مناسب.

وما لبثت لدى عودتي إلى بيروت في الخامس من أيلول . سبتمبر أن ذهبت إلى اجتماع تعقده لجنة فتح المركزية لتفحص وامتحان اتفاق سيناء بالذات. ثم أصدر على أثر مداولاتنا بياناً

ينتقد التفاهم المصري الإسرائيلي وهنري كيسنجر الذي أوصى به، انتقاداً شديداً. لكن غالبية البلدان العربية لزمت الصمت، أم موافقة منها على الاتفاق، وأما مجاراة لمصر أو مراعاة لجانب الولايات المتحدة أو لكليهما معاً. ومذ ذاك، صار في مستطاع الجنون الدموي أن ينفلت من عقاله في لبنان، دون أن يعيقه معيق.

(9) الشرك اللبناني

بدأت الحرب الأهلية اللبنانية على منا تقتضيه «الأصول» أي بذبحة، ففي بعد ظهر الثالث عشر من نيسان . إبريل 1975، كانت سيارة تقل (أوتوبيس) تقل عدداً من الفلسطينيين واللبنانيين، تجتاز حي عين الرمانة ذي الغلبة المسيحية، ولم يكن في وسع هذه السيارة أن تسلك طريقاً آخر انتقل ركابها من مخيم صبرا حيث كانوا يشاركون في مهرجان شعبي، إلى أماكن سكنهم الواقعة في مخيم آخر، هو مخيم تل الزعتر، فكان أن تعرضت لنيران غزيرة في ذات الحين الذي كان رئيس حزب الكتائب بيير انجميل، يدشن فيه كنيسة في عين الرمانة. ولم يكن في حيازة هؤلاء الركاب وبينهم عدد من النساء والأطفال أي سلاح يدافعون به عن أنفسهم فكان أن سقط عدد منهم لدى بداية إطلاق النار، بينما راح المهاجمون يجهزون على البقية الباقية من الجرحى. وهكذا فإن قوات الأمن وجدت لدى وصولها إلى مكان الحادث ثلاثين جثة ممدودة داخل الأتوبيس. وبهذا ستكون بداية أجد أفظع النزاعات المسلحة في التاريخ، ليتواصل ويزداد اضطراماً خلال ثمانية عشر شهراً . اللهم ما خلا هدنة خداعة في شهري تموز يوليو وآب أغسطس من العام 1975.

والحقيقة هي أن مذبحة عين الرمانة فقأت دملاً لم ينفك تقيحه عن التئام منذ ما يقرب العقد من السنين. وهي إلى ذلك تشهد على تدهور العلاقات الفلسطينية برغم بعض الفترات من الوفاق الظاهر. فسلطات بيروت بدأت تعارض عمل المقاومة كما أشرت في فصل سابق، منذ إطلاق فتح للكفاح المسلح في كانون الأول . ديسمبر 1965، فتعتقل وأحياناً تعذب الفدائيين الذين يحاولون اجتياز الحدود اللبنانية للذهاب إلى الأراضي التي تحتلها إسرائيل. وكان لهزيمة عام 1967 من الآثار في بيروت ما كان لها في العواصم العربية الأخرى إذ وجدت الحكومة اللبنانية نفسها مكرهة على تبني موقف لين إزاء المقاومة، القوة الوحيدة التي لم تستكن إلى الهزيمة في العالم العربي وامتشقت السلاح في وجه عدو اشتهر بأنه لا يقهر. وأما الفلسطينيون المقيمون في لبنان فإنهم استردوا من جانبهم ثقتهم بأنفسهم ثم أكبوا في غمرة الحماس على تحطيم قيودهم في بلد كان يعاملهم كمواطنين من الدرجة الثانية، وتحولت مخيمات اللاجئين التي جعلتها القوانين والقيود والإجراءات الإدارية أشبه بالسجون، إلى قلاع، وتطوع الرجال والنساء بالآلاف في التنظيمات الفدائية أو في ميلشيات الدفاع الذاتي. وأنشأ مقاتلونا قواعد عسكرية في الجنوب، ثم راحوا يشنون انطلاقاً منها عملياتهم ضد الأهداف الواقعة داخل الأراضي الفلسطينية.

أما المسؤولون اللبنانيون فإنهم راحوا يراقبون، عاجزين، تطور وتنامي نشاطاتنا المستقلة، ولم تظهر أولى بوادر الضيق في بيروت إلا بمثل ما ظهرت في عمان . أي إثر تظاهرة التشييع المهيبة التي نظمناها في نيسان . أبريل 1968 لأحد مناضيلنا من التابعية اللبنانية، عز الدين الجمل، الذي استشهد خلال عملية داخل إسرائيل. فقد راح آلاف الفدائيين المسلحين، يتقاطرون في أرتال داخل شرايين العاصمة الرئيسية. صحيح أن ممثلين عن كافة الهيئات والأحزاب اللبنانية، اليمينية منها واليسارية، وعن الدولة، فقد أصروا على المشاركة في التشييع تعبيراً عن التضامن، إلا أنه كان من البديهي أن الانتشار العلني لقواتنا قد صدم عدداً كبيراً منهم. وأما نحن، فإنه كان من الصعب علينا من جانبنا أن نصادر الحرية التي استعادها شعبنا، والأمل الذي استرده في تحرير الوطن المغتصب واللذين كان حمل السلاح يرمز إليهما.

وبعد جنازة عز الدين الجمل بستة أشهر، بدأت التوترات بالاحتدام إثر اشتباك أول حدث في الجنوب بين مجموعة مغاوير فلسطينيين وبين دورية تابعة للجيش اللبناني، تلته في الأشهر التالية صدامات دموية. وفي شهر تشرين الأول . أكتوبر 1969، دارت معارك عنيفة في عدة مناطق من البلاد، إثر محاولات السلطات فرض إشراف وقيود على تنقلات ونشاطات الفدائيين. فقد تبنى رئيس الجمهورية شارل حلو تحت ضغط الأحزاب المارونية مواقف معادية لنا، بينما جاهد رئيس الحكومة رشيد كرامي في الحفاظ على مصالح المعسكرين. وفي حين أن الأهالي كانوا بالإجمال مؤيدين لنا، إلا أن الشرخ الطائفي عاود الظهور معاودة خطرة، إلى حد أن رئيس الدولة أفضى إلى أحد المقربين إلهي، بأن البديل الوحيد للتسوية هو تقسيم لبنان إلى دولتين، إحداهما مسيحية والأخرى مسلمة. وفي هذه الظروف بدأت المفاوضات في القاهرة تحت رعاية الرئيس عبد الناصر، الذي عرض وساطته، على الفريقين بحيث أنها أفضت في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر إلى اتفاقات لا تزال تحكم إلى اليوم علاقات المقاومة بالدولة اللبنانية.

ومع أن «اتفاقية القاهرة» لم تنتشر علينا بناء لطلب السلطات اللبنانية التي كانت تخشى ردات فعل المعارضة البرلمانية، إلا أنها تعرضت لحرب شديدة من قبل رئيس الكتلة الوطنية ريمون اده، وهو سياسي على جانب عظيم من النزاهة أكن له شخصياً، برغم الاختلافات التي لا تزال تفصل بيننا إلى اليوم، مودة كبيرة. إلا أنني لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن بيير الجميل وكميل شمعون، زعيمي حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار اللذين حملا السلاح لإلغاء اتفاقية القاهرة، التي وافقا عليها دون تحفظ.

ولم تكن علاقتنا بزعماء اليمين المسيحي سيئة في ذلك الحين. بل لقد كنا نطمح إلى إقامة علاقات صداقة وتعاون مع كافة التشكيلات، وخاصة مع الطائفتين الرئيسيتين من السكان.

وكثيراً ما كان القادة الفلسطينيون، وعرفات بخاصة، يلتقون مع بيير الجميل وكميل شمعون في جو يسوده الود، بل التقدير المتبادل. كان شمعون يظهر خلال هذه الاجتماعات وفي مواقفه المعلنة، اعتدالاً مثالياً. وحين أبدينا له ذات يوم دهشتنا من هذه الازدواجية في اللسان فإنه فسر لنا ذلك بعدم قدرته على أن يفعل غير ذلك، بالنظر إلى مشاعر أنصاره ومحاربيه الذين لا يفهمون كنه الحوار القائم مع رؤساء المقاومة. وإنما فهمنا بعد ذلك بكثير أن الكتائبيين كانوا يعبئون الرأي العام منذ ذلك الحين، استعداداً للصدام مع الفلسطينيين. يبقى أن سنوات 1970 . 1972 ظلت هادئة نسبياً. ولا ريب في أن مشكلات عديدة ظهرت، إلا أنها حلت حبياً بفضل وسائل الاتصال التي أفلحنا في الحفاظ عليها مع الزعماء الموارنة ومع الدولة اللبنانية التي كانوا يغلبون عليها.

وإنما فسدت الأمور في ربيع عام 1973. فغداة الغارة اللبنانية على بيرون في 10 نيسان أبريل واغتيال زعماء منظمة التحرير الفلسطينية الثلاثة، اندلع النزاع بصدد تقصير قوات الأمن، ففي حين أن القادة المسلمين، وعلى رأسهم رئيس الحكومة صائب سلام، طالبوا بفتح تحقيق حول سلبية الجيش، وبإنزال العقاب بالمسؤولين وعزل قائد الجيش العماد اسكندر غانم، فإن الرئيس فرنجية طالب، مدعوماً من قبل الأحزاب المسيحية الرئيسية، بدخول القوات المسلحة إلى مخيمات اللاجئين للدفاع عنها. وبطبيعة الحال، فإننا أطرحنا طلبه الذي يسير في عكس وجهة «اتفاق القاهرة». ثم راحت الحوادث تتوالى، ويتوالى معها توقيف المناضلين الفلسطينيين.

على أن سيرة الجيش ظلت تسترعى انتباهنا. ففي الحين الذي كنا نتخذ فيه إجراءات لتهدئة الأوضاع، تبين لنا أن قيادة الجيش العليا تضاعف الاستفزازات كما لو أنها تريد سفك الدم وبلوغ نقطة من اللارجوع. وهكذا فإن المعارك الدامية التي اندلعت في بيروت في مطلع شهر مايو . أيار، امتدت بسرعة إلى بقية البلاد. وتدخل الطيران اللبناني للمرة الأولى في الثالث من أيار . مايو ليقصف مخيم برج البراجنة. في حين تعرضت التجمعات الفلسطينية الأخرى لقصف المدفعية.

وقد أتيحت لي فرصة اللقاء بقادة الجيش خلال المفاوضات التي جرت في أواسط شهر مايو . أيار مع أمين الحافظ الذي قد تعين لتوه رئيساً للحكومة. ولم أكن أتخيل في تلك الفترة أن هؤلاء الضباط سيظهرون آنذاك تعصباً حاقداً، إن إزاء اللبنانيين المسلمين وإن إزاء الفلسطينيين. فالعماد اسكندر غانم، الذي سيتمنطق بصليب إبان الحرب الأهلية في سنتي 1975 و 1976، كان قليل الكلام إبان محادثتنا مع رئيس الوزراء. وتولد لدى وأنا أرى جديته ووجه الغامض وكياسته، انطباع بأنه عسكري محترف لا يحمل آراء سياسية مسبقة. أما العقيد جول بستاني

والعميد موسى كنعان رئيس المساعد لهيئة الأركان، فبديا لنا أكثر وداً وعذوبة فقد كانا يوليانا وهما اللذان لا يعوزهما الذكاء ولا الدراية الكاملة بالوضع العسكري والسياسي، بآراء بالغة التعقل. ثم أن كنعان كان يتمتع فوق ذلك بحس دعابة فيظهر أكثر حبوراً بل أكثر وداً إزاءنا.

وعلى أثر المباحثات، وبسبب الضغوط المتضافرة التي كانت تمارسها مصر وسوريا حرصا منهما على استتباب السلام الأهلي في لبنان تحسباً للحرب التي تعدان لها في شهر تشرين الأول ـ أكتوبر، فإننا توصلنا إلى عقد اتفاق ملكارت في 17 أيار ـ مايو. وهكذا فإن هذه التسوية التي كان قوامها إنشاء وسائل تهدف إلى تيسير تطبيق «اتفاقية القاهرة» تطبيقاً أفضل، قد أفلحت في إيجاد تعايش بين الفلسطينيين واللبنانيين سيدوم حتى مطلع عام 1975, إلا أننا ظللنا نسعى إلى إقامة تعاون على أسس وقواعد أكثر صلابة. وعلى هذا فإن وفدنا ترأسته شخصياً ويمثل التنظيمات الفدائية الرئيسية، أجرى طوال شهر حزيران ـ يونيه سلسلة من المحادثات مع العديد من أعضاء المكتب السياسي في حزب الكتائب، ولا سيما مع أمين الجميل ـ ابن بيير الجميل . وجوذيف شادر وكريم بقرادوني. فكانت مناقشاتنا على جانب فقط من الصراحة فقد اتهمنا محادثونا بأننا نتصرف كما لو كنا في أراض محتلة وبأننا أقمنا دولة داخل دولة، ووضعنا آلاف الفدائيين الهاربين من الأردن بعد مجازر 70 ـ 1971، سراً في بيروت. فأكبينا على الرد على انتقاداتهم بهدوء محاولين طمأنتهم بحجج عقلانية. فليس صحيحاً أننا أدخلنا إلى لبنان مناضلينا الأردنيين لأنهم لجئوا في غالبيتهم إلى الساحة السورية. وإذا كان صحيحاً أننا جعلنا من بيروت مركز اتصالاتنا مع الخارج، ومركزاً لبث صوت المقاومة، إلا أن قادة الحركة الفلسطينية منتشرون في كافة أرجاء العالم العربي، ولا سيما في دمشق، كما أن نشاطاتنا ليست متركزة كما يحسب محادثونا في بيروت. ونحن لا ننوي بأية حال من الأحوال أن نحل سلطاتنا مع سلطان السلطات الشرعية اللبنانية، أو أن نتدخل في شؤون لبنان الداخلية. فمن مصلحة الحركة الفلسطينية أن تظل بمنأى عن أي إطار له علاقة بالدولة كي تتمكن من مواصلة نضالها التحرري الوطني.

وبدا لنا أن محادثاتنا أفضت إلى تفهم متبادل وإلى نتيجة ملموسة : ألا وهي صيغة تصريح مشترك يعبر عن تقارب وجهان نظرنا السياسية وخاصة فيما عن جنوب لبنان.

فقد جاء في بيان بهذا الصدد أن بواعث الاعتداءات الإسرائيلية ضد القرى الحدودية لا تعود إلى تواجد الفدائيين في هذه المنطقة بل إلى مطامح الدولة الصهيونية في الأراضي اللبنانية. وكان يفترض في هذه الوثيقة التي وقعها جوزيف شادر وأنا في شهر حزيران ـ يونيه، أن تنشر في شهر أيلول ـ سبتمبر بمناسبة الاحتفالات التي ستقام بمناسبة ذكرى تأسيس حزب

الكتائب. غير أن قادة الحزب راحوا يتعللون عندما جاء شهر أيلول، بمختلف الذرائع لكي لا يذيعوا التصريح المشترك علانية.

ثم أن حرب تشرين ـ أكتوبر، والمساومات الدبلوماسية التي جاءت بعد ذلك، امتصت كافة طاقاتنا خلال الأشهر الأخيرة من عام 1973، وخلال عام 1974. ثم أنه لم يكن لدينا أي سبب يدعونا للقلق مع الوضع الداخلي اللبناني لأن كافة قادة البلاد من المسلمين والمسيحيين، كانوا يظهرون لنا التعاطف والدعم. وكثيراً ما يجري إغفال واقعة كون الرئيس سليمان فرنجية قد ذهب محاطاً بكافة رؤساء الجمهورية السابقين بمن فيهم كميل شمعون، إلى نيويورك في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر 1974 ليرعى عملية قبول عضوية منظمة التحرير الفلسطينية كعضو مراقب في الأمم المتحدة.

على أن النشوة التي أثارها هذا الحدث، لم تدم طويلاً. فقد راح الجميل في خطابين ألقاهما في شهري كانون الثاني ـ يناير، وشباط ـ فبراير 1975 يتهم الفلسطينيين باستغلال الضيافة اللبنانية ويطالب بإقامة سلطة الدولة اللبنانية على امتداد الأراضي اللبنانية أولاً، ثم تنظيم استفتاء حول التواجد الفلسطيني في لبنان. ثم راحت الحوادث تتسارع بعد ذلك. ففي شهر آذار ـ مارس تولى الجيش قمع إضراب للصيادين في صيدا فكان أن سقط نائب المدينة السابق معروف سعد قتيلا. ثم أن مظاهرات الاحتجاج التي تلت ذلك ضد شراسة الجيش، الذي يقوده كما نعلم لواء ماردوني، قد عمق الهوة بين المسيحيين والمسلمين وبين اليمين واليسار وبين المعاديين للفلسطينيين وبين الموالين لهم وغير ذلك من الشروخ التي سوف تيسر عمل هواة الحرب الأهلية. وفي هذه الأثناء، ووسط هذه الظروف، جاءت مجزرة 13 نيسان ـ أبريل بضحاياها الفلسطينيين واللبنانيين الذين سقطوا في سيارة الأوتوبيس وهي تعبر حي عين الرمانة المسيحي.

كان كل شيء يشير، في الظاهر على الأقل، إلى أن حزب بيير الجميل قد أعد العملية ونفذها. وعلمنا بين جملة ما علمناه أن اثنين من القتلة كانوا كتائبيين ولكن الغريب هو أن مسؤولي الحزب سلموهما في اليوم التالي إلى البوليس. ثم أن الشك بدأ يتسرب إلى نفسي عندما عرض على عدة أعضاء من المكتب السياسي في حزب الكتائب وخاصة كريم بقرادوني وجوزيف شادر اللذين لا يرقى إلى نزاهتهما كمثقفين شك أثناء لجنة تحقيق محايدة لتحديد المسؤوليات.كما أكد لي في الحين نفسه وبصورة قاطعة بأن قيادة حزب الكتائب بريئة بالكامل من هذه الجريمة التي أدانوها بلا هوادة.

وإنما عرفت الحقيقة بعد ذلك بعدة شهور، فكان أن اعتراني الذهول. فبعد تفكك الجيش اللبناني في ربيع عام 1976، وضع ضباط لبنانيون مسلمون من المكتب الثاني اللبناني بين يدي وثائق دامغة. وتبين من الوثائق أن مجزرة عين الرمانة قد نظمت ونفذت بصورة مشتركة بين المكتب الثاني اللبناني الذي يرئسه العقيد جول بستاني وبين حزب الوطنيين الأحرار الذي يرئسه كميل شمعون!

وأما القاتلان اللذان سلمهما حزب الكتائب إلى البوليس فكانا في واقع الأمر عضوين في حزب الوطنيين الأحرار واندسا في صفوف الكتائب مموهين انتماءهما السياسي. كان تدبير الجريمة قد جرى بحيث تكون جريمة كاملة، إلا أن أصحابها لم يتوقعوا حدوث «التسرب» الذي وقع نتيجة الظروف الاستثنائية التي استجدت في لبنان، بحيث ينتهك القناع عن وجوههم. وقد شاءت الصدفة أن ألتقي العقيد بستاني بعيد اكتشافي هذا. فكان أن رفض كافة الأدلة التي أملكها حول إدانته. غير أن مخابرات دمشق، زودتني بعد أن تحسنت علاقات المقاومة مع سوريا، بمعلومات تؤكد المعلومات التي حصلت عليها من الضباط الذين انشقوا عن المكتب الثاني.

وقد زاد من واقع الصدمة التي أثارها في نفسي استفزاز 13 نيسان 1975 الدموي، أنني كنت أبعد من أن أتخيل كميل شمعون يرتكب جريمة نكراء كهذه، وقد أتيحت لي فرصة التحدث مع رئيس الجمهورية اللبنانية السابق هذا، أربع مرات على الأقل خلال شهر حزيران . يونيه 1975. وخلال اللقاء الأول الذي تم في منزل مسيحي فلسطيني بحضور ياسر عرفات، راح شمعون يتدفق ويفيض رقة وعذوبة حديث حول المقاومة، متكلماً بكلام لا يقوله إلا قومي عربي! فرحت أراقبه من جانبي في صمت. وأعترف بأن هذا الهرم الوقور ذي الشعر الفضي الذي يستطيع، وهو يلاعب بتأنق بنظارته ذات الإطار الكثيف ويتكلم بهدوء واعتدال، أن ينزع الريبة من أي نفس مرتاب. والتفت نحوي فجأة وقال لي على سبيل المناكفة: «هل تراك فقدت النطق يا أبو إياد؟ إني أحب أن أطرح عليك سؤالاً لا يزال يوسوس في بالي منذ بداية هذه المحادثة: هل تعتقدون أن مجزرة عين الرمانة هي حادث عارض أم أنها بداية لتنفيذ مؤامرة يحيكها حزب الكتائب ضد المقاومة؟» وحين أسترجع ذلك، أرى في شمعون مثلاً حاذقاً. فقد اصطنع سمة المستلهمين وضبط نظارتيه وعقد حاجبيه واستغرق في تفكير عميق. ثم رفع عينيه بعد ذلك بدقائق ليقول لي: «إنه من الصعب علي يا بني أن أعطيك جواباً للتو لأن عناصر الإجابة تعوزني. ولا بد لي من خمسة عشر يوماً لأجمع المعلومات وأصدر حكماً. وبانتظار ذلك فإني لا أستبعد شأنكم أنتم، فرضية المؤامرة...» وسوف نعلم بعد ذلك ببضعة أشهر، أن رئيس حزب

الوطنيين الأحرار، كان في اللحظة التي يحادثنا فيها، يستورد السلاح بكميات كبيرة ويجهز ميليشياه، ويبيع الفائض لقاء أرباح ضخمة، إلى مختلف فصائل اليمين المسيحي المتطرف، بما في ذلك حلفاؤه الكتائبيون.

ولم نفهم لعبة شمعون إلا بالتدريج. والواقع هو أن إستراتيجيته كما تظهر بوضوح في سيرته الذاتية على ثلاثة أهداف متتالية. الهدف الأول (وهو الهدف الذي كان يصبو إليه حين التقيناه في حزيران . يونيه 1975) هو أن يؤمن القبول به كزعيم وطني متحسس لمطالب المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين، والثاني أن يحتل مركزاً ممتازاً داخل الحكومة يتيح له المناورة من أجل بلوغ مطمحه الأقصى: الحلول محل سليمان فرنجية على رأس الدولة. ولم أكن أعرف رئيس الجمهورية اللبنانية في ربيع عام 1975 إلا لما ما، ذلك أني قابلته عرضاً في القاهرة في شهر آب . أغسطس من عام 1970 بعيد انتخابه لرئاسة الدولة. وكنا في تلك الفترة في غمرة النزاع مع الملك حسين، فعرضت له مصاعبنا في الأردن فأصغى إلي ثم أعلن علي بأنه مقتنع بأن شيئاً من هذا لن يحدث في لبنان في عهده لأنه سيسمح للمقاومة الفلسطينية، كما قال، بأن، تواصل عملها في إطار اتفاقية القاهرة. وينبغي لي القول أنني كنت أعرف حسن استعداداته من رفيقنا يوسف النجار ومن الزعيم الاشتراكي كمال جنبلاط الذي التقاه قبل انتخابه. ذلك أن منافسة الياس سركيس بدا، حين سئل حول موضوعنا، أكثر تحفظاً بكثير. وعلى هذا فإن منظمة التحرير الفلسطينية دعمت معنوياً ترشيح سليمان فرنجية، ولعلها ساهمت في انتصاره ثم أن تأثير اللبنانيين الفلسطيني الأصل ليس بالتأثير الحاسم عموماً ولكنه أبعد من أن يكون كما مهملاً كذلك.

وفي 17 أيار . مايو استقبل فرنجية ياسر عرفات لوضع حد للمعارك العنيفة التي اجتاحت البلاد أثر مذبحة عين الرمانة، لكن المداولة لم تفض إلى أية نتيجة بالنظر إلى أزمة الثقة التي كانت تواجه ما بين الرجلين. ثم أن الوضع راح يزداد سوءاً، فكان أن استدعانا رئيس الجمهورية . عرفات وأنا . إلى القصر الرئاسي في 23 حزيران . يونيه. واعترتنا الدهشة على الفور حين وجدنا سفيري مصر والعربية والسعودية إلى جانب الرئيس فرنجية، إذا كانت تلك واقعة لا سابقة لها، ومخالفة لقواعد البروتوكول في مثل هذه اللقاءات.

ثم جاء حدث غريب ثان: إذ ما كدنا نجلس حتى بدأ عدد من كبار ضباط الجيش اللبناني . وجميعهم من المسلمين ينضمون إلينا، بناء لطلب فرنجية، الواحد بعد الآخر. كان مضيفنا يبدو عصبياً إلى أقصى حد.

فسحنته صارمة وهو يدخن السيجارة تلو السيجارة. ثم افتتح الحديث بأن قال لنا: لعلكم لاحظتم أني المسيحي الوحيد في هذا الاجتماع. فقد دعوت سفيري مصر والسعودية وضباطا من جيشي لا تستطيعون الارتياب بهم ولا الإدعاء بعدائهم المطلق للحركة الفلسطينية، لكي يكونوا شهدوا على مداولاتنا. إن اللبنانيين لا يستطيعون احتمال سلوككم. فمنذ مدة كنت أنتقل بصحبة زوجتي في الجبل، فصدمت وأنا أرى حيطان التجمعات المسيحية مغطاة بالملصقات التي تمجد كفاح الفدائيين المسلح. إن المسؤول عن هذه الدعاية السفيهة هو بلا ريب أصدقاؤكم اليساريون فلا تندهشوا والحالة هذه من وقوع مجازر مثل مجزرة عين الرمانة..».

وإذ لم يعد في وسع عرفات احتمال المزيد، فإنه قاطعه ليعلن عليه أن الحقيقة هي غير هذا، وأن الأحزاب اليمينية المسيحية تعد منذ فترة طويلة لحرب إبادة ضد الفلسطينيين وأنها تلقت كميات ضخمة من السلاح لهذا الغرض.. فاحتدم سليمان فرنجية واحتد وقال: «هات البراهين! أعطنا براهين! فلتكن شريفاً ولو مرة واحدة وأعطني الوثائق التي تؤيد ادعاءاتك!».

واستشعر عرفات الإهانة بألم كبير، خاصة وأنها جاءته أمام عدة شهود. واغرورقت عيناه بالدمع وأقفل دفتر الملاحظات الذي يستخدمه عادة كمفكرة بصورة مباغتة ثم قال وهو يتميز من الغيظ والغضب: «إنا لا أسمح أن أكلم على هذا النحو. فأنا مقاتل. وإنما انتخبت بصفتي هذه في قيادة الحركة الفلسطينية وليس بفضل أغلبية صوت واحد في مجلس أعيان!» ملمحاً بذلك إلى عملية الاقتراع البرلمانية التي حملت فرنجية إلى سدة السلطة.

ولا ريب في أن الرد كان فظاً إلا أنني رأيته ملائماً ومبرراً. ولو أن عرفات لم يرد على هذا النحو لكنت حينذاك أكثر قسوة. إذ ليس في الوارد ولا في التصور، أن نسمح لأي كان بأن يهين مسؤولي الشهب الفلسطيني. وعلى أي حال فقد كان لرد عرفات الساخط أثر شاف في أنه هدأ فرنجية الذي ما لبث أن اعتذر معلناً أنه لم يكن يقصد إهانتنا. ولكنه يحرص فقط، على أن تكون الحجج التي ندلي بها مدعمة بأدلة لا ترد.

عند ذلك روى له عرفات أننا علمنا قبل أن نصل إلى القصر الرئاسي بأن ضباطاً مسيحيين من الجيش اللبناني سلموا لتوهم ستة آلاف قطعة سلاح ناري إلى الميليشيا الكتائبية، كانت الدولة اللبنانية قد اشترتها من بلغاريا وبولونيا، وأن هذا التحول غير المشروع عن الأسلحة تم بواسطة وثائق مزورة صنعها المكتب الثاني. وقال فرنجية أنه يجهل كل شيء عن هذه الصفقة، إلا أنه يبدو له من الطبيعي أن يتسلح المسيحيون اللبنانيون، شأنهم شأن الفلسطينيين. ثم أوضح قائلاً: «لقد أصدرت الأمر إلى وزير الداخلية لكي يسلم رخصة حمل سلاح لكل مسيحي يتقدم بطلب الحصول عليها». ثم أضاف الرئيس اللبناني قائلاً: «لقد سمحت لكم، لا بل

شجعتكم على تحصين مخيماتكم وعلى استيراد كافة الأسلحة التي تحتاجونها للدفاع عن أنفسكم ضد الاعتداءات الإسرائيلية. وهكذا فقد تجهزتم بالمدافع الثقيلة، والمدافع المضادة للطائرات وحتى بصواريخ أرض . جو وأنا أطلب منكن اليوم بإلحاح، وبحضور سفيرين عربيين صديقين أن تلزموا حدود مخيماتكم وتجمعاتكم. أما ما تبقى من لبنان فلا يعنيكم. وبما أننا مختلفون حول هذا الموضوع، فإني أقترح أن ندعو إلينا ضباطاً من البلدان العربية لنحكمهم في نزاعنا. فيحكون أي من الفريق . أنتم أم نحن . هو الذي ينتهك اتفاقية القاهرة».

ولما كنت ملازماً الصمت منذ بداية الجلسة، فإنني طلبت الكلام. وطال العرض الذي عرضته أكثر من ساعة متواصلة. وبدأته بامتداح الرئيس فرنجية مذكراً برعايته لدخول منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. مترافعاً بشخصه مدافعاً عن القضية الفلسطينية في منتصف شهر تشرين الثاني . نوفمبر من السنة السابقة، متكلماً باسم الأمة العربية. فإذا تجاوزنا هذه النقطة، فإنه ليس من الضروري «تعريب» مجمل النزاع اللبناني بدعوة ضباط عرب وتحكيمهم في خلافنا. بل لا بد لنا، على العكس من ذلك، أن نتفاهم بمنأى عن أي تدخل أجنبي.

واستطردت أقول: صحيح أن الفدائيين ارتبكوا أخطاء مست حساسيات اللبنانيين الوطنية، ونحن لا ننكر ذلك، إلا أن الرئيس فرنجية يرتكب بدوره خطأ إذ ما خلط بين الأعمال الذميمة التي يرتكبها أفراد، وبين سياسية رؤسائهم. فقادة الحركة الفلسطينية ليسوا بمتشردين ولا بفوضويين. بل أن لهم ذات المصلحة التي للمسؤولين اللبنانيين في استتباب . واتساق التعايش اللبناني الفلسطيني وبقاء معركة تحرير فلسطين بمنأى عن النزاعات الهامشية التي تعيقها أو تنعطف بها عن هدفها. ولا بد للرئيس فرنجية من أن يفهم بأن من الصعب علينا أن نضبط كافة أعمال وتصرفات مناضلينا المنحدرين من شعب جرد واضطهد وأذل عشرات السنين. ومضيت أقول، أن أحزاب اليمين المسيحي في لبنان تحتقرنا وتواصل العمل لتحقيق أهداف شائنة. وقد حاولنا طوال سنوات أن نقيم حواراً معها وأن نتفاهم وإياها على قواعد وأسس تكون مفيدة لها ولنا. ولكن عبثاً. وليس صحيحاً ما تزعمه هذه الأحزاب من أننا سعينا إلى التحالف مع المسلمين اللبنانيين ومع اليسار ضدها. فمثل هذا الاتهام المزدوج غير منطقي على أية حال. إذ ليس بوسعنا أن نكون مسلمين متعصبين وتقدميين في آن معاً. بل الحقيقة هي أننا حاولنا إقامة توازن متساو بين كافة الطوائف اللبنانية وذلك لأن من مصلحتنا إقامة علاقات حسنة مع كافة الأهالي أولاً، ولأن الحركة الفلسطينية هي حركة علمانية بصورة قاطعة، ثانياً. ومن المشهور الذائع أن الفلسطينيين لم يصابوا بالمكروب الطائفي أبداً، وأنهم ما عرفوا التمييز بين المسلم والمسيحي. بل

أن التمييز غريب عن عقليتنا بحيث أن بعض أبرز القادة الفلسطينيين كجورج حبش ونايف حواتمه هم من أبناء الطائفة المسيحية.

وقد عرضنا دوافعنا العميقة لزعماء اليمين المسيحي مرات عديدة. فنحن وطنيون فلسطينيون مطاردون خائفون. ولسنا نخجل بالتسلم بخوفنا وقلقنا. والدولة اللبنانية التي يؤطرها الموارنة ويقودنها تخيفنا. ولهذا نريد التفاهم مع الأحزاب المسيحية التي هي أدوات السلطة إلا أن هذه الأحزاب أطرحتنا ورفضتنا. فإذا كنا أقرب إلى المسلمين وإلى اليمين الإسلامي الذي كان يمثله رجالات كصائب سلام ورشيد كرامي، فلأننا لا نخشى شيئاً من جانبهم. فاليمين الإسلامي محكوم لأسباب انتخابية وسياسية ومحلية . وأسباب أخرى تتعلق بالمنطقة . أن يدعم حركتنا وكذلك الأمر بالنسبة لليسار الذي لا يمكن أن يضربنا لأسباب مماثلة. فالزعيم الاشتراكي كمال جنبلاط كان لدى تسلمه وزارة الداخلية أقسى علينا من القادة المسيحيين. إلا أننا كنا نعلم أنه لا يذهب إلى حد طعننا في الظهر.

ثم أن الرئيس فرنجية الذي كان يصغي إلي بكثير من الاهتمام، قاطعني معترضاً وهو يقول: «ومع هذا فإنكم أيدتم قرار اليسار الذي انتحل لنفسه اسم الحركة الوطنية، بمقاطعة حزب الكتائب مطالبين باستبعاده عن الحكومة وبحله. وتلك خطيئة من الكبائر. لأن الكتائبيين يمثلون قسماً له شأنه من المسيحيين وعلى أية حال، فإنه لن يكون لقراركم من أثر سوى توسيع نفوذهم..».

ودافعت عن مواقفنا ما وسعني، إلا أنني كنت أقرب إلى الارتباك والإحراج. فلم يكن في وسعي أن أعترف للرئيس فرنجية أني كنت أجهل في اللحظة التي أكلمه فيها ما يعنيه بالضبط قرار مقاطعة الكتائب الذي أيدناه تضامناً مع «الحركة الوطنية» ومع كمال جنبلاط بأكثر مما أيدناه اقتناعاً. وكيف يسعنا أن نكون أقل من اليسار صرامة وقسوة إزاء حزب الكتائب الذي زعم على هلاكنا، والذي نظم كما كنا نعتقد حينذاك مجزرة عين الرمانة؟ كانت الساعة قد بلغت الواحدة، إذ أن محادثتنا مع فرنجية دامت أربع ساعات متتالية. فطلبنا ياسر عرفات الذي لم ينبس بكلمة بعد مشادته مع الرئيس، وأنا . الإذن بالانصراف.. إلا أن فرنجية أمام عظيم دهشتنا أبى وأقسم الإيمان المغلظة أنه لا يدعنا نغادر قبل أن نتغدى بصحبته. وعلي أن أقول إبراء لمضيفنا أنه إذا كان من الصحيح أن ثقافته العامة أقرب إلى أن تكون محدودة، وأنه لم يكن دائماً على مستوى مسؤولياته، إلا أنه لم تكن تعوزه المروءة ولا اعتاد أن يلجأ على مراوغة وازدواجية كميل شمعون.

وكان الغذاء الذي دعانا إليه الرئيس ضرباً من الوليمة. فأنزل عرفات في صدر المائدة بمواجهته، بينما تحلق السفيران العربيان والضباط اللبنانيون المسلمون الكبار الذين حضروا المحادثة، وكذلك الضباط المسيحيون الذين ظلوا خلالها، بناء على طلب فرنجية في ردهة الصالون. وتغير مزاج الرئيس اللبناني بالكامل، فبات ودياً وأحياناً يشوشا فكها. مقبلاً على شرب العرق مظهراً ضيافته العربية اللانموذجية مقدماً لهذا قطعة لحم طرية ولهذا قطعة حلوة رخصة. ثم أنضم إلينا ابنه طوني الذي سيغتاله الكتائبيون وزوجته وطفلته معاً في حزيران . يونيه 1978 قبيل انتهاء الغداء الذي طال أكثر من ثلاث ساعات.

وبالإجمال فإن محادثاتنا كانت إيجابية للغاية. واتفقنا على استبعاد التحكيم العربي وعلى أن تتولى لجان مختلطة لبنانية فلسطينية مؤلفة من عسكريين من الجانبين، اتخاذ الإجراءات المناسبة لوضع حد للمعارك. وتعهدنا ببذل جهودنا لحمل «الحركة الوطنية» على الاعتدال بحيث تخفف ضغطها على حزب الكتائب. واتفقنا أخيراً على أن يتوجه ياسر عرفات برسالة إلى الشعب اللبناني يحثه فيها على الوحدة الوطنية. وقد صيغ نص هذا النداء الذي حرره فريق من الفلسطينيين المختصين بالشؤون اللبنانية لطمأنة المسيحيين بخاصة إلى نوايانا وعزمنا على عدم التعرض للبني الطائفية والسياسية والاقتصادية اللبنانية.

غير أننا لم نكن واثقين في أن نكون تحاشينا شياطين اليمين المسيحي خاصة وأننا كنا عرفات وأنا قد أجرينا محادثة طويلة مع اثنين من قادة الرهبانية المارونية . الأب بولس نعمان والأب قزي اللذين صدمانا صدمة عميقة. ففي بداية اللقاء الذي جرى في منزل مسيحي فلسطيني في بيرون أطلعنا الكاهنان على وثائق تشهد بدعم الكنيسة المارونية للقضية الفلسطينية في السنوات الأولى من نزاعنا مع المشروع الاستيطاني الصهيوني. إلا أنه لم يكن لهذا العرض التنهيدي الذي تقدم به محادثانا مع هدف، سوى التنديد بعد ذلك «بنكراننا للجميل» ثم القول بعدها أننا لم نعد «أهلاً» لتعاطفهم.

ثم عمدا بعد ذلك إلى إعطائنا درساً في التاريخ. مؤكدين أن الموارنة قاتلوا تاريخياً من أجل التوصل إلى استقلال جبل لبنان ثم الحفاظ عليه وأخيراً الدفاع عنه حتى آخر رجل ضد ما أسموه بالاستيطان الفلسطيني. ثم قالا لنا: «نحن شعب من الفلاحين العنيدين والمحاربين وسندفع أي ثمن كان لطردكم من هنا».

ثم أن الأب بولس نعمان، عميد كلية الفلسفة في جامعة الكسليك المارونية . والذي كنا نحسب أنه رجل دين وإنساني برغم هيئته التي تشبه هيئة الثور . جعلنا نستشعر البرد في ظهورنا حين راح يعلن علينا بكل برود: «لقد ذبحت بيدي هاتين مسلماً لبنانياً وفلسطينياً على سبيل

التحذير، وأقول لكما جيداً أنني ذبحتهما ثم جمعت الرهبان ورؤساء المليشيا التي شكلناها بقيادتي لأطلب أن يحذو حذوي على اسم الله وباسم الكنيسة المقدسة». وظللنا، عرفات وأنا، فاغري إلفاه لا ندري ما إذا كنا عدنا القهقرى إلى الحروب الدينية السالفة. وعندما استعدت القدرة على النطق، لم أجد ما أقوله سوى أنني لا أؤمن بتبجحات الأب بولس نعمان ولا بالتصريحات العنيفة التي يطلقها أبو أرز زعيم ميلشيات «حراس الأرز» الذي كان يدعو اللبنانيين حينذاك إلى أن يتولى كل واحد منهم قتل فلسطيني واحد على الأقل، ولا بالنداءات والدعوات إلى القتل التي كان يوجهها المطارنة من على كراسيهم الرسولية. إلا أننا اكتشفنا بعد ذلك أن ريبتنا لم تكن لسوء الحظ في محلها وأن الفظاعات التي ارتكبتها ميلشيات اليمين المسيحي تتجاوز وبكثير، ما أطلق من تهديدات.

لكن لماذا كل هذا الحقد!؟ على هذا السؤال الذي طرحته على الأب نعمان أجابني الكاهن بقوله: «إنكم لا تفهمون من تاريخنا ومن عقليتنا شيئاً. فنحن كما ذكرت لكم مشدودون إلى جبل لبنان بأوتار جسدنا كلها. وقد استحالت كافة أديرتنا إلى قلاع وترسانات. كما أننا جمعنا أموالاً تبلغ خمسين مليون ليرة لنشتري بها المزيد من السلاح». لكن الأب نعمان لم يكن يخبرنا فيما عن هذه النقطة الأخيرة بشيء جديد. فمنذ عام 1970، أي بعيد مجزرة «أيلول الأسود» في الأردن . لاحظنا أن الكتائبيين بدأوا يمدون مخيماتهم العسكرية ويطورون وينسون ميليشياتهم. كما تم حينها إرسال شباب من الكتائب ومن حزب الوطنيين الأحرار ليتدبروا في الأردن وألمانيا الغربية. وبفضل التبرعات التي جمعها المغتربون اللبنانيون، فإن الأسلحة بدأت تتدفق بكميات متزايدة أبدا منذ مطلع عام 1973. وكانت هذه الأسلحة تشترى من بلجيكا وسويسرا والولايات المتحدة وفرنسا وتسلم بصورة عامة في جونيه بعد أن تمر في الموانئ المغربية. ثم أن هذه الصفقات التي كانت تعقد بواسطة رجال أعمال عرب، كانت تتمتع بضمان الحكومات الغربية. على أن الكتائب لم يكونوا يحاولون، بخلاف الشمعونيين، تمويه استعداداتهم العسكرية. فقد دعاني أميل الجميل، الابن البكر لزعيم الكتائب مرتين عام 1973 لزيارة مخيم تدريب تابع لحزبه حيث أمكنني أن ألاحظ حجم ميليشياته وكفاءتها. وقد أكد لي الجميل أن هذه الاستعدادات ذات طابع دفاعي صرف. وحين سألته: «لكن ضد من ستدافعون عن أنفسكم.» فأجابني: ضدكم. ضد الفلسطينيين.

وقد أدركنا في تلك الفترة عيب الاعتقاد بصدق كلام أحزاب اليمين المسيحي وبأقوالها حول عدم اعتزامها المبادرة إلى النزاع المسلح. ولولا هذا لما كنا انتظرنا بدايات الحرب الأهلية لندرب ميليشيات فصائل اليسار ونسلحها والواقع هو أننا ظللنا حتى غاية مجزرة عين الرمانة في

شهر نيسان . ابريل 1975، نكتفي بمساعدة سكان المناطق الحدودية في جنوب لبنان على تنظيم أنفسهم ليقاوموا هجمات الجيش الإسرائيلي. وكذلك فإننا لم نبدأ بتحسين مخيمات اللاجئين تحصيناً جدياً ونسارع في تكوين وتشكيل الميليشيات الفلسطينية إلا بعد الغارة الإسرائيلية في نيسان . ابريل 1973 على بيروت . والتي اغتيل خلالها ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية. إلا أننا عمدنا إلى التحصين والتدريب تحسباً للعدوان الإسرائيلي ليس إلا. إذ لم يكن يدر في خلدنا مطلقاً أننا سنضطر ذات يوم لأن ندري أسلحتنا صوب اللبنانيين.

وفي مطلع عام 1975، توافرت لدينا عدة مؤشرات واستخبارات تشير إلى أننا لسنا مهددين من قبل قوى محلية وحسب، وإنما من قبل مؤامرة دولية حقيقية. فقد كان ثمة أسلحة تتدفق وتباع في لبنان ثم ما تلبث أن تتحول سراً وخفية إلى الميليشيات المسيحية. بل عرفنا بما هو أسوأ من ذلك. فثمة شركات ورجال أعمال عرب، يمولون مشتريات الكتائبيين والشمعونيين من السلاح، بكرم بالغ. وكان ثمة بادرة أخرى مقلقة: فبعض بلدان الخليج العربي، توقفت أو تأخرت في دفع معوناتها لفتح والمنظمات الفدائية الأخرى. وهكذا فقد قررت في شهر كانون الأول . ديسمبر، 1975، وفي غمرة الحرب الأهلية، أن أقوم بجولة في البلدان النفطية في المنطقة، بادئاً بالكويت.

وقد ألقيت خلال إقامتي التي امتدت نحواً من عشرة أيام في هذا البلد، عدة خطب في اجتماعات نظمها مكتب منظمة التحرير الفلسطينية هناك. واستغليت هذه المناسبة لانتقد بقساوة موقف بعض البلدان العربي التي كان موقفها إزاءنا غامضاً، إن لم يكن صريح العداء. ثم هاجمت كذلك الأثرياء الفلسطينيين الذين تباطئوا من جانبهم من دفع مساهماتهم إلى صناديق منظمة التحرير. وصحت قائلاً أنهم سيدفعون طوعاً أو كرهاً! بحيث أن التهديد كان شبه صريح. ذلك أنه لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك في لحظة كانت المقاومة فيها تجتاز أزمة عصبية، وقد كنت مصيباً حين أشهرت العصا ذلك أن مليونيرينا عمدو إثر اجتماع عقدوه في الغداة، إلى دفع مبلغ ضخم لحركتنا.

وبعد مرور ثلاثة أشهر على عقد الاتفاق المصري . الإسرائيلي حول سيناء، باتت للأمريكيين . وعملائهم في الشرق الأوسط . كل المصلحة في ضرب المقاومة وإلزامها الصمت وإصابتها بالشلل. وتوفر لدي الدليل الملموس على ذلك خلال جولتي في الخليج حيث قام ممثلو الولايات المتحدة، بمن فيهم عملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، بعمل متقن إذ أنهم أفلحوا في إنهاض القادة الذين لا يخشون شيئاً مثل خشيتهم لانتشار الشيوعية . ضدنا. فقد كان بعضهم ممن لا يمكن أن تقول فيه أقل من أنه تعوزه ملكة إدراك التلاوين يرى في الاشتراكي

كمال جنبلاط زعيماً «أحمر» جعل من نفسه، طائعاً أو غير طائع، أداة في مؤامرة ماركسية واسعة. وهكذا فإن بعضاً من محادثي راحوا يتوسلون إلي ألا أقع ضحية الشرك الشيوعي فنوقف تضامننا مع الحركة الوطنية. هذا بدون أن يدركوا أنهم يطلبون إلينا عملياً، أن نضع أنفسنا تحت رحمة الأميركيين وحلفائهم الإسرائيليين والعرب في المنطقة.

وعادة بي الذاكرة لدى عودتي إلى بيروت في منتصف شهر كانون الثاني . يناير إلى محادثة جرت في شهر تموز . يوليه 1973 مع جوزيف شادر، أحد الأعضاء الرئيسيين في المكتب السياسي لحزب الكتائب. فقد كان يخصني ببعض الود والتعاطف منذ أن قلت له ذات يوم أنني أشعر بأنني قريب إليه بسب أصوله الأرمنية. ثم أضفت قائلاً: «أنتم ونحن ننتمي إلى الأقليات المضطهدة سنة وتقليداً». وخلال لقاءنا في تموز . يوليو 1973، أفضى إلي سراً بأن لدى بوب أوكلي، وهو دبلوماسي أميركي يعمل في بيروت ويتردد عليه، ملفاً ضخماً حول شخصي يضم وثائق خطيرة. ذلك أن هذه الوثائق تظهر أني «إرهابي خطير» و«مفاوض أريب» في آن معاً.

وفي لحظة أخرى من لحظات المحادثة، أفضي إلي بنبأ تبين أنه صادق النبوة. فقد علم من «مصدر موثوق» أن حرباً عربية إسرائيلية ستنشب «قريباً» (وستقوم مصر وسوريا بمهاجمة إسرائيل بعيد ذلك بشهرين) وأن مؤتمراً للسلام سوف يعقد إثر ذلك بقليل «ثم أضاف وهو يؤكد كلماته»: «وستدعى منظمة التحرير إلى مائدة المفاوضات، إلا إذا جرت تصفيتكم قبل ذلك» فسألته وقد عرتني الدهشة عما يقصد بكلمة «تصفية» فأجابني إجابة مراوغة بأنه ينبغي لنا أن نتروى ونتعقل إذا كنا نريد فعلاً أن نشارك في مؤتمر السلام.

كنت أقول في نفسي في شهر كانون الثاني . يناير 1976، أننا لم نكن ولا ريب، على قدر كاف من «التروي والتعقل»: فقد أبدينا تحفظات جدية على الطريقة التي قيدت بها حرب تشرين . أكتوبر، وشجبنا دبلوماسية كيسنجر المدعوة بدبلوماسية «الخطوة خطوة»، وقاومنا مد النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط، كما وقفنا أخيراً ضد اتفاقية سيناء المعيبة. ثم أن تعيين غودلي كسفير للولايات المتحدة في بيروت قبيل الحرب الأهلية بقليل لم يكن أمراً عارضاً. فقد كان مهندس أو منفذ عدد من الانقلابات الشريرة عبر العالم ولا سيما في تشيلي وفيتنام. ولذا فإن كافة الأوساط البيروتية كانت تتساءل بقلق عن الكارثة التي تم التخطيط لها وأبادر فأقول أنني لست من السذاجة بحيث أعتقد أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية (السي. أي. أي) تلعب بوجه مكشوف ولا أعتقد بأن عملاء أميركيين ذهبوا إلى بيير الجميل وكميل شمعون طالبين إليهما إبادتنا. كما أنه ليس بالأمر الذي يقبله التصور أن يكون مرتكبو العملية الدموية في عين

الرمانة قد تلقوا أوامرهم مباشرة من واشنطن. ذلك أن الأمور تسير في هذا النطاق بصورة أكثر حذاقة ودقة. وذلك ليس لأن الولايات المتحدة تعاني من نقص أو عوز في العملاء المأجورين في لبنان أو سواه، أو أنها لا تملك التدخل عبر المخابرات الإسرائيلية أو الأردنية أو سواهما. فالأمر الأساسي هو أنها تحوز على الكثير من الوسائل التي تمكنها من بلوغ أهدافها مستفيدة على سبيل المثال من ظرف مؤات. فإذا كانت ليست من أطلق مادياً عقال الحرب الأهلية في لبنان، إلا أنه لا شك ولا ريب في أنها أسهمت إسهاماً واسعاً في تغذية النزاع ونفخ ناره حتى تشتعل.

ثم أن عدداً من البلدان العربية عملت عامدة أو غير عامدة في ذات الاتجاه والتحليل الأكثر ذيوعا في الصحافة الدولية لأسباب الحرب الأهلية . يتهم الفدائيين بدفع أحزاب اليمين المسيحي . عبر افراطاتهم وتجاوزاتهم . للنهوض ضد الفلسطينيين. غير أن غالبية الاستفزازات التي يستشهدون بها ويرجعون إليها، إنما ارتكبت من قبل تنظيمات فدائية على الأرض اللبنانية فإذا ما صدر مقال لا يسر العراق في مجلة «الحوادث» الأسبوعية، فإن جبهة التحرير العربية صنيعة حكومة بغداد، تتكفل بتفجير مبنى الصحيفة مودية بحياة عشرة أشخاص غير أن الصحافة المذكورة لا تتهم العراق ولا جبهة التحرير العربية بل تشجب «إرهاب الفدائيين». وإذا ما قامت منظمة الصاعقة الموالية لسوريا . باختطاف لبنانيين ينتمون للبعث الموالي للعراق، اتهمت منظمة التحرير الفلسطينية بالتدخل بالشؤون اللبنانية. وإذا ما قررت ليبيا وضع يدها على معارض، كالوزير السابق مصطفى بن حليم، فإنها تجد فصيلاً فلسطينياً لإنجاز المهمة. وفي وسعنا أن نضاعف هذا الضرب من الأمثلة إلى ما لا نهاية.

وهذا الأمر الواقع يضع قادة منظمة التحرير الفلسطينية في وضع مؤلم. إذ يقال لنا، إذا كنتم لا توافقون على هذه التصرفات والأعمال وإذا كنتم مقتنعين بأنها تلحق الضرر بالمقاومة، فلماذا لا تفعلون شيئاً لوضع حد لها. وهنا أيضاً يظهر منتقدونا جهلهم أو أنهم يتصنعون البراءة. فمن البديهي، أولاً، أننا لسنا مطلعين بالضرورة على هوية كافة مرتكبي المحاولات التي تجري. ثم وحتى لو كنا مطلعين، أفلا يكون عملاً انتحارياً من جانبنا أن نفرض استتاب النظام باستعداء كافة الأنظمة العربية علينا؟ فهل نستطيع على سبيل المثال، أن نبيح لنفسنا ترف قطع علاقاتنا مع سوريا أو مع السعودية؟

ويزيد من موقفنا دقة أن الحوادث «غير المنضبطة» في لبنان، هي وليدة الصراعات المستورة بين مختلف الأنظمة العربية. فمن المعروف الشائع أن لبنان كان دائماً مركز انطلاق مخابرات الدول الأجنبية، العظمى منها أو الصغرى، والعربية والأوروبية والأميركية والإسرائيلية. وثمة كثير من الهجمات بالقنابل والاختطافات والاغتيالات التي ارتكبت إبان الحرب الأهلية .

وعزيت بشيء من التسرع إلى المقاومة أو إلى اليسار . لم تكن في الحقيقة سوى واجهة «لحرب المخابرات» ووسيلة كسواها من الوسائل، لدفع النزاع من قبل الحريصين على استمراره. وقد كان ذلك ولا يزال مأزقنا ومأساتنا.

وقد كان اللبنانيون . عنيت أولئك الذين لم يكن لتحركهم خلفيات سياسية محقي موضوعياً في أن يجدوا في هذا الوضع حالة لا تحتمل، إلا أنهم لم يكونوا يصدقوننا عندما كنا نوضح لهم أننا ضحايا شأنهم هم. فحتى الذين كنا نعتبرهم أصدقاءنا، كانوا يعبرون عن ريبتهم وتشككهم إزاء الحجج التي نسوقها. فلا بد لمن يريد أن يفهمنا أن يضع نفسه مكاننا. وكما قلت لقادة اليمين المسيحي وأعدت عليهم القول مراراً فإنه ليس للفدائيين بعد طردهم من الأرمن من ملاذ غير لبنان. فإذا كانوا سيخضعون فيه فإن مكتسبات عدة عقود من النضال ستضيع. ولا ريب في أن الثورة الفلسطينية ستنتهي أبدا إلى الانبعاث والديمومة. إلا أن هزيمة حاسمة لها في لبنان ستعرضها للخطر طويلاً. فنحن في مثل وضع القائد العسكري العربي طارق بن زياد الذي أحرق مراكبه وقال لقواته حين نزل في إسبانيا: «العدو أمامكم والبحر من ورائكم» ولقد طالما طلبت من جهتي إلى المسئولين الموارنة بألا يلجئوا إلى العنف ويدفعوننا إلى آخر معاقلنا لأنهم لا يتركون لنا في هذه الحال من خيار آخر غير القتال حتى آخر رجل.

غير أن قادة اليمين الماروني تصرفوا بصلافة. فقد طرحوا أنفسهم مراءاة ونفاقاً كمدافعين عن السيادة الوطنية وانطلقوا إلى الحرب، وصليبهم على صدورهم ليحرروا مواطنيهم كما زعموا من الفلسطينيين، ثم بصورة أعم، من العرب. لكن من ذا الذي غازل الأنظمة العربية وسمح لها بأن تتدخل في الشؤون اللبنانية؟ من ذا الذي أفاد من الرساميل واليد العاملة والأسلحة الوافدة من البلاد العربية؟ يقينا أنهم ليسوا الفلسطينيين كبش الفداء الذي اختارته خيانات وصغارات حفنة من الرجال الذي لا وازع لهم.

ثم أننا كنا أكثر تصميماً على القتال لعلمنا في بداية الحرب الأهلية بأننا نقاتل كذلك العدو الصهيوني المندس وراء راية الصليبيين اللبنانيين. والواقع هو أننا لاحظنا بين جملة ما لاحظناه، إن النظام الدفاعي المقاوم حول بعض المعسكرات المارونية، شبيه بذلك المعتمد بالنسبة للمستوطنات العسكرية الإسرائيلية. وكذلك الأمر بالنسبة لمختلف التقنيات الحربية التي يطول بنا مقاوم عرضها هنا . والتي نقلت إلى لبنان ببديهة الحال بواسطة ضباط الدولة الصهيونية.

ولم يعد ثمة حاجة اليوم إلى البرهنة على التعاون الوثيق الذي قام بين اليمين المسيحي وبين إسرائيل طوال الحرب الأهلية. فقد اعترفت بذلك حكومة مناحيم بيغن رسمياً إبان صيف

عام 1977 مشيرة إلى اتساع حجم المعونة المقدمة إلى حلفائها اللبنانيين. ثم أن هؤلاء الأخيرين تبجحوا في مرات عدة بتحالفهم مع الصهاينة مبررين ذلك بضرورة تأمين بقائهم. فالمقدم سعد حداد، المسؤول عن الميليشيات المارونية في الجنون لم يعد أكثر من عميل مأجور. كما أن بشير الجميل قائد القوات الكتائبية أقر أمام شهود بأنه ذهب إلى بلدة نهاريا الإسرائيلية للتشاور مع مسؤولي تل أبيب. ولدينا كذلك الدليل على أنه التقى بصحيفة داني كميل شمعون . ابن رئيس حزب الوطنيين الأحرار . بضباط إسرائيليين مرات عدة. وكانت المباحثات بينهم تجري في وسط البحر على متن مركب سياحي خاص، عندما لا تدور على الأرض اللبنانية ولا سيما في مرفأ جونيه، مقر قيادة اليمين المسيحي. وفي جونيه أيضاً نزل شمعون بيريز في نهاية شهر كانون الثاني . يناير 1976 عندما كان وزير الحربية في وزارة رابين، وذلك لإجراء محادثات مع شمعون وقادة مسيحيين آخرين. ولم يمتنع عن الاتصال المباشر بالإسرائيليين، سوى الرئيس سليمان فرنجية وبيير الجميل زعيم حزب الكتائب تاركاً هذه المهمة لأتباعه.

ولا أعتقد فيما يعنيني أنه كانت لقيادة حزب الكتائب في مطلع الحرب الأهلية صلة ما مع إسرائيل. وبالمقابل فإن لدى بعض الأسباب التي تجعلني أعتقد أن كميل شمعون ومعه عدد من ضباط المكتب الثاني اللبناني، كانوا يقيمون علاقات وثيقة مع المخابرات الإسرائيلية والأميركية والبريطانية. فمجزرة عين الرمانة لم يخطط لها وترتكب من أجل إشعال الاشتباكات وحسب بل ولجر الكتائب إلى النزاع أيضاً. فليس من قبيل الصدفة أن تقع المذبحة في اللحظة التي كان فيها بيير الجميل يدشن كنيسة في حي عين الرمانة، وأن يكون اثنان من مرتكبي العملية من أنصار كميل شمعون المندسين بين صفوف الكتائب.

والواقع هو أن المعونة المتعددة الأشكال المقدمة من الدولة الصهيونية كانت مغرية. فقد كانت الأسلحة أميركية الصنع البالغة التطور تتدفق على جونيه إلى حد أنه جرى استجواب حكومة الرئيس فورد في مجلس الشيوخ بالنظر إلى أن التحول غير المرخص به من العتاد العسكري إلى بلد ثالث هو أمر ممنوع في تشريع الولايات المتحدة كما هو معلوم. وبخلاف ذلك، فإن عدداً من المراكب التي كانت تنقل الأسلحة الموجة إلى المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني قد اعترضتها البحرية الإسرائيلية واقتادتها إلى جونيه حيث سلمت شحناتها إلى الميليشيات المسيحية.

وقد استخدمت هذه الأسلحة في ارتكاب أفظع الجرائم التي عرفها لبنان والتي تشهد على الطابع الفاشي للميليشيات المارونية. وقد لاحظت بعد عودتي من جولتي في الخليج إلى بيروت في 10 كانون الثاني . يناير 1976 أن الحرب اتخذت منعطفاً جديداً من هذه الناحية. فقبل ذلك

بأسبوع طوق مخيم تل الزعتر الفلسطيني وتعرض لحصار صارم ومنع أهله من التموين. وبعد وصولي بأربعة أيام اقتحم الكتائبيين ومغاوير «حراس الأرز» مخيم ضبيه المأهول بالفلسطينيين المسيحيين الذين ظلوا على هامش النزاع. وبرغم ذلك فإن المخيم دمر وذبح أهلوه. وبعد ذلك بأسبوع، أي في 19 كانون الثاني . يناير مسحت أحيات الكرنتينا عن وجه الأرض بواسطة جرارات. فكانت الحصيلة ألف قتيل مثّل بكثير منهم تمثيلاً وحشية. ثم أن جنون بيير الجميل وكميل شمعون احتفلوا بانتصارهم بشرب الشمبانيا. فوق أكوام الجثث، وبالعزف على قيثاراتهم وصلبانهم على صدورهم أبداً. وقد بثت صور احتفالهم هذا على مختلف قنوات التلفزيون في العالم. أما الناجون من المخيم، فإنهم طردوا من مساكنهم بالرشاشات وراحوا يتكدسون في مخيمات أخرى للاجئين سيستأصلها الجنون الموارنة بعد ذلك في وقت لاحق.

وطرحت علينا هذه المجازر خيار خطيراً. فنحن لا نريد من جهة أولى، أن نتدخل بصورة واسعة في النزاع طبقاً للقرار الذي اتخذناه في مطلع الحرب الأهلية والقاضي بألا ننزلق إلى الشرك المنصوب لنا. غير أنه كان من الصعب علينا من الجهة الثانية ألا نرد على التحديات التي تلقيها أحزاب اليمين المسيحي في وجهنا. فقد كان من شأن الهجمة الدموية أنها وجهت ضربة معنوية شديدة على الفدائيين، وإلى الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين الذي بدأوا يستنكرون سلبيتنا. فكان لا بد لنا من استعادة المبادرة.

وقررت القيادة العسكرية المشتركة للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية أن تحتل الدامور، البلدة المسيحية الواقعة على بعد عشرين كيلو متراً جنوب بيروت. وقد تعين اختيار الدامور لعاملين: الأول هو أنها تحتل موقعاً استراتيجياً على محور الطريق التي تصل العاصمة بمدينة صيدا وبالتالي بالجنون المسلم الموالي للفلسطينيين. والثاني هو أن أهليها الذين يؤيدون في غالبيتهم كميل شمعون أقاموا الحواجز على الطريق التي سقط عليها عشرات المسافرين الأبرياء من فلسطينيين ولبنانيين برصاص القناصة.

وبرغم الغضب الذي كان يسود صفوفنا بعد فظاعات ضبيه والكرنتينا، فإننا اتخذنا مختلف الإجراءات للمحافظة على الأهالي المدنيين في الدامور. فقد استمر قصف البلدة ثمان وأربعين ساعة من أجل إتاحة الفرصة لأهاليها باللجوء إلى مكان آخر. وبالفعل فإننا حاصرناها حصاراً جزئياً وتركنا فيها منفذا يؤدي إلى السعديات، البلدة التي يقع فيها قصر كميل شمعون كما امتنعنا كذلك على إطلاق النار على المراكب التي ركبها بعض الأهالي طلباً للهرب. وهكذا فإنه عندما اقتحمنا الدامور في 20 كانون الثاني . يناير كان نصف الأهالي تقريباً قد أفلحوا في مغادرة البلدة سليمين معافين.

وأعطينا جنودنا أوامر صارمة بعدم التعرض للمدنيين وخاصة العجز والنساء والأطفال غير أن الحرب هي الحرب وخاصة عندما تتخاض في جو من الهياج، وعندما تكون كثير من الافراطات والتجاوزات قد ارتكبت وكثير من الأبرياء قد قتلوا. ثم كيف إلى التمييز بين الميليشيات المسيحية وبين غير المقاتلين؟ ثم هل إذا كان لا بد لنا من أن نطلق النار على قناص يسكن في منزل، من وسيلة تحول دون تدمير المنزل بمن فيه حتى ولو كانوا من النساء والأطفال؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب كما تفعل أحزاب اليمين المسيحي من أجل أغراض الدعاية، هو أمر ينم عن نفاق كامل.

وقد رفضت أن أذهب إلى الدامور بعد فتحها حين دعيت إلى ذلك، لسببين، الأول سياسي والثاني إنساني. فإنا من جهة أولى لا أريد أن أقدم البيعة للافراطات والتجاوزات التي ارتكبت، وإن تكن تمت بصورة غير مقصودة بالتأكيد. ثم أني من جهة أخرى، لم أكن أجد أي سبب يدعوني للفرح بانتصار عسكري لا أعتبره انتصاراً لنا. فموضع الفلسطينيين لا يجب أن يكون في ساحات المعارك اللبنانية، وإنما في الأراضي التي تحتلها إسرائيل وكان لا بد لنا من أن نحتل بعد الدامور البلدتين المجاورتين الجيه والسعديات حيث يتحصن كميل شمعون في قصره هناك . وفقاً لما أذاعته إذاعة الانفصاليين الموارنة. كان لدينا ألف سبب وسبب لقتل الرجل الذي أهرق الكثير من الدم والذي كان السوريون يتهمونه حينذاك بأنه عميل وكالة المخابرات المركزية الأميركية والمخابرات الإسرائيلية. غير أن شخصيات عديدة صديقة للمقاومة وعلى رأسها كمال جنبلاط وصائب سلام تدخلت لصالحه. وهكذا فقد اتخذ القرار بإرسال وفد يمثل كافة المنظمات الفدائية وأحزاب اليسار اللبناني لتقديم تصريح بالمرور إليه.

واستقبل أعضاء الوفد من قبل داني شمعون الذي أبلغهم بأن أباه غادر البلدة منذ بعضة أيام على متن طائرة مروحية (هليوكوبتر). وهكذا انهارت أسطورة بطولة كميل شمعون الذي كان يقال أنه يفضل الموت وسلاحه بيده على الهرب أمام تقدم القوات الفلسطينية التقدمية. غير أن قصر السعديات نهب ودمر على يد الفلاحين الساخطين الذي جاؤوا من قرى الجنوب. وزعم شمعون أنه تألم لسرقة لوحة تمثل المرحومة زوجته. فكان أن أسرع ياسر عرفات بإصدار أمراً بفتح تحقيق، ثم استرجع الصورة من القرويين الذين سطوا عليها لقاء خمسة آلاف ليرة لبنانية وفي هذه الفترة جاءت أول بادرة سورية واسعة النطاق لوضع حد للمعارك في لبنان. فقد وصل وفد سوري هام يقوده عبد الحليم خدام من دمشق إلى بيروت في 21 كانون الثاني يناير واتصل بكافة أطراف النزاع وتوصل إلى تطبيق وقف لإطلاق النار كان وقتياً عابراً . مبني على تسوية، تضمن سوريا بموجبها تقيد منظمة التحرير الفلسطينية الصارم الدقيق «باتفاقية القاهرة» بمقابل

أن تقوم الأحزاب المسيحية بمد يد المعونة للوسطاء السوريين فقد كان الرئيس الأسد يحاول منذ فترة أن يتخذ موقفاً محايداً بين المعسكرين. فمع تقديمه مساعدة متعددة الأشكال وخاصة من الناحية العسكرية للمقاومة وللحركة الوطنية، إلا أنه وجه الدعوة لبيير الجميل في 6 كانون الأول . ديسمبر 1975 لزيارة دمشق حيث استقبل استقبال رؤساء الدول، الأمر الذي أثار غضب كمال جنبلاط.

ثم إن استياء زعيم اليسار اللبناني تزايد بعد زيارة رئيس الدولة سليمان فرنجية في 2 شباط . فبراير لدمشق، ثم وبخاصة، بعد أن أعلن هذا الأخير في 14 شباط . فبراير خطة تسوية تشتمل على 17 نقطة نالت موافقة الأسد وعرفت منذ ذاك بالوثيقة الدستورية. فأما منظمة التحرير فإنها ألزمت الصمت معتبرة أن مشروع التسوية بين اللبنانيين هو أمر لا يعنيها. ووافق اليمين واليسار على خطة دون أدنى حماس إذ أن كلا المعسكرين كان يعتبر أن الخطة تتطلب منه تنازلات مسرفة. وكان اعتقاد كمال جنبلاط، أن سوريا تخلت مرة أخرى عن الحركة الوطنية، وأنه كان في وسع هذه الحركة أن تفرض جزءاً على الأقل من برنامج الإصلاحات الاقتصادية والمؤسسية والاجتماعية فيما لو أن دمشق دعمت استراتيجية اليسار العسكرية بأطول مما فعلت بقليل. أما الرئيس الأسد فكان على العكس من ذلك، يرى أن متابعة المعارك توشك أن تصلب اليمين وتثير تدخلات أجنبية وخاصة من جانب إسرائيل. وباختصار فإن المقاومة الفلسطينية وجدت نفسها متجاذبة بين ضرورة الإبقاء على حسن صلاتها بحليفها السوري وبين داعي عدم قطع تضامنها مع اليسار اللبناني.

ثم جاءت الأزمة داخل الجيش لتعقد علاقاتنا مع دمشق. وكان رئيس الحكومة رشيد كرامي قد تمكن من تلافي تفجر الجيش وتمزقه منذ بداية الأزمة حين عارض استخدامه في عمليات المحافظة على الأمن والنظام. ذلك أن ثمة خطراً كبيراً في أن يؤدي تدخل الجيش، الذي يؤطره ويقوده ضباط مسيحيون يتعاطفون مع معظمهم مع اليمين، إلى أن يتخذ طابعاً حزبياً، تكون ردة الفعل عليه بين العسكريين المسلمين هي أن يتوجهوا في الاتجاه المعاكس. غير أن سليمان فرنجية انتهى بتحريض من كميل شمعون، الذي نجح في تسلم وزارة الداخلية، إلى استخدام الجيش في بعض المرات، وخاصة في 16 كانون الثاني . يناير 1976، للدفاع عن الميليشيات المسيحية.

وكان أن وقع المحتوم بعيد ذلك ببضعة أيام: إذ انشقت بعض الوحدات بقيادة أحمد الخطيب عن الجيش، بادئة بذلك عملية التفكك. وراحت الحركة تنتشر من ثكنة إلى ثكنة. بحيث أن الجيش انقسم إلى فريقين متمايزين أحدهما مسيحي والآخر مسلم. وتمكن فريق أحمد الخطيب

الموالي لنا من التمركز في القسم الأكبر من جنوب لبنان مدعماً بذلك مراكزنا القريبة من الحدود الإسرائيلية. وبطبيعة الحال، فإن اليمين المسيحي والسوريين أخذوا علينا أننا دبرنا عملية أحمد الخطيب. والحق هو أن مبادرة هذا الأخير كانت تسرنا تماماً. إلا أننا في المطلق، كنا نفضل أن يكون الجيش موحداً وقوياً تلافياً لاتساع الفوضى ومنعاً لإثارة التدخلات العربية التي تتسبب لنا بأضرار كثيرة.

ولهذا فإننا عرضنا مساعدتنا على العماد حنا سعيد . الذي خلف اسكندر غانم في قيادة الجيش . مقترحين، كإجراء تهدئة، أن يجري العفو عن الضباط المتمردين. غير أن سليمان فرنجية أطرح اقتراحنا وأصر على توقيع عقوبات شديدة على كافة الذين شاركوا في مشروع أحمد الخطيب.

وفي هذه الأثناء، وفي التاسع من آذار . مارس بالتحديد، عقد في حضوري اجتماع صاخب بين وفد رسمي جاء من دمشق بقيادة عبد الحليم خدام، وبين ممثلي الحركة الوطنية وعلى رأسهم كمال جنبلاط. وكان للوسطاء السوريين هدفان واضحان: التوصل إلى توحيد الجيش على أساس إصدار عفو عام، وتشجيع قيام حكومة اتحاد وطني تتولى مهمة تنفيذ الوثيقة الدستورية ذات السبع عشر نقطة التي سبق أن أعلنا رئيس الدولة.

كان رئيس الأركان السوري اللواء حكمت الشهابي بادي الغضب، متيبساً في بزته العسكرية، متهجم الوجه، ثم راح يخضع كمال جنبلاط لاستجواب حقيقي ويطرح عليه أسئلة عدوانية ويسجل أجوبة على دفتر صغير: «هل صحيح أنكم تؤيدون الخائن أحمد الخطيب» فكان الزعيم الاشتراكي يجيبه، وهو الرجل المرهف الذي يستخدم الكثير من التلاوين في تعابيره، بنفس اللهجة: «الخطيب وطني كبير، بل مفخرة قويمة. أما المسؤول عن تفكك الجيش فهو نظام سليمان فرنجية الفاسد الذي تدعمونه». وظل عنف الكلام إلى تصاعد. ولخشيتي من وصول الأمر إلى ما لا تحمد عقباه: فإنني دعوت عبد الحليم خدام واللواء ناجي جميل نائب وزير الدفاع السوري الذي كان حاضراً أيضاً للحاق بي إلى غرفة مجاورة، حيث لفت انتباههما إلى الطريقة المهينة التي يعاملان جنبلاط بها وخاصة أمام آخرين. ونصحتهما بإنفراد برئيس الحركة الوطنية لمواصلة النقاش في جو هادئ. وهذا ما فعلاه بنجاح، ذلك أنهما خرجا بعد نصف ساعة الابتسامة تعلو الشفاه. إذ لم يعدهم جنبلاط بتقديم المساعدة لإعادة تكوين الجيش وحسب، بل أنه قدم إليهم أسماء أربعة شخصيات تمثله في حكومة الاتحاد الوطني. غير أن الوسطاء السوريين كانوا يجهلون في تلك اللحظة أن الزعيم الاشتراكي عين لهم المرشحين الذي كان يعلم أن الرئيس فرنجية لن يقبل بهم...

وفي غداة اليوم التالي، أي في الحادي عشر من شهر آذار ـ مارس، يوم انقلاب الزعيم عزيز الأحدب ـ الذي اتهمت الإيحاء به، رأيت أعضاء الوفد السوري مرة أخرى. وقال لي عبد الحليم خدام وهو متجهم: «إن فرنجية شخص مغيظ. فهو يرفض تشكيل حكومة اتحاد وطني قبل أن يسرح قيادة الجيش العليا المؤيدة لإصدار قرار العفو: كلها». ومضي وزير الخارجية السوري يقول: «إن الوضع خطير. لأن ثمة انقلاب وفق معلوماتنا قيد الأعداء». وكان لدي شخصياً معلومات دقيقة حول هذا الموضوع: فسحبت من جيبي قصاصة ورق كتب عليها أسماء خمسة ضباط كبار، يعزو إليهم من أبلغوني هذه المعلومات نية القيام بحركة انفصالية في الجيش. وكان الاسم الثالث على لائحتي هو اسم عزيز الأحدب، قائد موقع بيروت الذي كان يبدو بالنسبة إلينا الشخص الأكثر احتمالاً بالنظر إلى ديانته (مسلم سني) وبالنظر إلى التعاطف الذي يحظى به في الأوساط المارونية. كان يمثل بمعنى من المعاني محصلة تركيبة البلاد. غير أن أحد ما لم تكن تراوده أية أوهام حول فرص نجاح «انقلاب عسكري» في بلد فيه من الميليشيات بقدر ما فيه من الطوائف. ويعصى عملياً على كل إشراف من قبل الدولة. أما السوريون فإنهم يخافون الانقلاب لأسباب سياسية أساساً. ثم غادر الوسطاء السوريون بيروت وهم قلقون. وبعيد ذلك بساعة ونصف على أكثر تقدير، قاد الأحدب حركة انشقاقه العسكري. وقبيل الساعة الثامنة والنص مساء، ظهر أبو حسن سلامة وهو ضابط استخبارات في فتح، في مكتبي بغتة ليعلن علي أن الزعيم الأحدب سيقرأ خلال دقائق إعلاناً على التلفزيون يطالب فيه باستقالة سليمان فرنجية. ثم راح يزودني بتوضيحات أمام نحو من عشرة أشخاص كانوا موجودين في مكتبي، بينهم ياسر عرفات وزهير محسن، رئيس منظمة الصاعقة (الفدائية الموالية لسوريا) وعلي المدني، رئيس الاستخبارت العامة في سوريا. وقال لنا سلامة، أن عزيز الأحدب مقتنع بأن حكومة دمشق وقيادة الجيش اللبناني العليا ستؤيد حركته، بهدف التخلص من رجل، (أي من رئيس الجمهورية فرنجية)، بات عائقاً في وجه المصالحة الوطنية، ثم قال لنا أخيراً أنه زود الزعيم الأحدب بثلة من فتح واكبته حتى مبنى التلفزيون. وبطبيعة الحال إن هذه المحاباة الأخيرة ـ والتي قلت له أنها في غير موضعها ـ هي التي غذت الإشاعات التي جعلتني شريكاً متآمراً عزيز الأحدب. لكن، لو كان الأمر كذلك حقاً، أفكان يعقل أن يحدثني سلامه بالأمر بمثل هذه الحرية وأمام شخصيات قريبة من الرئيس الأسد! وهل كنت أقدم أنا نفسي اسم الأحدب لخدام كأحد المرشحين الممكنين للحركة الانقلابية.

غير أنه يبقى أن مغامرة الزعيم الأحدب الفاشلة، أحدثت أول صدع في العلاقات بين سوريا وبين المقاومة. ولما كان الرئيس الأسد مقتنعاً بأننا نسعى إلى تخريب مخطط التسوية الذي

أعده بالاشتراك مع سليمان فرنجية، فإنه دعا وفداً من منظمة التحرير الفلسطينية للذهاب إلى دمشق. وقد استمر اللقاء الذي جرى في 16 مارس . آذار نحواً من اثنتي عشرة ساعة! وقد لاقينا . ياسر عرفات وأنا . أشد العناء في إقناع الرئيس الأسد بحسن نوايانا. إذ أنه ظل يرتاب ويتشكك بحججنا مردداً أنه لا يستطيع مواصلة التعاون مع رجال يخونون ثقته ويزعمون فوق هذا أنهم أصدقاء. ذلك أنه كان حريصاً بالدرجة الأولى على عدم التخلي عن سليمان فرنجية، الذي يمثل في نظره رمز الشرعية وعامل الاستقرار في لبنان. غير أن عصباً وزمراً كثيرة في الجيش اللبناني ومعها الأغلبية البرلمانية والرأي العام كانت تطالب باستقالة فرنجية. وأخيراً رضخ الرئيس السري للأمر الواقع وانتهى إلى القبول بصيغة حل وسط يهدف إلى إيجاد مخرج يؤاتي محميه اللبناني، وقوامه أن يقوم مجلس النواب اللبناني بتعديل المادة 76 من الدستور لكي يتاح انتخاب رئيس جديد للجمهورية قبل نهاية ولاية الرئيس فرنجية، بحيث يتمن هذا الأخير من الانسحاب بكرامة في الأيام التي تلي...

وكان يبدو أن الأمور كلها سويت، حين جاءت للرئيس الأسد رسالة هاتفيه تبلغه تصريحاً لكمال جنبلاط، يندد الزعيم الاشتراكي فيه بالتدخلات السورية في الشؤون اللبنانية. وإذ استولى الغضب على رئيس الدولة السوري فإنه طلب من اللواء الشهابي الذي كان جالساً إلى جانبه أن يخابر الرئيس سليمان فرنجية في الحال لطمأنته إلى دعم الجيش السوري له في وجه الذين يطالبونه بالاستقالة. فعادت الأمور على بدئها.. وتدخل نايف حواتمه رئيس الجبهة الديمقراطية الذي كانت علاقاته بالأسد ممتازة، ليوضح بدوره للرئيس السوري أنه يرتكب خطأ جسيماً باستعداء زعيم سياسي له من المهابة والنفوذ ما لكمال جنبلاط، الذي يستطيع فضلاً عن جر الحركة الوطنية معه أن يجرب الطائفة الدرزية أيضاً. وتوصلنا في النهاية إلى إقناع الأسد بالتباحث مع جنبلاط لتبديد الخلافات وسوء التفاهم الذي يفصل بينهما نهائياً وبرغم الهجمة التي شنتها القوات المشتركة (الفلسطينية التقدمية) ضد القرى التي يسيطر عليها اليمين على المتن الأعلى فإن الأسد استقبل جنبلاط في 27 آذار مارس. ولم يفض اللقاء الذي دام ثماني ساعات إلى شيء، اللهم إلا إلى التعجيل في القطيعة بين سوريا واليسار اللبناني. ووفقاً لما قاله الأسد أيضاً . راح يستشهد بالتاريخ ليدعو إلى قيام الدروز بذبح الموارنة. وهكذا فإن الأسد الذي أقسم ألا يستقبل جنبلاط طالما هو رئيس للجمهورية، لن يعود إلى استقبال الزعيم الاشتراكي أبداً. ذلك أن جنبلاط الذي بدأ التنديد به منذ غداة اليوم التالي للقائه مع الأسد، «كعميل أميركي» و«كخائن» سوف يغتال بعد ذلك بسنة.

غير أننا لم نيأس من مصالحة سوريا مع اليسار اللبناني. وهكذا فقد ذهب وفد من منظمة التحرير يضم ياسر عرفات وأنا ونايف حواتمه وزهير محسن، إلى دمشق في 16 أبريل . نيسان حيث أجرينا محادثة جديدة طويلة مع الأسد. وببديهة الحال فإن الرئيس السوري لم «يغفر» لنا أبدا لا حركة الأحدب ولا مواصلة المعارك في الجبل المسيحي، بعد أن جعلنا مسؤولين عن الأمرين معاً. كما أنه كان يرتاب كذلك . برغم انكارنا واحتجاجاتنا . بإقامتنا علاقات مشبوهة مع الرئيس السادات برغم قيام هذا الأخير بعقد الاتفاقية الشهيرة حول سيناء. ومذ ذاك، راح الأسد يعزز تعاونه مع «جبهة بيير الجميل وكمعون شمعون اللبنانية» مبرراً ذلك بسلوك جنبلاط الذي اعتاد على وصفه «بتاجر ثورة وتقدمية» من جهة، وباهتمامه هو بالحفاظ على وحدة وسلامة أراضي لبنان من جهة أخرى.

ورغم هذا كله، فإننا توصلنا في 16 نيسان . ابريل إلى عقد اتفاق من سبع نقاط مع الرئيس الأسد ينص أساساً على وقف إطلاق النار في لبنان ورفض تقسيم البلد ورفض «تعريب» النزاع، أي استبعاد مصر وحلفائها عن تسوية موضوعات النزاع اللبناني. على أن بروتوكولا ملحقاً بالاتفاق، قررنا ألا نذيعه، كان يشترط سحب سوريا لجيشها من الأماكن الحدودية التي احتلها، كمقابل لتعهداتنا. لكن جنبلاط الذي شاورناه لدى عودتنا إلى بيروت رأى أن التسوية غير مرضية ولم يقبل بالموافقة على وقف إطلاق النار إلا كارهاً.

وبعيد توقف المعارك تنفيذاً للهدنة التي لم تدم أكثر من سابقاتها إلا قليلاً، جاءني غسان تويني ليبلغني رسالة من الممثل الشخصي لهنري كيسنجر، السفير دين براون الذي كان وصل إلى لبنان قبل ذلك ببضعة أسابيع. وقال لي الثويني . وهو الوزير السابق وصاحب جريدة النهار . أن براون يريد أن يعرف ما إذا كانت المقاومة تستطيع أن تضمن احترام الحركة الوطنية لوقف إطلاق النار. إذ دون ذلك فإن الولايات المتحدة لن تعارض تدخلاً عسكرياً سورياً في لبنان.

واعتبرت هذا المسمى غريباً، كما بدا لي التدخل الأميركي أمراً لا يطاق. لكن جوابي جاء غامضاً مهذباً. وقلت للتويني أن هذا الأمر لا يعود إلي، وأنه ليس لي أن أسير في متاهة دسائس ومكائد كيسنجر. فضلاً عن أن عقدة المشكلة لا تقلع في معسكرنا، وإنما في معسكر الانفصاليين الموارنة الذين لم يتوقفوا عن انتهاك اتفاقيات وقف إطلاق النار الموقعة في السابق.

وخلال محادثتنا بتاريخ 16 نيسان . ابريل مع الأسد، فإن الرئيس السوري تناول موضوعاً رئيسياً آخر متوسلاً إليه مواربة عبر المساءلة. فقد سألنا: «من هو مرشحكم لرئاسة الجمهورية اللبنانية؟». كان مجلس النواب اللبناني قد عدل المادة 76 من الدستور قبل ذلك بأسبوع، ووافق

سليمان فرنجية تحت ضغط السوريين، على أن ينتخب خليفته في أول أيار مع احتفاظه بحق البقاء في السلطة حتى نهاية ولايته في شهر آب أغسطس.

وأجبت الأسد بأننا أكثر احتراماً لسيادة لبنان من أن يكون لنا مرشح لرئاسة الجمهورية. إلا أنني أكن الكثير من التقدير لصديقي ريمون اده الذي أقدر فيه استقامته برغم تبايناته العميقة مع المقاومة. ثم أضفت أن الآراء منقسمة داخل الحركة الوطنية حول ريمون اده، ولكن الحركة قررت تأييد ترشيحه ضد ترشيح الياس سركيس الذي يؤيده اليمين المسيحي وسوريا. ثم خلصت إلى القول بأنه لا ينبغي للرئيس الأسد الركون إلى المظاهر: فريمون اده يتمتع باحترام كبير وحب بالغ داخل «الأكثرية الصامتة» وبين المسلمين والمسيحيين وداخل المحافظين والتقدميين.

وأجابني الرئيس الأسد: «على رسلك، انه ليس لسوريا مرشح في الانتخابات الرئاسية اللبنانية لأنها لا تعتزم التدخل في الشؤون اللبنانية». ثم تكلم بعبارات عامة عن سركيس واده. إلا أنه كان من البديهي أن يتعاطف مع الأول وأنه ليس شغوفاً بعميد الكتلة الوطنية الذي لا يترك مناسبة دون أن يندد بما لا يزال يسميه إلى اليوم «مطامع سوريا التوسعية»..

كنت أعلم مقدماً أنه ليس لريمون اده إلا قليل حظ في النجاح في الانتخابات. ذلك أنه لم يكن يواجه عداء «الجبهة اللبنانية» وسوريا وحسب، بل الولايات المتحدة أيضاً. فقد عجم دين برون عيدان المرشحين عبر المحادثات التي أجراها مع سركيس واده طارحاً عليهما سلسلة من الأسئلة حول ما يعتزم كل منهما عمله في حال انتخابه. فكانت الردود التي قدمها اده . وفق ما رواه لي . أجوبة لا يمكن إلا أن تفقده الحظوة وتحط من شأنه في نظر الأميركيين. أما قادة المقاومة فكانوا أقرب إلى الارتباك بشأن الموقف الذي ينبغي لهم اتخاذه. فهل كان ينبغي منع انتخاب رئيس جديد والدخول بذلك في نزاع مع سوريا. أم أنه ينبغي على العكس من ذلك التخلي عن اليسار اللبناني بإتاحة انتخاب سركيس. كنا نطفو في بحر من التخطيط. فقد كان هناك جزء هام من «الحركة الوطنية» يؤيد قراراته في انتخاب سركيس، ولكنه قرر الاقتراع ضده تحدياً لسوريا. وكان ثمة جناه من «الجبهة اللبنانية» يفضل اده، لكنه انضم إلى جانب سركيس للحيلولة دون فوز مرشح اليسار. أما كميل شمعون لقد اتخذ موقفاً أكثر غرابة: ذلك أنه طلب ثمناً مرتفعاً لأصوات مجموعته البرلمانية.

وأمام هذا الخيار الصعب، اختارت المقاومة في النهاية صيغة معتدلة بحيث أن الفدائيين سيقصفون المبنى الذي سيجتمع فيه النواب من 8 أيار . مايو (وبالفعل فإن الجلسة كانت تأجلت أسبوعاً) بنيران كثيفة من مدافع الهاون، وبقدر يكفي لإظهار انزعاجهم، ولكن ليس إلى حد الحيلولة دون انتخاب رئيس جديد.. ذلك أن الرأي السائد كان يقضي بألا نستعدي سوريا حتى لو

كان صحيحاً أن ريمون اده سيستطيع إذا ما انتخب وضع حد للحرب الأهلية، وإلغاء كافة الميليشيات الحزبية وإعادة توحيد الجيش وتأمين وحدة البلاد على أسس جديدة.

غير أن سركيس يظل في نظرنا رجلاً حسن الاستعداد ووطنياً يستطيع . إذا ما توفرت له الوسائل . أن يخدم مصالح البلاد العليا. أو ذلك، على الأقل هو الانطباع الذي خرجت به أثر عدة محاولات أجريتها مع مرشح اليمين هذا قبل وبعد اختياره للرئاسة.

لكن انتخاب سركيس لم يحل المشكلات القائمة بل أنها على العكس من ذلك، راحت تزداد تفاقماً. فاليمين المنتعش ظل يناوشنا لاسترجاع مواقعه المفقودة. واليسار والمقاومة فتحنا ابتداء من 12 أيار . مايو «جبهة جبل». كما أن الهزائم التي لحقت بالميليشيات المارونية كانت تقلق السوريين إلى أقصى حد، لأنهم كانوا يرون أن انتصاراً فلسطينياً . تقدمياً صريحاً لا يمكن إلا أن يؤدي إلى تدخل عسكري أجنبي، إسرائيلي أو أميركي.

فكان لا بد من إجراء مشاورات جديدة مع الرئيس الأسد. وهكذا فقد ذهبنا . ياسر عرفات وأنا . إلى دمشق في 15 أيار . مايو حيث كان ينتظرنا رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود الذي كان يطرح نفسه في تلك الحقبة كوسيط.

وراح جلود يستشهد بالمحادثة التي أجراها مع الرئيس الأسد راوياً لي أن الرئيس السوري قال إن فتح سلحت ودرب في لبنان ثلاثين ألف شخص من أفراد الميليشيات الشيوعية، وأن غالبية رؤساء البلديات الذين انتخبوا في عهد قريب في الضفة الغربية المحتلة بدعم من منظمة التحرير الفلسطينية هو الشيوعيين أيضاً. وأننا نسفنا اتفاقيات وقف إطلاق النار المعقودة في لبنان بصورة منتظمة. وأن المقاومة، أخيراً، تعارض توحيد سوريا ولبنان في دولة واحدة. وأمام فداحة وضخامة هذا كله، فإنني طلبت ونجحت في أن أجعل عبد السلام جلود يحضر مقابلتنا مع الرئيس الأسد.

وبطبيعة الحال، فإن المحادثة مع الرئيس السوري كانت، محادثة عاصفة. فقد رد علينا الرئيس الأسد حججنا واحدة أثر الأخرى، وأبلغنا عزمه بإرسال جيشه إلى لبنان لإعادة النظام إليه. وهكذا فإن مرافعتنا ونصائحنا ذهبت سدى. وبعد ذلك بأسبوعين بدأ ستة آلاف جندي سوري، سيصل عددهم بعد ذلك إلى 30.000 مدعومين بمئات الدبابات والمدافع الثقيلة، باجتياز الحدود اللبنانية.

وبينما كانت القوات السورية تتقدم على محورين شمالي يتجه صوب صوفر والثاني جنوبي يتجه نحو صيدا، علمت من أحد قادة الصاعقة المقربين من رئيسها زهير محسن، أن المنظمة السورية الاتجاه ستقوم في 6 حزيران . يونيه باستفزاز يهدف إلى شل كافة التشكيلات

الفدائية في بيروت. وستقوم باقتحام مكاتب أحزاب اليسار ومغاوير «جبهة الرفض». في حين تقوم وحدة سورية ترابط في المدينة الرياضية بالتحرك لفصل المشتبكين في الظاهر وللسيطرة على جهاز فتح العسكري والسياسي في الحقيقة. وقد وصلتني هذه المعلومات في 3 حزيران . يونيه، فكان في وسعي استغلال مهلة الثلاثة أيام الباقية لاتخاذ تدابير دفاعية.

وبالفعل فإن الصاعقة بدأت قبيل ظهر يوم 6 حزيران . يونيه هجومها. فما لبث مغاويرنا أن طفقوا يحتلون قواعد ومكاتب المنظمات الموالية لسوريا وينزعون سلاح ميليشياتها ويوقفون رؤساءها. وانتهت العملية التي دامت ست ساعات بعد أن تكللت بالنجاح. والصحيح هو أن أخصامنا لم يبدوا مقاومة حقيقية بحيث أن كثيرين منهم سلموا أسلحتهم طواعية. إذ لم يكن في كلا المعسكرين أحد يشعر بالفرح إزاء هذه المرحلة الجديدة من الحرب الأخوية التي سترهق الكثير من الدم لسوء الحظ على غير طائل. وكان تقديرنا هو أن أخواننا السوريين أوقعوا أنفسهم في الشرك الأميركي، شرك هنري كيسنجر الذي يفضل ألف مرة وقوع مواجهة سورية فلسطينية على حدوث هدوء، يتيح للعرب أن يراقبوا عن كثب دسائسه الرامية إلى تيسير مصالح إسرائيل والولايات المتحدة في المنطقة.

وعلى أساس مثل هذا التحليل ارتكبت الجريمة الغبية النذلة في 16 حزيران . يونيه، ففي هذا اليوم كان سفير الولايات المتحدة الجديد في بيروت فرنسيس ميللوي ولم يكن مضى عليه في منصبه هذا سوى شهر، يرافقه المستشار الاقتصادي في السفارة روبرت وارنغ في طريقه لمقابلة إلياس سركيس الذي لم يكن قد بدأ يضطلع بعد بمهمته الرئاسية بانتظار نهاية ولاية سليمان فرنجية. وكان لا بد للدبلوماسيين من سلوك طريق المتحف، الطريق الوحيد التي تصل القطاعين المتناحرين من بيروت، عنيت القطاع الغربي الذي تقع فيه السفارة الأميركية، والقطاع الشرقي الذي تسيطر عليه الميليشيات المارونية ويقطنه الرئيس المنتخب.

ووصلت سيارة السفير تتبعها سيارة الحرس إلى الخط الفاصل بين القطاعين. ولدى وصولها إلى مدخل شارع المتحف انعطفت سيارة الحرس متخلية عن السيارة التي يستقلها السفير ومستشاره الاقتصادي. ولكن لماذا؟ إن السر لا يزال يكتنف هذه القضية ولم يكتشف حتى الآن. يبقى أن سيارة السفير اختفت قبل أن تصل إلى حاجز المراقبة الواقع على نقطة تقاطع القطاعين. وبعد ذلك بساعات اكتشفنا جثث فرنسيس ميللوي وروبرت وارنغ وسائقهما اللبناني زهير مغربي وقد اخترقها الرصاص. وقد نددت كافة المنظمات الفدائية بهذا الاغتيال الثلاثي وشجبته. غير أن حزب العمل الاشتراكي العربي وهو فصيل لم يسبق لنا أن سمعنا بع قبل ذلك

أعلن تأييده لهذا العمل دون أن يدعى مسؤوليته عنه. وهذه هي كافة الوقائع التي تناهت إلى علم الرأي العام قبل أن يطوى ملف القضية.

وقررت من جانبي القيام بتحقيق حول الحادث. وبعد ثمانية أيام من البحث والتحري، أبلغت بوجود سيارة السفير في مراب، فقامت مجموعة فدائية باقتحام المبنى وعثرت فيه على السيارة كما وجدت هناك شاباً في السادسة عشرة من عمره يتولى حراستها. ولم يكن المراهق أكثر من ممثل مساعد (كومبارس) إلا أنه زودني ببعض الإشارات حول مسير العملية. وهكذا فقد علمت أن القتلة اتصلوا بزهير مغربي، السائق الشخصي للسفير، قبيل تنفيذ جريمتهم ببضعة أيام لتأمين تواطئه معهم، فأكدوا له أنهم يريدون خطف رب عمله للحصول على فدية ثم يطلقان سراحه وسراح راكبي السيارة الآخرين. وكان خادم السفارة الأميركية الوفي الهرم هذا، يعيش حياة أكثر بؤساً وضنكاً من أن تحول دونه ودون أن تراوده الرغبة في الحصول على نصيب من الفدية يضمن له ولعائلته الأمان المادي لسنوات طويلة. وهكذا فقد قبل أن يلعب دور الأداة في يد الخاطفين. فأوقف السيارة عند نقطة اتفق عليها معهم. بحيث يتمكن الخاطفون من الاستيلاء على ضحاياهم بدون إطلاق نار وبعد أن جرى استجواب ميللوي وورانغ استجواباً لا يستطيع مخبري أن يفيدني عنه بشيء، فإنه جرى إعدامهما وإعدام مغربي معهما بكل برود. ثم غادر القتلة لبنان بعيد ذلك بساعات دون أن يتركوا أي أثر.

لكن ما دام هؤلاء لم يطلبوا فدية، ولا تقدموا بأية مطالب سياسية أو سواها، فماذا كان هدفهم إذن؟ إن المراهق الأنف الذكر روى لي أنه استمع عرضاً إلى محادثة بين القتلة سمعهم يقولون فيها أنهم كانوا يأملون أن يترتب على عمليتهم، حدوث إنزال أميركي في لبنان! وإذا كان هؤلاء يرثون شأننا جميعاً لاقتتال الأخوة الفلسطينيين والسوريين، فإنهم كانوا يتصورون أنه سيسعهم وضع حد لها بتحويل لبنان إلى فيتنام جديدة وتطوير الحرب الأهلية إلى حرب تحرير وطني! ولا ريب في أنه يحق لنا أمام منطق بمثل هذه البساطة الشائنة، أن نتساءل عما إذا كان مرتكبو هذه العملية الغبية أشخاصاً حمقى أم عملاء مأجورين. وبعد عملية الاغتيال الثلاثية بستة أيام، بدأت معركة تل الزعتر، أطول معارك الحرب الأهلية وأكثرها مقتلة. فقد فرض اليمين المسيحي الحصار على مخيم اللاجئين منذ شهر كانون الثاني . يناير ثم شن في 22 حزيران . يونيه، هجوماً واسع النطاق على تل الزعتر وعلى التجمعين المجاورين له، جسر الباشا والنبعة. وبدأت القذائف والصواريخ تمطر هناك بلا انقطاع من الفجر إلى المغيب على مدى اثنين وخمسين يوماً متتالية. ويقدر عدد القذائف التي سقطت على تل الزعتر والذي التجأ إليه 20.000 فلسطيني و 15.000 لبناني مسلم بحوالي 55000 قذيفة.

وبدأ بضع مئات من أفراد الميليشيات المارونية . هي ميليشيات كميل شمعون التي عاد الكتائبيون بعد خمسة أيام، فانضموا إليها بعد تردد . بمحاصرة المخيم بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان بعشرة أيام. وببديهة الحال، فإنهم انتظروا مبادرة دمشق ليقوموا بهذه المذبحة. ودليلي على ذلك هو رد فعل اليمين المسيحي على عرض التسوية الذي قدمته المقاومة وكمال جنبلاط إليهم في 25 أيار . مايو، أي قبل التدخل السوري بأسبوع. وكان هدف الصيغة المقترحة هو بالضبط، منع تدخل دمشق العسكري، فقد عرضنا الانسحاب من كافة المناطق التي فتحناها في الجبل على أن نتركها تحت إشراف قوات تكفي لتشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار. لكن الجيش السوري كان الكتائبيين. وسلم هذا الاقتراح الذي حررت صيغته في رسالة بيدي إلى بيير الجميل بواسطة معاوني أو حسن سلامه. إلا أن رئيس الكتائب لم يرد على رسالتي لذ كان ينتظر خشبة الخلاص الدمشقية وفرصة تحقيق انتصارات عسكرية.

والحقيقة هي أن انتصار تل الزعتر كان مشروع الإبادة بالأسلوب الفاشي الصرف. وقد كان بيير الجميل وكميل شمعون يعرفان أننا لا نملك أية وسيلة فعالة لتحرير مخيم اللاجئين المطوق مع التجمعين المجاورين له تطويقاً كاملاً بواسطة حزام مسيحي يسيطر عليه الانفصاليون. وكان لدينا، في المطلق، قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار. لكن الجيش السوري كان لا يزال، برغم اتفاق وقف إطلاق النار الذي عقدناه معه قبل ذلك ببضعة أيام، يشل حركتنا في شمال لبنان وفي جنوبه معاً، بحيث أن سحب المقاومة لقواتها من المراكز التي تحتلها في مواجهة القوات السورية، وكان سيشكل كارثة.

غير أننا أسهمنا في الدفاع عن المخيم بقصف محاصريه وبمحاولة تدمير مدافعهم المبعثرة في المدينة، وعلى التلال المجاورة. حيث كنا نتمكن من تحديد مواقعها بفضل المعلومات اللوجستيكية التي كان المسؤولون العسكريون في تل الزعتر يزودونا بها بواسطة الراديو. وبفضل هذا «الحزام الناري» الذي أنشأناه، لم يتمكن المحاصرون من اقتحام المخيم. غير أن المخيم كان مهدداً من الداخل بأكثر مما كان مهدداً من الخارج. ذلك أن الحصار الذي دام أكثر من خمسة أشهر أفضى بالأهالي إلى عتبة المجاعة بل أن ما كان أكثر من ذلك قسوة وفظاعة هو نقص الماء وشحه. بعد أن نجحت الميليشيات المسيحية في تفجير شبكات المياه لم يبق أمام أهالي تل الزعتر سوى بئر ملوثة شحيحة المياه. وكان البئر معرضاً لسيل من القذائف المنهمرة على المخيم فكان لا بد من إرسال حملات بالمعنى الحقيقي للكلمة، للبحث عن الماء. وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تذهب بحياة شخصين أو ثلاثة بحيث أن الناس في تل الزعتر اعتادوا على أن يقولوا أن كأس الماء تساوي فعلاً كأساً من الدم.

وقد نال ذلك من صغار الأطفال منالاً عظيماً. وبطبيعة الحال، فإنه لم يكن في الوارد تزويد الرضع بالحليب. كما أن كمية الخبز والماء الموزعة على العائلات، كانت أقل من أن تكفي صغار السن، حتى أننا كنا نسمع عندما نتحدث إلى مسؤولي المخيم بالراديو أنين وعويل الأطفال الصارخين: «أنا عطشان يا أمي». وعلى هذا فقد مات، بخلاف البالغين، حوالي ثلاثمائة طفل ورضيع جوعاً وعطشاً إبان فترة الحصار.

ولم ندرك خطورة الوضع في بداية المعركة، إلى أن اتصل بنا ذات يوم طبيبان من أطباء المخيم لطلب النجدة. وكانوا يصرون على الحديث مع مسؤولين سياسيين من المقاومة وليس مع مسؤولين عسكريين. وأحسست بغيظهم وهيجان نفوسهم عندما قالوا لي بلهجة جافة: «فإذا كنتم لا تستطيعون التوصل لوضع حد لهذه المجزرة، فجدوا على الأقل وسيلة لتموينا بالماء والغذاء!» وما لبثنا أن كونا مجموعات صغيرة تتألف كل واحدة منها من قبضة من الرجال وذلك لمحاولة التسلل وراء خطوط العدو والوصول إلى تل الزعتر. فكان على هذه المجموعات وهى تلتف على المحاصرين. أن نزحف ليالي بكاملها على الهضاب المجاورة للتل وعبر الحقول والغابات. وكان يستحيل على أفرادها أن ينقلوا الماء. كما أن أسلحتهم وذخائرهم لم تكن تتيح لهم أن يحملوا كميات هامة من الأغذية. وكثير منهم استشهد في الطريق. وأما الآخرون فلم يكونوا يقدمون للمحاصرين أكثر من تسكين مؤقت: أنهم لاضطرارهم إلى البقاء في المخيم كانوا يزيدون عدد الأفواه المحتاجة للغذاء.

وفي اليوم الخامس من القتال جاءني الأب يواكيم مبارك . وهو كاهن ماروني مفعم بالمشاعر الإنسانية ومعاد فوق ذلك للتدخل العسكري السوري، ليقدم لي اقتراحاً بوضع حد للمعارك. ويقضي الاقتراح بأن يستسلم فدائيو تل الزعتر بأسلحتهم إلى ممثلين الصليب الأحمر الدولي، ينتظروهم عند أبواب المخيم وبعد ذلك يتم إخلاء الأهالي ضمن أفضل الشروط الممكنة. فرفضت اقتراحه للفور لأنه بدا لي غير لائق بمقاتلين في مثل بسالة مقاتلينا. وتقدمت باقتراح مضاد يقضي بإخلاء الجرحى والنساء والأطفال فقط . أو على الأقل الأطفال بدون أمهاتهم . بينما يظل الرجال جميعاً يواصلون المقاومة في داخل المخيم، فرفض. ثم تلقينا عدة عروض أخرى بعضها أذل من بعض. إذ كان القوم يسعون إلى جعلنا نستسلم استسلاماً شائناً مخجلاً.

ولا ريب في أننا سنتبنى موقفاً أكثر مرونة فيما لو أن المسؤولين السياسيين العسكريين في تل الزعتر، أو فيما لو أن المحاصرين فيه عامة، أبدوا مثل هذه الرغبة. لكنهم على العكس من ذلك كانوا أكثر تصلباً منا. وكانوا يقولون لنا أن تل الزعتر بعد فلسطين، هو وطننا «بالتبني». وأنهم لن يغادروه إلا محمولين على الألواح. وعندما تفاقم الوضع وفقد فيه كل أمل،

ذهب أبو محسن ـ الرئيس السياسي للمخيم ـ إلى والده مصحوباً بكافة أفراد العائلة يتضرع إليه في رفع العلم الأبيض. فكان أن استشاط محسن غضباً، وطرد أباه باحتقار ثم أبى أن يكلمه إلى أن انتهت المعركة.

وقد دق احتلال مخيم جسر الباشا الفلسطيني (في 29 حزيران ـ يونيه)، ثم احتلال حي النبعة اللبناني ـ المسلم بعد ذلك (في 6 آب ـ أغسطس)، ناقوس تل الزعتر، فتم عقد اتفاق بواسطة ممثل الجامعة العربية في 11 آب ـ أغسطس حول أشكال الإخلاء التي ستطبق من الغداة. كانت الشروط مشرفة نسبياً من حيث أن المحاربين سيغادرون المخيم مع المدنيين في آن معاً، دون أن يستسلموا للميليشيات المارونية، بل تتكفل بهم «قوة السلام» العربية والصليب الأحمر اللذين يزودانهم بوسائل النقل اللازمة.

غير أن أعداءنا دفعوا غدرهم الوحشي إلى غايته، وذلك، عندما فتحت ميليشيات كميل شمعون وبيير الجميل النار على جميع سكان تل الزعتر وهم يغادرون مخيمهم عزلاً من السلاح وفقاً للاتفاق المعقود، حاصدين بضع مئات من الأشخاص. بينما انقض آخرون إلى داخل المخيم وراحوا يطلقون النار على كل من يصادفون، وبينما راح سواهم يوقفون الناقلات التي تراكم فيها الناجون على الحواجز المنصوبة على الطرقات، وينتزعون من داخلها بعضاً منهم، وخاصة حديثي السن الذين يشتبهون في كونهم فدائيين، ثم يقتلونهم بوحشية أو يقتادونهم إلى جبهات مجهولة. وهكذا فإن ميليشيات اليمين المسيحي اغتالت في يوم واحد عدداً من الأشخاص يزيد على عدد ما قتلوه خلال الاثنين والخمسين يوماً من حصار تل الزعتر. وبالإجمال فإن عمليتهم هذه أوقعت حوالي 3000 ضحية. في حين أن الألف فدائي الذي كانوا في المخيم لم يستشهد منهم سوى عشرة فقط، وسلم الباقون بعد أن أفلحوا في الفرار عبر الغابات والهضاب المجاورة مستفيدين من الفجور الدموي الذي ساد في ذلك اليوم المقدور ـ يوم 12 آب ـ أغسطس.

ولا يخالطنا الشك في أن المدافعين عن تل الزعتر أضافوا صفحة مجيدة إلى تاريخ الشعب الفلسطيني. وستظل بطولاتهم وبطولة سكان المخيم أسطورة حية تلهم شعبنا أبداً على مدى الأجيال القادمة.

لكن جلجلة تل الزعتر أفادت في أنها أظهرت مرة أخرى، أنه ليس في وسعنا الاعتماد على غير أنفسها. فقد أدار العالم «المتحضر» عينيه بخفر واحتشام عن المجزرة... ولا ريب في أ،ه وجد في أوروبا رجال ونساء سخطوا واستنكروا ونظموا الاجتماعات ومظاهرات الاحتجاج، إلا أن عملهم هذا ظل أكثر تواضعاً من أن يؤثر في مجرى الأحداث. غير أن الفضيحة الحقيقية وقعت في موضع آخر، عنيت في العالم العربي الذي لم ترفع فيه

دولة صديقة ولا عدوة أصبعها لتنقذ الخمسة وثلاثين ألف «أخ» من أبناء تل الزعتر. وليس في وسع أحد أن يقنعني أن مئة مليون عربي يرفعوا صوتهم ليمارسوا به الضغوط، إن لم يكن على الميليشيات، فعلى سوريا أن تحميهم، على الأقل.

وكما قلت في مستهل هذا الفصل، فإن الدول العربية لم تكن تخشى شيئاً خشيتها لانتصار القوات الفلسطينية . التقدمية. ولأنهم كانوا مكرهين برغم كل شيء نتيجة للرأي العام عندهم على دعمنا من طرف ألسنتهم، وأحياناً على دفع معونات سخية لنا، فإنهم كانوا يمولون ويشجعون المشروع السوري في لبنان في آن معاً بهدف تأمين الغلبة لليمين المسيحي، وحتى عندما لا يتمنون إزالة فتح، فإنهم كانوا يحرضون على تدمير الجناح اليساري في المقاومة. وخلافاً لما يمكن أن يعتقده البعض، فإن شاغلهم لم يكن حماية المعتدلين بين الفدائيين لأنهم كانوا يمدون دعمهم إلى التشكيلات الفاشية داخل «جبهة الرفض».

ثم أن العديد من البلدان العربية . التي لم تكن تؤمن بوجود «خطر أحسر» في لبنان نتيجة لأنها أكثر اطلاعاً وعلماً. كانت تواصل، كل على حده، سياسة لا ترمي إلى الدفاع عن المقاومة الفلسطينية وإنما عن مصالحها الأنانية الضيقة. فمصر مثلاً كانت تؤيداً تأييداً مطلقاً بل وتحضنا على أن نكون أكثر تصلباً لأنها لم تكن ترمي إلا إلى تعميق الهوة بين المقاومة ومنافستها سوريا. أما العراق فكان يفعل الأمر نفسه في حين أن ليبيا كانت تسعى إلى العكس من ذلك، إلى عزل مصر لصالح سوريا. وأما الجزائر فإنها مع معونتها لنا، لم تكن تأخذ أية مبادرة جسورة لأنها لا تستطيع، كما كانت تقول لنا، أن تصرف طاقاتها في لحظة ينبغي لها أن تكرسها فيها لتحرير الصحراء الغربية.

وبالغاً ما بلغت غرابة ما سأقول، فإنه حتى موقف إسرائيل نفسها لم يكن يخلو من اللبس. فهي ترسل بالعتاد العسكري إلى اليمين المسيحي، إلا أننا لاحظنا أنها تغمض أحياناً عينيها وهي تعترض مراكب تشحن الأسلحة إلى المقاومة أو إلى اليسار اللبناني. وبديهة الحال، فإن الدولة الصهيونية لم تكن تريد لحرب أهلية تفيدها بقدر عظيم منا الفائدة، أن تتوقف قبل الأوان نتيجة لإعواز السلاح... أما بين الدول الكبرى التي كنا نعدها بين أصدقائنا، فإنه كان للاتحاد السوفياتي موقف إيجابي نسبياً. فهو لم يفهم في البداية طبيعة الحرب الأهلية فهماً جيداً وحسبها حرباً «طائفية». وبرغم توضيحاتنا وتوضيحات الشيوعيين اللبنانيين المتواصلة، إلا أن السوفيات ظلوا ينصحوننا بألا «نزج أنفسنا في شأن عائلي». وإنما بدأوا يدركون أبعاد النزاع بعد مجازر ضبيه والكرنتين في كانون الثاني . يناير 1976. ووقفوا إلى جانبنا صراحة بعد التدخل العسكري السوري في لبنان، ويقينا أن بياناتهم وصحفهم لم تنتقد الحكومة السورية إلا تلميحاً. إلا

أن الرئيس الأسد أفضـي إلـي بـأن موسـكو أوقفـت شـحن قطـع الغيـار للجيش السوري منذ شـهر حزيران . يونيه 1976. كما أنه تلقى بموازاة ذلك رسائل من القادة السوفيات تحثه على إعادة الجسور إلى سابق عهدها بينه وبين اليسار اللبناني والمقاومة.

إلا أن موسكو، لعظيم أسفنا، لم تتخذ أي إجراء لكسر الحصار الذي فرضته إسرائيل والانفصاليون وسوريا على البحر والبر. وهكذا فإن الأسلحة التي كنا نستلمها عبر سوريا توقفت عن الوصول إلينا. وفي اللحظة التي كان يعوزنا فيها كل شيء بما في ذلك الحليب والوقود، فإن الاتحاد السوفياتي لم يحاول أن يرسل إلينا مركب تموين ولو تحت راية غير رايته.

ولهذا فإني لم أمنع نفسي في المؤتمر الصحفي الذي عقدته إبان حصار تل الزعتر على انتقاد الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الأخرى حول هذا الموضوع. ولكنهم أصموا آذانهم. وعندما تعود بي الذاكرة إلى ذلك فإني أعتقد أن موسكو لم تكن تريد أن تتورط في نزاع قد يؤدي بها إلى المواجهة مع الولايات المتحدة، وأحسب أن دواعي الأمن ومقتضيات الانفراج تغلبت على رغبتها في مساعدتنا.

وإذا كان السوفيات قد أبطأوا حتى أدركوا كافة مضامين النزاع اللبناني، فإن أصدقاءنا الصينيين لم يفهموا منه شيئاً. فقد ظلوا يعتقدون حتى النهاية بأن الحرب اللبنانية ليست سوى حرب ديانات، أو لعلهم كانوا مستغرقين في الأزمة الداخلية الكامنة في بكين. يبقى أنهم امتنعوا عن دعمنا في كافة المجالات سياسياً، ثم وبخاصة عسكرياً.

وعلى هذا فإننا كنا قد بتنا لوحدنا عملياً، حين شن السورين في 28 . أيلول . سبتمبر هجوماً ضخماً في المتن الأعلى بهدف إزاحة القوى الفلسطينية والتقدمية عن المراكز التي احتلتها. وكانت الذريعة التي تذرع بها القوم لتبرير انتهاك وقف إطلاق النار الساري المفعول، هو الهجوم الذي شنه أربعة فلسطينيين قبل ذلك بيومين على فندق سميراميس في دمشق واسترهنوا فيه رهائن. وقد قتل أحدهم خلال العملية بينا شنق الثلاثة الآخرون في الغداة في إحدى الساحات العامة. وأقول أن الأمر كان ذريعة لأن أصحاب العملية كانوا أعضاء في إحدى منظمات جبهة الرفض ذات الميول العراقية، ولم تكن لهم أية علاقة بقيادة المقاومة. بل على العكس من ذلك فإنهم كانوا مناوئين لخطنا السياسي. ومن الصحيح كذلك أن نائب وزير الدفاع السوري اللواء ناجي جميل كان قد طلب منا خلال اجتماع في صوفر في 11 أيلول . سبتمبر أن نسحب كافة قواتنا بدون قيد أو شرط وأن ننكفئ إلى المواقع التي تبيحها لنا «اتفاقية القاهرة». الأمر الذي رفضته حينذاك بسبب معارضة حليفنا كمال جنبلاط.

وبرغم كل التباينات العسكرية التكتيكية التي كانت بيننا وبين جنبلاط من حين لآخر، إلا أننا كنا نكن أعظم الاحترام لرئيس «الحركة الوطنية». فقد كان جنبلاط . تغمده الله بالرحمة . وطنياً صادقاً عظيماً وقائداً سياسياً عبقرياً. وكانت له دراية عميقة وفهم فطري للبنان واللبنانيين الذين يحبهم بكل جوارح وجوده. إلا أنه لسوء الحظ لم يكن يدرك دائما تعقيد الظرف العربي واللعبة التي تدور على المسرح الدولي.

كانت تحليلاتنا وتحليلاته تتباين بالنسبة لهذا الموضوع حول نوايا سوريا ومقاصد الولايات المتحدة. فالسفير دين براون الذي كان يعمل بناء على تعليمات هنري كيسنجر . رئيس مجلس الأمن القومي الأميركي حينذاك . أكد له بأن حكومته تعارض تدخل دمشق عسكرياً في لبنان، وأن الجيش السوري لن يجرؤ على أية حال أن ينطلق إلى ما وراء مدينة صوفر. وصدقه كمال جنبلاط. ومن هما كان رفضه العنيد لسحب قواته من المتن الأعلى.

وكنا نتوقع هجمة سورية مؤيدة من الولايات المتحدة ومن بعض البلدان العربية، وكان في تقديرنا كذلك أن تدخل سوريا قلب موازين القوى لصالح الانفصاليين. وقد حذر مسؤولونا العسكريون كمال جنبلاط بأنه إذا كان من الصحيح أن في وسعنا الصمود للميليشيات المسيحية إلى ما لا نهاية، إلا أن أية مقاومة للجيش السوري الذي يتمتع بمدفعية ثقيلة ودبابات وصواريخ أرض . أرض، ستكون عملاً انتحارياً.

وهكذا فإن قيادة المقاومة بالإجمال، كانت تؤيد انسحاب القوات الفلسطينية التقدمية المشتركة خاصة وأنها تريد تلافي مواجهة مع سوريا توشك أن تكون مضرة على المدى الطويل. غير أن بعضاً منا كان يرى أن علينا أن نعمد إلا الجلاء دون تأخير متجاوزين اعتراضات جنبلاط، بينما كان آخرون، وأنا من جملتهم، يدعون إلى مواصلة الحوار مع الزعيم الاشتراكي لإقناعه بصحة تحليلنا. وكنت أقول أنه لا ينبغي لنا بأي حال من الأحوال كسر تضامننا مع «الحركة الوطنية» اللبنانية. وذلك لسببين: الأول سياسي والثاني معنوي. وكان تقديري أن الوفاء يقتضي ألا نخل بالتزاماتنا إزاء تشكيلات سياسية أيدتنا بأمانة منذ نهاية سنوات الستين، وإزاء جزء من الشعب اللبناني الذي رضي أن يتحمل تضحيات جسيمة وهو يقاتل إلى جانبنا طيلة الثمانية عشر شهراً التي استغرقتها الحرب الأهلية. وبخلاف ذلك فإننا نرتكب خطأ سياسي خطيراً إذا ما قطعنا صلاتنا بالجماهير التي تثق بجنبلاط.

وأخيراً انتهت قيادة المقاومة إلى أن حددت موقفها بصيغة تسوية. فقد رفضنا مطالب دمشق، ولكن الأوامر صدرت للمسؤولين العسكريين في المتن الأعلى بسحب قواتنا منه بمجرد أن يبدأ الهجوم السوري. وهكذا تلافينا وقوع خسائر لا طائل منها، وأفلحنا في جعل الفدائيين كلهم تقريباً

ومعهم رفاقهم اللبنانيين ينجحون في الانكفاء سالمين إلى مراكز جديدة إلا أن سوريا عاودت هجومها في 12 تشرين الأول . أكتوبر، على أثر المفاوضات غير المثمرة التي دارت بين ممثلي المقاومة وبين ممثلي دمشق. ولكن على جنوبي لبنان هذه المرة. وفي غداة اليوم التالي دفعت بدباباتها لفتح بحمدون وعاليه اللتين كانت القوات الفلسطينية . اللبنانية متحصنة فيها بعد معركة المتن الأعلى. وبينما كانت قواتنا تبدي مقاومة ضارية وبطولة نادرة في بحمدون، كان ياسر عرفات يخابر رؤساء الدول العربية ليرجوهم التدخل. إلا أنه لم يستطع الاتصال بأي منهم. فقد كانوا جميعهم «مشغولين» بأكثر من أن يتمكنوا من الرد عليه. وعلى أثر مكالمة أجراها في 14 تشرين الأول . أكتوبر، مع الأمير فهد ولي عهد العربية السعودية: قال له الأمير: «أمهلني بضع ساعات فأسوي المشكلة.» وفي غداة اليوم التالي صدر بيان رسمي نشر في الرياض ويعلق عقد اجتماع «قمة» مصغرة في العاصمة السعودية. وفي اليوم نفسه أوقف الرئيس الأسد هجومه وأعلن وقف إطلاق النار على كافة الجبهات. وعندما وجد ياسر عرفات نفسه غير قادر على مغادرة لبنان بوسائله الخاصة، فإنه قبل أن يأخذ الطائرة التي قدمها له الرئيس الأسد للذهاب إلى مطار سوري تقله من هناك طائرة سعودية..

وخلال ثمان وأربعين ساعة تمكن ستة رجال من وضع حد للحرب الأهلية اللبنانية: الملك خالد، ملك العربية السعودية وأمير الكويت الشيخ صباح والرؤساء الأسد والسادات وسركيس وعرفات. وقد استنفذت الجلسة الأولى في المهاترات والملاومات العنيفة التي تبادلها السادات والأسد. غير أن الرئيسين المصري والسوري عادا إلى الجلسة الثانية، بعد أن وضع العاهل السعودي بكل ثقل نفوذه السياسي والمالي في الميزان، وهما مبتسمين منشرحين، وسعيدين «بصداقتهما» المستجدة. وتلك إحدى خصائص العالم العربي: فالمصالحات فيه بمثل سرعة المشاجرات. ذلك أن هذه شأن تلك.. عنيت أنها مصطنعة.. أو سطحية.

وكانت القرارات المتخذة في الرياض تناسباً تماماً: وقف إطلاق النار، واحترام تطبيق «اتفاقية القاهرة» في علاقاتنا مع الدولة اللبنانية، إعادة تأكيد الدعم العربي لمنظم التحرير الفلسطينية ثم، أخيراً ، الأمر الذي أرضانا غاية الرضى . استبدال الجيش السوري بما سيسمى «قوى الردع العربية» التي ستتألف من وحدات عسكرية تابعة لمختلف البلدان العربية.

إلا أنا فرحتنا كانت عجولة بعض الشيء. فقد اكتشفنا بذهول بعد ذلك بأسبوع خلال «القمة» الموسعة في القاهرة، أنه ليس ثمة بلد عربي . غير سوريا . على استعداد لإرسال وحدات عسكرية إلى لبنان. فالعراق برر رفضه بالتوتر القائم بينه وبين سوريا، وأما الجزائر فأدلت بحجتها إلى كافة قواتها لمواجهة الوضع في الصحراء الغربية. وأما المغرب فأعلن أن جيشه لا

يمكن أن يستخدم خارج حدوده إلا في «تحرير القدس» الأمر الذي يمنع الحسن الثاني من إرسال قوات إلى زائير للدفاع عن نظام موبوتو. وأما ليبيا فاحتجت بخطر العدوان المصري عليها، بينما تعللت مصر بالمقابل باحتمال قيام ليبيا بمهاجمتها. وباختصار، فإن قوة الردع العربية (30000 جندي) ستتكون بكاملها تقريباً من الوحدات السورية التي ستنضم إليها وحدات رمزية من العربية السعودية والسودان واليمن الجنوبي والإمارات!

وإذا كان لا بد من تفسير لرفض البلدان العربية هذا، فإنني أقول أن بعضاً منها لم يشأ إدخال أصبعه في وكر الزنابير «الصفن» اللبناني، وأن غالبيتها كانت تتمنى في قرارة نفسها أن تتولى سوريا وحدها مهمة تحجيم المقاومة واليسار اللبناني.

أما كمال جنبلاط الذي لم يتوقف عن العمل من أجل تعريب النزاع اللبناني ليتخلص من الحضور السوري، فإنه اغتم غماً عميقاً. فقد خاب أمله في نتائج «القمة» العربية وبات قلقاً على مستقبل الحركة الوطنية في آن معاً. فكان أن عقد مؤتمراً صحفياً دعاني إليه. وفي حين أنني رفضت أن أناقض نفسي؟. فإن الزعيم الاشتراكي أعلن مستكيناً موافقته على مقررات الرياض، لكن مع الإصرار على أن القوة العربية هي قوة «أمن» لا قوة ردع. فكانت تلك الانتفاضة الأخيرة لرجل مهشم منهوك سيقع غيلة برصاصات مجموعة من الرجال نصبت له كميناً على طريق مقره في المختارة بالشوف وذلك بعد دخول القوات السورية (تحت غطاء الردع) إلى بيروت بأربعة أشهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً.

وخلال دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني (برلمان المقاومة) الذي انعقد في القاهرة وصلنا خبر اغتياله في 16 آذار . مارس 1977، وذعرنا ذهولاً وألماً. وإذا كان ياسر عرفات أكثر من أن يتمكن من الكلام، فإنه كان على أن أرثيه أمام. وقلت ما مفاده: إن الذين دبروا اغتيال كمال جنبلاط، قد سددوا طعنة نجلاء للبناء ولفلسطين وللعالم العربي. ثم أضفت قائلاً وسيندمون على ذلك ذات يوم، لأن جنبلاط الوطني اللبناني والقومي العربي كان ضرباً من الرمز والضمانة للتحرر الوطني والكرامة.

ولا ينبغي للفراغ الذي تركه رئيس الحركة الوطنية أن يصرفنا عن الحقائق التي نواجهها. وإحدى هذه الحقائق، بل والرئيسية بينها، هي المكانة البارزة التي باتت تحتلها سوريا في لبنان. فقوات سوريا انتشرت سلمياً في البلاد تحت راية قوة الردع العربية.. وياسر عرفات والرئيس الأسد تعانقاً في «قمة الرياض» المصغرة وضرباً من حيث المبدأ صفحاً عن الماضي. وقد أعاد كافة رفاقي في قيادة فتح بناء جسورهم مع الرؤساء السياسيين والعسكريين السوريين فكنت عملياً المستبعد الوحيد عن هذا التلاقي الذي أملته المصلحة العليا لكلا الطرفين.

وينبغي أن أقول أن حالتي كانت بمعنى من المعاني استثنائية. فإزاء غياب بقية أعضاء قيادة المقاومة فإنني كنت أنا الذي أتخذ في 6 حزيران . يونيه 1976، القرار المؤلم بالتصدي للتدخل العسكري السوري بالسلاح. وغالباً ما كنت أنا أيضاً من يعقد المؤتمرات الصحفية ويضاعف التصريحات التي تندد بسلوك المسؤولين في دمشق. وفي غمرة العمل وحماسه وتحت تأثير الألم والهوى الذي يثيره إرهاق الدم، فإن أحاديثي كانت مشوبة بعنف لا يمكن إلا أن يستقطب غضب الرئيس الأسد ويمحوره علي.

ولما كنت أنا نفسي موضوع حملات وسائل الإعلام السورية طوال الحرب الأهلية، فإنني لم أكن في أفض الأوضاع التي تمكنني من التصالح مع رئيس الدولة البعثي. فمنظمة الصاعقة، السورية الولاء، أفرطت في نشر المنشورات في لبنان التي تندد فيها بشخصي كعميل «سعودي» بل وأميركي وخاصة بعد حركة الأحدب. بل أن بعض صحف دمشق حسبت أنها عرتني نهائياً عندما راحت تؤكد أن والدتي يهودية وأن اسمها راشيل، بينما راحت صحف أخرى تتهمني بأني أعيش حياة منحلة وأن عشيقتي هي يهودية أيضاً وتدعى جانيت..

وبعد معانقات الرياض، قلق رفاقي على مصيري. فمكتبي في بيروت يقع على بعد بضعة أمتار من إحدى الوحدات السورية، وأنا أتجول في الشوارع وأعبر الحواجز التي تشرف عليها قوات دمشق. ثم أنني كمسؤول أصبحت بحكم العاجز عن القيام بأي شيء لعدو وجود حوار بيني وبين النظام البعثي. وكان تقدير رفاقي أن هذا الوضع العقيم والخطر في آن معاً، لا يمكن أن يستمر إلى الأبد وانتهوا إلى أن وضعوني أمام واحد من خيارين: فإما أن أذهب من تلقاء نفسي لأقر بذنبي جهاراً، وأما أن أغادر لبنان «بإجازة» غير محدودة. ووجدتني لأول مرة في حياتي انتهك قواعد الانضباط المعمول بها في فتح. إذ رفضت الاقتراحين بعناد. فقد كنت من جهة أولى أعتقد أن الكرامة تأبى علي، وأن العدل لا يرضى لي أن أتوسل «بلاط الحيرة»، وألقي باعتذارات النابغة، كما أنني من الجهة الأخرى لم أكن أريد أن أرضي خصومي وأهرب من مسؤولياتي. وإذا فقد قررت ألا أغادر بيروت ولو إلى القاهرة لأزور زوجتي وأولادي الذين لأم أرهم منذ أكثر من سنة. وإنما ذهبت إلى العاصمة المصرية، على كره، بمناسبة دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الذي أشرت إليها آنفاً.

ولدى عودتي إلى بيروت استدعاني الرئيس سركيس ليقول لي أنه لا بد من إعادة علاقاتي إلى طبيعتها مع القادة السوريين. ثم أخذ المبادرة لمفاتحة الرئيس الأسد بذلك، بعد أن أطلعه على التقدير الذي يكنه لي. وأخيراً فإن الصداقة التي أكنها للرئيس اللبناني والجهود التي

بذلتها عدة شخصيات، انتهت بأن حملتني على الذهاب إلى دمشق، حين أعلن الرئيس الأسد عن استعداده لاستقبالي.

وذهبت في يوم جميل من أيام نيسان . ابريل، بصحبة ثلاثة من قادة فتح . أبو جهاد وأبو صالح وأبو ماهر . إلى العاصمة السورية حيث استقبلنا المحادثون الذين ألفناهم أيام الحرب الأهلية: عبد الحليم خدام وزير الخارجية، واللواء ناجي جميل وزير الدفاع، واللواء حكمت الشهابي رئيس الأركان العامة. ودار حديث تسوده المجاملة على موضوعات هامشية لا أهمية لها، إلا أنه أتاح ترطيب الأجواء. ثم قادنا الثلاثة إلى القصر حيث كان الرئيس الأسد ينتظرنا.

وما كدنا نجلس في أحد الصالونات، حتى طلب من رئيس التشريفات . أمام عظيم دهشتنا . بأن نسلمه أسلحتنا قبل أن ندخل إلى مكتب الرئيس، وبعد لحظة انفعال، أجاب أبو جهاد بهدوء بأنه لا يحمل سلاحاً، وأما رفيقاي الآخران، فإنهما ألقيا بمسدسيهما على الطاولة بحركة سخط واستنكار، أما أنا فرفضت أن أضع سلاحي وقلت بلهجة مسعورة، بأنه يعود إلى الرئيس الأسد أن يقرر ما إذا كان يثق بي ويطمئن إلي أم لا. ولم أكن أسعى إلى التميز بنفسي عن صحابتي مطلقاً. إلا أن تقديري كان هو أني أرتكب . من منظور المواجهة المقبلة . خطأً تكتيكياً، إذا ما أذعنت واستسلمت أمام أول تحد. واختفى رئيس التشريفات بضع لحظات ثم عاد يقول: «تفضلوا واتبعوني إلى مكتب الرئيس..» وعانقنا الأسد واحداً بعد الآخر على الطريقة العربية. ثم شرع يحادث رفاقي الثلاثة بأعصاب باردة هادئة، محادثة حول موضوعات لا يجمع بينها جامع، فيسألهم مثلاً بأدب عن صحة أولادهم. وكان ثمة إشارتان لا يدركهما إلا من يعرفهما مثلي تترجمان مشاعر الأسد الحقيقية نحوي: الأولى هي أنه لا يوجه الكلام إلي، وراح يتصرف كما لو لم أكن موجوداً، فالرئيس السوري مثلي، لا يستطيع أن ينظر إلى شخص لا يتعاطف معه. إلا أنه برغم ذلك رأي أن يخفف من جو التوتر المخيم بأن راح يسأل أبا صالح: «كيف حدث أن ابيض شعر شاب مثلك.» ففسر أبا صالح له ذلك بقوله أنها ظاهرة وراثية. لكن الأسد راح يعلق على ذلك وهو بين الجاد والهازل: «كلا. بل من معاشرة أبو أياد جعلتك تهرم قبل الأوان..» وحملت نكتته على محمل الدعابة، وأخذت الكلام لأستشهد له ببيت الشاعر العباسي، البحتري الذي يقول:

إذا احتربت يوماً فسالت دماؤها تذكرت القربي فسالت دموعها وانكسر الجليد.

فاغتنمت ذلك لأقول له أن كلاً منا تصرف حسب ضميره: هو حين أرسل جيشه إلى لبنان. وأنا حين قاومته. والتاريخ هو الحكم في أي القرارين هو الصواب! وبانتظار ذلك فإني

أحرص على تبيان صغار وضحالة أجهزة دعايته. وقلت له: «لقد حسبوا أنهم يشتمونني حين ذكروا أن أمي يهودية. لكن سوء الحظ يشاء أنها ليست كذلك. وأقول سوء الحظ، لأن يهوديتها كانت ستساعدني مساعدة أفضل على الدفاع عن هدفنا الاستراتيجي القاضي بإنشاء دولة يهودية ـ عربية في فلسطين. أما الأقاويل المتعلقة بحياتي الخاصة، فإنها حقارات أفضل عدم الرد عليها.»

ثم أضفت أقول: «وعلى أي حال فإنني أتمنى أن أطوي هذه الصفحة للناقش مستقبل العلاقات السورية ـ الفلسطينية.» وقد لي الرئيس الأسد عرضاً ضافياً دام ثلاث ساعات. قال أن جيشه تدخل في لبنان لأنه تبين أن كافة المحاولات الأخرى لوقف الحرب الأهلية غير فعالة، ولأنه لينبغي الحؤول دون تدويل النزاع. ثم أوضح أنه داخلته الريبة في مناورات كمال جنبلاط التسويفية لأنني حذرته من أن الزعيم الاشتراكي هو في الحقيقية عميل أميركي. وهتفت مستنكراً: «إن ذلك غير صحيح! فأنا لم أقل هذا مطلقاً!» وذكرته بأن ما قلته هو مجرد الإشارة إلى أن كمال جنبلاط يثق بدين براون وأن هذا الأخير يفسد عليه أفكاره. إلا أن الأسد ظل على قناعته لا يتزحزح عنها، بحيث أن النقاش الطويل حول هذه النقطة لم يفض إلى أية نتيجة.

ثم أنه أثار استنكاري وسخطي مرة ثانية عندما ذكر خلال عرضه بأننا، خلافاً للمظاهر، تؤيد الاتفاق الذي عقده السادات حول سيناء، وأن الاتصالات السرية التي قام بها بعض الفلسطينيين مع الشخصيات الإسرائيلية كانت موجهة في الحقيقية ضده وضد سياسة سوريا. ووثبت من مقعدي وأنا أقول: «إن ثمة حدوداً لما أستطيع احتماله! فالحركة الفلسطينية هي المستهدفة في مجملها، بمثل هذه الادعاءات الظالمة! لقد كنا أول من ندد في العالم العربي باتفاق سيناء، وأول من قاتله ومن عانى منه، لأن هذه التسوية المشينة أفضت إلى الحرب الأهلية اللبنانية. لكن اسمحوا لي أن أطرح عليكم سؤالاً أيها السيد الرئيس: كيف حدث وأخلى الأميركيون بينكم وبين ما تريدون في لبنان، في حين أن تحذيراً بسيطاً من واشنطن في أيلول سبتمبر عام 1970، أجبركم على سحب قواتكم من الأردن بعد ثلاثة أيام من دخولها إليه. وأجاب الرئيس الأسد وقد لدغه الكلام، أنه اتخذ قرار التدخل في لبنان بكل استقلالية، وبرغم التحذيرات والضغوطات التي مورست عليه، ليس من الولايات المتحدة وحسب وإنما من الاتحاد السوفياتي كذلك. ثم أضاف: وإذا كنت في ريبة من ذلك فإن في وسعي أن أضع في تصرفك الوثائق التي تثبت أقوالي. وأنها كشف النقاب عن أن السوفيات أوقفوا شحن قطع الغيار المخصصة للقوات المسلحة السورية.

وبلغت المناظرة بيننا عتبة القطيعة، عندما تطرق الرئيس الأسد إلى موضوع عام، هو موضوع التعاون بين سوريا والمقاومة. فقد قال لي: «لقد قررنا ألا نولي اعتبارنا بعد الآن إلا للقضية الفلسطينية وليس لمسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية الذين يزعمون أنهم يدافعون عن هذه القضية. فمنذ بعض الزمن وأنا أطرح على نفسي الأسئلة بصدد جديتكم وطاقتكم على قيادة الحركة الفلسطينية. لقد قدتم شعبكم إلى المجزرة خلال أحداث الأردن في أيلول . سبتمبر 1970 وفعلتم الأمر نفسه في لبنان. وتشاجرتم مع الأنظمة العربية. أني قلق على مستقبل القضية الفلسطينية لأنكم ببديهة الحال لستم على مستوى المسؤولية.»

كان ذلك أكثر من أن يطاق. فنهضت مرة جديدة وأنا أرد بغضب مغيظ: «أنكم محقون أيها السيد الرئيس في الحكم علينا على هذا النحو. لكنه كان عليكم أن تضيفوا بأن الحكومات العربية بمجملها، بما في ذلك أنتم، تقف عاجزة أمام المشكلة الفلسطينية. ولأنها ليست أهلاً، ولم تكن على المستوى المطلوب لحل هذه المشكلة، فإن المقاومة وجدت، وستظل موجودة وستبقى تنمو وتتطور!» كان قد مضى خمس ساعات على بداية محادثتنا: خمس ساعات من المآخذ والملاومات والمواجهات العنيفة. غير أن هذا اللقاء لم يكن سلبياً بل أتاح تصفية ملف خلافات جسيمة وإيضاح موضع الأخذ والرد السوري . الفلسطيني. وهكذا فقد قال لي الرئيس الأسد وهو يودعني: «أنا أحترمك ولكني لا أحبك.» فقلت له: «أقول ما قاله عمر بن الخطاب: لمن بدأه بهذا القول نفسه: إنما تفتش عن الحب النساء. وأنا لا يهمني حبك أيها السيد الرئيس، بل يهمني ألا أقوم بما يفسد احترامك لي أو يسيء إلى العلاقات السورية . الفلسطينية.» وهكذا فقد فتحنا صفحة جديدة في التعاون السوري . الفلسطيني، الذي لا غنى عنه في الدفاع عن القضية العربية. ثم أن الدسائس الأميركية . الإسرائيلية لخنق حقوق الشعب الفلسطيني، لن تلبث أن تطرح علينا أحد أعظم تحديات تاريخنا.

(10) مبادرة السادات من الوهم إلى الخيانة

اليوم يوم 19 تشرين الثاني . نوفمبر 1977 وطائرة البوينغ الرئاسية تحط بهدوء في مطار تل أبيب، وأنا جالس أمام جهاز التلفزيون في بيروت، أراقب الجمهور الكثيف من الشخصيات الإسرائيلية ذات الوجوه، المألوفة مني أو غير المألوفة، وهي تنتظر وصول السادات. واستقرت الطائرة أخيراً وبدأ المصورون، والأشخاص المجهولون، ورجال الأمن المرتدين للثياب المدنية، والموظفون يهبطون مسرعين. وكوكبة من القادة الصهاينة يتقدمهم مناحيم بيغن واقفون كالخشب المسندة على قدم سلم الطائرة ونظراتهم مسمرة على بابها الفاغر. وأنا يغمرني أمل مجنون في أن السادات لن يخرج من الباب! لأنه قرر في اللحظة الأخيرة ألا يأتي إلى إسرائيل!

وتلقيت الصدمة في أحشائي وأحسستها تشنجاً في حلقي. ذلك أن الرئيس المصري ظهر تحت أضواء كاشفات الضوء كالتماعة النور في الدكنة، وهو يصافح أيدي جلادي شعبنا وهم يتتالون أمام ناظري: بيغن، دايان، شارون والجنرالات ببزاتهم. ثم ظهر السادات «المنتصر في حرب أكتوبر» جامداً أمام علم المحتلين بينما النشيد الوطني الصهيوني يدوي في الأسماع. وانسابت الدموع على خدود عدد من رفاقي. أما أنا فلازمت جهاز التلفزيون دون أن أحول ناظري عنه طوال أربعين ساعة، متتبعاً زيارة العار والمذلة دقيقة دقيقة.

وفي غداة اليوم التالي، كان السادات يصغي لكلمة بيغين بمجاملة ومراعاة، ليعود فيرحب به بحرارة. ووجدتني أخجل مرتين. إذ هل يمكن ألا يكون الرئيس المصري قد استشعر مثلي الصفعات التي يكيلها رئيس الوزراء الإسرائيلي لنا بخطابه العدواني في قوميته، المستفز في شوفينيته والمتفوح متعصباً من أول كلمة فيه إلى آخر كلمة!؟ ثم أن استشهاده بوعد بلفور جعلني أثب من مقعدي. فالرجل الذي يدعي أنه قاتل الانكليز، يدلي بحجة الوعد الذي قطعته الامبريالية البريطانية لينكر حقوق شعب يضرب بجذوره في الأرض الفلسطينية منذ قرون! وهو يصف نفسه بأنه يهودي «فلسطيني» مبرراً ذلك بذات القدر من التبرير الذي كان يبيح لي أن أدعي أني يهودي بولوني! وهو يمتدح المقاتلين الصهاينة الذين «حرروا وطنهم»، أي وطني الذي تروى بدم الفلسطينيين الذين ذبحهم هو وأمثاله! وعادت بي الذكرى إلى دير ياسين تلك المجزرة التي نظمها ونفذها أنصار بيغن في نيسان . ابريل 1948، يوم بقرت الحوامل وذبح الأطفال والشيوخ ذبح هوام الأرض. واسترجعت في بالي . وأنا استمع إلى بيغن يتحدث عما يجرؤ على تسميته «بالملحمة» الصهيونية . الرحيل وأرتال الهاربين على الطريق فراراً من جنود المستوطنين، وهجرة عائلتي على المركب المتداعي، وآلام المنفى. وأمامي السادات يهز رأسه أحياناً. أفترى هزة

الرأس هذه علامة الموافقة أم آية موات الإحساس!؟ وظلت أمني نفسي وأحاول أن أقنعها طيلة خطاب بيغن، بأن الرئيس المصري لن يحتمل الإهانة، الموقعة على الأمة العربية كلها. وتخيلته، وهو يتوجه نحو المنبر ليعلن: «شكراً لكم على دعوتكم، بيد أنه بات على أن أعود لفوري إلى القاهرة. فرجاء أن تعذروني لأنني أخطأت ولم أفهم الإسرائيليين..» وطوال يوم الأحد 20 تشرين الثاني . نوفمبر، راح السادات قبل اجتماع الكنيست، يضاعف بادرات المصالحة والتودد إلى مضيفيه، مقدماً بادرات سياسية جسيمة الدلالة والمغزى.

وحسبت لسذاجتي أنه سيجزي عليها بتنازلات موازية، فأنا أستطيع أن أفهم عند الاقتضاء زيارته لنصب ضحايا النازية «ياد فاشيم». ولكن كيف أمكنه أن يصلي في المسجد الأقصى في الأراضي المحتلة عام 1967، تحت حماية حراب المحتلين. ولماذا كان عليه أن يضع أكاليل زهور أمام تمثال الجندي المجهول الذي نصب تكريماً لذكرى الذين قتلوا وهم يقاتلون في حرب لم تنته بعد. وانعكس خطابه في الكنيست مرارة استشعرتها في حلقي. فقد أغفل، بناء لطلب بيغن، كما علمت فيما بعد، أية إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن هذا التنازل. بل ولا يمكن أن يكون، مجرد تنازل شكلي مطلقاً. لأنه يشكل تخلياً عن الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني التي تجسدها منظمتنا، دون أن يحصل من بيغن مقابل هذا على شيء، ولو مطلق أي شيء! حتى ولا على عبارات لياقة مبهمة! فقد وصل إسرائيل جاثياً على ركبه، وعاد منها زاحفاً على بطنه.

بل إنه لم ينل ترضية سماع عبارات مشجعة من جانب المعارضة. فخلال الجدل العلني الذي أجراه مع البرلمانيين الإسرائيليين قبيل مغادرته الأراضي الفلسطينية المحتلة بساعات، عبر النواب العماليون عن آراء مشابهة لآراء زملائهم في الليكود، وأن بلغت أقل إظلاماً وأكثر تكيفاً مع العصر. وشعرت للمرة الأولى بأن شيئاً ما انكسر في داخلي هو الصداقة التي أكنها منذ خمسة عشر عاماً للسادات. فقد ظللت أحترمه برغم الخلافات التي تفصل بيننا. ذلك أن الأخطاء التي ارتكبها لا تكفي في نظري لثلم صورة الوطني التي يعكسها. غير أن سلوكه في إسرائيل شأنه بمد ذلك في أيلول . سبتمبر 1978 في كامب ديفيد، تجاوز الحد. فقد زعم أنه يتكلم باسم الأمة العربية جمعاء وباسم الشعب الفلسطيني، ولكنه تنازل عن حقوقنا دون أن يستشيرنا! وأرخص في ثمن أرض لا يملكها على حساب شعب بلا وطن بـ وأقر وأنا خجل بأن الصداقة التي كننتها له، استحالت حقداً. إذ بات من البديهي أنه دبر عملية دعائية واسعة النطاق تهدف إلى إظهاره للرأي العام العالمي كرجل دولة كبير يعمل بنزاهة وتجرد من أجل السلام.

وقد علمت في وقت لاحق أن فكرة زيارة إسرائيل، جاءت للسادات، إبان المحادثة التي أجراها في مطلع شهر نيسان . ابريل عام 1977 في واشنطن مع الرئيس كارتر. فقد راح كارتر يدعو إلى عقد لقاء إسرائيلي . مصري على أرفع مستوى، مؤكداً له أنه سيكون للمفاوضات المباشرة من التأثير ما يزيل تصل الإسرائيليين. ووافق السادات من حيث المبدأ على القيام بمثل هذا اللقاء الذي سينظمه وزيراً خارجية مصر والولايات المتحدة، يوم كان اسحق رابين لا يزال في السلطة. وفي نهاية شهر آب . أغسطس، أي بعد انتصار الليكود في الانتخابات التشريعية الإسرائيلية، قدم وزير الخارجية الأميركية سيروس فانس صيغة بدا أنها ستحظى بتأييد الجانبين: إذ يحضر السادات وبيغن دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تعقد في الخريف ويلقيان هناك خطابين وبعد ذلك يدعوهما الرئيس كارتر إلى واشنطن حيث يجمعهما معاً. لكن الرئيس المصري رأي أن هذا الإخراج ليس على قدر كافٍ من المسرحية والإبهار. وقال لوزير خارجيته، إسماعيل فهمي الذي كان العضو الحكومي الوحيد الذي أطلعه على مشروعه والذي وضعه بالاشتراك مع كارتر، «لماذا ينبغي لي أن أذهب إلى واشنطن لأقابل بيغن. ثم أضاف يقول: «بل خير لي أن أذهب إلى إسرائيل بصحبة رؤساء الدول الخمس العظمى أعضاء مجلس الأمن (أي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين وبريطانيا وفرنسا). إذ بهذا يكون للحدث دوي أكبر ونجبر إسرائيل على عقد السلام.» غير أن السادات وافق بناء على اقتراح من إسماعيل فهمي، أن يستشير الحكومة الأميركية مقدماً. فجاءه الجواب بالسلب لأن واشنطن ترى أن ثمة خطراً كبيراً في أن لا تفضي الصيغة المقترحة . حتى إذا أمكن تحقيقها بصورة ملموسة . إلى أية نتيجة وبين أيلول سبتمبر، وأول شهر تشرين الثاني . نوفمبر، لم يكن السادات يدري ماذا يعمل. فمؤتمر جنيف الذي يجهد كارتر في عقده، واقف في طريق مسدود. وإسرائيل تضاعف وضع العراقيل في دربه. وسوريا لا تشارك السادات في تصوراته ومفاهيمه للإجراءات التي ينبغي إتباعها. والرئيس الأميركي وجه له رسالة شخصية يعترف له فيها بعجزه، مقراً بأن هامش المناورة الذي يملكه بات صفراً عملياً، بسبب ضغوطات الجماعة الضاغطة (اللوبي) اليهودية في الولايات المتحدة. وأضاف يقول له: «أنا في حاجة إلى معونتك.»

وفي هذه الفترة التقى موفد من قبل السادات بالجنرال دايان سراً في المغرب. وراح وزير الخارجية الإسرائيلي ينثر الوعود المغرية شمالاً ويميناً، قائلاً للوفد المصري: «سوف نمضي بعيداً وبعيداً جداً في طريق التنازلات إذا ما زارنا الرئيس السادات.» ثم أن الملك الحسن راح من جانبه يشجع السادات على القيام بهذه الرحلة. وأكد له أنها ستكون حدثاً تاريخياً ومبادرة حاسمة، «وسأكون أول من يؤيدكم.» كان العاهل المغربي يدافع بذلك عن قناعة عامة سائدة لدى قادة

الشمال الأفريقيين من تونسيين وجزائريين وحتى ليبيين، ومفادها أن اللقاءات المباشرة مع الخصم، هي وحدها التي تؤدي إلى نتيجة. أفلم يقترح على ياسر عرفات في أكثر من مرة، أن يلتقي بناحوم غولدمان، رئيس المجلس اليهودي العالمي سراً؟ وهكذا فقد اتخذ السادات قراراً بالذهاب إلى إسرائيل. ولم يطلع أحداً على ذلك، حتى ولا إسماعيل فهمي لعلمه بعداء فهمي لمثل هذه الرحلة. ثم أكب منذ ذاك على تمويه خطاه ومحو معالم مسيرته.

ودعي عرفات بصورة عاجلة إلى القاهرة. فوافاها في الثامن تشرين الثاني . نوفمبر، حيث استقبله نائب رئيس الجمهورية حسني مبارك، وأبلغه رسالتين من السادات. وقال له أن الرئيس المصري يدعوه لسماع الخطاب الذي سوف يلقيه في الغداة أمام مجلس الشعب، ولكنه يرجوه أن يذهب قبل ذلك إلى طرابلس للحصول على جواب واضح ودقيق من العقيد القذافي، حول الطلب الذي تقم به السادات كثمن للصلح بين البلدين. أما طلب الرئيس المصري من الرئيس الليبي، فهو أن يزوده بالوسائل التي تمكنه من الحرب ضد إسرائيل! وهو يريد أن تعوض عليه طرابلس كل السلاح الذي تدفق خلال اشتباكات أكتوبر . تشرين الأول عام 1973 على نفقتها.

واستقبل العقيد القذافي عرفات لقاء حسناً. وأعلن له عن استعداده لتسلم السلاح لمصر. إلا أنه أبدى له أنه حتى ولو كرس كل موارد بلاده المالية لذلك، فإنه لن يستطيع لوحده تأنيث العتاد العسكري الذي يطلبه السادات. وهو يوافق كذلك على لقاء السادات على «أرض محايدة» على الحدود المصرية . الليبية، ولكن ليس في القاهرة كما يقترح السادات. واتجه عرفات لدى عودته إلى القاهرة إلى مجلس الشعب مباشرة حيث كانت الجلسة قد بدأت. وهناك اعتراه بعض الدهشة وهو يسمع المديح وتكرار المديح الذي يجيزه السادات له في خطابه. ولكنه لم يجد الخطاب يشتمل، فيما عدا هذا التفصيل الفريد، على أي شيء يبرر إيلاء الطابع الاحتفالي لهذا الاجتماع. فقد سرد الرئيس كالعادة، الجهود التي بذلها، عبثاً، من أجل التوصل إلى تسوية عادلة للنزاع في الشرق الأوسط. إلا أنه، ابتعد بغتة عن النص الذي يقرأه باعثاً في المستمعين إليه إحساساً مثيراً، إذ هتف قائلاً أنه مستعد للذهاب إلى أي مكان كان، «حتى ولو إلى إسرائيل» إذا كان ذلك سيساعد على التوصل إلى السلام.

واندلعت تصفيقات حادة في المجلس. وما لبثت كاميرات التلفزيون أن وجهت عدساتها صوب عرفات الذي كان يجلس مكتوف اليدين. وبطبيعة الحال، فإنه لم يعجب مطلقاً «بالعبارة الصغيرة» الجامحة التي كان يجهل، شأن حسني مبارك الجالس إلى جانبه، ما إذا كانت تشكل فورة لا عاقبة لها، أم تعريضاً له مغزاه. غير أن السادات عمد فور انتهاء الجلسة إلى تطمينه. إذ راح إمعاناً منه في المكر يقول وهو محاط بوزرائه وأعيان نظامه، لوزير خارجيته بحضور

عرفـات: «ينبغـي أن تجـد وسـيلة يـا إسـماعيل لاسـتدراك هفـوة لسـاني المؤسـفة تلـك..» وإذاً فإن عرفات عاد إلى بيروت وهو مقتنع بأن ما كان من أمر السادات ليس سوى شحطة خطابية. أما أنا فإنني من جهتي ذهبت إلى أن السادات كان يوم بعملية دعاية أريبة ماهرة مخصصة لأغراض الاستهلاك الخارجي. وإنما نصحت عرفات بالكتابة إلى رئيس الدولة المصري ليطلب إليه تزويده بتوضيحات، بعد ذلك بأسبوع، أي عندما أعلن السادات عن عزمه للسفر إلى دمشق لمشاورة الرئيس الأسد.

وفي 16 تشرين الثاني . نوفمبر، قطع الشك باليقين. فقررت قيادة فتح أن تنشر بياناً معتدلاً نسبياً يدعو السادات للنكول عن مشروعه. ولكن بعد أن تمت الزيارة، انقسمت اللجنة المركزية في منظمتنا إلى اتجاهين. فكان تقدير الاتجاه الأول هو أننا لا نستطيع السماح لأنفسنا بالقطيعة مع مصر لأن دور مصر الحاسم في العالم العربي لا يحتاج إلى برهان وأنه ينبغي لنا بالتالي أن نقنع بانتقاد مسعى الرئيس المصري ليس إلا. أما أنا فإني دافعت عن الرأي المضاد. وقلت أن مصر هي بلا ريب قطعة كبرى في رقعة الشطرنج العربية، إلا أنها لا تكون قوية حقاً إلا بشعبية وشرعية نظامها. وعلى أية حال فإنه لا ينبغي لنا أن نراعي جانبها بأي ثمن كان. وبناء عليه، فإنني رحت أدعو إلى خوض هجوم مواجه ومتواصل ضد السادات وضد كافة الدول التي تؤيده.

ولاقتناعي بتعاطف 99% من «قاعدة» المقاومة معي، فإنني رحت أندد بالحسن الثاني وسلطان عمان قابوس، ثم وبخاصة، بالرئيس السوداني اللواء النميري. ذلك أني علمت أن هذا الأخير بلغ به الحماس «لجملة 9 تشرين الثاني . نوفمبر، الصغيرة، إلى حد أنه أبلغ وزارته في الغداة بأنه قرر استباق السادات إلى إسرائيل! غير أن الوزراء نجحوا، وأن بجهد جهيد، بردعه عن ذلك.. كنت أعلم أن حملتي ستذهب . في مرحلة أولى على الأقل . عكس التيار. فالرأي العام العالمي في مجمله، كان بالغ التأثر بجرأة السادات الباهرة. وبرغم قناعة العديد من الحكومات . ولا سيما حكومة الولايات المتحدة . بأن المبادرة المصرية محكومة بالفشل، إلا أن خليفة عبد الناصر ظهر في عيون الأميركيين والأوروبيين . بما في ذلك مواطني البلدان الاشتراكية . كبطل السلام. بل أن جزءاً من العالم العربي أغري بمسعى الرئيس الذي يعد بتلبية المطامح والتطلعات بوسيلة أخرى غير الحرب.

وبدت حسابات السادات في فترى أولى وكأنها صحيحة. فقد كسب الرأي العام العالمي، وحيد جزءاً من الرأي العام العربي، ودعم مركزه في مصر. ذلك أنه كان قد توصل بالفعل إلى إقناع مواطنيه، بأن كافة الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهونها ستختفي بسحر

ساحر، إذا ما استقر السلام في الشرق الأوسط. فقد استغل بمعنى من المعاني بؤس المصريين وتعبهم من الحرب ليكسبهم إلى جانب المغامرة التي يقوم بها. كما امتص النقمة داخل جيشه بأن جعله يعتقد بأن مرد قصور تجهيزه ونقص تسلحه هو سوء مقاصد ونوايا الاتحاد السوفياتي، وأنه ليس من خيار آخر أمام مصر، سوى وضع حد نهائي لنزاعها مع إسرائيل.

غير أن التجربة تولت البرهنة على أن السادات بنى إستراتيجيته، في الواقع، على رمال متحركة، فالتعاطف الذي استثاره لدى الرأي العام العالمي، والأميركي بخاصة، لم يتمكن من هز السياسة العنصرية التوسعية الإسرائيلية ولا أفلح في انتزاع الشعب الإسرائيلي من تصلب حكامه، بل على العكس من ذلك، فإنه بذهابه إلى القدس صوب رأي بن غوريون الذي كان يقول أن الزمن يعمل لمصلحة إسرائيل، وأن العرب سينتهون إلى الإذعان، فهل توصل، إلى ما كان يعتزمه من تدمير «الحاجز النفساني» الذي يفصل الشعبين.

ولو كان الأمر كذلك فعلاً، إذاً لأدى لنا خدمة بالغة السوء. إذ ما الذي سيدفع الإسرائيليين بعد ذلك أن يشعروا بالأمن والأمان ويرتاحوا إلى السلامة، إلى طلب تسوية سريعة. في حين أن جو الانفراج الذي سيركن إليه العرب سيؤدي بهم إلى الركون، وينهي حالة التعبئة في صفوفهم.

واعتقادي أن السادات لم يفهم النوابض النفسانية لدى الإسرائيليين والشعب الفلسطيني المتشابهين فيما عانياه من آلام . أحدهما بسبب النازية والثاني بسبب الاستيطان والاستعمار . وفي عزمهما على بلوغ أهدافهما أياً ما كان الثمن، بل وبتصلبهما القاطع الذي يتجاوز تصلب قادتهما. وقد أخطأ السادات حين ظن أن الإسرائيليين سيكونون أكثر تساهلاً من مناحيم بيغن ووزرائه، أو أن الفلسطينيين يمكن أن يقبلوا بما هو أقل مما يطالب به مسؤولو منظمة التحرير الفلسطينية. ويمكن القول، في المطلق، أن الفلسطينيين والإسرائيليين وجدا ليتفاهما: إلا أنه ينبغي لهما قبل ذلك توعي الحقائق والاعتراف ببعضهما والتسليم بوجوب التعايش على ذات الأرض.

كما أخطأ السادات كذلك حين تخيل لدى توقيعه اتفاقيات كامب ديفيد أن بمستطاعه إعداد تسوية دون إشراك منظمة التحرير الفلسطينية وسريا. بحيث أنه حين تقدم إلى الساحة دون شركائه الطبيعيين، أضعف مركزه فوق إضعاف. فقد كان له أن يعلن أنه يتكلم باسم كافة العرب. إلا أنه لم يكن لدى بيغن أي سبب يدعوه للوثوق به. فأية ضمانة تضمن لرئيس الوزراء الإسرائيلي أن تكون التسوية السلمية مع السادات، موضع قبول وتطبيق من قبل المحاربين الآخرين. فحتى الملك حسين المستعد أبداً لكافة المساومات والتسويات لم يجرؤ على الدخول

لفوره في اللعبة. وهكذا فإن بيغن اكتفى بتقديم مشاريع يمتد تحقيقها على عدة سنوات،. أي المدة التي تتيح له أو لحلفائه بأن يمتحنوا قدرة الرئيس المصري على فرض إرادته على العالم العربي.

أما بالنسبة لسيناء، فإن إسرائيل عرضت أن تجلو عنها تدريجياً. وأما الجولات فإنه وضع بين مزدوجين بانتظار أن تقرر سوريا الجنوح إلى التفاوض. وأما الضفة الغربية، فإن حقبة الخمس سنوات التي عرضها بيغين من الاستقلال الذاتي المزعوم لا تنص، لا على انسحاب القوات الإسرائيلية منها ولا على استقلال أراضيها، ولا حتى على ربطها بالأردن وعندما أصر السادات خلال المحادثات مع بيغين في الإسماعيلية في شهر كانون الأول ديسمبر 1977، على أن يعترف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير، فإن رئيس الوزراء الإسرائيلي سأله: «وإذا كان علي أن أسلم بمثل هذا الحق، فماذا تعطوني بالمقابل؟» فأجاب الرئيس المصري «الاعتراف الحقوقي بدولة إسرائيل». ووفقاً لأقوال شهود عيان، فإن زعيم الليكود هزئ به وقال: «لا حاجة لي باعترافكم، فاليهود موجودون بلا نزاع وبقوة القانون في أرض أجدادهم..» بل أن بيغن أجبر السادات . وتلك مذلة ما بعدها مذلة . على أن يتضمن الإعلان النهائي للمؤتمر بمصطلحي «يهوذا والسامرة» التوراتيين للإشارة إلى الضفة الغربية العربية.

وباختصار فإن السادات لم يحصل على شيء ولا كان في مستطاعه الحصول على شيء من بيغن. ليس بسبب إيديولوجية بيغن التوسعية وحسب، بل ولأن، ميزان القوى الذي بات مائلاً إلى مصلحة إسرائيل بفضل الأميركيين، «أصدقاء» الرئيس المصري، لم يعد يسمح بذلك. وحول هذه النقطة الجوهرية والحاسمة افترقنا عن السادات بأكثر مما اختلفنا معه حول مبدأ زيارته لإسرائيل. وخلافاً للقناعة المنتشرة في الغرب، فإننا لسنا معادين بصورة مطلقة وفي كافة المناسبات والظروف، للمفاوضات المباشرة. إذ لا ينبغي النسيان بأن هدفنا الهائي هو العيش في وفاق مع اليهود، داخل فلسطين موحدة ديمقراطية. وبديهي أننا لا نستطيع تحقيق هذا الهدف بالتفاوض مع الصخور. والقرار الذي اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني في شهر آذار مارس 1977، بهذا الصدد واضح: فنحن مستعدون للتعاون مع اليهود التقدميين والديمقراطيين أي أولئك الذين يعترفون بحقنا في تقرير المصير سواء أأقاموا داخل أو خارج الأراضي المحتلة وهذا هو قصارى ما نستطيع التسلم به اليوم، بالنظر إلى ميزان القوى المحلي والشرق أوسطي والدولي. أما المضي إلى ما وراء هذه الحدود، فإنه لا يمكن أن يقود إلا إلى الاستسلام كما أثبتت ذلك نتائج مؤتمر كامب ديفيد بوضوح لا مزيد بعده.

وكان على الرئيس المصري أن يتوقف عن مواصلة التفاوض بمجرد أن وعى نوايا ومقاصد محادثيه. ولو أنه قدم استقالته بعد أن يحرر بياناً بفشله ويندد بتعنت وسوء نية القادة

الصهاينة وعجز كارتر عن إكراههم على مزيد من الليونة، إذن لكان استعاد كرامته وشرفه. ولكنت حينذاك أول من يذهب إلى القاهرة لتهنئته ومطالبته بالبقاء في السلطة فالخطأ أمر إنساني، أما الاستمرار عليه، في هذه الحالة فهو إجرام. لكن السادات بدفاعه عن مصالح أنانية ضيقة فضل التضحية بالسلام، عنيت السلام الحقيقي، على مذبح كبريائه. أما نحن، فإننا كنا منطقين إزاء مبادئنا وتحليلاتنا. فرفضنا الذهاب إلى «اجتماع الخبراء» الذي عقد في القاهرة في شهر كانون الأول . ديسمبر 1977، قبيل «قمة» الإسماعيلية. ويومها انتقد القادة المصريون رفضنا هذا بمراءاة ونفاق. زاعمين أنه يسهم في فشل الاجتماع. وكجواب على ذلك، أورد فقط ما قاله رئيس الوزراء اللبناني السابق، رشيد كرامي للسادات: «فإذا كنتم لم تتوصلوا إلى رفع العلم الفلسطيني فوق مينا هاوس (الفندق الذي اجتمع فيه الخبراء) فكيف يمكن أن تؤملوا في جمع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية وممثلي إسرائيل مواجهة؟».

وبالمقابل فإننا وافقنا بحماس على الاشتراك في مؤتمر طرابلس الذي عقد في 2 كانون الأول . سبتمبر بمبادرة من العقيد القذافي، وبهدف تشكيل جبهة من البلدان العربية المعادية لمبادرة السادات: هي ليبيا والجزائر وسوريا والعراق وجمهورية اليمن الديمقراطية. غير أن المؤتمر كان يوشك بأن ينتهي إلى فشل كبير إذا لم يتوصل المشاركون فيه إلى تأليف جبهة موجهة ضد السياسة المصرية. ولهذا فإنني جمعت جميع القادة الفدائيين الحاضرين لأحثهم على اعداد برنامج مشترك، نقدمه إلى رؤساء الدول العربية ونطلب إليهم بإلحاح إلا ينفصلوا قبل أن يخلقوا جبهة تأسس على اجماعنا. ووفق حبش على أن تدعو الوثيقة إلى إنشاء دولة فلسطينية «على كل جزء من الوطن المحرر». ووافقت أنا، بمقابل تنازله هذا، على أطروحته التي تقضي بألا تتفاوض منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل وألا تعترف بها قانونياً.

وهكذا ولد «برنامج طرابلس» الذي أعلن على أساسه قيام جبهة «الصمود والتصدي» في العاصمة الليبية برغم انسحاب الوفد العراقي احتجاجاً. ونتيجة لخطأ السادات وحلفائه الأميركيين، فإنه لم يكن لنا خيار غير تصليب مواقفنا. وماذا يسعنا أن نفعل غير ذلك؟ أفنحتذي أمثولة الرئيس المصري، إنه حتى لو زحف قادة المقاومة جميعاً، وعلى رأسهم ياسر عرفات وجورج حبش، على قدمي بيغن يتضرعون له بأن يمنحنا دويلة، فإن زعيم الليكود سيلقيهم في السجن، هذا إذا لم يعدمهم. فمهما فعلنا ومهما قلنا، فإن الصهاينة ينظرون إلينا كأعداء خطرين. فهل تراهم يريدون السلام؟! إنهم لم يستجيبوا لمطالب الحد الأدنى التي تقدم بها السادات، مع أنهم يثقون به. ونحن نعلم أنهم لا يسعون إلى عقد تسوية عادلة طالما ظلوا يتمتعون بدعم

الولايات المتحدة المطلق، التي تزود إسرائيل بكل ما تحتاج إليه «من الرغيف إلى المدفع» وفقاً لتعبير السادات نفسه.

فكيف إذا إلى الوثوق بالأميركيين!؟ صحيح أن كارتر كان أكثر صراحة ولا ريب في أسلافه فيما عنى حق الشعب الفلسطيني في وطن، ولكن مصطلح «أرض وطنية» أو حيز وطني الذي استخدمه، هو مصطلح غامض. فلا هو حدد مكان الأرض أو الإقليم الذي سوف يسند إلينا ولا نطاقه ولا حدوده. ومع هذا فإنه لم يلبث أن ينكفئ على عقبيه ويتراجع فلا يتكلم عن حقوقنا ولا عن الحيز القومي ولا عن اشتراكنا في أية مفاوضات محتلمة. وسريعاً ما أدركنا أنه ليس لنا أن ننتظر منه أي شيء. فالرئيس الأميركي الحالي مقيد بالتعهدات التي قطعها سلفه فورد، ووزيره كيسنجر إزاء إسرائيل بموجب ثلاثة نصوص سرية أدخلت على شكل ملاحق في اتفاقية سيناء الموقعة في أول أيلول . سبتمبر 1975. وتشرط هذه النصوص عدم جواز توسيع مؤتمر جنيف وفتح بابه أمام مشاركين جدد، دون موافقة إسرائيل وبأنه لا يحق للولايات المتحدة من جهة أخرى، أن تتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية قبل أن توافق المنظمة على القرار 242.

وقد طلب إلينا وزير الخارجية الأميركية . سايروس فانس خلال جولته في الشرق الأوسط في شهر آب . أغسطس 1977 . بواسطة مختلف البلدان العربية . أن نوافق على القرار المذكور كما هو، مع احتمال أن ننشر إعلاناً بتحفظاتنا على محتواه. فاطرحنا العرض، باعتبار أن مسعى من جانب واحد كهذا، لن تكون له أية قيمة قانونية. وقد تقدم بعض من رفاقي باقتراح مضاد ينص على تعديل نص القرار بالصيغة التي أقرته فيها المنظمة الدولية إلا أن واشنطن رفضت ذلك بدورها. وفيما عناني شخصياً، فإنني كنت ضد هذه المساومة. وكان رأيي هو أنه إذا كان مجرد الحوار مع الولايات المتحدة يقتضي تنازلاً منا بحجم قبول منظمة التحرير الفلسطينية بالقرار 242، فأية تنازلات إضافية أخرى سوف تطلب منا بمقابل القبول بنا في مؤتمر جنيف والاعتراف بحقوقنا الوطنية!. فالمنحدر هاوٍ ويمكن أن ينزلق بنا بعيداً جداً.

وكان ينبغي لنا في رأيي ألا نبتعد عن خط مسلك حلفائنا ولا سيما الاتحاد السوفياتي، والبلدان العربية الصديقة وعلى رأسها سوريا. فنحن نملك القليل من الأوراق في هذه اللعبة. واحدى هذه الأوراق هي «رفضنا الإيجابي» للقرار 242 . ثم أنه أولى بنا أن نخلط أوراقنا بأوراق حلفائنا، بدلاً من أن تتخلى عنها للخصم. فبهذا فقط نستطيع تغيير ميزان القوى تدريجياً لصالحنا. ونحن نجد دائماً المتسع اللازم من القوت لنقوم بتنازلات في ظرف يكون من شأنه أن يجعلها مجزية وذات مردود.

وجاءت «أوراق العمل» التي أعدت في شهر تشرين الأول . أكتوبر 1977 على يد الولايات المتحدة وإسرائيل لفتح الطريق أمام الدعوة إلى مؤتمر جنيف، لتؤكد قناعاتي. فالأميركيون والإسرائيليون سعوا إلى تحجيم المشكلة الفلسطينية وتقليصها إلى مجرد مشكلة لاجئين وتعويضات وفقاً لحرفية وروحية القرار 242. ولم يكن للإجراءات «الجغرافية» التي تؤخذها للمؤتمر من هدف سوى إقامة مفاوضات موازية بين الدولة الصهيونية من جهة، وبين مصر وسوريا والأردن من جهة ثانية. بحيث تقود إلى معاهدات سلام منفصلة. وها هي اتفاقيات كامب ديفيد تؤكد تحليلاتنا. وهكذا فإن شعار الإمبريالية البريطانية، فرق تسد، بات شعار المستوطنين الإسرائيليين وشركائهم الأميركيين. ثم إنهم استبعدوا الاتحاد السوفياتي، حليفنا الأول على المسرح الدولي، عن مسيرة السلام لكي يتمكنوا من تحقيق مشروعهم دون أن يعيقهم عائق.. وأنا لست من أولئك الذين يعتقدون أن إسرائيل مجرد جرم يدور في فلك الولايات المتحدة، أو أن واشنطن، على العكس من ذلك، تنفذ سياسة القادة الصهاينة حرفياً. كما لا أعتقد أن مصالح البلدين متطابقة دائماً وأبداً غير أني أرى أن كارتر مضطر ومكره، برغم تبايناته مع الصهاينة، إلى أن ينصاع لإرادة بيغن. فهو يتعرض من جهة أولى لضغط الجماعة الضاغطة (اللوبي) الصهيونية، بينما يجد من جهة أخرى الدول العربية صاحبة الاحتياطي النفطي تراعيه وتداريه. فقد تعهدت العربية السعودية عام 1977 بتموين الولايات المتحدة بالطاقة لمدة خمس سنوات، والتزمت بالعمل داخل منظمة البلدان العربية شاءت أو أبت، لن تلجأ بعد إلى سلاح النفط، الذي استخدمته استخداماً ضعيفاً عامي 1973– 1974.

إلا أن استراتيجي واشنطن يرمون إلى أبعد من ذلك بكثير. فهم يريدون إنشاء حزام واسع خاضع لسيطرتهم يمتد من إيران إلى المغرب مروراً بمصر. والحال هو أن عدداً من حكومات هذا الامتداد الجغرافي لا يواتيهم ولا تناسبهم. وهم يحلمون باستبدال شيوخ النفط بأنظمة أكثر عصرية وبالتالي أكثر صلابة بحيث تعمد إلى توزيع أفضل للثروة القومية. لهذا فإنني لن أدهش إذا ما عمدوا إلى تدبير انقلابات، أو إذا لم يتح لهم ذلك استغلال قوة الجيوش الإيرانية والعمانية. وبهذا يتوصلون إلى ضمان المصالح الأميركية في هذه المنطقة من العالم لفترة طويلة. ثم في الحين نفسه، إلى ضمان مصالح إسرائيل، التي تظل مهما قيل عنها وفيها، الأداة المتميزة للامبريالية الأميركية. غير أن أعظم القوى العالمية هذه، ليست مطلقة القدرة والسلطان. فهي تملك، ولا ريب، وسائل فرض إرادتها على هذه الدولة العربية أو تلك، وأن تؤثر على سياسة رئيس كالسادات أو غيره، ممن يظل شاغلهم الأولي هو تأمين بقاء أنظمتهم أو استقرارها. لكن ماذا تراها تستطيع أن تفعل ضدنا نحن الفلسطينيين، ونحن لا وطن لدينا ولا دولة ولا نظام ندافع

عنه؟ إنها لا تستطيع أ، تؤثر علينا لأنه ليس لدينا ما نخسره، بل على العكس فإن مصلحتنا مواصلة المعركة بأية وسيلة من الوسائل التي تحوزها. أو لسنا نشبه في ذلك الريح؟ فنحن نعصي على الإمساك، حاضرون في كل مكان وفي لا مكان، ونكيف في الحين نفسه حرارة الجو المحيط. وإنما يخشى جانبنا بالضبط لأن لدينا ملكة إرسال هبات الرياح الساخنة والباردة على مجمل الشرق الأوسط. وبديهي أننا لن ندع كارتر وبيغن والسادات يدبرون سلماً مزعوماً يصادر مستقبل الشعب الفلسطيني. ولا بد لنا من أن نذكر الإسرائيليين بأنه لا طائلة في استبعادنا من التسوية، وأن نذكر العرب بأن من الخطر التضحية بنا على مذبح مصالحهم الأنانية.

وقد كان هذا هو الهدف السياسي المزدوج للعملية التي أطلق عليها اسم «أوتوبيس تل أبيب» والتي انتهت في الحادي عشر من آذار 1978 . رغماً عنا . بالمذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها مدنيون إسرائيليون ومعهم مناضلونا الفلسطينيون.

وقد كان طابع الهجمة التي أعددناها طابعاً عسكرياً تماماً في الأصل. فكان على نحو من خمسة عشر فدائياً أن ينزلوا سراً على أحد شواطئ تل أبيب حيث يفترض أن يلتقيهم أعضاء المقاومة في الداخل. وعندها تتجه المجموعة نحو مخيم تدريب الجيش في الضاحية القريبة وتحاول الاستيلاء على جنود الحامية بهدف مبادلتهم بعدد مواز من المعتقلين الفلسطينيين. غير أن الطبيعة شاءت غير ذلك. ذلك أن عاصفة منعت الزورقين اللذين عاد أدراجه بينما حمل الموج الزورق الثاني وأرساه على بعد 40 كيلو متراً إلى الشمال من تل أبيب على مقربة من مرفأ حيفا. وهكذا فإن الفدائيين لم يبلغوا ساحل فلسطين المحتلة إلا بعد تأخير بلغ ثلاثة أو أربعة أيام.

كانت المجموعة المكونة من 11 شخصاً وتقودها مناضلة شابة نجت من جحيم تل الزعتر، تدعى دلال المغربي. وكانت دلال تناهز العشرين من العمر وتفيض تفاؤلاً وفرحاً بالحياة وتوقداً. وما كانت تثير المحنة التي مرت بها إلا لتعبير عن استفظاعها للحرب. إلا أنها كانت مقتنعة أيضاً بضرورة نقل المعركة إلى الأراضي المحتلة. وإذ وجدت نفسها تواجه وضعاً لم يكن في الحسبان فإنه كان عليها أن تضطلع بمسؤولية ارتجال خطة بديلة للعمل الذي ينبغي للمجموعة التي تقودها تنفيذه. وليس لي أن أدلي بحكم على قرارات اتخذت في ظروف استثنائية في صعوبتها، إلا أني استطيع أن أشهد على أساس المعلومات الواضحة التي تلقيناها بأن دلال المغربي وصحابتها أرادوا تلافي أية إراقة للدم. وكانوا يعرفون تماماً أن موت المدنيين سيستغل كالعادة، من قبل إسرائيل لتقديم المقاومة على أنها «عصابة قتلة». غير أنهم لاعتقادهم بأن

الصهاينة لن يجرؤوا على إطلاق النار على مواطنيهم، فإنهم استولوا على أوتوبيس وركابه ليؤمنوا لأنفسهم جواز مرور حتى تل أبيب.

وقد أسهبت الصحافة العالمية وأفاضت في سرد ما تلي ذلك من أحداث: فقد أقامت دوائر الأمن الإسرائيلية حواجز على طريق حيفا . تل أبيب قبل أن تفتح النار ببرودة أعصاب تامة على الأوتوبيس فترده بعض الركاب وعددا من الذين كانوا يمرون بسياراتهم في الاتجاه المقابل. وهكذا فقد تسببت بحدوث المعركة ومن ثم بالمجزرة التي تلتها: وكان أن سقطت دلال المغربي وثمانية من صحابتها بعد أن طالت المجزرة ثلاثين من الإسرائيليين. والحق أن الخاتمة المأساوية التي انتهت إليها المغامرة لم تدهشني. ففي عمليتين مماثلتين سبقتا عملة تل أبيت . كعملية الألعاب الأولمبية في ميونيخ لعام 1972 على سبيل المثال فضلت الحكومة الصهيونية التضحية بمواطنيها على أن تدعنا نسجل نجاحا سياسيا. وقد فسرت السيدة غولدا مئير في الفترة التي كانت ترأس فيها الحكومة الإسرائيلية، بواعث هذا السلوك غير الإنساني بقولها إنه إذا كان عليها أن تذعن حتى ولو مرة واحدة لابتزاز الفلسطينيين، فإن شيئا ما لن يمنع هؤلاء من المطالبة ذات يوم بأن يسلم رئيس وزراء إسرائيل إليهم مقابل الإفراج عن مجموعة من الرهائن.

وقد يكون في المستطاع عند الاقتضاء أن نفهم أن لم نوافق على هذه الحسابات التي لا وازع فيها. إلا أن صلافة القادة الإسرائيليين تبلغ شأوا شاهقاً عندما يطالبون، كما فعلوا أثر قضية أوتوبيس تل أبيب، كافة الحكومات الغربية التي اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية بأن تقطع كل علاقة معنا. أو عندما يتبنى الكنيست في آذار . مارس 1978 بالإجماع (باستثناء أصوات الشيوعيين) قرارا يبيح للدوائر الإسرائيلية قتل الفلسطينيين في كل مكان من العالم تحت غطاء «مكافحة الإرهاب». إن إضفاء الطابع الشرعي والمؤسسي على اغتيال الأعداء السياسيين، بل وأفراد جماعة قومية مناوئة هو أمر لا سابق له في التاريخ حتى في ظل الأنظمة الفاشية . اللهم إلا السهو والخطأ.

وكذلك فإن عملية 11 مارس . آذار اتخذت كذريعة للقيام بعد ذلك بثلاثة أيام بهجمة واسعة النطاق ضد جنوب لبنان. وأقول ذريعة لأننا كنا قد تلقينا قبيل ذلك بشهرين تقريرا من أصدقائنا في الولايات المتحدة يطلعنا على مشروع السيد بيغن بتدمير بنانا التحية العسكرية والسياسية خلال حرب خاطفة تدوم بين 24 و 48 ساعة. وقد صممت العملية لإيقاع هزيمة بالفلسطينيين تكون من التمام والكمال بقدر ما كانت عليه الهزيمة التي أوقعتها بالبلدان العربية في حزيران . يونيه 1967. وكنا نعلم كذلك . منذ مطلع تشرين الثاني . نوفمبر 1977، إن

السلطات الصهيونية تلح على حكومة بيرون لكي لا يدخل الجيش اللبناني إلى المناطق الحدودية التي يشرف عليها صنيعتهم المقدم سعد حداد وميليشيات أقصي اليمين المسيحي. ولم تحقق إسرائيل بغزوها وباحتلالها لجنوب لبنا إلا جزءا ضئيلا من أهدافها. فقد نجحت ولا ريب في الحفاظ حتى خريف عام 1977 على الأقل، «بحزام أمني» على طول الحدود بعرض نحو من عشرة كيلومترات. كما حصلت على مرابطة قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان. إلا أن بيغن فشل في المسألة الأساسية. فالهزيمة الصاعقة التي حلم بها لم تحدث: ذلك أن أداء ملفتا للنظر وفعالا في أغلب الأحيان. وبرغم الطيران والمدفعية الثقيلة والقنابل الانشطارية والثلاثين ألف جندي من المشاة، فإن الجيش الإسرائيلي اجتاح بانتظام ولم تقع بهم سوى خسائر طفيفة في الأرواح والعتاد.

والأمر الأساسي هو أن الفلسطيني لم يلقوا «حزيران 1967» الذي وعدوا به. فقد بقيت قواتهم سليمة لم تمس بشأن وسائل عملهم، كما تشهد بذلك العمليات شبه اليومية التي لا تزال تنصب على المحتلين منذ ذاك. فلا وجود «القبعات الزرق» في جنوب لبنان ولا الحفاظ على الرقع الانعزالية على طول «الجدار الطيب» مع إسرائيل، منعت فدائيينا من بلوغ أهدافهم. وما تسعى إليه إسرائيل في الأساس وقبل كل شيء، هو استمرار عدم الاستقرار في لبنان وتواصل النزاعات المسلحة ليه. فمن شأن هذه الوضع في نظرها، أن يستنفذ أخصامها . السوريين والفلسطينيين واليسار اللبناني . في معارك هامشية توليها إمكانية التدخل باسم «الدفاع عن المسيحية» في كل مرة يواجه فيها بيغن مشكلة سياسية أو دبلوماسية شائكة كتلك التي طرحتها مبادرة السادات «السلمية».

غير أن الرئيس المصري فقد، قبل ذهابه إلى قمة كامب ديفيد، جزءا هاما من التعاطفات التي اجتذبها والتي أوهمته بأنه سيضع حدا نهائيا للنزاع العربي . الإسرائيلي. فزو إسرائيل لجنوب لبنان، جعله أضحوكة. أفلم يصرح لدى وصوله إلى القدس في تشرين الثاني 1977 أنه لن تكون حرب بعد بين (الدولة الصهيونية) وجيرانها. وها أن المصريين لاحظوا أنه لم يف بأي وعد من الوعد التي قطعها وأنه ليس ثمة سلام متوقع وأن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لا تني تتدهور في وادي النيل.

ومذ ذاك والولايات المتحدة وعدد من الدول العربية تحاول إنقاذه. فقد عرضت العربية السعودية تنظيم مؤتمر «قمة» تحت رعايتها يعيد مصر إلى الحظيرة العربية مشجعة على مصالحة السادات مع سوريا ومع منظمة التحرير الفلسطينية. غير أن الرئيس المصري رفض الإقرار جهارا بخطئه ليعلن فشل استراتيجية الدبلوماسية. إلا أنه تعهد بعد الموافقة على إجراء

لقاءات مصرية إسرائيلية في القاهرة أو في القدس وطرد البعثة العسكرية الإسرائيلية التي كانت مقيمة في العاصمة المصرية.

بيد أنه قام بمحاولتين لتلافي القطيعة الافلاسية مع بيغن: جاءت الأولى في شهر تموز . يوليو في مؤتمر ليدز حيث تمثل بوزير خارجيته، كما جاءت الثانية حين قبل بالاشتراك في اجتماع كامب ديفيد. فالرئيس الأميركي أيضاً تراوده أوهام حول عقلية رئيس الوزراء الإسرائيلي. وكلاهما يعتقدان بأن زعيم الليكود . الذي تأصل فيه الإرهاب والذي لا يؤمن بغير العنف . أهل لأن يتحول عن تعصبه المتصوف.

إن اتفاقيات كامب يفيد تشكل كارثة بالنسبة للقضية العربية إلا أنها كشفت أقنعة الأميركيين وحلفائهم الإسرائيليين بصورة نهائية. ولعل السادات لن يفقد السلطة قريبا. فأصدقاؤه العرب والأميركيون ووكالة المخابرات المركزية (السي. آي. إيه) بخاصة، تسهر على أمن نظامه بانتظار أن تجد له بديلا له بعض القيمة. غير أنه ألحق خلال ذلك بالقضية العربية أذى لا يمكن حسبانه وذلك لقيامه، بين جملة ما قام به، باستبعاد خيار الحرب. وقد قال لي الفريق الشاذلي، الذي كان رئيس أركانه إبان نزاع تشرين الأول . أكتوبر 1973، بعد أن تخلى عن وظيفته كسفير لمصر في لشبونة، في تموز . يوليو 1978، إن الخلاف مع الاتحاد السوفياتي أفسد الطاقات العملياتية لدى الجيش المصري، لجيل واحد على الأقل.

الخاتمة

دقت ساعة تقديم كشف الحساب. إذ قد مضت ثلاثون سنة على خروج الشعب الفلسطيني، وعشرون سنة على تأسيس فتح. ولا بد لي من الاعتراف، وبعميق المرارة با، وضعنا اليوم هو أسوأ من الوضع الذي دفعنا عام 1958 إلى إنشاء حركتنا. بل إنني أخشى حقا أن يكون لا بد من عود على بدء.

وبالطبع فإنني لا أنكر النجاحات المسجلة. فأنا فخور بشعبي بالتضحيات التي بذلها على ساحة المعركة ليحقق انتصارات في ساحة المعركة ضد عدو لم تعد قوته الساحقة بحاجة إلى برهان. أنا اعتز بالمنزلة التي تحتلها منظمة التحرير الفلسطينية على المسرح الدولي. فقد اعترفت بها غالبية الدول كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وانتزعت مقعد مراقب في منظمة الأمم الكفاح المضني والدائب لا يزال قدرا موجعا. فهو لا يزال بلا وطن ولا هوية. بل الحق هو أننا عدنا القهقري. فإسرائيل لم تعد تحتل نصف الأراضي الصهيونيين بل كلها وجميعها والولايات المتحدة ضامنة المشروع الصهيوني، وسعت نفوذها في العالم العربي وعززته. ومصر أكبر البلدان العربية وأعظمها نفوذا انهارت بالكامل في كامب ديفيد.

ثم إن الحركة الفلسطينية لم تعد تملك الوسائل التي كانت تحوزها عام 1967. فالهزيمة العربية لم تكن تمنعنا حينذاك من مواصلة وتكثيف الحرب الفدائية مفهمين الصهاينة بأن المعركة لم تنته برغم انتصارهم الباهر، رافعين بالتالي معنويات الجماهير العربية مطلقين بصيص نور في ظلمات الهزيمة والاحتلال. كانت لدينا ملاذاتنا التي نستطيع الانطلاق منها لشن غاراتنا ضد إسرائيل. والمهابة التي كنا نتمتع بها كانت تتيح لنا أن نمارس تأثيراً تحبنا بالأمس بأكثر مما تحبنا اليوم، إلا أنها كانت تخشانا يومها على الأقل، وتأخذ آراءنا بعين الاعتبار. وأستطيع أن أقول بكل تواضع بأننا أسهمنا في الإعداد النفسي لحرب تشرين الأول . أكتوبر 1973 واندلاعها، كما لم نكن غرباء عن زاع حزيران . يونيه 1967. وقد عرفت فتح برغم التقلبات والعوائق الموضوعة في طريقها، أن تحافظ على استقلالها الذاتي وأن تتلافى الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه من سبقونا على رأس الحركة الفلسطينية. وبهذا نكون قد سجلنا انتصارا بالنظر إلى تبعيتنا المالية واللوجستيكية إزاء البلدان العربية. ثم أننا حرصنا على توزيع مواردنا وعلاقاتنا مستفيدين من التناقضات السياسية الملازمة لوضع المنطقة ، فإننا توصلنا في بعض الأحيان إلى ممارسة إرادتنا بحرية.

غير أنه إذا كان من الصحيح أننا تلافينا الكثير من الأخطاء التي ارتكبها من سبقونا، فإن أخطاءنا نحن، وإن كانت أقل جسامة، قد ألحقت بنا أحيانا أضرارا لا سبيل لإصلاحها. فقد عقدنا تحالفات مع أنظمة عربية واعتبرناها تحالفات استراتيجية، لنكتشف بعد ذلك، وبعد أن ندفع الثمن، بأنها ليست سوق تحالفات عارضة جداً. فكان أن جرعنا ذلك خيبات أمل شديدة وفشلا غير متوقع. فقد حسبنا مثلا، أن مصر ستظل إلى جانبنا إلى الأبد!

ويضاف إلى هذا التقدير الخاطئ لحقائق العالم العربي حسابات خاطئة. فغالبا ما كنا نعتقد ازاء ظرف من ظروف النزاع في بلد عربي ما ، أن من الخير لنا أن نحافظ على علاقاتنا مع النظام القائم على حساب علاقاتنا بالجماهير الرافضة له، مزدرين بذلك المبدأ الذي كان ينبغي له أن يقود خطانا، عنيت المبدأ القائل أن المصدر الحقيقي لقوتنا إنما يكمن في التعاطفات الشعبية التي تثيرها بأكثر مما يكمن أحيانا علاقات سرية متكتمة موازية مع حركات المعارضة، إلا أنها لم تكن تتناهى إلى علم الرأي العام، فكان يخرج بانطباع مفاده أننا نطبق سياسة انتهازية.

بل لنقل بصراحة، أن دخول فتح عام 1968 إلى منظمة التحرير الفلسطينية قد أفسد عليها طابعها الثوري. إذ أن أكثر ما كنا نخشاه حينذاك وما كان يثير تحفظاتنا قد حدث: فحركتنا غلبت لعيها البيروقراطية. وخسرت من النضالية ما ربحته في «الاحترام»: فقد بتنا نتذوق التفاوض مع الحكومات ورجال السلطة ونأخذ آراءهم وتمنياتهم بعين الاعتبار. ثم إننا أخلينا بين أنفسنا وبين الانزلاق في تعرجات العلاقات العربية مشتغلين، طائعين أو كارهين، بالسياسة، بالمعنى السيئ للكلمة. ولخشيتنا من أن يتهمنا الدبلوماسيون المحترفون، الحسنو النوايا إلى هذه الحد أو ذاك، «بالإرهابية» و «التطرف» و«المغامرة» فإننا كنا نسرع لنثبت بأي ثمن كان، «اعتدالنا» و «مرونتنا» و «روحية التوفيق والمصالحة» لدينا، ناسين أن ذلك لا يحتل من حيث المبدأ، مرتبة الأولوية في دعوتنا ورسالتنا.

ومذ ذاك بات الراءون ينظرون إلينا كسياسيين بأكثر مما ينظرون إلينا كثوريين. وبطبيعة الحال فأن هذه الطفرة التي حلت بصورتنا قد أضرت بنا في وسط الجماهير العربية التي كانت منا شيئاً آخر. إلا أنها لم تعوضنا بتعاطفات لها شأنه بين الأوروبيين والأميركيين. ويقينا أننا بخلاف أعدائنا الصهاينة، لم نكن نملك لا الوسائل ولا التجارب الضرورية في حقل العلاقات العامة. غير أن السبب الرئيس لفشلنا إنما يكمن في جهلنا للمجتمع الغربي ولتعقيد الآليات الديمقراطية التي تحكمه. فنحن لا نحسن في غالب الأحيان التمييز . وخاصة بالنسبة للولايات المتحدة . بين السياسة الامبريالية التي تمارسها حكومة من الحكومات وبين البواعث الشريفة في ذاتها، والتي تصوغ وتقولب موقف الشعب إزاءنا. إن أمثال هذه الخلط والتشوش هو ما يفضي بنا

إلى اتخاذ مبادرات من شأنها أن تزيد من نفوذ الرأي العام الغربي منا، أو إلى اللواذ بسلبية اليأس.

كما أننا من الجهة الأخرى لم نعرف كيف نوحد الحركة الفلسطينية أو على الأقل، أن نحد من تجزئها بأقصى ما يمكن. وبطبيعة الحال فإن هناك أسبابا موضوعية تمنعنا من تحقيق هدفنا هذه. لقد تصورنا فتح لدى تأسيسها كجبهة تهدف إلى تجمع الفلسطينيين بدون تمييز لإيديولوجياتهم أو لنزعاتهم السياسية. ولم يكن في وسعنا إكراه قادة أصيلين كجورج حبش أو نايف حواتمه على الانضمام إلى صفوفنا أو منعهم من إنشاء منظماتهم . اللهم إلا أن نعند إلى استخدام القوة، الأمر الذي لا يمكن أن يرد في تصورنا. غير أنه كان في مقدورنا تماما أن نعارض معارضة حازمة وجود فصائل تختلقها الأنظمة العربية اختلافا لتستخدمها كأدوات سياسية أو عسكرية. وإذا كان يستحيل اليوم . نظراً إلى ميزان القوى الحالي، أن تتطلب استبعاد هذه الفصائل من منظمة التحرير الفلسطينية أو حلها بالكامل. إلا أنه كان في وسعنا إظهار معارضة حازمة لدى إنشائها بعيد هزيمة حزيران . يونيه 1967 أي في الفترة التي كانت الأنظمة العربية فيها مهزومة وضعيفة ويصعب عليها مقاومة أرادتنا.

ثم إن هذه المنظمات . الدمى لم تضعف المقاومة الفلسطينية بتقليص تماسكها وإضعاف فعالية عملها، وحسب، بل إنها لعبت في بعض الأحيان دورا سلبيا وحاسما. فقد أفلحت ، بالمزايدات التي كانت تمارسها، والاستفزازات التي كانت تقوم بها، والدعم الأجنبي الذي كانت تفيد منه، في اقتيادنا إلى مغامرات كان بوسعنا تلافيها. وتلك ظاهرة لها أكثر من مثيل. ويكفي أن نتناول مثالا قريب التناول، من حقل العلاقات الدولية حتى نجد أنه لا يندر أن يتوصل بلد صغير لا شأن له، إلى أن يفرض على قوة عظمى حليفة ل سياسة مضرة بها. صحيح أننا تمكنا في أكثر من مرة، مقاومة الضغوط التي كنا نتعرض لها. فبعيد دخول قوة الردع العربية إلى لبنان في خريف عام 1967 مثلا، حاولت منظمة الصاعقة السورية الولاء، إن تقنعنا بتصفية فصائل الرفض التي كان بعضها مرتبطا بالنظام العراقي. وكان قوام لاقتراح أن تتولى عملية التصفية فتح أو الصاعقة أو أن تتولى المنظمتان معا القيام بهذه العملية مشتركتين. فرفضنا الصيغ الثلاث المقترحة جميعها، ليس لأننا لا نزال متعلقين بالحوار الديمقراطي بين المنظمات الفلسطينية وحسب، بل لأننا لا نريد أن نتورط في عمليات تسوية الحسابات بين الأنظمة العربية المتنافسة.

ثم إننا نحن العرب سريعون عموما إلى الصباح باتهام الامبريالية كلما انفجرت معارك هامشية تنعطف بنا عن هدفنا الرئيسي، هدف محاربة الصهاينة، أو بصورة أكثر عمومية عن

محاربة الاستعمار. إلا أن هذا لا يمنعنا مطلقا لسوء الحظ، عن الانزلاق بكثير من الخفة إلى المعركة التي نندد بالضبط بطابعها المضر. وهكذا مثلا، فقد تواجه السوريون والفلسطينيون مثلا بالسلاح في لبنان طلية أشهر، أمام رضى وارتياح الأميركيين والإسرائيليين العظيم.

غير أن شططنا وعوراتنا وأخطاءنا لا تكفي لتفسير الموقف الدقيق الذي تجد المقاومة نفسها فيه. ولا بد أن يقال إبراء لنا أننا اضطلعنا بمهمة لا سابق لها في صعوباتها في التاريخ. فنحن نقود حركة لا يمكن لها أن تتمتع، بحكم الأشياء، بقواعد متماسكة. فالشعب الذي نسعى لتعبئته وقيادته هو شعب مبعثر جغرافيا متغاير نفسانيا، ومتنافر سياسيا، فالفلسطينيون يعيشون في ظل أنظمة سياسية واجتماعية مختلفة وأحيانا متناقضة، وتؤثر بالضرورة على تصوراتهم: وهم يخضعون للنزاعات التي تقوم بين الدولة والمقاومة بحيث أنه ليس له في الحالة سوى خيار واحد هو خيار الانضواء طواعية أو كرها تحت الأطروحات الرسمية أو اللواذ بحياد ظاهر ليفلتوا من ردود الفعل الانتقامية المحتملة.

ونحن مجبرون من جهتنا على مهاودة الحكومات العربية لنعفي مواطنينا من هذه المخاطر، ومضطرون لإغماض أعيننا عن السلوك غير الودي الذي كنا لولا هذه الناحية سننهض ضده. وهذا الأمر يحد بصورة ما من حريتنا في الحركة. وعلى هذا فإنه لا ينبغي الاندهاش من حجم ومدى المواقف الظاهرة التناقض التي تتبناها وفقا لهوية من نتفاوض معه من هذا النظام العربي أو ذاك. فنحن أشبه بالمسافر الذي ينتقل من نصف المعمورة إلى نصفها الآخر فيضطر لاصطحاب أمتعة الشتاء وثياب الصيف ليحمي نفسه من المناخات الشديدة الاختلاف. وتلك ليست انتهازية كما يتهمنا البعض، بل تدابير حماية ذات. وثمة تجارب مريرة تدعونا إلى التروي. وأحب هنا أن أورد كمثال للتدليل على قولي، حادثا لا يزال يتسلط على ذاكرتي. فعلى إثر نزاع حدث بين عبد الناصر والملك سعود عام 1957، طلب عبد الناصر من المجلس التشريعي الفلسطيني في غزة الذي لم يكن سوى زائدة ملحقة بالسلطة المصرية، أن يتبنى قرارا ينتقد العاهل السعودي. فكان أن رد الملك لفوره بطرد المعلمين الفلسطينيين العاملين في مملكته. وهكذا فإن 700000 شخص بينهم أطفال ونساء فقدوا دورهم ومواردهم مرة أخرى. هذا مع أن الملك سعود كان يعلم أتم العلم أن مجلس غزة التشريعي لم يكن أكثر من منفذ للتعليمات الواردة من القاهرة. ولا ريب في أن انتقامه كان سيكون أقسى ألف مرة فيما لو أن النقد جاءه من منظمة ذات استقلال ذاتي كفتح. أقول هذا لأشير إلى مدى الجهود التي نبذلها لنتلافى الصدام مع هذا النظام العربي أو ذاك عندما لا يكون موضوع اختلافنا معه مسألة حاسمة أو قضية أساسية بطبيعة الحال.

وقد نكون أقرب إلى الإفهام إذا قلنا أن كل فلسطيني يطمع قبل كل شيء إلى ملاذ أمين بالغا ما بلغ صغره، وإلى قنصلية يستطيع اللجوء إليها إذا ما أوذي أو هدد. أفنكون أقل أهلية وأحقية من مواطني إمارة من إمارات الخليج؟ إن غالبية الدول العربية ترفض منح مواطنيتها للفلسطينيين. لا بأس. فنحن لا نشكو ذلك ولا نتظلم منه. إذ لعلها تولينا خدمة على غير قصد منها. لأنها تسهم بذلك في الحفاظ على أصالتنا وتعزز عزمنا على إيجاد وطن. وفي اليوم الذي نفحل فيه في إقامة دولة في أراضي الضفة الغربية وغزة المحررة، فإننا سنبدأ بتوزيع بطاقات الهوية. ومن المكن أن يقرر كثير من الفلسطينيين أن لا يقيموا في الدولة الجديدة لأسباب عملية. لكن ما هم! فهم يستطيعون إن يعيشوا في البلد العربي الذي يختارون بدون قلق ولا عقد! إذ أنهم سيعاملون أخيراً على قدم المساواة مع كافة من يملكون جواز سفر يعرضونه للناظرين؟ وإذا ما شعروا لسبب أو لآخر بتهديد يتهددهم، فإنهم يستطيعون أبدا أن يحزموا أمتعتهم ويعودوا إلى فلسطين حيث لا يعاملون كمنبوذين. إن نصف الشعب اللبناني يعيش خارج وطنه إلا أن أحدا لم ينكر عليه حقه في إقامة دولة.

إن الحجيج التي يقدمها أولئك الذين ينكرون علينا هذه الحق هي «شبهة» حجج. فهم يقولون أن دويلة فلسطينية ليست سوى كيان غير قابل للحياة اقتصاديا. وهم يتناسون أن عددا من الأمم الشابة التي نالت استقلالها منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة لا تملك ما نملكه من نعم ومزايا. فلدى الفلسطينيين يد عاملة وفيرة وفائض من التقنيين والكوادر الذين انهوا دراساتهم العليا في الخارج، وبرجوازية غنية بالرسايل، وهم يستطيعون الاعتماد على معونة مالية ضخمة تأتيهم من الدول المنتجة للنفط. ونحن على أي حال أكثر «قابلية للحياة» من دولة إسرائيلي نفسها بكثير.

ويذهب أعداؤنا كذلك إلى أن دويلة كهذه ستصبح ضربا من القاعدة الشيوعية المزروعة في قلب المنطقة ومنطلقا ينطلق منه الإرهابيون لمناوشة إسرائيلي وإزعاجها. إن هذه الادعاءات مضحكة. فنحن كما يعمل القاصي والداني لسنا بشيوعيين. والماركسيون بيننا قلة قليلة. بل إننا جميعاً وكائنا ما كانت نزعاتنا السياسية وطنيون غيورون يدافعوا رغم الكافة وضدها عن الاستقلال والسيادة الوطنية العتيدة.

ثم هل ترانا نشكل تهديدا لإسرائيل. أليس أن من أكثر الأمور مفارقة، بادئ ذي بدء، أن تزعم القوة العسكرية الرئيسية في المنطقة والتي تهدد عشرين دولة عربية مجتمعة، بأن الدويلة الجارة تستطيع ان تتهددها في أمنها ووجودها؟ بل إني أقول من جانبي أنه لن تكون هناك نشاطات تخريبية فلسطينية في اليوم الذي يكون لدينا فيه دولة نقودها، ثم وبخاصة ، نحافظ

عليها.وسيختفي التطرف من صفوفنا وحتى من صفوف «جبهة الرفض» أن جورج حبش مثلا لن ينكل عن أفكاره، ولكن معارضته ستحترم المؤسسات وتوقر القوانين التي سيختارها الفلسطينيون. وهو لن يلجأ إلى العنف انتصارا لآرائه. ولن يتصرف بصورة مختلفة عن قادة التشكيلات الإسرائيلية التي تنكر الصهيونية مثل الحزب الشيوعي راكاح أو التي تنكر شرعية دولة يهودية (مثل إحبار ناتوراي كارتا). وتلك ليست أمنية تقية أتمناها بل هي كلام عارف مجرب. فأنا لا أعرف عمق الوطنية والحس بالمسؤولية لدى رفاقي وحسب، بل ولدى أخصامنا السياسيين في داخل الحركة الفلسطينية.

وإذا كان للعقل أن يتغلب على مطامع المتطرفين الإسرائيليين في الأراضي، وإذا كان السلام . اعني السلام العادل لا سلام كامب يفيد . سيقومن فإن من الطبيعي أن تنفتح الحدود بين إسرائيل وجيرانها العرب. ومن الطبيعي والمنطقي أي يبدأ تيار مبادلات ثم ينمي، بين كيانين يكمل بعضهما بعضا في أكثر من جانب. وكيف يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك . فيما يعنيني على الأقل . عندما يكون نحو من 50000 فلسطيني يعيشون في إسرائيل (داخل حدود عام 1948) ويتطلعون إلى إقامة جسر مع أشقائهم الذين يعيشون في الضفة الغربية وغزة والمملكة الهاشمية وفيما وراء ذلك في مختلف الدول العربية؟

ونحن بصفتنا قادة الحركة الفلسطينية، لسنا معارضين من حيث المبدأ للحدود المفتوحة. فنحن لا نزال أوفياء لمثلنا . أو لحلمنا وفق لتعبير ياسر عرفات . الذي ينص على توحيد فلسطين في دولة علمانية ديمقراطية تضم اليهود والمسيحيين والمسلمين الذي يضربون بجذورهم في هذه الأرض المشتركة. والحال هو أن الحدود المفتوحة تقود حتما إلى الحوار ثم إلى التفاهم بهدف قيام مثل هذه التوحيد بحيث يحل بدلا من المواجهة القومية الصراع الطبقي الذي سيواجه بين الجماهير العربية واليهودية من جهة وبين المستغلين والامبرياليين من جهة أخرى: أي بين هذه الجماهير وبين أولئك الذي ولدوا الحقد بين شعبينا قبل أ ن يقودوهما إلى الحرب . إن العائق الذي يحول دون مثل هذا لتطور لا يقف في معسكرنا. لأن من لا يريد السلام الشامل ولانهائي هو حكومة إسرائيل. كما أن من يخشى الحدود المفتوحة هم قادتها المتطرفون الذي ينظرون إلى هذه الحدود كتهديد يتهدد تماسك الدولة الصهيونية وسياستها التوسعية. وعلى العكس من ذلك، فإنهم بتعميقهم الهوة بين شعبينا وبتعهدهم للتوترات، يؤمنون طواعية الإسرائيليين ويغذون خوفهم ويواصلون في الحين نفسه استيطان واستعمار ما يطلق عليه السيد بيغن اسم «يهودا والسامرة».

إن ما أوردناه وما أسلفناه لا يبعث على التفاؤل. ويقينا أن دوري كقائد ثوري هو أن أبث الأمل وأعزز بواعث شعبنا على مواصلة المعركة. إلا أن واجبي إلى ذلك هو عدم خداعه،

وتغذيته بالأوهام التي يفوق خطرها خطر خيبات الأمل الموجعة. وأنا أقولها بصراحة: أني لا أعتقد أن جيلي سيحظى بفرحة رؤية ولادة دولة مستقلة حتى على جزء متناهي الصغر من فلسطين إلا أني أوضح بأنني أرى شأن شعبي كله تقريبا . بأنه لا يمكن تصور دولة ذات سيادة حقيقية إلا إذا أسسها وحكمها أولئك الذين قادوا حركة التحرر الوطني منذ عشرين سنة. كما ولا يمكن إقامة سلام دائم بدون ممثلي الشعب الفلسطيني الحقيقيين. وبطبيعة الحال، فإن ليس ثمة أمر محتوم مسبق. فهناك من التقلبات والمتغيرات في الظرف الدولي وفي ظرف المنطقة بأكثر مما يمكننا من التنبؤ بالمستقبل. ولكنني أتمنى أن تكذب الأحداث تشاؤمي على المدى القصير أو المتوسط. وإذا كنت لا أستثني إمكان انتصار قريب إلا أنني لا استبعد فرضية حدوث كارثة أيضاً: عنيت شلل أو تدمير حركتنا وتلك لن تكون أول مرة ولا آخر مرة تنجح القوى الرجعية الجاهلية في إجهاض ثورة.

غير أن شعبنا سيلد ثورة جيدة وينجب حركة أعظم بأسا من حركتنا وقادة أكثر دراية وتجريبا واشد خطرا . من ثم . على الصهاينة. فإرادة الفلسطينيين التي لا ترد في مواصلة المعركة كائنا ما كانت الظروف، هي حقيقة لا تأتيها الريبة من بين يديها ولا من خلفها. بل إنها إرادة تمليها طبيعة الأشياء. ونحن عازمون على البقاء كشعب وسيكون لنا ذات يوم . وطن.

– انتهت –